السخرة

فى حفر قناة السويس

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى



الشناوى، عبد العزيز محمد.
السخرة فى حفر قناة السويس/ عبد العزيز محمد الشناوى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٤٠٠ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٤ ٧٢٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ قناة السويس ـ تاريخ.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٧٥٤/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -729 -4
ديوى٣٨٦,٤٣

السُّخْرة

فى حَفر قناة السُّويس

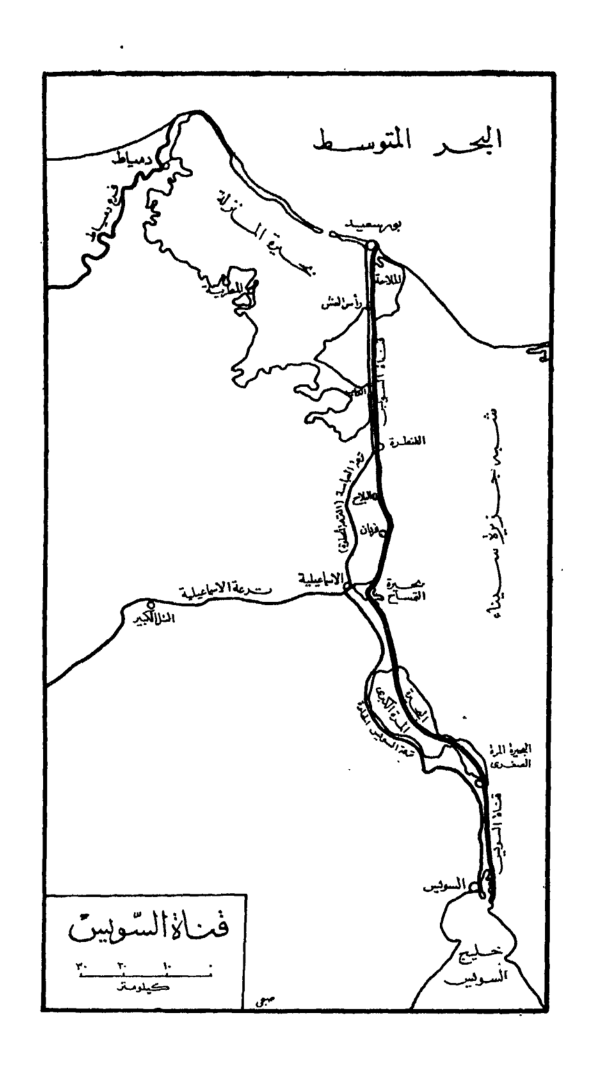
دكتور عبد العزيز محمد الشناوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

الاشراف الفنى

مادلين أيوب فرج


البحر المتوسط
دمياط
فرع دمياط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
رأس العش
القنطرة
البلاح
فردان
الاسماعيلية
بحيرة التمساح
ترعة الاسماعيلية
التل الكبير
البحيرة المرة الكبرى
البحيرة المرة الصغرى
قناة السويس
السويس
خليج السويس
شبه جزيرة سيناء
قناة السويس
٣٠ ٢٠ ١٠ ٠
كيلومتر
صبحي

محتويات الكتاب

الملاحق

المصادر

الخرائط

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفيائه

تجمعت فى سنة ١٩٣٨ نذر الحرب العالمية الثانية . وانقسمت أوربا إلى معسكرين ، تزعمت انجلترا وفرنسا المعسكر الأول ، وتصدرت الآخر ألمانيا وإيطاليا . وقد سبقت تلك النذر وصحبتها ثم لحقتها دعاية عريضة من الجانبين المتحفزين . وانطلقت الدعاية الإيطالية تندد بالسياسة الإنجليزية فى الشرق، ومن خلال تلك الدعاية وضحت تماما مقاصد إيطاليا الفاشستية : كانت تروم بعث الإمبراطورية الرومانية العتيدة . وأن تجعل من البحر المتوسط بحيرة إيطالية ، وتطلعت إلى لون من ألوان السيطرة على قناة السويس ، فطالبت بأن تشترك اشتراكا فعليا وبنصيب موفور فى إدارة القناة ، كما طالبت بتخفيض رسوم المرور فيها بعد أن ازداد عدد السفن الإيطالية على أثر استيلائها على الحبشة . ولم تقف ايطاليا عند هذا الحد بل طالبت بدولية القناة .

واستعانت الدعاية الإيطالية الفاشستية برجال التاريخ كى يثبتوا أن ايطاليا ليست متجنية أو مغالية فى مطالبها الخاصة بقناة السويس . فقرروا أن العبقرية الإيطالية قد أسهمت بنصيب موفور فى الأبحاث الخاصة بمشروع القناة ، وأن الإيطاليين قد أسدوا معاونة جليلة وفعالة فى ميدان التنفيذ العملى: لأن مهندسا ايطاليا يسمى ادوارد جويا Gioi تولى إدارة أعمال حفر القناة فى منطقة مرتفعات عتبة الجسر شمالى بحيرة التمساح ، وكانت تلك

المرتفعات أكبر عقبة طبيعية تعترض سير القناة، إذ كانت ترتفع ١٩,١٠ مترا عن سطح البحر ، ولأن أفواجا عديدة من الإيطاليين قد وفدوا إلى مصر منذ سنة ١٨٦٤ للعمل فى تنفيذ المشروع بعد إلغاء السخرة فى حفر القناة ، وأن أولئك الإيطاليين امتازوا بفضائل عدة منها الصبر وتحمل الشدائد والكفاية التى اشتهروا بها !!

وليس هنا مجال الرد على تلك الدعاية ولكن حسبنا أن نذكر أن أولئك الإيطاليين كانوا من المتعطلين فى بلادهم بل ومن ذوى الخلق السيئ . وقد ضج محافظ الإسكندرية بالشكوى من تصرفاتهم ، وقال إنهم لا يجدون المأوى يلجئون إليه ، ولا المأكل يقيم أودهم ،وإنهم قد أصبحوا مصدر خطر داهم على أهالى المدينة ، وإن قنصل إيطاليا أبدى رجاء حارا فى أن يدبر المحافظ لهم مبيتا بالمجان فى أحد المبانى الحكومية ريثما يتم ايجاد عمل لهم لدى مقاولى شركة القناة ومن ثم يرحلون عن الإسكندرية . ولكن خشى المحافظ إذا سمح لهم بالمبيت بالمجان أن يعجز عن إخراجهم من المبانى الحكومية (١) أما القول بأن مهندسا إيطاليا قد أدار بمهارة عمليات الحفر فى منطقة عتبة الجسر فقد تناست الدعاية الفاشستية تضحيات الشعب المصرى فى مجال التنفيذ العملى وتجاهلت أن ١٧٦٧٨٠ مصريا قد سخروا فى هذه المنطقة وحدها لإزالة هذه المرتفعات وحفر مجرى للقناة البحرية مكانها .

وقد ردت الدعاية الإنجليزية بدعاية مضادة تساير السياسة الإنجليزية ، وبين هاتين الدعايتين المتعارضتين كاد الناس ينسون أصحاب الفضل الأول فى تنفيذ مشروع قناة السويس ، وأصحاب القناة ، وأصحاب الأرض التى تمر فيها القناة !!

× × ×

فى ذلك الوقت كان اسمى مقيدا بقسم الماجستير فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، إذ كان العزم قد صح منى على أن أعد رسالة فى التاريخ الحديث

---

(١) أنظر ص ١٥ من هذا الكتاب

عن قناة السويس ، تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بالكلية ووكيلها وقتئذ . وكنت أسافر كل أسبوع من السويس إلى القاهرة لحضور المحاضرات التي كان يلقيها الأستاذ شفيق على طلبة الدكتوراه والماجستير . ولم يكن موضوع البحث قد حدد تحديداً واضحا دقيقا ، فقد سبقني إلى الكتابة فى تاريخ القناة إلى سنة ١٩٣٨ جمهرة من المؤرخين والباحثين ، ولكن ما كانت كثرتهم لتحول دون تناول جديد فى موضوع القناة .

وطلب منى الأستاذ شفيق أن أقرأ مجموعة حددها لى من المراجع الفرنسية والإنجليزية والأمريكية التي كتبت فى تاريخ القناة . ولما ناقشنى فيما قرأت بعد عدة شهور لم ترقه أية إجابة من إجاباتى العديدة ، وبعبارة أدق لم تكن من بينها الإجابة التي كان يبتغيها . ثم أفصح عن رأيه فقال إن المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ القناة قد تناولوه من زاوية واحدة معينة هى الزاوية الأوربية . فكتبوا عن تاريخ القناة باعتباره جزءا من تاريخ أوربا ومظهرا من مظاهر الصراع السياسى بين فرنسا وانجلترا فى القرن التاسع عشر ، وتركوا الناحية المصرية وهى الناحية الأصيلة فى الموضوع . فأغفلوا التضحيات الجسيمة المتعددة الألوان والأشكال والتي فرضت على الشعب المصرى لإنشاء القناة حتى غدت القناة بفضل هذه التضحيات حقيقة ماثلة وعنصرا بارزا فى ازدهار الحضارة فى أوربا . واقترح أن أتناول فى البحث جهود الشعب المصرى فى تنفيذ مشروع القناة ، فأتعرض لمشكلة الأيدى العاملة فى حفر القناة وجمع العمال المصريين وترحيلهم إلى منطقة القناة والأخطار التي تعرضوا لها فى ساحات الحفر من الموت عطشا وتفشى الأوبئة بينهم . وهكذا بدأت تبين بعض معالم البحث وتبدو فيه آفاق جديدة ، وتحدد موضوع البحث فغدا « السخرة فى حفر قناة السويس — عصر الوالى محمد سعيد » .

ولا أنكر أنى تهيبت أول الأمر الكتابة فى هذا الموضوع لسببين : أولا الشدة العلمية التي تميز بها الأستاذ محمد شفيق غربال بالنسبة لمعظم

أساتذة الكلية ، فهو يصر على مستوى رفيع جدا للرسائل التى تعد تحت إشرافه ، ولذلك لا يدخل فى حسابه أى اعتبار للزمن الذى يستغرقه إنجاز البحث . وإذا كانت لائحة الكلية وقتئذ قد حددت سنتين لإعداد رسالة الماجستير فلا بأس لديه إطلاقا — بل إن هذا مبدؤه — أن يمتد البحث سنين عديدة حتى يستكمل مقوماته ويستوفى عناصره وتتوفر جدته . وإنى لأذكر أن سنوات طوالا كانت تمر على كلية الآداب دون أن تناقش فيها رسالة واحدة فى التاريخ الحديث فى قسم الماجستير أو فى قسم الدكتوراه ، وذلك فى الوقت الذى كانت تتوالى مناقشة الرسائل الجامعية الأخرى . ولكن سرعان ما أدركت أنه ما كان لى أن أجزع طالما أنى ارتضيت الأستاذ شفيق مشرفا على الرسالة وتفضل مشكورا فقبل هذا الإشراف وإن شئت فقل هذا العبء . أما السبب الثانى فكان صعوبة الموضوع من حيث تشتت مادته وبعثرتها فى مصادر متباينة متباعدة من ناحية وصعوبة الوصول إلى بعضها من ناحية ثانية . وقد لمست طرفا من بعض تلك الصعوبات منذ أن تحدد موضوع البحث ، فمعظم المراجع الأجنبية لا تشير إليه إلا لماما وفى سياق موضوعات لاتمت إليه بصلة مباشرة . ولم يخف الأستاذ شفيق علىّ صعوبة الموضوع وكثيرا ما وجه نظرى إلى ذلك .

وبدأت أتردد على محفوظات قصر عابدين منذ سنة ١٩٤٠ ولشد ما دهشت أنه لم يكن فى محفوظات القصر إلى ذلك الوقت ملف واحد خاص بقناة السويس . وكانت وثائقها وأوراقها منذ أن نقلت من القلعة مبعثرة مختلطة بغيرها . ولذلك لم يكن العمل أمامى فى محفوظات القصر سهلا ميسرا . وكان يتعين على أن أبحث فى مجموعات هائلة من « محافظ المعية السنية » وفى دفاترها ، الصادرة والواردة ، وكان عدد تلك الدفاتر وحدها يزيد على مائة وعشرين دفترا ، وفى دفاتر الأقاليم الصادرة والواردة كذلك ، وفى دفاتر البرقيات التى كان يتلقاها قصر عابدين والبرقيات التى كانت تصدر عنه ، وفى مصدر هام آخر يسمى « محافظ عابدين » يضم المكاتبات التى تبودلت بين الحكومة التركية وولاة مصر من أسرة محمد على فى شئون

الحكم والسياسة والإدارة . وكان عدد لايستهان به من الوثائق والأوراق مدونا باللغة التركية ، وكان على أن أنتظر ريثما يعربها المترجمون الأتراك فى القصر . وقد اقتضى كل ذلك منى جهدا ووقتا امتدا سنوات طوالا .

وكان النظام المتبع فى محفوظات القصر هو أن تكتب نسختان من الوثائق والأوراق التى يعثر عليها الباحث ، فيأخذ نسخة منها لنفسه وتودع النسخة الأخرى ملفا يخصص للموضوع الذى يبحثه . وهكذا وعلى مر السنوات التى قضيتها فى البحث فى محفوظات القصر ، منذ سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٥٢ فى إعداد رسالتى الماجستير والدكتوراه ، كونت فى محفوظات قصر عابدين عدة ملفات ضخمة دسمة خاصة بموضوع القناة كانت مرجعا استقى منه الباحثون بعد ذلك .

وكان من أهم ما استحدث فى محفوظات قصر عابدين — مجموعات كاملة من صور المكاتبات التى كان يرسلها قناصل الدول فى مصر ، تارة إلى حكوماتهم ، وتارة إلى سفراء دولهم فى القسطنطينية . وكانت هذه الصور قد نسخت على الآلة الكاتبة فى وزارات خارجية تلك الدول باذن من رؤساء حكوماتها ، ونقلت الصور إلى قصر عابدين تمهيدا لإنشاء دار للمحفوظات التاريخية فى مصر . ولا يخفى أن مصر كانت محرومة فى ذلك الوقت من التمثيل السياسى ، وكان قناصل الدول الأجنبية فى مصر يمارسون سلطات واسعة ، ويوافون حكوماتهم بتقارير ضافية عن الأوضاع القائمة وقتئذ فى مصر محاولين إعطاء صورة حقيقية عن الحالة السائدة فى تلك الولاية العثمانية المهمة ، إذ لم يكد يبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى اشتد اتصال مصر بالسياسة الأوربية من ناحية ، وشرعت أوربا تنشىء لها فى مصر مصالح مباشرة من ناحية ثانية . فهذه التقارير تلقى ضوءا على فترة حافلة بالأحداث الجسام فى تاريخ مصر الحديث ، وهى فى مجموعها تعبر عن وجهات النظر المختلفة فى شتى المسائل المصرية . ولم يسمح لى بالإطلاع إلا على المكاتبات التى كان يبعث بها قنصل الولايات المتحدة إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنجتن وإلا على جزء يسير من تقارير

قنصل فرنسا فى مصر . ولم أستطع أن أتبين الحكمة فى حجب بقية التقارير عن الباحثين المصريين . ووضعها بأكملها تحت تصرف باحثين اثنين من الأجانب . وإذا افترضنا أن عمليات نسخ هذه المكاتبات قد تمت تحت إشرافها فى أوربا فإن الأموال المصرية هى التى أنفقت بسخاء على هذا العمل الذى كان من أهدافه تيسير وسائل البحث العلمى أمام المصريين والأجانب على السواء . ولا تثريب على موظفى المحفوظات التاريخية فى هذا المنع لأنهم كانوا ينفذون تعليمات كبار موظفى ديوان الملك السابق . ولعل هؤلاء السادة اعتقدوا أن هذين الباحثين هما المؤرخان الرسميان للقصر وأن ما يعطى لهما لا يجوز أن يمتد إلى غيرهما . وقد ظل هذا الحجاب الكثيف مضروبا على تلك المكاتبات حتى قامت ثورة مصر المباركة فى سنة ١٩٥٢ ففتحت الأبواب المغلقة على مصاريعها .

كتب هذان المؤرخان فى تاريخ مصر الحديث وتعرضا بطبيعة الحال إلى تاريخ القناة . وكان أحدهما هو المؤرخ الإيطالى الفاشستى انجلو ساماركو Angelo Sammarco عهد إليه الملك فؤاد بوضع كتاب باللغة الفرنسية يقع فى أربعة أجزاء عن تاريخ مصر الحديث منذ عهد محمد على إلى بدء الإحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ لقاء ثلاثة الآف جنيه (١) . وكان هذا المؤرخ يقحم فى مؤلفاته إقحاما أثر ايطاليا فى بناء مصر الحديثة ويبرز العلاقات الوثيقة التى ربطت بين الأسرتين المالكتين السابقتين فى مصر وإيطاليا . وبعد أن قامت الحرب العالمية الثانية أبعد عن مصر فرحل إلى

(١) أتيح لى بعد قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ أن أعثر فى محفوظات القصر على نص الإتفاق وقد وقع عليه محمد زكى الأبراشى (باشا) ناظر الخاصة الملكية سابقا وساماركو . وكان من أغرب ما تضمنه هذا الإتفاق أنه أعطى القصر الحق فى حذف الفصول أو الصفحات أو الفقرات التى لا تروق له . وهكذا كان يكتب تاريخ مصر ! ! ولم يظهر من هذا الكتاب إلا الجزء الثالث فى سنة ١٩٣٧ بإسم Histore de l'Egypte. Moderne. t. III. La Règne du Khédive Ismail de 1863 à 1875 وهو فى مجموعه ترديد لكتابه الذى وضعه فى مجموعة: Précis de l'histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. t. IV, Rome. 1935. أما الأجزاء : الأول والثانى والرابع فلم تظهر لوفاة ساماركو .

إيطاليا وهناك انتقل إلى ربه . ورأى القصر أن الأوراق التى كان يبحثها إنما هى منطقة محرمة يجب ألا يصل إليها الباحثون المصريون .

أما المؤرخ الآخـــر فكان فرنسيا وهو جورج دوا George Douin كان من ضباط البحرية الفرنسية ثم اشتغل فى شركة القناة مديرا لإدارة الترانسيت Service du Transit التى تشرف عـلى تنظيم مرور السفن فى القناة . وكان أكبر موظف فنى فى الشركة . جمع بين منصبه فيها وبين الكتابة فى تاريخ مصر الحديث ووضع فيه ثلاثة عشر مرجعا هاما بفضل ما أسبغه عليه القصر من أسباب المتعة وتوفير وسائل البحث وأدواته : أعد له دارا فخمة فى القاهرة يقيم فيها عند حضوره من الإسماعيلية ، ووضع تحت تصرفه أقدر مترجمى القصر فى اللغات الفرنسية والتركية والعربية ، وكانت تنقل إلى داره الفخمة فى القاهرة وبدون حساب ــ الوثائق التى يطلبها والتى هى خاصة بتاريخ مصر الحديث ليتمكن من بحثها فى أوقات فراغه . وكان يعطى الأفضلية فى البحث وفى تنفيذ رغباته . وقد استفسرت منه فى إحدى المرات عن الصورة الأصلية لخطاب أرسلته الحكومة التركية إلى والى مصر محمد سعيد خاص بموضوع القناة ، وكان ذلك أمام يوسف جلاد (باشا) مدير الإدارة الأوربية بديوان الملك السابق . وكنت قد علمت أن هذا الخطاب قد نقل ضمن الأوراق التى طلبها إلى داره . فتخلص بلباقة قائلا : إنه نشر ملخصا كافيا له فى الفصل الثانى من الجزء الأول من كتابه الذى عين لى اسمه . وما كنت أجهل ذلك بطبيعة الحال وما كانت إجابته لتقنعنى ، ولكن مدير الإدارة الأوربية أومأ برأسه إلىّ كى أكتفى بهذه الإجابة عن المطالبة بالإطلاع على الأصل أو بصورة كاملة منه . وإنى أسوق هذه الحادثة لأوضح الفكرة التى سيطرت على كبار رجال القصر من التفرقة الصارخة فى المعاملة بين الباحثين المصريين والأجانب. وكان من نتائج هذه المعاملة أن ظل الباحثون المصريون بمنأى عن الأوراق التى كان يبحثها هذان المؤرخان الأجنبيان . غير أنى لم أحفل كثيرا بالأوراق التى كانت فى حوزتها، لأنى أعلم أنهما تناولا موضوع القناة من ناحية تختلف عن الناحية التى كنت أبحثها . ولما جاز هذا المؤرخ إلى ربه فى ديسمبر ١٩٤٤ انتقلت إلى داره بالقاهرة لجنة من

موظفى قصر عابدين وأعادت إلى القصر مجموعات هائلة من الأوراق التى كان يبحثها ، وقد تكونت من تلك الأوراق مجموعات ضخمة ظلت مودعة لفائفها لم يمسسها أحد ـ فيما أعلم ـ إلى أن تركت فى سبتمبر ١٩٥٥ العمل الذى كنت منتدبا له فى قصر عابدين .

× × ×

ولا أنكر أن الشدة العلمية التى تميز بها الأستاذ شفيق قد أرهقتنى من أمرى عسرا ، فكنت لا أكاد أنتهى من البحث فى إحدى الجهات أو لدى إحدى الهيئات ـ وقد اعتقدت أنى قاربت إنجاز الرسالة ـ حتى يوجهنى الأستاذ شفيق وجهة أخرى . حدث ذلك فى محفوظات قصر عابدين وفى دراسة المحاضر الرسمية لجلسات مجلس العموم البريطانى التى أثير فيها موضوع تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة ، وحدث ذلك عند توجيهه إياى تباعا نحو ذخائر المراجع الأجنبية التى عاصرت سنوات حفر القناة والتى تزخر بها مكتبات المعهد الفرنسى بالقاهرة والجمعية الجغرافية بها ومكتبة الأمير السابق عمر طوسون بعد أن ضمت إلى مكتبة بلدية الإسكندرية فى سنة ١٩٤٥ ، ومكتبة قصر عابدين والمكتبة العامة لجامعة القاهرة فضلا على دار الكتب المصرية ومكتبة بلدية الإسكندرية التى تعد من أغنى المكتبات المصرية فى الكتب التاريخية الإفرنجية (١) ، وحدث ذلك أيضا فى دراسة الجريدة التى كانت تصدرها شركة القناة ، ولم يطلب الأستاذ شفيق منى أن أدرسها عددا عددا ، أو صفحة صفحة فحسب ،بل سطرا سطرا أيضا ومنذ أن ظهر العدد الأول منها بتاريخ ٢٥ يونيو ١٨٥٦ إلى أن تم حفر القناة سنة ١٨٦٩ وكانت السخرة قد ألغيت فى حفرها منذ سنوات . وكان يرى ألا أقف فى دراساتى واطلاعى عند حدود الفترة التى هى موضوع البحث بل فرض على أن أتجاوزها إلى السنوات السابقة إياها واللاحقة بها . وهكذا كان الاستاذ شفيق لا يعرف للقناعة العلمية حدا ، كما لم تصرفه عن

---

(١) لعل من أسباب ثرائها فى الكتب التاريخية النادرة أن الذين تولوا الإشراف على القسم الأوربى فيها كانوا من العلماء الأجانب المتخصصين فى دراسة التاريخ .

متابعة أبحاث طلابه وعن توجيههم المناصب التي تدرج فيها خلال تلك الفترة من وكيل لكلية الآداب إلى عميد لها فوكيل مساعد لوزارة التربية والتعليم فمستشار فنى ووكيل لها ، وقد كان يجتمع بطلابه تارة فى مكتبه بالوزارة وتارة أخرى فى مكتبه بكلية الآداب حيث ظل أستاذا منتدبا للتاريخ الحديث بها وأخيرا انتهى بى المطاف فى فبراير ١٩٤٨ حين أقر الرسالة ونوقشت فى يونيو ١٩٤٨ وأجيزت مع امتحان تحريرى لدرجة الماجستير بتقدير جيد جدا .

× × ×

ولم يستهدف هذا الكتاب أغراضا سياسية فلم تكن الفكرة التى أوحت باختيار موضوعه فى سنة ١٩٣٨هى الرد علىالدعاية الأجنبية المغرضة، ولكن كان الباعث على اختيار موضوعه هو نشر صفحة مطوية من تاريخ مصر الحديث . فالكتاب بحث علمى ينشد الحقيقة المجردة فلا يمكن أن يتهم بالتحامل على شركة القناة التى أممت ولا بالمحاباة للشعب المصرى ، فالبحث يستقى مادته العلمية من مصدرين أساسيين هما:وثائق قصر عابدين ، وهى وثائق لا يرقى إليها الشك فى قيمتها العلمية ، ومراجع أجنبية وهى فى مجموعها تستهدف دعم المصالح الأوربية فى مصر أو ما يسمى بلغة المحاكم المختلطة البائدة نظرية الصالح المختلط .

ولا يختلف هذا الكتاب فى صورته الراهنة عن رسالة الماجستير إلا فى بعض النواحى . فقد حذفت الفصل الأول وكنت قد تناولت فيه نشأة نظام السخرة فى مصر وتطور هذا النظام فى عهود الفراعنة والبطالمة والرومان والعرب والأتراك العثمانيين ومصر الحديثة الى أن بدئ فى حفر القناة فى سنة ١٨٥٩ . وحذفت أيضا فصلا آخر عن طرق المواصلات إلى ساحات الحفر خلال سنوات تنفيذ المشروع والنصب الذى كان يلقاه عمال السخرة من سفرهم . كما حذفت فصلا ثالثا عن مشكلات تموين عمال السخرة فى ساحات الحفر . واختزلت الكلام عن الأزمتين العنيفتين اللتين تعرضت لها الشركة فى يونيو واكتوبر من عـام ١٨٥٩ وقد دفعنى إلى ذاك الحذف وهذا الإختزال الرغبة فى ألا يجىء الكتاب على شاكلة

الرسالة ضخما حاويا لكثير من المسائل الفنية التى لا تهم غير المتخصصين فى موضوع القناة . على أن الحذف والاختزال لا يؤثران على الفكرة العامة التى يخرج بها القارئ من هذا الكتاب . وقد أضفت الصفحات الأخيرة من الفصل الأخير وهو الخامس عشر إذ رأيت أن أعطى القارىء فكرة عابرة سريعة عن بعض الملابسات التى تم فيها إلغاء السخرة فى حفر القناة وكيف تطلعت الشركة إلى الأخذ به بعد أن تقرر لها تعويض ضخم عن هذا الإلغاء .

× × ×

وإذا كانت شدة الاستاذ شفيق العلمية قد أطالت سنوات البحث وكلفتنى جهودا مضنية إلا أنى أفدت من تلك الشدة إلى حد بعيد . وكان شأنى فى ذلك شأن طلابه الذين صبروا وصابروا وكدوا حتى أتموا رسائلهم العلمية على يديه فتأصلت فيهم روح البحث العلمى العميق وأصيبوا بما يمكن أن يسمى « النهم العلمى » واندفعوا يرضون هذا النهم فى صمت ومثابرة. وكما يقول الأستاذ شفيق « اتخذوا من دراسة التاريخ ومطالعاتهم فيه المحور الذى تدور حوله حياتهم العقلية على أن يتقاربوا حول تلك الدراسة والمطالعات وأن يتذاكروا مسائلهم وأن يناقشوا أبحاثهم وأن يطالعوا بنى وطنهم من حين لآخر بثمرات هذه المناقشة وتلك المذاكرة (١) » . وقد ظل هذا النهم العلمى قويا ملحوظا حتى فى نفوس الذين بلغوا أرقى المناصب الحكومية وأخطرها فلم تستطع أعباء المناصب أن تباعد بينهم وبين الإنتاج العلمى ولم تضعف فيهم هذا النهم العلمى .

والواقع انى مدين بما بلغت فى الحقل العلمى للأستاذ شفيق . وسيذكر التاريخ أنه من أبرز رواد التعليم الجامعى فى مصر وأسبقهم توجيها فيه . وقد تميز بالذهن الصافى والفكر المتوقد والعقلية الفسيحة الجوانب والسماحة النابعة من القلب والرزانة غير المتصنعة والترفع عن الصغائر . وإذا كان

---

(١) من مقدمة الأستاذ محمد شفيق غربال فى كتاب تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠) لهربرت فيشر . ترجمة الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . الطبعة الثانية ١٩٥٣ .

واجب الوفاء يدفعني إلى تقرير هذه الحقائق عنه ، فلأنه قد غدا بعيدا عن المناصب الحكومية ونفوذها .

ولا يفوتني أن أشكر للدكتور محمد صبحي عبد الحكيم مدرس المساحة والخرائط فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة تطوعه برسم الخرائط الثلاث لهذا الكتاب ومجهوده الذى بذله فى تحديد مواقع آبار الماء التى كان يستقى منها عمال السخرة فى ساحات الحفر .

ولما كان هذا الكتاب ينشر صفحة من تاريخ مصر القومى ظلت مطوية ما يقرب من مائة عام فإنى اعتزمت إذا من الله على بنعمة الصحة أن أترجمه إلى إحدى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ليقف الرأى العام فى الخارج على مسألة تؤرق الضمير الإنسانى الحر ويدرك التضحيات الجسيمة التى فرضت على الشعب المصرى فى سبيل إنشاء القناة .

والله الموفق .

دكتور

عبد العزيز محمد الشناوى

مصر الجديدة فى { ٢٠ من جمادى الآخرة ١٣٧٧
١٠ من يناير سنة ١٩٥٨ }

الفصل الأول
عهد التسلط القنصلى فى مصر

صدور عقد الإمتياز الأول – موجز لأهم مواده – امبراطور فرنسا يمنح سعيدا وسام الشرف – أسباب معارضة انجلترا للمشروع – مشكلة الأيدى العاملة فى تنفيذ المشروع – الجانب السياسى للمشكلة – عهد التسلط القنصلى – ضغط القناصل على الحكومة – بعض حوادث الإحتيال – وباء التعويضات – تدفق الآفاقين وأرباب السوابق من أوربا على مصر – تقربهم إلى سعيد – دى لسبس يستغل الوضع القائم فى مصر ويطمع فى وضع عبء حفر القناة على المصريين – صعوبة استخدام العمال الأجانب فى حفر القناة – واجب سعيد .

ظفر فرديناند دى لسبس فى ٣٠ من نوفمبر ١٨٥٤ من صديقه محمد سعيد باشا والى مصر بعقد امتياز لإنشاء قناة السويس . وقد انطوى هذا العقد – ويطلق عليه الفرمان الأول – على امتيازات مجحفة بحقوق مصر ، كان من بينها ، الترخيص لدى لسبس فى إنشاء وإدارة شركة تقوم بحفر قناة السويس ثم استغلالها لمدة تسعة وتسعين عاما تبدأ من تاريخ افتتاحها للملاحة ، كما تتمتع الشركة بحق الإعفاء الجمركى على جميع الآلات والمهمات التى تستوردها من الخارج بقصد استغلال الإمتياز الممنوح لها، وأن يعطى للشركة الحق فى أن تستخرج بدون مقابل جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمبانى التى ستكون تابعة لها من المناجم والمحاجر المملوكة للحكومة ، وان تتقاضى الحكومة ١٥٪ سنوياً من صافى أرباح القناة ، أما الشطر الأكبر

من الأرباح – أو نصيب الأسد – فيوزع بين الأعضاء المؤسسين وبين حملة الأسهم بنسبة ١٠٪ للأولين و ٧٥٪ للآخرين . وأعطى العقد للشركة أيضاً الحق فى أن تحدد ، بالإتفاق مع والى مصر ، قيمة رسوم مرور السفن فى القناة وأن يقوم مستخدمو الشركة بتحصيلها على أساس المساواة فى المعاملة بين جميع الأمم .

وكان من أخطر الإمتيازات التى ظفرت بها الشركة فى هذا العقد أن منحها سعيد باشا بدون مقابل مساحات شاسعة من الأراضى فى منطقة القناة بحجة تنفيذ المشروع . ولم يقف سعيد فى تغاضيه عن مصلحة البلاد عند هذا الحد ، بل قرر أنه إذا رأت الشركة لمصلحة المشروع حفر ترعة للماء العذب تصل بين النيل وبين قناة السويس فإن الحكومة المصرية تتنازل للشركة عن الأراضى الأميرية الواقعة على طول جانبى الترعة والتى لا تكون مزروعة وقتئذ وتقوم الشركة بريها وزراعتها واستغلالها مع إعفائها من دفع الضرائب عنها لمدة عشر سنوات تبدأ من تاريخ فتح القناة . وأما فى التسعة والثمانين عاما الباقية إلى نهاية أجل الإمتياز فتدفع عنها العشور للحكومة المصرية . وتستمر الشركة بعد انقضاء مدة الإمتياز فى استغلال هذه الأراضى بشرط أن تدفع للحكومة ضريبة مساوية للضريبة الى تفرض على الأراضى المماثلة لها . وأعجب من هذا كله ، أن سعيداً أذن للشركة فى أن تبيع مياه النيل إلى الفلاحين ، فأوجب على الأفراد الذين يملكون أراض ويرغبون فى ريها مستقبلا من ترعة الماء العذب آن يدفعوا للشركة إتاوة نظير استخدامهم لماء الترعة . وهكذا دل امتياز الأراضى على آن دى لسبس لم يكن يرمى إلى إنشاء قناة السويس فحسب بل كان يستهدف أغراضا سياسية استعمارية .

وتضمن عقد الامتياز كذلك أنه عند انتهاء أجل الإمتياز تحل الحكومة المصرية محل الشركة وتتمتع بجميع حقوق الشركة بدون أى تحفظ وتستولى استيلاء تاما على قناة السويس والمنشآت التابعة لها ، ويحدد باتفاق ودى أو بطريق التحكيم التعويض الذى يمنح للشركة مقابل ترك أدواتها وأموالها

المنقولة les objets mobiliers (١) . واختتم سعيد باشا العقد بشرط حتمى هو ضرورة موافقة سلطان تركيا على هـــذا العقد وألا يبدأ بالأعمـــال الخاصة بحفر قناة السويس إلا بعد الحصول على ترخيص الباب العالى (٢) .

وقد علق دى روسّى de Rossetti قنصل توسكانا فى مصـــــر على الإمتيازات التى وردت فى هذا العقد فقال فى تقرير أرسله إلى وزير خارجية فلورنسا بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٨٥٤ وأرفق به نسخة من عقد الإمتياز الأول « لست فى حاجة لأن اظهر لمعاليكم مقدار الإمتيازات التى منحها سمو الوالى فإنها عظيمة الفائدة للمسيو دى لسبس وللشركة المزمع تأسيسها ، فلم يحدث مطلقاً أن ظفر اى شخص بمثل هذه الميزات العظيمة وبمثل هذا السخاء من أية حكومة كانت . . . » (٣)

أما كرابيتس Crabites المستشار السابق بمحكمة الاستئنـــاف المختلطة بالاسكندرية فيقول فى شيء من التهكم المرير « من الغريب أن سعيـــداً لم يطالب صديقه باى ثمن مقابل الإمتيازات التى منحها إياه ، بل باع إرث الفراعنة لرجل فرنسى وقبض الثمن ابتسامة زائلة » (٤)

(١) حددت الفقرة الثانية من المادة (١٦) من عقد الامتياز الثانى الصادر فى ٥ من يناير ١٨٥٦ المقصود بالأموال المنقولة والتى تدفع عنها الحكومة المصرية تعويضا بأنها « المهمات المخصصة للخدمة البحرية فى هذا المشروع . »

(2) De Testa: Recueil des traités de la Porte Ottomane avec les Puissances étrangères. Paris, 1901, 10 vols., t. II, p. 93 et suiv.

Gelat Philipe Bey: Répertoire général de la législation et de l'administration egyptiennes, (1840-1910). Alexandrie, 1911, 6 vols. avec une table alphabétique analytique, t. I p. 442 et suiv.

Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez: Recueil chronologique et annoté des actes constitutifs de la Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez et des conventions conclues avec le Gouvernement égyptien. Le Caire. Imprimerie Nationale, 1930, pp. 2-4.

(3) Sammarco Angelo: Précis de l'histoire d'Egypte, t. IV. Les Régnes d'Abbas, de Said et d'Ismail (1848-1879) avec un aperçu de l'Histoire du Canal de Suez, Rome, 1935, pp. 93-94.

(4) Crabites Pierre: Ismail. The Maligned Khedive, p. 12.

ولم تمض ثلاثة أسابيع على صدور عقد الإمتياز حتى أهدى الإمبراطور نابليون الثالث الوشاح الأكبر من وســــام الشرف Légion d' honneur إلى سعيد باشا (١) . وأقيم فى ٢٢ ديسمبر ١٨٥٤ حفل كبير بالقلعة قدم فيه قنصل فرنسا العام فى مصر الوشاح إلى سعيد باشا والقى القنصل خطابا امتــدح فيه الوالى الذى رد عليه بخطبة أخرى (٢). ودل هذا التكريم السريع على تقدير الإمبراطور نابليون الثالث لقرار سعيد باشا بمنح عقد الإمتياز لدى لسبس، ولكن أثار منح هذا الوسام ، من ناحية آخرى ، شكوك انجلترا ازاء مشروع القناة (٣) .

وفى الحق عارضت انجلترا مشروع قناة السويس من أول الأمر ، إذ اعتقدت أنه مشروع سياسى فرنسى يهدف إلى امتلاك مصر ثم ضرب الممتلكات البريطانية فى الهند وغيرها (٤) وكانت انجلترا توثر على مشروع القناة المشروع البرى ، وقوامه إنشاء خط حديدى يمتد من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس وكان قد بدىء فيه فى أواخر عام ١٨٥١ بمعونه واشراف المهندس الإنجليزى روبرت استيفنسن Robert Stephenson فلما صدر عقد الإمتيــاز ورأت انجلترا أن مشروع القنـــاة وشيك التنفيـــذ اشتدت معارضتهــا له ، وهالها الإمتيازات الضخمة التى ظفر بها دىلسبس فى عقد الإمتياز حتى اعتقدت

(١) محفوظات قصر عابدين : محفظه ٥ معية تركى . وثيقة رقم ٢٩٢ فى غاية ربيع الأول ١٢٧١ ه (٢١ ديسمبر ١٨٥٤)

(٢) تجد وصف الاحتفال بتقليد سعيد باشا الوسام وخطبة قنصل فرنسا ورد سعيد عليها فى De Lesseps F.: Origines du Canal de Suez, Paris, 1890, pp. 65-84.

(3) Hussein Husni: Le Canal de Suez et la Politique Egyptienne, Montepellier, 1923, p. 293.

(4) Ibrahim Nomeir Seif-ed-Dean: England's Opposition to the Suez Canal Project, Liverpool, 1934, p. 45.

وكانت العبارة الشائعة فى فرنسا بعد صدور عقد الإمتياز الأول :

en percant l'Isthme de Suez, nous perçons le point faible de la cuicasse anglaise

أن هذا العقد سيجعل من دى‌لسبس الحاكم الحقيقى لمصر (١) . ولم يخرج المشروع فى نظر انجلترا عن كونه فكرة نابليونية عدائية لإنجلترا انحدرت إلى ورثة نابليون ، وزاد من هذا الإعتقاد أن يتولاه دبلوماسى فرنسى يظفر بعطف الإمبراطور نابليون الثالث وتأييد الحكومة الفرنسية (٢) حتى غدا دى لسبس ظلا لها . وفى الحقيقة كان مطمح نابليون الثالث أن يجعل تنفيذ المشروع فى عهده وعلى يد فرنسى من مفاخر حكمه (٣) .

ولذلك سيطرت على عقول رجال الحكم فى انجلترا فى ذلك الوقت الفكرة القائلة بأن حفر القناة إنما هى عملية ظاهرها الغرض التجارى ، وباطنها الإستعمار الفرنسى ينشر لواءه على مناطق حساسة بالنسبة للمصالح البريطانية ومما هو جدير بالذكر أن نابليون بونابرت قد ذكر فى مذكراته التى وضعها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه ما يلى « إن الإنجليز تنخلع قلوبهم هولا إذا رأوا فرنسا تحتل مصر . ونحن بهذا الإحتلال نوضح لأوربا الوسيلة الفعالة لحرمان الإنجليز من الهند » . وقد ذهبوا فى اعتناق هذا الرأى إلى القول بأنه إذا أيدت انجلترا مشروع القناة كان هذا بمثابة انتحار لها (٤) ، لأن السفن الفرنسية

---

(١) ذكر هذه العبارة اللورد رسل Lord Russel وزير الخارجية البريطانية فى حديث له مع الكونت ابونى Apponyi سفير النمسا فى لندن . أنظر

Hallberg Charles : The Suez Canal. Its History and Diplomatic Importance. New York. 1931, pp. 180-181.

(٢) صرح سفير انجلترا فى القسطنطينية أن من أبرز مكامن الخطر فى مشروع القناة أن يتولاه فرنسى إذ يعد هذا بمثابة احتلال لمصر على يد فرنسا . أنظر

Hussein Husni, ouvr. cit., p. 293.

(3) Charles-Roux F. : L'Egypte de 1801 à 1882. Mohamed Aly et sa Dynastie jusqu'à l'occupation anglaise, t. VI. Paris, 1936. (Histoire de la Nation Egyptienne par Gabriel Hanotaux, sept volumes), t. VI, pp. 268-269.

(4) Ibrahim Nomeir Seif-ed-Dean, ouvr. cit., p. 48 .

رسالة من وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ يوليوه ١٨٥٥ إلى اللورد كاولى Cowley سفير انجلترا فى باريس .

تستطيع اجتياح الهند قبل أن تصل أخبار الغزو إلى انجلترا (١) . ولعل خير ما يوصف به موقف انجلترا حيال هذا المشروع ما قاله اللورد Ellenborough فى مجلس اللوردات بجلسة ٦ مايو ١٨٦١ « إن بوسفورا واحدا كان مبعث متاعب جمة لنا . وإنى أعتقد أن هذا المشروع الذى نحن بصدده إنما هو محاولة لإنشاء بوسفور آخر ووضعه فى أيدى الفرنسيين » . (٢)

. . .

أثارت انجلترا — من بين ما أثارته — مشكلة العمال الذين كان لابد من استخدامهم فى تنفيذ المشروع ، إذ كان يتطلب تنفيذه عددا هائلا من العمال مهما كان عدد الآلات الميكانيكية التى تستخدم فى القيام به نظراً لضخامته وتعدد نواحيه . (٣) وقد أبدت انجلترا مخاوفها من أن تستقدم شركة القناة جموعا هائلة من الفرنسيين يستقرون فى منطقة القناة بحجة تنفيذ المشروع ، ثم يصبحون ، وقد تم حفر القناة ، أداة قوية تستفيد منها حكومة باريس

---

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) انظر محضر تلك الجلسة فى الجزء ١٦٢ ص ص ١٥٥٢ — ١٥٥٢ فى

Hansard's Parliametary Debates

ومما يذكر أن الحكومة الانجليزية قدمت مذكرة إلى الحكومة الفرنسية ضمنتها الأسس التى تقوم عليها معارضتها لمشروع القناة . واسم هذه المذكرة :

Insuperable Objections of Her Majesty's Government to the Projected Suez Canal

ومنشور معظم أجزائها فى كل من :

Hussein Husni, ouvr., cit., pp. 259-261.
Hallberg, ouvr., cit., pp. 181-183.

(٣) تبدو هذه الفكرة واضحة جلية بعد تقرير الغاء السخرة فى حفر القناة سنة ١٨٦٤ فقد عهدت الشركة إلى عدد من كبار المقاولين فى أوربا وبعض الشركات الكبرى إتمام حفر القناة واستخدموا عددا كبيرا من مختلف آلات الحفر الضخمة القوية وصممت أجزاؤها خصيصا لهذه الأغراض وأصبح جل اعتمادهم على القوة الميكانيكية . ومع ذلك فقد بلغ عدد العمال فى البرزخ الذين كانوا يؤدون شتى الأعمال الخاصة بحفر القناة ٧٩٣ ر ٢٠ عاملا منهم ١٢٨٩٤ مصريا والباقى من العمال الأجانب . انظر محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٤٥ معية تقرير رقم ٥٣ من عبد القادر محافظ القناة إلى المعية .

فى تنفيذ خطتها القديمة وهى امتلاك مصر وتهديد الممتلكات البريطانية فى آسيا(١).

برز الجانب السياسى لمشكلة الأيدى العاملة بروزا واضحاً قوياً من أول الأمر ، فإن تدفق عمال آجانب فى بلد له ظروفه السياسية والإقتصادية الخاصة وموقعه الجغرافى الهام ، ويقوم فيه وقتئذ نظام الإمتيازات الأجنبية ، بالإضافة إلى الأراضى المترامية الأطراف الى منحها سعيد باشا للشركة فى منطقةالقناة ومديريتى الشرقية والقليوبية ، كل هذه وتلك تثير مشكلات سياسية خطيرة . يستطيع العمال الأجانب أن يبعثوا فى طلب ذويهم للإقامة معهم بعد أن تنتظم سبل المعيشة فى منطقة البرزخ . وهذه الهجرات الإضافية التى تنشأ عن لحاق الأقارب وغيرهم بذويهم تزيد من عدد أفراد الجاليات الأجنبية التى تعيش فى أراضى الشركة الشاسعة ، فتصبح تلك الأراضى بمثابة مستعمرات فرنسية تقوم داخل البلاد المصرية ، وتعمل لحساب فرنسا ، وتتمتع بفضل نظام الإمتيازات الآجنبية باستقلال فى التشريع والقضاء والإدارة وغير ذلك ، ثم لا تلبث أن يكون لهذه الجالية بأراضيها وامتيازاتها شأن كبير فى البلاد ، وهى حالة تؤدى فى النهاية إلى قيام حكومة داخل الحكومة المصرية أو مايسمى Imperium in Imperio (٢)

---

(1) Rassignal L. M.: Le Canal de Suez. Etude historique, juridique et politique. Paris, 1898, p. 31.

وكذلك

Farman E. Elbert: Egypt and its Betrayal. New York, 1908, pp. 201, 203, 207.

وكذلك رسالة من بيزانى Pizani إلى استرادفورد Stradford بتاريخ ٢ يونيو ١٨٥٥ فى
Ibrahim Nomeir Seif-ed-Dean, ouvr., cit., p. 43.

(٢) كثيرا ما ردد قناصل انجلترا فى مصر فى مكاتباتهم إلى وزارة الخارجية البريطانية القول بأن فرنسا ترمى إلى إقامة مستعمرة فرنسية فى البرزخ . وقد جاء فى تقرير أرسله والن Walne قنصل انجلترا فى مصر إلى رسل Russel وزير الخارجية البريطانية A French colony established there might in the course of a few years become sufficiently strong to domineer over the weak rulers of Egypt, and, supported from without, prove a permanent menace to our communications with India.
« إذا استقرت مستعمرة فرنسية هناك فإنها قد تغدو فى خلال سنوات قلائل من القوة التى تكفى =

ولم يعزب عن بال انجلترا أن الأمبراطورية البريطانية فى الهند قد قامت على أكتاف التجار ولم تقم على أكتاف العسكريين . فقد نزل الإنجليز فى الهند أول الأمر تجاراً ، ثم اكتسبوا امتيازات تجارية وتطــور موقفهم ، فامتلكوا الأراضى وأشرفوا على الإيرادات ، وانتهى بهم الأمر إلى أن غدوا سادة حكاما (١) . ولم تكن السياسة الانجليزية لتسمح بتكرار مثل هذا الدور فى مصر لصالح فرنسا على يد دىلسبس أو غيره .

ومصر تقع على طريق المواصلات البريطانية إلى الهند — درة ممتلكات انجلترا فى ذلك الوقت — وقد ازدادت أهمية مصر فى نظر انجلترا وفرنسا وغيرهما منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ . واتخذت السياسة الخارجية لانجلترا مبدأ لها فى القرن التاسع عشر حتى سنة ١٨٧٥ هو المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها وذلك حرصا على سلامة الإمبراطوريــة البريطانية نفسها بتأمين الطرق الموصلة إلى الهند . فانجلترا كانت تفضل أن يظل الشرق الإسلامى خاضعاً للدولة العثمانية الضعيفة فى ذلك الوقت على أن يقع فى يد دولة قوية منافسة تناصب انجلترا العداء وتكون خطرا على الممتلكات الإنجليزية فى الهند . فإذا حدث أن استقرت فى مصر — وعلى الأخص فى الجزء الــذى يسيطر على الطريق إلى الهند وهو برزخ السويس — جالية كثيفة العدد من المهندسين والعمال وغيرهم ينتمون إلى دولة أوربية كفرنسا كان هذا سلاحــا خطيرا فى يدها تهدد به انجلترا (٢) .

. . .

= لتسيطر على حكام مصر الضعاف . فإذا ما ظفرت بمساعدة خارجية أضحت مصدر تهديد دائم لمواصلاتنا مع الهند » .

انظر Hallberg, ouvr., cit., p. 166.

(1) Arnold Wilson : The Suez Canal. Its Past, Present and Future, London. First Edition, 1933, p. 17.

(2) Hoskins Halford Lancaster : British Routes to India. New York, 1928, p. 356.

وكانت مصر فى ذلك الوقت تجتاز فترة سياسية أطلق عليهـــا عهـــد « التسلط القنصلى » . كان معظم قناصل الدول فى مصر لا يحسبون حسـابا كبيرا للحكومة المصرية نظراً للمركز الذى وضعت فيه مصر عقب تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ من ناحية ، ولضعف شخصية ولاة مصر بعد وفاة محمـد على من ناحية آخرى . فتدخل قناصل الدول فى صميم الشئون الداخليةللحكومة المصرية ، واتبعوا حيالها سياسة تقوم على التعسف والظلم والجشع . وساعدهم على ذلك قيام نظام الإمتيازات الآجنبية وقتئذ ، ثم التأييد الذى كان معظم القناصل يجدونه من حكوماتهم فى هذه السياسة .

وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة على عهدى سعيد واسماعيل. وكان من مظاهر هذه السياسة مطالبة الحكومة بتعويضات مالية ضخمة عن خسائر وأضرار حقيقية حينا ، ووهمية أحيانا كثيرة ، يزعمون أنها لحقت بهم أو برعايا دولهم نتيجة اجراء اتخذته الحكومة المصرية أو تصرف أحـد المصريين،وكان يفصل فى تلك الطلبات بالطرق الدبلوماسية بين الحكومة المصرية وبين القنصل . وكان زملاؤه أعضاء السلك القنصلى يساعدونه فى موقفه . وينتهى الأمر بإذعان السلطات المصرية لمطالب القنصل الذى كان يقتسم فى معظم الحالات مع صاحب الشكوى التعويض الذي يتقرر لـه . وقد فشت هذه الظاهرة فى محيط الأجانب وأطلق عليها البعض« وباءالتعويضات» وقرروا ان ذلك الوباء اعتصر الخزانة المصرية (١) .

من الأمثلة الصارخة على جشع القناصل وضغطهم على الحكومة المصريـة لابتزاز أموالهـا والإثراء على حسـاب مصالح البـلاد نذكر زيزنيا Zizinia قنصل بلجيكا العام فى مصر . جمع فى وقت واحد بين اشتغاله بالتجـارة وبين العمل فى السلك القنصلى جريا على العادة المتبعة غالبا فى ذلك الوقت. وقد كان هذا الرجل آحد الرعايا اليونانيين ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلا عاما لبلجيكا فى مصر . وظفر بحكم وظيفته من ناحية ، وجنسيته

(1) Bertrand, E. : Nubar Pacha, 1825-1899. Notes et Impressions. Le Caire, 1904, p. 40.

الفرنسية من ناحية ثانية ، بتأييد زميله قنصل فرنسا العام فى مصر فى مواقفه الشائنة من الحكومة المصرية . وقد لمس زيزنيا ضعف سعيد باشا وسخاءه وتقديره العميق للأجانب ، فسول له جشعه أن يدعى أن محمد على كان قد وعده وعدا شفوياً بأن يمنحه امتياز الإشراف على إدارة مرور البضائع فى مصر . ولكن لم ينفذ محمد على ولا أحد من خلفائه ذلك الوعد . ومن أجل ذلك طالب سعيدا بتعويض قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات . وأيده فى موقفه قنصل فرنسا وقد عرض سعيد عليه تخفيض التعويض إلى ثلاثين الف جنيه ولكنه رفض العرض . وازاء الإلحاح والضغط أستبدل سعيد امتيازاً حقيقياً بامتياز وهمى ، إذ منحه امتياز جباية رسم مرور السفن عند الهويس المنشأ عند اتصال ترعة المحمودية بميناء الاسكندرية . وكان هذالإ امتياز الجديد يدر على القنصل أرباحا سنوية بلغت ثمانية آلاف جنيه . ولأمر ما اضطر سعيد إلى سحب هذا الإمتياز من القنصل بعد أن دفع له ١٣٠ ألف جنيه عداً ونقداً بصفة تعويض » (١) .

(١) بخصوص عهد التسلط القنصلى فى مصر انظر كلا من

Sabry M.: L'Empire égyptien sous Ismaïl et l'Ingérence anglo-française. (1863-1879). Paris, 1933.

تحت عنوان :

Origines de l'ère consulaire en Egypte, pp. 16-21.

وتحت عنوان :

La conquête diplomatique et consulaire, pp. 37-43.

وانظر أيضا

Charles Roux F.: L'Egypte de 1801 etc., ouvr., cit., t. VI.

تحت عنوان

Abus d'ingérence consulaire, pp. 254-256.

كما أفاض قاض هولاندى سابق فى المحاكم المختلطة بمصر فى شرح استغلال قناصل الدول اولاة مصر استغلالا شائنا بعيدا عن العدالة والذمة والشرف .

Van Bem Vulen: L'Egypte et l'Europe par un ancien juge mixte. Juge hollandais aux Tribunaux Mixtes de 1875-1880: Leiden 1884-2 vols. t. I, pp. 116-133.

تحت عنوان

وإلى جانب هذا الحادث توجد حوادث احتيال أخرى كان أبطالها روسّى Rossetti وكاستلانى Castellani وجبارا Gibara وبرافاى Bravay. والأخير كان رجـــلا جاهلا قدم إلى مصـــر خالى الوفاض ، واشتهر بالنكات الجنسية والأحاديث الشيقة . وقد قربه سعيد باشا إليه وجعله مديراً لشئونـه الخاصة ثم منحه امتياز استغلال المناجم الواقعة على شاطىء البحر الأحمـــر على الرغم من أنه لا يعرف من أعمال التعدين شيئاً . وقد استرد سعيد بعـــد ذلك هذا الإمتيار ومنحه مليون فرنك بصفة تعويض . وقد جمع هذا الرجل من مصر ثروة بلغت ثلاثين مليون فرنك .

ويلاحظ أنه لما تولى سعيد حكم مصر فى ١٤ يوليو ١٨٥٤ عقب مصرع عباس الأول تدفق على البلاد عدد كبير من الأجانب ، وتضاعف عدد أفراد الجاليات الأجنبية فى مصر على عهده (١) ، وقد وفد الأجانب الجدد بوجه خاص من جنوب شبه الجزيرة الايطالية ومن بلاد اليونان وفرنسا والنمسا ، قدموا ليبحثوا عن المأوى و الخبز تحت حماية قناصل دولهم . ويقول قنصل الولايات المتحدة فى مصر ، وهو شاهد عيان لأحداث ذلك العصر (٢) ، إن شوارع القاهرة والإسكندرية كانت تموج وقتئذ بأخلاط غريبة من الأجانب وفدوا من كل فج عميق وتعـــددت جنسياتهم ولغاتهم وعاداتهم . وكانت الإعلانات التى تلصق على حوائط الشوارع فى المدينتين تكتب بأربع لغات هى الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والعربية (٣) .

Domination et Exploitation Etrangères.

وبخصوص التعويضات التى طالب الأجانب بها الحكومة المصرية أنظر محفوظات قصر عابدين دفتر رقم ٥١٦ وثائق رقم ٣٤٣ ، ٣٩٣ ، ٧٨٠ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٩٤٧ ، ٩٤٩ ، ١١٤٦ ، ١٢٥٥ ، ١٣١١ ، ١٤٦٠ .

(1) Edwin de Leon: The Khedive's Egypt, London, 1877, p. 92.

(٢) تقلد أدون دى ليون مؤلف الكتاب السابق منصبه كقنصل عام للولايات المتحدةالأمريكية فى مصر من ٢٦ نوفمبر ١٨٥٣ الى ٤ مارس ١٨٦١ .

(3) Edwin de Leon, ouvr., cit., p. 110.

وكان فى صفوف اولئك القادمين عدد كبير من المخاطرين والآفاقين ومن اليهم أحاطوا بسعيد باشا يبحثون عن الأرباح الضخمة بأيسر الوســائل المشروعــة وغــير المشروعة . ولمس قنصل فرنسا العام هــذه الحالة الجديدة فسجلها فى تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢ أكتوبر ١٨٥٤ ، ولما يمض على حكم سعيد ثلاثة أشهر ، وقد قال فى ذلك التقرير إنه لم يكد يذاع نبأ وفاة عباس باشا حتى هطلت على مصر من كافة أنحاء أوروبا جموع غزيرة العدد من المقامرين والباحثين عن الذهب التفوا بالوالى آناء الليل والنهار ، وكأن مصر قد غدت كاليفورنيا جديدة تزخر بمناجم الذهب . وقدموا اليه مشروعات خيالية لا تستقيم مع منطق أو عقل، ثم أبدى القنصل أسفه لأن الوالى ينفق وقته فى دراستها مع اولئك الآفاقين الذين يرددون على مسامعه فى كل حين وآن العبارات الرنانة التى تستهويه ويطرب لها إلى حد بعيد (١) . وقد ندد أحد أقطاب شركة القناة — وهو فرنسوا شارل رو — فى سنة ١٩٣٦ بتلك الروح غير الكريمة فقال « وهكذا افتقد الأجانب فى مصر حاسة التمييز بين العدالة وبين التعسف والظلم » . (٢) وسرعان ما أصاب كثير من الطفيليين ثروات عريضة آصبحوا بها على رأس الجاليات الأجنبية فى مصر .

ولذلك فإن قدوم عمال أجانب فى جماعات كبيرة جدا لتنفيذ مشروع القناة ، بالإضافة إلى تلك الهجرة التى شهدتها مصر وقتئذ ، كان يثير مشكلات معقدة أمام الحكومة المصرية ويفتح بابا واسعا أمام قناصل الدول ، ويهيىء عديد الفرص أمام دى لسبس للضغط على سعيد والتقدم بمزيد من المطالب متذرعا بحجة أو أخرى لتحقيق أطماعه التى لم تكن تقف عند حد. يضاف إلى ذلك أن التطور الذى حدث فى ذلك الوقت فى وسائل النقل بظهور السكك الحديدية واستعمال السفن البخارية كان كفيلا بإغراء الآف من جماعات المخاطرين بالعمل فى الشركة إذا لم يوضع قيد خاص يحدد عدد العمال الأجانب

(1) Sabry M., ouvr., cit., pp. 37-38.

(2) Charles Roux F., ouvr., cit., t. VI, p. 255.

فيها . وكان سعيد قد تلقى فى الأيام الأولى من شهر إبريل ١٨٥٥ خطابا من صهره كامل باشا فى القسطنطينية يحذره عواقب تأييده لمشروع القناة والسير وراء فرنسا ودى لسبس . وقد حرص كامل باشا على أن يوضح لسعيد مضار هذا المشروع . وكان أقلها فى رأيه تدفق عدد كبير من الأجانب على مصر (١) .

يتضح من هذا العرض السريع أنه كان من المصلحة العامة – من جوانبها المتعددة – أن يكون استخدام العمال الأجانب فى أضيق نطاق ومقصورا على الأعمال الفنية الدقيقة التى لا يكون للمصريين بها دراية .

* * *

ولا شك أن دى لسبس قد استفاد من هذا الوضع الذى أخذته مشكلة الأيدي العاملة بل إنه رحب به أيما ترحيب وبالغ فى تصوير خطورته لسعيد باشا طامعا فى أن يقوم الشعب المصرى وحده بعبء حفر القناة . وقد أيد أنصار المشروع هذه الفكرة فى مقال ضاف نشرته جريدة l'Isthme de Suez بعنوان « كلمة بخصوص استخدام العمال الفلاحين دون سواهم فى تنفيذ أعمال قناة السويس » . وكان مما جاء فيه أنه لم يفكر جديا أحد من رجال الشركة ولا سعيد باشا نفسه فى استقدام عمال أجانب من أوروبا ، وأنه قد اتفقت آراؤهم جميعا على وجوب تجنب أخطار هذا التصرف وتحاشى المتاعب العديدة التى تنجم عنه (٢) .

---

(1) Sabry M., ouvr., cit., p. 57.

(٢) العدد ١٤ الصادر فى ١٠ يناير ١٨٥٧ بمجموعة السنة الثانية وعنوان المقال

De l'emploi exclusif des ouvriers fellahs dans l'exécution du Canal de Suez.

ومما هو جدير بالذكر أنه لما عرض مترينخ وزير النمسا الأول مشروع حفر قناة السويس سنة ١٨٤٢ على والى مصر محمد على اشترط الأخير لتنفيذ المشروع عدة اشتراطات كان من بينها أن تقوم مصر بحفر القناة وأن تستخدم الحكومة المصرية المهندسين وغيرهم من الفنيين الأوربيين وأن يتناولوا مرتباتهم منها . وفى حديث دار فى ٣٠ يناير ١٨٤٥ مع مندوب جمعية ليبزج – وهى =

وفى الواقع كان استخدام العمال الأوربيين فى أول الأمر وعلى نطاق واسع ضربا من المستحيلات بالنسبة للشركة بعد تأسيسها . فالأجور التى يتقاضاها العمال الأوربيون فى سبيل الإغتراب والعمل فى الصحراء أجور غالية ترهق ميزانيتها المتواضعة وقت تنفيذ المشروع . كما أن أجورهم تزيد على أجور العمال المصريين بينما يكون انتاجهم ضئيلا إذا قيس بإنتاج المصريين (١) . والعمال الأوربيون لم يألفوا الجو الحار ويتعرضون للأمراض التى تصيبهم من شدة الحر فتفتك بهم . وجدير بالذكر أن عددا كبيراً من الجنود الإنجليز والفرنسيين قد لقوا حتفهم فى شبه جزيرة القرم فى صيف وخريف ١٨٥٥ بسبب اختلاف الجو (٢)

ويمتاز العمال المصريون بالجلد وقوة الإحتمال والصبر والقدرة على متابعة العمل المضنى فى الجو الصحراوى الحار (٣) . وتختلف عادات العمال المصريين عن عادات العمال الأوربيين : فبينما نجد فى الأولين تعودا على الإخشيشان والتقشف والقناعة نجد فى الآخرين ميلا إلى الإفراط فى الخمور (٤) ونزوعا

جمعية تأسست للدعاية لمشروع القناة — صرح محمد على بقوله « إن مصر لا يعوزها الرجال . وفى استطاعتى أن استخدام جميع أفراد جيشى فى هذا العمل . » انظر فصلا بعنوان

Metternich makes an offer.

فى

Hallberg, ouvr., cit., pp. 85-92.

(١) أنظر مقالا فى هـــذا الصدد نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٥ الصادر فى ٢٥ أغسطس ١٨٥٦ ص ٦٩ مجموعة السنة الأولى .

(2) Charles Lamb Kenney: The Gates of the East. Ten Chapters on the Isthmus of Suez Canal. London, 1857, p. 25.

(٣) المصدر السابق ص‌ص ٢٦ — ص ٢٧ . وانظر أيضا مقالا عن الفضائل التى برزت بين العمال المصريين فى حفر القناة ، بقلم E.T. Bainières وقد نشر المقال فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٨ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٠ ص ٢٣٣ مجموعة السنة الخامسة .

(٤) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٢ للبرقيات الواردة . برقية رقم ٣٢٦ من محافظ السويس إلى رياض باشا فى ١٨ شوال ١٢٨٢ . وكذلك محفظة رقم ٣٢ وثيقة رقم ١٢٢ .

إلى الملذات والنساثيات وانكبابا على لعب الميسر (١) . وقد وضعت فيهم تلك الرذائل إبان حكم اسماعيل على أثر الغاء السخرة اسميا فى حفر القناة ومجىء عمال أجانب بكثرة إلى مصر للإرتزاق بالعمل لدى مقاولى الشركة . زد على ذلك أن العمال الذين يقبلون الرحيل إلى مصر والعمل فى الحفر يكون معظمهم من ذوى الخلق السيء ويكونون مصدر متاعب للحكومة المصرية وللشركة . وقد حدث هذا فعلا بعد أن ألغيت السخرة وفتحت الشركة أبواب العمل أمام المرتزقة من الأوربيين . فقد كتب محافظ الإسكندرية تقريراً جاء فيه « قدم الإسكندرية جمع غفير من أهل كالابابريا بايطاليا ، وأخذوا يبيتون هنا وهناك وفى الشوارع . وقد علمنا أن أربعة الآف آخرين قادمون . ولما كان هؤلاء سفلة النـــاس فمن المتوقع أن تصدر منهم حوادث مكروهة وقد كلمنا قنصل إيطاليا فى شأنهم فأبلغنا أن هؤلاء قد قدموا ليذهبوا إلى القناة للعمل فيها . . . ولما كان فى مبيت هؤلاء هنا وهناك ما ينجم عنه حدوث مايخل بالنظام فقد طلب القنصل اسكان أمثال هؤلاء عند قدومهم فى غرف ثكنة الباب الشرقى درءا لهذا المحذور ريثما تتم مساومتهم مع وكيل الشركة . إلا اننا لو سمحنا بذلك فإنه يكون من الصعب اخراجهم من الثكنة فى المستقبل. فارفعوا أمرهم إلى الأعتاب وتكرموا بإبلاغنا الإرادة السنية التى ستصدر فيه » (٢) .

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر البرقيات رقم ١٠ برقية رقم ٨٥٨ .
وانظر أيضا محفظة رقم ٣٥ وثيقة رقم ٢٨٧ .

يقول أحد الأجانب فى خطاب أرسله من القاهرة فى سبتمبر ١٨٦٧ إن جميع الأوربيين تقريبا الذين قدموا مصر إنما جاءوا لتكوين ثروات بالطرق المشروعة وغير المشروعة . ولكن الذى حدث فى معظم الأحوال أنهم لجأوا إلى الكسب غير المشروع . وكانت غالبيتهم من ذوى الخلق السىء وأخذ الكاتب يعدد أنواعهم وصفاتهم . والخطاب وصف مؤثر لطغيان اولئك الأجانب واعتداءاتهم المنكرة دون أدنى سبب على المصريين فى الطرقات . أنظر :

Eugène Gellion Danglar : Lettres sur l'Egypte Contemporaine 1865-1875. Paris 1876, pp. 70-73.

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١ البرقيات الواردة إلى القصر برقية من محافظ =

وكان العمال الأوربيون الذين استقدمتهم الشركة على عهد اسماعيل ينزعون إلى أعمال العنف لأتفه الأسباب ، ويتخذون الإضراب عن العمل وسيلة لتحقيق مطالبهم كرفع الأجور أو مد مواعيد السهر فى الحانات وعدم غلقها وقت القيلولة . وكثيراً ماوقعت مصادمات دموية بينهم وبين زملائهم العمال المصريين الذين كانوا يرفضون مشاركتهم فى الإضراب عن العمل . وكان ينجم عن ذلك وقوع ضحايا من المصريين ويسارع بعض قناصل الدول فى الحضور من القاهرة او الإسكندرية إلى ساحات الحفر لتهدئة الموقف (١) .

يضاف إلى ذلك اعتبار آخر له أهميته وهو وجود المنطقة التى تحفر فيها القناة فى جهة صحراوية تصعب الإقامة فيها خلال السنوات الأولى قبل تنظيم وسائل المواصلات إليها وتوفير ماء الشرب ومواد التموين فيها وإعداد المساكن وغير ذلك . فالصحراء كانت عقبة كبيرة فى اجتذاب العمال الأوربيين فى

=الاسكندرية إلى رياض باشا برقم ٦٢٥ بتاريخ ١١ من جماد آخر ١٢٨٢ . وانظر أيضاً محفظة ٣٥ معية تركى وثيقة رقم ٢٦٨ من محمد شريف باشا ناظر الخارجية إلى المعية السنية . وانظر كذلك دفتر رقم ٤ للبرقيات الواردة برقية رقم ٢٨٢ .

(١) محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٤٢ وثيقة رقم ٥١٤ — ومحفظة ٣٦ وثيقة رقم ١٩١ ومحفظة ٣٩ وثائق رقم ٩١ ، ٢٨٣ ، ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٨ . وانظر أيضا :

دفتر رقم ٦ للبرقيات : برقيات رقم ٧٤٨ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٨١ ، ٧٨٦ ، ٧٧٨ .

دفتر رقم ٩ للبرقيات : برقيات رقم ١٣٠ ، ٦٨٧ ، ٧٤٥ ، ٧٥١ ، ٧٦٨ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٥٢ ، ٨٢٢ ، ٨٦٢ ، ٨٨٧ ، ٩٠١ الأعتداء على رجال البوليس والاستنجاد بنظارة الداخلية . برقيات رقم ٩٢٦ ، ٩٣١ ، ٩٤٢ .

دفتر رقم ١ برقيات رقم ١٣٠٨ ، ١١١٧ ، ١٠٥١ ، ١٠٢١ ، ٩٩٤ .

وانظر أيضاً بخصوص سوء سلوك العمال الأجانب فى الشركة :

Erckmann Chatrian: Souvenirs d'un ancien chef de chantier à l'Isthme de Suez. 5ème édition. Paris, pp. 272-273.

وانظر كذلك :

L'Isthme de Suez العدد ٢٧٠ الصادر فى ١٥ أكتوبر ١٨٦٧ ص ٣٥٧ مجموعة السنة الثانية عشرة .

تلك الفترة . ولم يكن فى مقدور الشركة أن تجد عددا كافيا من العناصر الطيبة بين العمال الأجانب على استعداد للعمل فى الصحراء .

* * *

وإذا كانت المعارضة الانجليزية لمشروع القناة هى التى أدت إلى التفكير فى الحد من استخدام العمال الأجانب فى تنفيذ المشروع ، واتفق ذلك عرضا مع المصالح المصرية ثم المصلحة المادية المؤقتة للشركة ، فقد كان من الضرورى أن تراعى فى مسألة الأيدى العاملة أحوال البلاد الإقتصادية والإجتماعية حتى لا يكون حشد العمال المصريين سببا فى الإضرار بتلك المصالح . فمصر بلد زراعى ، كانت ولاتزال الزراعة فيه تعتمد على سواعد الفلاحين أكثر من اعتمادها على الآ ت الحرث الميكانيكية وما إليها ، ولم يتجاوز عدد سكان مصر وقت حفر القناة خمسة ملايين نسمة . ومن المسلم به أمام تلك الحقائق الثلاث أن استخدام المصريين على نطاق واسع فى حفر القناة بأجور تافهة ، تدفع لهم حينا وتحبس عنهم احيانا ، يصيب الإنتاج الزراعى بأضرار بليغة . وكان يجدر بسعيد باشا أن يتنبه لهذه الناحية الحيوية فلا يعرض الإقتصاد المصرى لهزات عنيفة . ولكن مشروع القناة كان أكبر من أن يواجهه بعقليته المتوسطة وذكائه المحدود . فشركة القناة لم تبد اهتماما جديا باستخدام الآت لحفر القناة تغنيها عن استخدام المصريين بكثرة عددية وفيرة . فالثابت أنه لم تكن لديها كراكة واحدة عند ما شرعت فى حفر القناة فى ٢٥ من ابريل ١٨٥٩ ، على الرغم من أنه كان قد انقضى إلى ذلك الوقت أكثر من أربع سنوات منذ صدر عقد الإمتياز الأول . وكل ماقامت به الشركة فى هذا الصدد أنها عقدت ، قبل بدء عمليات الحفر بشهر واحد ، اتفاقا فى ٢١ مارس ١٨٥٩ مع شركة كومب Combe فى مدينة ليون لتوريد كراكتين قوة كل منهما عشرون حصانا (١) ومع ذلك فإن مصانع تلك الشركة لم تبدأ فى شحن أجزاء

---

(١) أنظر نصوص الاتفاق فى

Voisin Bey: Le Canal de Suez, 7 vols. Paris, 1902-1906., t. VII, pp. 213-216.

الكراكتين إلا على فترات متباعدة فى غضون عام ١٨٦٠ . وكانت هاتان الكراكتان على قدر كبير من العجز (١) . ومن الطبيعى أن شق قناةالسويس بمثل طولها واتساعها وعمقها كان أخطر من أن تواجهه الشركة بمثل هاتين الكراكتين الهزيلتين مما يدل على أن نيتها كانت مبيتة على استغلال الشعب المصرى بتسخيره فى حفر القناة .

(١) المرجع السابق . الجزء السادس ص ص ٨٦ - ٨٧ و ص ص ٩٥ - ٩٦ .

الفصل الثانى

الصديقان يعالجان مشكلة الأيدى العاملة

الملابسات التى أدت إلى إصدار عقد الإمتياز الثانى ـ دى لسبس يدعو الأصدقاء للنزهة فى مصر على حساب الوالى ـ أطيب الخمور والمأكولات ـ فتح اعتماد للضيوف ـ تمثيلية بارعة ـ موجز لمواد العقد ـ الوضع الذى أخذته مشكلة الأيدى العاملة بعد صدور العقد الثانى ـ دى لسبس يختلق سبباً لاستصدار لائحة العمال ـ الفوارق بين عقليتى الرجلين ـ نقد وتحليل اللائحة ـ استغلال دى لسبس للائحة «

» جاء عقد الإمتياز الأول خلوا من أية اشارة إلى وسائل تنفيذ المشروع أو مشكلة الأيدى العاملة . فاقتصر على مواد تبين أهداف المشروع وامتيازات الشركة إلى غير ذلك غير أن المادة الأخيرة منه نصت على تعهد سعيد باشا بأن يقوم هو وجميع موظفى الحكومة المصرية بتقديم المساعدة عند تنفيذ عقد الإمتياز واستغلاله .

ولم يكد يذاع العقد حتى قامت الحكومة الانجليزية تعارض المشروع . وسرعان ما أثارت مشكلة الأيدى العاملة التى تستخدم فى تنفيذه على النحو الذى بسطناه فى الفصل السابق . وقد رأت الحكومة الانجليزية فى إبراز هذه المشكلة دعامة قوية ترتكز عليها فى سياستها العدائية نحو المشروع ، وفى إثارة مخاوف الحكومة التركية منه .

وقد رغب محمد سعيد ودى لسبس فى اسكات صوت المعارضة الإنجليزية من ناحية العمال الأجانب ، وفى تبديد الشكوك التى تثيرها انجلترا فى نفس الحكومة التركية حول أهداف فرنسا السياسية من تنفيذ المشروع تارة ، أو

أطماع سعيد فى الإستقلال بمصر تارة أخرى . كما كان دى لسبس حريصا على أن يخفف عن كاهل الشركة من عبء استخدام العمال الأجانب فى نطاق واسع . فاستغل لمصلحته الوضع السياسى الذى أخذته مشكلة الأيدى العاملة . ولاحت له الفرصة حين نجح على عادته فى أن يستصدر من سعيد باشا عقد امتياز ثان، يكون أوفى وأتم تفصيلا من العقد الأول ويزيد عليه فى الإمتيازات التى أغدقت على الشركة إغداقا .

ولا نريد أن نمضى فى الحديث عن أهمية الوضع الجديد الذى أخذته مشكلة الأيدى العاملة عقب صدور العقد الثانى قبل أن نعرض فى ايجاز شديد إلى الملابسات التى أدت إلى صدور هذا العقد .

كان دى لسبس قد قام فى قافلة كبيرة ، عقب صدور عقد الإمتياز الأول برحلة ارتاد فيها منطقة برزخ السويس ، ورافقه فيها لينان بك Linant Bey وموجل بك Mougel Bey كبيرا مهندسى الحكومة المصرية فى ذلك الوقت (١) . وكان الغرض من هذه الرحلة — وقد تحملت الحكومة

(١) كان لينان بك أحد الخبراء فى موضوع قناة السويس واشترك اشتراكا فعليا فى معظم الدراسات التى تمت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لإيصال البحرين . وكان قد وضع سنة ١٨٣٣ مشروعا لترعة ملاحية تربط البحرين وقدم نسخه منه إلى ميمو Mimault قنصل فرنسا العام فى مصر . كما أسهم فى أعمال مهندسى جمعية أبحاث قناة السويس حين قدموا مصر سنة ١٨٤٧ . أنظر شرحا للدراسات التى قام بها لينان فى منطقة برزخ السويس على عهود محمد على وعباس وسعيد .

Linant de Bellefonds Bey: Mémoires sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours. Paris, 1872, pp. 213-262.

أما موجل بك فقد قربه إليه دى لسبس وعينه كبيرا لمهندسى الشركة ومديراً عاما للأشغال بها . وصادق مجلس إدارة الشركة على هذا التعيين بجلسة ١٥ يناير ١٨٥٩ وأسهم فى أعمال المجلس الأعلى للأشغال بالشركة فى غضون عامى ١٨٥٩ ، ١٨٦٠ وقد استقال من منصبه فى ٢١ أكتوبر ١٨٦١ إذ لم يستطيع الإقامة بصفة مستديمة فى صحراء البرزخ وخلفه فى منصبه فوازان بك . أنظر :

Voisin Bey, ouvr., cit., t. VI, pp. 35 et 192.

المصرية نفقاتها (١) — دراسة المشروع على الطبيعة واقرار مبدأ حفر القناة على خط مستقيم مباشر بين البحرين (٢).

ولما انتهت الرحلة فى ١٥ يناير ١٨٥٥ بعد أن استمرت قرابة ثلاثه أسابيع (٣) ترك دى لسبس كبيرى المهندسين يعـدان تقريرهما وأبحر من الإسكندرية فى ٢٧ يناير إلى القسطنطينية يلتمس تصديق السلطان عبد المجيد على عقـد الإمتياز ، ولكنه لم ينجح بسبب المعارضة الانجليزية لمشروع القناة وقد حمل لواءهـا فى القسطنطينية السير ستّرادفورد دى ردكليف Sir Strafdord de Redcliffe سفير انجلترا هناك . فعاد إلى مصر .

وفى تلك الأثناء كان لينان بك وموجل بك قد فرغا فى ٢٠ مارس ١٨٥٥ من إعداد تقريرهما الذى عرف باسم « المشروع الإبتدائى لشق برزخ السويس L'avant-projet pour le percement de l'Isthme de Suez بحثا فيـه شق القنـاة على خط مستقيم بين البحرين المتوسط والأحمر ، ووضعـا مواصفة لترعة للماء العذب تخرج من النيـل إلى منطقة القناة تستخدم فى أغراض الملاحة النهرية وشئون الرى . وقدرا المـدة اللازمة لإنجاز المشروع بست سنوات ونفقات تنفيذه بمبلغ مائتى مليون فرنك (٤) .

واتفق دي لسبس مع سعيد على تكوين لجنة علمية دولية تتكون من أساطين

---

(١) يوميات ١٨ ديسمبر ١٨٥٤ فى الجزء الأول .

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez. Paris (5 vols.) (1875-1881).

(2) Desplaces Ernest: Le Canal de Suez. Episode de l'histoire du 19ème siècle. Deuxième édition. Paris, 1859, p. 24. Voir aussi Bertrand Alphonse et Emile Ferrier: Ferdinand de Lesseps. Sa vie. Son oeuvre. Paris, 1887, p. 56.

(٣) تجد يوميات عن هذه الرحلة فى

De Lesseps F.: Origines etc., ouvr., cit., pp. 65-84.

(4) De Lesseps F.: Percement de l'Isthme de Suez. Exposé et Documents Officiels. Paris, 1855, t. II, pp. 67-214.

الهندسة فى دول أوروبا لدراسة تقرير لينان بك وموجل بك (١) . وأقلع دى لسبس إلى فرنسا يلتمس تأييد الإمبراطور وحكومتــــه ، ثم ذهب إلى انجلترا محاولا التغلب على معارضة الحكومة الانجليزية لمشروع القناة . وانتهز فرصة وجوده فى أوربا فكون اللجنة العلمية وضمت أعضاء يمثلون سبع دول (٢) قامت حكوماتهم باختيارهم (٣) ، عدا انجلترا التى رفضت تلبية نداء دى لسبس فقام بنفسه باختيار الأعضاء الإنجليز .

وجاء خمسة من أعضاء اللجنة إلى مصر بحجة دراسة المشروع على الطبيعة وجمع المعلومات اللازمة ، وانضم اليهم لينان بك وموجل بك وبارتلمى Barthelemy Saint-Hilaire عضو المعهـد وقــد عين سكرتيرا عــاما لشركة القناة فيما بعد . ومن الغريب أن دى لسبس دعا كثيراً من أصدقائـه ومعارفه إلى السفر إلى مصر مع أعضاء اللجنة حتى ضاقت بهم السفينة أوزيريس Osiris التى أقلتهـــم إلى مصر . ويقول لينــــان بك إنه لو استجاب جميع الذين وجهت اليهم الدعوة لتطلب الأمر استئجار عدة سفن يبحرون عليها إلى مصر ولازدحمت بهم جميع فنادق مصر.(٤) ولم يكن دى لسبس من رجال المال حتى يستطيع استضافة العدد الضخم من المدعوين . ولكنه كان يعتمد على كرم صديقه سعيد باشا وكان يعلم أنهم سينزلون فى رحاب الوالى وأن مصر هى التى تتحمــل نفقات هذه النزهة فخزانه الوالى فى ذلك الوقت هى خزانة الحكومة . وما أن بلغ الركب مصر فى ٨ نوفمبر ١٨٥٥ حتى أضفى عليهم سعيد الكثير من مظاهر التقدير والتكريم فوضع تحت تصرفهم

---

(١) أنظر تقريرا أرسله دى لسبس إلى سعيد باشا بتاريخ ٣٠ أبريل ١٨٥٥ فى
Voisin Bey, ouvr., cit., t. I, pp. 30-33.
وقد جاءه الرد من سعيد فى ١٩ مايو ١٨٥٥ بالموافقة .

(٢) هى فرنسا وانجلترا والنمسا واسبانيا وايطاليا (سردينيا) وهولندا وبروسيا .

(٣) أنظر طريقة تأليف تلك اللجنة واسماء أعضائها والوظائف التى كانوا يشغلونها فى
Desplaces Ernest, ouvr., cit., pp. 55-57.

(4) Linant de Bellefonds Bey, ouvr., cit., pp. 241-242.

كل ما يطلبونه من سفن نيلية وقطر حديدية وموظفين وخــدم (١) لأنهم « أناس مرعيو الخاطر » (٢) وفتح لهم اعتمادا إضافيا قــدره ثلاثمائة الف فرنك (٣) أى ما يقرب من اثنى عشر الف جنيه وهو مبلغ جسيم بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت . واستقبل أعضاء اللجنة فى القلعة السعيدية بالقناطــر الخيرية استقبالا رائعا وقال له دى لسبس « إنكم تعاملون هؤلاء السادة كأنهم رءوس متوجة » . فأجابه سعيد « نعم بلاشك . إن هؤلاء السادة رءوس توجها العلم » (٤) ودعاهم سعيد إلى الرحلة التقليدية لزيارة آثار مصر فى الوجه القبلى على سفن الحكومة ولقضاء شطر من الشتاء فى صعيد مصر (٥). وانتقد

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٥٠٢ معية تركى ص ٦٧ بند محافظة الاسكندرية افادة رقم ٦٨٩ مسلسل و ٣٠ أصلى فى ٩ ربيع أول ١٢٧٢ (١٩ نوفبر ١٨٥٥) وردت فى ١٠ منه - وكذلك نفس الدفتر ص ٦٩ بند الظهورات . افادة رقم ٦٢٧ مسلسل فى غرة ربيع أول ١٢٧٢ وكذلك ص ٧٤ نفس الدفتر بند محافظة اسكندرية افادة رقم ٧٦٠ مسلسل و ٤٥ أصلى فى ١٧ ربيع أول ١٢٧٢ وكذلك ص ٦٧ نفس الدفتر بند محافظة اسكندرية افادة رقم ٦٩١ مسلسل و ٣٥ أصلى فى ١٠ ربيع أول ١٢٧٢ وردت فى ١٤ منه . وكذلك ص ٨٠ نفس الدفتر . بنــد محافظة اسكندرية افادة رقم ٨٢٨ مسلسل و ٥٩ أصلى بتاريخ ٢٩ ربيع أول ١٢٧٢ وردت فى غرة ربيع آخر ١٢٧٢ (١١ ديسمبر ١٨٥٥) .

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٥٠٤ معية تركى ص١٦ أمر رقم ١٠١ مسلسل و ١٥ أصلى فى ٢٩ صفر ١٢٧٢ .

(٣) محاضرة ألقاها دى لسبس فى ٢٦ يناير ١٨٦٤ فى قاعة شارع La Paix بباريس نشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٩٠ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة.

(٤) محاضرة القاها دى لسبس فى ٢٢ يونيو ١٨٦٢ فى مدرج كلية الطب بباريس ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٥ الصادر فى أول يوليو ١٨٦٢ مجموعة السنة السابعة .

(٥) تذكر بعض المراجع الفرنسية تبريرا لرحلة أعضاء اللجنــة فى الصعيد أنهم قاموا بهــا استجابة لرغبة سعيد باشا فى دراسة شئون الرى والتوسع فى الاستفادة من مياه النيل . انظر .

Ernest Desplaces, ouvr., cit., p. 59.

Marius Fontane: Le Canal Maritime de Suez. Histoire du Canal et des travaux. Paris, 1869, pp. 15-18.

وقد تخبط مصدر فرنسى آخر فى ذكر بواعث تلك الرحلة فقال إنهم ذهبوا إما لدراسة بعض المسائل التى تتصل بنظام قناة السويس المستقبلة وإما لدراسة نظام الرى فى مصر

Bertrand et Ferrier, ouvr., cit.,

لينان بك هذا التصرف وتساءل عن الفائدة التى عادت على مصر من هذه النزهة التى رافقهم فيها وقال عنها « إن الموائد التى مدت للضيوف طـوال الرحلة قد حوت أطيب أنواع الخمور وأشهى المأكولات بكميات وفيرة» (١) .

وبعد مضى أكثر من شهر على قدومهم بدأوا فى المهمة التى من أجلهـا حضروا ، فزاروا منطقـة القناة زيارة عابرة من السويس متجهـين شمالا إلى البحر المتوسط (٢) . ثم استقلوا البـاخرة المصرية «النيـل» إلى الاسكندرية فبلغوها فى أول يناير ١٨٥٦ وفى اليوم التالى قدموا إلى الوالى تقريراً موجزا ضمنوه النتائج العامة لرحلتهم وقرروا أن حفر القناة على خط مستقيم هو الحل الوحيد للموضوع وأن تنفيذها سهل ونجاحها مؤكد وأن تكاليف انشاء القناة والأعمال المتصلة بها لا تتجاوز ٢٠٠ مليون فرنك عـلى ما ذهب اليه كبيرا مهندسى الحكومة المصرية فى تقريرهما (٣) .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى استصدر دى لسبس من سعيد باشا فى ٥ من يناير ١٨٥٦ وثيقتين هامتين هما عقد الإمتياز الثانى وقانون الشركة الأساسى ، ممـا يدل دلالة قاطعة على أن هاتين الوثيقتين كانتا معدتين لتوقيع سعيد باشا عليهما قبل أن تقدم اللجنة تقريرها الموجز إليه . إذ لا يعقل أن يوضع عقد الإمتياز الثانى متضمنـا ٢٣ مادة (٤) وقانون الشركة الأساسى حـاويا ٧٨

(1) Linant de Bellefonds, ouvr., cit., p. 242.

(٢) أنظر وصفا تفصيليا لتلك الرحلة فى
Ernest Desplaces, ouvr., cit., pp. 61-73.

(٣) انظر نص تقرير اللجنة الفرعية فى كل من
De Lesseps F.: Percement etc., ouvr., cit., t. II, pp. 139-141.
Charles Roux J.: L'Isthme et le Canal de Suez. Historique. Etat actuel. 2 volumes. Paris, 1901, t. I, pp. 445-446.
Marius Fontane, ouvr., cit., pp. 15-18.
Voisin Bey, ouvr., cit., t. I, pp. 54-55.

(٤) انظر نص عقد الأمتياز الثانى فى
De Testa, ouvr., cit., t. II, p. 93 et suiv.
Gelat Bey, ouvr., cit., t. I, p. 446 et suiv.
Charles Roux J., ouvr., cit., t. I, p. 442 et suiv.

مادة (١) فى خلال يومين والملحظ الثانى الذى نسجله هنا هو أن دى لسبس كان على علم تام بقرار اللجنة قبل اصداره بل وقبل قدوم أعضائها إلى مصر وزيارة منطقة القناة . فهذا التسلسل السريع للحوادث منذ قدوم بعض أعضاء اللجنة إلى مصر وزيارتهم العابرة لمنطقة البرزخ وتقديم تقرير موجز للغاية متضمنا نتائج دراسة خاطفة ثم صدور عقد الإمتياز الثانى وقانون الشركة الاساسى كل ذلك أبلغ فى الدلالة على أن الأمر لم يكن سوى تمثيلية أعدها دى لسبس مع أعضاء اللجنة فى أوروبا للتمويه على سعيد ، وأن النية كانت مبيتة على اغتيال حقوق مصر وأموالها وجهود شبابها والإستيلاء على مساحات شاسعة من أراضيها الزراعية والصحراوية .

. . .

ويلاحظ على عقد الإمتياز الثانى من الناحية الشكلية أنه ينقسم إلى قسمين : القسم الأول وأطلق عليه الإلتزامات ويتكون من تسع مواد ، والقسم الثانى وسمى الإمتيازات ، ويتكون من أربع عشرة مادة . وكانت امتيازات الشركة ترجح بطبيعة الحال التزاماتها وتفوقها كما وكيفا .

وقد نص فى باب الإلتزامات على أن تقوم الشركة على نفقتها وتحت مسئوليتها بكافة الأعمال والمنشآت اللازمة لحفر قناة للملاحة البحرية الكبرى بين السويس على البحر الأحمر وبين خليج بلوز (الفرما) على البحر المتوسط وحفر ترعة للماء العذب تربط النيل بالقناة الملاحية وتستخدم فى أغراض الرى والملاحة النهرية ، وتتفرع قبيل وصولها إلى بحيرة التمساح إلى فرعين

Voisin Bey, ouvr., cit., t. I, p. 56 et suiv. =

Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : (Notice et Renseignements Généraux (2ème partie) Paris. 1926, . 7 et suiv.

Merruar Paul : L'Egypte Contemporaine, p. 272 et suiv .

أنظر نص قانون الشركة الأساسى فى

De Lesseps F. : Percement de l'Isthme etc. ouvr., cit., t. II, p. 291 et suiv.

Compagnie de Canal du Suez . Notice., ouvr., etc., p. 16 et suiv.

للرى والتغذية ، ويتجه أحدهما شمالا إلى الفرما والثانى جنوبا إلى السويس . وحددت المدة اللازمة لإنجاز هذه الأعمال بست سنوات مالم تحدث قوة قاهرة تحول دون ذلك . وكانت المادة الثانية فى هذا العقد من أهم المواد إذ نصت على أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة يجب أن يكون على الأقل أربعة أخماس مجموع العمال . وسنتكلم عن أهمية هذه المادة عقب هذا العرض السريع لبقية مواد العقد . والتزمت الشركة بتحويل بحيرة التمساح إلى ميناء داخلى صالح لاستقبال أكبر السفن حجما، وإنشاء ميناء لوقاية السفن عند مدخل القناة فى البحر المتوسط وتحسين ميناء السويس ومرساها كى تستطيع السفن الإحتماء فيها . كما أكد العقد حق الشركة الذى منح لها فى العقد الأول وهو أن تبيع مياه النيل لأصحاب الأراضى الواقعة على حافتى ترع الماء العذب التى ستقوم الشركة بحفرها ويرغبون فى رى أراضيهم بواسطة مآخذ مياه من هذه الترع . هذه هى أهم الالتزامات التى تقيدت بها الشركة فى عقد الإمتياز الثانى . أما باقى الإلتزامات فتتناول مسائل فنية وإدارية كتعيين خط سير قناة السويس وترعة الماء العذب وتعيين مندوب للحكومة المصرية لدى إدارة الشركة يحافظ على حقوق الحكومة وتتحمل الشركة مرتبه .

وكان أول امتياز ورد فى العقد فى باب الإمتيازات هو الأراضى الشاسعة التى منحتها الحكومة المصرية للشركة بدون مقابل (١) ، وكذلك الحق فى

---

(١) جعلت هذه الأراضى على نوعين : النوع الأول ويشمل الأراضى التى تمنحها الحكومة من أجل انشاء قناة السويس وترعة الماء العذب بفرعيها ، وتتمتع الشركة بحق استغلال جميع الأراضى اللازمة لذلك والتى لاتكون مملوكة للأفراد وذلك بدون أن تدفع عنها ضرائب أو اتاوات .أما النوع الثانى فينص العقد على أن تترك لها الحكومة حق استغلال جميع الأراضى غير المزروعة وقتئذ والتى لا تكون مملوكة للأفراد ويصير ريها وزراعتها بمعرفة الشركة وعلى نفقتها ، على أن تعفى هذه الأراضى من أية ضريبة لمدة عشر سنوات تبدأ من تاريخ استغلالها ثم تخضع طيلة تسع وثمانين سنة، وهى المدة الباقية على انتهاء الامتياز ، للالتزامات والضرائب التى تخضع لها فى ظروف مماثلة أراضى المديريات الأخرى فى مصر . فإذا انقضى أجل الامتياز احتفظت الشركة ، هى والذين يتلقون حقوقهم عنها ، بحق استغلال هذه الأراضى ومآخذ المياه اللازمة لإخصابها بشرط أن يدفعوا عنها للحكومة المصرية الضرائب المفروضة على الأراضى الأخرى الموجودة فى نفس هذه الظروف .

استخراج جميع المواد اللازمة لعمليات وصيانة المبانى والمنشآت التابعة للمشروع من المناجم والمحاجر الأميرية طوال مدة الامتياز وذلك بدون أن تدفع أيـة ضريبة أو رسم أو تعويض . كما تتمتع الشركة بحق الإعفاء الجمركى على جميع ما تستورده الشركة من الخارج من الآت ومواد أيا كانت مما يلزم لمصالحها المختلفة وأثناء إقامة المبانى أو الاستغلال . وقرر سعيد باشا عن نفسه وعن خلفائه فى حكم مصر أن تكون قناة السويس بموانيها التابعة لها طريقا مفتوحا دائما ومحايدا لجميع السفن التجارية التى تجتاز القناة من بحر إلى بحر بدون أى تمييز أو تخصيص أو تفضيل للأشخاص أو الجنسيات فى مقابل دفع الرسوم وتنفيذ اللوائح التى تضعها الشركة لاستخدام القناة وتوابعها .

ونص أيضا على أن مدة الإمتياز هى ٩٩ سنة تبدأ من تاريخ افتتاح القناة للملاحة البحرية الكبرى ، وعند انتهاء أجل الامتياز تستولى الحكومة المصرية على قناة السويس وأن تتسلم أيضا جميع المواد والمهمات المخصصة للخدمة البحرية فى هذه المؤسسة على أن تدفع قيمة ذلك للشركة بعد تقديرها سـواء بالطرق الودية أو بواسطة خبراء . على أنه إذا احتفظت الشركة بالإمتياز لمدد متتالية كل منها تسعة وتسعون عاما فإن حصة الحكومة فى صافى الأرباح وهى ١٥٪ ترتفع عن المدة الثانية إلى ٢٠٪ وعن المدة التالية إلى ٢٥٪ وهكذا ترتفع هذه الحصة بمقدار ٥٪ عن كل مدة على ألا تتجاوز هذه الحصة بأية حال من الأحوال ٣٥٪ من أرباح الشركة الصافية .

واذنت الحكومة للشركة ، بحجة تعويضها عن نفقات البناء والصيـانة والاستغلال ، فى أن تفرض وتحصل طوال مدة امتيازها رسوما على مرور السفن وارشادها وسحبها وجرها ووقوفها عند مرورها فى القنوات والموانى

ونص أيضاً على أن تسلم الحكومة للشركةعند الإقتضاء الأراضى المملوكة للأفراد والتى تكون هناك ضرورة لحيازتها من أجل تنفيذ الأعمال واستغلال الإمتياز ، على أن تدفع الشركة تعويضات عادلة لأصحاب هذه الأراضى بالطرق الودية فإذا نشأ نزاع حول قيمة التعويضات تشكل هيئة تحكيم من ثلاثة أعضاء تختار الشركة أحدهم ، ويختار ذوو المصلحة ثانيهم ، وتعين الحكومة ثالثهم، وتكون اجراءات هذه الهيئة مختصرة وقراراتها نافذة فى الحال وغير قابلة للطعن.

التابعة لها، وذلك على أساس تعريفة يكون للشركة حق تعديلها فى كل وقت بشرط أن تحصل الرسوم من جميع السفن بدون أى استثناء أو تفضيل ، وأن تعلن التعريفة قبل تنفيذها بثلاثة أشهر فى عواصم الدول التى يهمها الأمر وفى أهم ثغورها التجارية ، وألا تتجاوز فيما يختص برسم الملاحة الخاص حدا أقصى هو عشرة فرنكات عن كل طن بحرى من حمولة السفينة وعن كل فرد من الركاب . وترك العقد توزيع الأرباح بنفس النسبة التى وردت فى العقد الأول سواء بالنسبة للحكومة المصرية أو الأعضاء المؤسسين أو حملة الأسهم ونص العقد على أن يعين دى لبسبس رئيساً ومديراً لشركة القناة لمدة عشر سنوات تبدأ من يوم سريان مدة الامتياز . وفى المادة الأخيرة وهى الثالثة - والعشرون نص على أن تلغى جميع النصوص الواردة فى عقد الإمتياز الأول التى تتعارض مع مواد العقد الثانى والذى يصبح أساس العلاقة بين الحكومة المصرية والشركة .

وفى نهاية العقد احتفظ سعيد بنفس الشرط الحتمى الذى ورد فى عقد الإمتياز الأول وهو ضرورة تصديق سلطان تركيا على عقد الإمتياز ، وعلى الرغم من أن سعيدا قد أذن لدى لسبس فى سياق هذا الشرط الحتمى فى أن يباشر انشاء الشركة المالية إلا أنه نص وقرر صراحة أن الشركة تباشر الأعمال الخاصة بحفر برزخ السويس عند ما يصدر تصريح بها من الباب العالى إلى سعيد باشا

. . .

بعد أن اتينا على موجز لعقد الإمتياز الثانى نعود إلى الوضع الذى أخذته مشكلة الأيدى العاملة بصدور هذا العقد ، فنقول إن المادة الثانية منه تعرضت لتلك المشكلة فنصت على أنه « للشركة الحق فى تنفيذ الأعمال المنوطة بها بمعرفتها أو بواسطة مقاولين تعطى لهم هذه الأعمال بالمناقصة العامة أو بالممارسة وفى جميع هذه الحالات يكون على الأقل أربعة أخماس العمال الذين يستخدمون فى هذه الأعمال من المصريين » .

وقد يظن البعض أن الهدف من وضع هذه المادة هو محاباة العمال المصريين

على حساب العمال الفرنسيين ومن إليهم من الأجانب ، وذلك بفتح آفاق رحبة أمام الشعب المصرى للعمل فى تنفيذ المشروع ، ولكن كان هذا آخر شيء يفكر فيه مستعمر أوربى من الطراز الأول على شاكلة دى لسبس. ويزيد فى قوة هذا الظن الخاطىء أن هذه المادة وردت فى عقد الإمتياز تحت عنوان التزامات الشركة . وكانت هذه براعة فائقة من دى لسبس لأنه وضعها فى غير مكانها الحقيقى من العقد ، ولأن ظاهرها غير باطنها . فالغرض الخفى من هذه المادة هو خدمة الشركة أولا وآخرا ، إذ كان يتعـــذر على الشركة أن تستقدم أفواجا هائلة من العمال الأوربيين يقيمون فى صحراء البرزخ لتنفيـذ المشروع فى مراحله الأولى ، وذلك للأسباب التى أوردناها فى الفصل السابق. وقد ذكر أحد رجال القانون الإنجليز أن هذه المادة ولو أنها جاءت فى باب الإلتزامات إلا أنها تعتبر فى الحقيقة امتيازا سخيا للشركة ، إذ لولا وجود هذه المادة لكان تنفيذ المشروع صعبا إن لم يكن مستحيلا (١) .

والواقع أن هذه المادة تهدف فى حقيقها وجوهرها إلى تحقيق أغـراض سياسية ومكاسب مادية للشركة . أما الأغراض السياسية فتتلخص فى القضاء على المعارضـة الانجليزية من ناحية العمال الأجانب وتبديد شكوك تركيا من أهداف فرنســا وسعيد السياسية . وقــد كشفت جريدة L'Isthme de Suez فيما بعد عن الأغراض السياسية التى استهدفت من وضع هذه المادة ،وكان مما جاء فى مقالها «ولا يخفى أن وضع المادة الثانية أريد به دفع الإتهامات عن سعيد باشا وتعزيز مركزه . تلك الإتهامات التى يروجهـا البعض من أنه يرمى إلى حركة استقلالية أو تعريض أملاك الدولة العثمانية لخطر الضياع » (٢) .

ولكن لم تحقق المادة الثانية فى الواقع أغراضها السياسية ، لأنه إذا كانت انجلترا قد كفت بعد صدور عقد الإمتياز الثانى عن معارضة المشروع عـلى أساس مسألة العمال الأجانب فإنها مضت فى سياستها العدائية نحو المشروع متذرعة

(1) Charles Lamb Kenney. Barrister at Law., ouvr., cit., pp. 24-25.

(٢) العدد ١٢٠ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦١ ص ص ١٩٩ - ٢٠٣ مجموعة السنة السادسة .

بأسباب أخرى كإسراف الشركة فى الإعتماد على نظام السخرة فى حفر القناة أو استحالة حفرها فى صحراء البرزخ بسبب العواصف الرملية (١) ، أوخطورة الملاحة فى البحر الأحمر مما يعرض السفن التى تستخدم القناة إلى الغرق فيه (٢) أو أن القناة لن تدر أرباحا مالية تذكر (٣) ، أو أن مصب القناة فى البحر المتوسط سيغمره طمى النيل الذى تجىء به مياه فرع دمياط فيدفعه التيار الساحلى نحو بور سعيد (٤) .هذا فضلا عن الأسباب السياسية الأصلية التى أوجزناها فى الفصل السابق .

أما الغرض الثانى من وضع هذه المادة وهو تحقيق كسب مادى للشركة فقد كانت هذه المادة ركيزة قوية لها فى تنفيذ المشروع : جعل منها دى لسبس أساسا لنظام السخرة فى حفر القناة ورتب عليها ، وفرع منها ، حقوقاً جديدة للشركة صاغها فى لائحة سميت « لائحة استخدام العمال الوطنيين (المصريين) فى أشغال قناة السويس » استصدرها من صديقه محمد سعيد فى ٢٠ من يوليو ١٨٥٦ . وتنفيذاً لهذه المادة وتطبيقا لهذه اللائحة سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمرا لشق قناة السويس . وقد بلغ عدد المصريين الذين أكرهوا على الحفر خلال عام ١٨٦٢ — وهى السنة التى شاهدت أكبر حشد آدمى فى تاريخ الشركة ربع مليون مصرى ، وهو عدد رهيب بالنسبة لتعداد مصر الذى بلغ فى تلك السنة ٤,٨٣٣,٠٠٠ نسمة (٥) .

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ٩٥ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٠ ص ١٨٨ مجموعة السنة الخامسة .

(٢) غرقت الباخرة Alma من بواخر شركة P,O. على مقربة من جدة فى أواخر عام ١٨٦٠ أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٠٥ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٠ ص ٣٤٥ مجموعة السنة الخامسة .

(٣) L'Isthme de Suez العدد ٨٥ الصادر فى أول ينـاير ١٨٦٠ ص ص ١ — ٣ مجموعة السنة الخامسة .

(٤) L'Isthme de Suez العدد ٨٩ الصادر فى أول مارس ١٨٦٠ ص ص ٦٦ — ٦٩ مجموعة السنة الخامسة .

(5) De Malortie Baron: Egypt, Native Rulers and Foreign Interference, 1882, p. 144.

وكانت الشركة عند تنفيذ المشروع تنظر إلى هذه المادة بمثابة رأس مال آخر لها ، فإنه لما احتدم النزاع فى سنتى ١٨٦٣ ، ١٨٦٤ بين الحكومة المصرية وبينها حول الغاء السخرة فى حفر القناة ومسائل أخرى ، قبلت الشركة بعد لأى مبدأ الغاء السخرة ، ولكنها طالبت فى مقابل الغاء اللائحة التى تفرغت عن المادة الثانية تعويضا ماليا قدره سبعة وخمسون مليون فرنك (١) فى حين أن رأس مالها كان مائتى مليون فرنك . وقد حكم لها امبراطور فرنسا بمبلغ ٤٢,٥ مليون فرنك (٢) . وهكذا كانت المادة الثانية خيرا وبركة على الشركة : فقد أتاحت لها ، عند تنفيذها ، موردا هائلا استطاعت به الحصول على مئات الألوف من العمال المصريين ، كما كانت النبع الذى استقت منه ملايين الفرنكات عند الغائها .

وفيما عدا المادة الثانية لم يتعرض العقد الثانى فى شىء لمشكلة الأيدى العاملة سوى أن المادة الثانية والعشرين منه أكدت التعهد الذى جاء فى عقد الإمتياز الأول والذى ينصب على وجوب مساعدة الحكومة المصرية فى تنفيذ المشروع فجاء فى هذه المادة ما يلى « كدليل على الأهمية التى نعلقها على نجاح المشروع نعد الشركة بمساعدة الحكومة المصرية مساعدة تقوم على الإخلاص ، وندعو بهذا موظفى ومندوبى جميع المصالح الحكومية لإعطاء هذه الشركة كل ما يمكن من مساعدة وحماية ويكون لمهند سينا لينان بك وموجل بك اللذين نضعهما تحت تصرف الشركة للإشراف وإدارة الأعمال التى تقوم بها هذه الشركة الحق فى المراقبة العليا على العمال وعليهما أن يسهرا على تنفيذ اللوائح الخاصة بحسن سير العمل . »

• • •

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc. ouvr., cit., t. IV, pp. 447-471.

(٢) يقع فى خطأ معظم المؤرخين والكتاب الذين كتبوا فى تاريخ القناة إذ يقررون أن لجنة التحكيم قد حكمت بثمانية وثلاثين مليون فرنك فى مقابل الغاء السخرة فى حفر القناة . والواقع انها قدرت ٤٢,٥ مليون فرنك تعويضاً للشركة فى مقابل ذلك الالغاء . انظر شرح هذه المسألة فى الفصل الخاص بأجور العمال .

لم يقنع دى لسبس بهذا الكسب الذى أصابه فى عقد الإمتياز الثانى وأراد أن يظفر بكسب جديد تفريعا على المادة الثانية . اذ كان قد وطد العزم على اغفال استخدام آلات ميكانيكية فى عمليات الحفر على الجاف ، خلافا لما كان يصرح به فى مذكراته وخطبه ، وعول على الإستعانة بآلاف مؤلفة من المصريين يسخرهم فى شق القناة بأجور زهيدة للغاية يدفعها لبعضهم حينا ويمتنع عن دفعها أحيانا . والشركة لا تستطيع أن تحصل على ما تبتغيه من تسخير أفواج غزيرة العدد من الشعب المصرى دون أن تنال مساعدة من الحكومة المصرية بتدخلها فى جمع العمال .

وكان تدخل الحكومة لجمع العمال أمرا مألوفا فى ذلك الوقت وكثيراً ماجرى عليه العمل فى مصر ، مع فارق واحد ، هو أن الحكومة كانت تجمع العمال لتنفيذ مشروعات تقوم هى بها من أجل المصلحة العامة كحفر الترع أو مد الخطوط الحديدية أو اصلاح جسور النيل درءاً لأخطار فيضان عال .فالسخرة يمكن اعتبارها من هذه الناحية نوعا من الضرائب . لأن الضرائب قد تؤدى نقداً أو عينا أو عملا . والحالة الإقتصادية السائدة فى أى بلد هى التى تحدد الأسلوب الذى تؤدى به الضرائب (١) .

وقد أراد دى لسبس أن تتدخل الحكومة لجمع مئات الألوف من العمال المصريين واكراههم على العمل فى حفر القناة.وهذا هو وجه الخطأ، لأن مشروع القناة يخضع للقانون العام،ويترتب على ذلك أن تكون الشركة هى المكلفة بالقيام بنفسها بتدبير وسائل تنفيذ المشروع ، فتحصل على جميع العمال الذين

---

(١) قد تؤدى الضرائب فى هذه الصور الثلاث مجتمعة تبعا لحالة التأخر الإقتصادى والإجتماعى. ولا شك أن خير مجتمع هو الذى يؤدى ضرائبه نقداً . ولكن كانت العملة المتداولة وقتئذ فى مصر قليلة وكان العمل المأجور من الحكومة غير مألوف ،وكان حفظ الترع فى منسوبها الضرورى أمرا لامفر منه إذا أريد نجاح الزراعة وهى قوام الحياة الإقتصادية فى مصر . ولذلك نرى أن السخرة فى المشروعات الحكومية كانت وقتئذ أمراً لامناص منه فى مصر . ولكن حدث أن أسىء استخدام السخرة وخاصة فى عصور الإستبداد إذ كان ولاة الأمور فى مصر من الحاكم إلى شيخ البلد يسخرون الفلاحين فى مزارعهم وأعمالهم الخاصة وراء ستار الضرورة العامة .

تتطلبهم عمليات الحفر وفق الطريقة الحرة ، التى تقوم على عرض من مندوب الشركة وقبول من ناحية العامل بعد الإتفاق على الأجر وساعات العمل وما إلى ذلك. وبتقرير هذه الحقيقة تتهاوى مزاعم بعض الفرنسيين من أنصار دى لسبس الذين حاولوا تبرير تدخل الحكومة بجمع العمال من أجل شركة القناة بأنه لون من ألوان المساعدة الخاصة قدمها سعيد إلى الشركة فى صورة السخرة

(١) C'était une espèce de subvention spéciale, sous forme de corvée.

وقد أراد دى لسبس أن يسجل تدخل الحكومة بجمع العمال من أجل حفر القناة — فى وثيقة رسمية يستصدرها من سعيد تأمينا لمصالح الشركة.

ولم يكن عليه إلا أن يتصيد فرصة أو يختلق سببا لكي يظفر بالوثيقة التى يشتهيها ، ولم يكن هذا بالأمر العسير على دى لسبس . فقد هبط فجأة إلى مصر حيث كان محمد سعيد يصطاف فى الاسكندرية ، وأبلغه ان أعضاء اللجنة العلمية الدولية قد عكفوا جميعا ، منذ عودة زملائهم من مصر إلى أوروبا ، على وضع تقرير مفصل شامل لمراحل تنفيذ مشروع القناة ونفقاته ، ولكنهم بعد أن قطعوا شوطا بعيدا فى المهمة استحال عليهم انجازها ، لأنهم ، وهم أساطين الهندسة فى العالم ، لا يضعون تقديراتهم جزافا ، بل على أسس علمية ثابتة . وهم لا يستطيعون أن يقدروا نفقات المشروع تقديرا دقيقاً إلا إذا عرفوا مقدما وبطريقة أكيدة الوسائل التى تحصل بها الشركة على العمال المصريين ، والأجور التى يتناولونها من الشركة ، ووسائل إعاشتهم فى الصحراء إلى غير ذلك من المسائل الوثيقة الصلة بتنفيذ المشروع .

ومرة أخرى يخدع محمد سعيد بهذه الحيلة . ولابد أن نذكر هنا تقريرا للواقع أن العقليتين كانتا غير متكافئتين : فمحمد سعيد كان ذا عقلية متوسطة وذكاء محدود وأفق عقلى ضيق ، يعوزه التبصر والروية

(1) Amedée Marteau: Le Canal de Suez. Sa construction. Son exploitation. Pars, 1867, p. 10.

والخبرة بالحياة والأساليب الدبلوماسية ، وكان يسهويه المديح والثناء والحديث في موضوع عظمته الشخصية وأن التاريخ سيخلد مآثره على الإنسانية والحضارة على مر الأحقاب وتعاقب الأدهار . أما دى لسبس فكان ذا عقل منفسح الجوانب رحيب الآفاق ، أوتى نصيبا موفوراً من الذكاء والمرونة والدهاء والقدرة على الخداع ، كما كان خبيراً بعادات أهل الشرق وحكامه ، . عرف نقط الضعف فى سعيد فأفاد منها إلى أبعد الحدود . استجاب محمد سعيد لرغبة دى لسبس وأصدر من الاسكندرية فى ٢٠ من يوليو ١٨٥٦ لائحة عرفت باسم «لائحة استخدام العمال الوطنيين فى أشغال قناة السويس»(١) وهكذا غدا سعيد باشا أداة طيعة لينة فى يد صديقه دى لسبس الذى ظفر بالوثيقة الرسمية الرابعة فى أقل من عامين بعد صدور عقد الإمتياز الأول ثم الثانى ثم قانون الشركة الأساسى . وضمنت شركة القناة بهذة اللائحة موردا آدميا هائلا تمثل فى الشعب المصرى الذى سخره سعيد باشا فى حفر القناة. ويقول كلفن إن سعيد قد جلب الشقاء على الفلاحين بل كان من أكبر العاملين على اتعاسهم بسبب امتياز قناة السويس الذى فرض عليهم السخرة فى أشد حالاتها وأبعدها عن المكافأة (٢) . ومما يدل على أن الأمر لم يكن سوى حيلة بارعة من دى لسبس هو أن صدور هذه اللائحة لم يغير شيئاً من التقدير الذي وضعته اللجنة العلمية الدولية لنفقات تنفيذ المشروع فقد صدر تقريرها الضافى فى ديسمبر سنة ١٨٥٦(٣) وقدرت فيه نفقات تنفيذ المشروع بمبلغ ٢٠٠ مليون فرنك، وهو نفس التقدير الذى وضعه كبيرا مهندسى الحكومة المصرية

(1) De Testa, ouvr. cit., t. II, p. 104 et suiv.
Gelat Bey, ouvr. cit., t. I, p. 459 et suiv.
Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 100 - et suiv.

(2) Colvin : The Making of Modern Egypt. London, 1906, p. 8.

(3) Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : Rapport de la Commission Scientifique Internationale. Paris, 1856.

وانظر تلخيصا وافيا له فى

Ernest Desplaces, ouvr. cit., pp. 78-84.

بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٥٥ قبل أن تصدر اللائحة وقبل أن تحدد فيها أجور العمال ، وهو أيضاً نفس التقدير الذى وضعه اعتباطا أعضاء اللجنة الفرعية الذين قدموا مصر فى أواخر سنة ١٨٥٥ . ودل التنفيذ على أن نفقات المشروع قد تجاوزت ضعف هذا المبلغ إذ بلغت ٤٣٢,٨٠٧,٨٨٢ فرنكا (١) .

نقد وتحليل للائحة

أول ما يؤخذ على هذه اللائحة هو التضارب الصارخ بين مقدمتهـا وبين المواد التى تضمنتها ، فقد مهد محمد سعيد باشا لها بمقدمة ذكر فيها الأغراض التى توخاها من اصدار اللائحة . وكانت ثلاثة أغراض ، وهى على حسب ترتيب وضعها :

أولا : ضمان تنفيذ أعمال قناة السويس البحرية . فالإعتبار الأول فى نظر سعيد باشا هو الأ تتعرض عمليات الحفر للإضطراب . وكان هذا هو النص الوحيد فى المقدمة الذى ظل محترما من الحكومة المصرية ، وعلى الأخص منذ منتصف عام ١٨٦١ ونفذ تنفيذا دقيقاً صارما أساسه رعاية مصالح الشركة على حساب مصالح الشعب المصرى .

ثانياً : ضمان حسن معاملة المصريين الذين تستخدمهم الشركة . وهذا الغرض قد نسخته المادة الثانية من اللائحة والخاصة بتحديد أجور العمال كما أن الروح التى سادت تنفيذ اللائحة قد أطاحت بهذه الفقرة .

ثالثاً : السهر على مصالح المزارعين والملاك والمقاولين الوطنيين . وهذا الغرض قد عصفت به المادة الأولى .

وبعد ذكر هذه الأغراض الثلاثة قرر سعيد باشا أنه أصدر اللائحةبالإتفاق مع دى لسبس بصفته رئيساً مؤسساً لشركة القناة . وهذه العبارة توحى بأن دى لسبس قد اشترك فى وضع اللائحة بل الأرجح أنه هو الذى انفردبوضعها جريا على عادته مع سعيد باشا ولأنه سعى فى استصـــدارها منه . وكانت

---

(1) Hallberg, oun. cit., p. 137 footnote no. 1.

الشركة هي صاحبة المصلحة الأولى فى هذه اللائحة . وقد أظهر دى لسبس براعة لا مزيد عليها فى صياغة مواد هذه اللائحة لسبب واحد هو أنه تجنب أن يضمنها لفظ السخرة اطلاقاً وإن كانت بعض موادها تفيض بهـــا معنى وروحا . وهكذا كانت براعة دى لسبس لا تبرز إلا فى مجال الخداع والتدليس والتلاعب بالألفــاظ ليخفى وراءها ما يبيته من تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة . وقد قرر ثلاثة من أقطاب القانون فى فرنسا (١) فى نوفبر ١٨٦٣ أن الإبقاء على هذه اللائحة إنما هو ابقاء للسخرة ، لأن اللائحة والسخرة مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها (٢) .

جاءت بعدهذه المقدمة مواد اللائحة وكانت إحدى عشرة مادة . نصت المادة الأولى على أن « تقدم الحكومة المصرية العمال الذين سيعملون فى أعمال الشركة تبعا للطلبات التى يتقدم بها كبير مهندسى الشركة وطبقاً لاحتياجات العمل . » كانت هذه أخطر مادة على الإطلاق فى اللائحة، وظاهر فيها الغبن الذى يقع على الشعب المصرى إذ كانت مادة مرنة ناقصة ، لم تحدد عدد العمال ولم تعين حدا أقصى لعددهم لا يجوز تجاوزه بأية حال من الأحوال ، ولم توزع حشد العمال على مواسم الزراعة بنسبة معينة ، بل كان تقديم الحكومة العمال المصريين إلى الشركة منوطا بأمرين : رغبة كبير المهندسين فى الشركة وهو مستخدم كبير بها يهتم بشئون عمليات الحفر ويؤثر مصالح الشركة على مصالح الشعب المصرى . وثانياً حاجات العمل . وقد استغل دى لسبس مرونة هذه المـــادة ونقصها ، فلم يقنع بعشرين ألف مصرى تحشـــدهم الحكومة وفق نظام السخرة لحفر القناة بل كان يسأل الحكومة الحافا أن تبعث إلى ساحات

---

(1) Note consultative pour son Altesse Işmail Pacha, Vice Roi d'Egypte, délibérée par Mtres. Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre, en date du 30 novembre 1863.

(2) Le maintien du règlement impliquerait nécessairement le maintien de la corvée ; l'un est fatalement et nécessairement lié à l'autre.

الحفر بأربعين الفا معتمدا على ميول سعيد باشا الطيبة نحوه ونحو المشروع . وقد بلغ من استغلال الشركة لهذه المادة أن قرر كبير مهندسى الشركة أنه كان يحصل على العمال المصريين بمجرد طلب بسيط يبعثه إلى مدير المديرية(١) وهكذا أخضع سعيد باشا مديرى المديريات و « نظارة » الداخلية لسلطة مستخدم فرنسى فى شركة القناة .

ومما هو جدير بالذكر أنه جاءت فى نهاية المادة الثالثة من هذه اللائحة فقرة نصت على وجوب مراعاة مواسم الزراعة عند تحديد عدد العمال . ولكن ظل هذا النص حبرا على ورق ، ولم تكترث الشركة بوجوده وتسامح سعيد باشا فى تطبيقه ، فكان حشد العمال المصريين يتم فى كافة المواسم الزراعية على السواء .

ونلاحظ أيضاً فى هذه المادة ناحية هامة جدا هى وجود عنصر الإكراه وهو أهم مايميز نظام السخرة : الإكراه فى جمع العمال ، والإكراه فى ترحيلهم إلى ساحات الحفر ، والإكراه فى فرض عمل معين عليهم لادخل لإرادتهم فى اختياره أو رفضه ، مما يقطع بأن نظـام السخرة سيكون الركيزة الأولى التى يقوم عليها نظام العمل فى حفر القناة .

أما سائر مواد اللائحة فهى فى مجموعها وفى ظاهرها تميل إلى بعض العناية بأمور العمال . حفلت المادة الثانية بذكر أمور كثيرة هى أجور العمال ومسائل الطعام وإعداد ماء الشرب ومواعيد دفع الأجور كما عالجت مسألة هروب العمال من ساحات الحفر . حددت أجر العـامل بمبلغ يتراوح بين قرشين ونصف قرش وبين ثلاثة قروش فى اليوم . وإذا كان سن العامل يقل عن اثنى عشرة سنة فيتقاضى قرشا واحـداً فى اليوم . وقد ذكرت اللائحة أن هذه الأجور قد حددت على أساس متوسط الأجور التى تدفع فى أعمال الغير . وهذا هو وجه الخطأ ، لأنه ليس هناك مجال للتشابه بين عمليات حفر القناة وبين أعمال الغير . وكان يجب أن تراعى عنـد تحديد الأجور

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 233-234.

ملابسات العمل فى حفر القناة من حيث السفر الطويل الشاق المتنوع الوسائل والذى يتحمله العمـــال حتّى يبلغوا ساحات الحفر فى صحراء البرزخ ، والأخطار التى تحف بهم هناك من قلة مواد التموين وتعذر إعداد أماكن لمبيتهم ، وأهم من ذلك ندرة ماء الشرب وتأخر وصوله اليهم فهذه الظروف المجتمعة تقطع بأن الأجور التى حددتها اللائحة إنما هى أجور بسيطة جدا بالنسبة للعامل المصرى إذا اشتغل وسط تلك الأخطار ، كما أنها أجور تافهة بالنسبة للعامل الآجنبى فى وطنه . وتحديد هذه الأجور نقض صريح لما جاء فى مقدمة اللائحة من ضمان حسن معاملة العمال المصريين .

وقد التزمت الشركة بتقديم الخبز المقدد (الجراية) إلى كل عامل بصرف النظر عن عمره وقدر ثمن الجراية بقرش واحد ، ونص على أن يـكون تقديمها كل يومين أو ثلاثة أيام مقدما ، وكان فى مقدور العمال أن يستبدلوا بالجراية قيمتها النقدية على شرط أن تتأكد الشركة أن فى استطاعة أولئك العمال تدبير طعامهم . وقد نصت هذه المادة أيضا على أن تدفع الأجور نقداً فى نهاية كل أسبوع ، واحتفظت الشركة لنفسها بحق حجز أجر خمسة عشر يوما من كل عامل كضمان لعدم تركه العمل ثم يستمر صرف الأجور له بعد ذلك كاملة . فإذا أنجز كافة الأعمال تناول العامل قيمة المبلغ المحفوظ له بخزانـــة الشركة . وقد أرادت الشركة بهذا النص معالجة حالة كانت تتوقعها وهى هرب العمال من ساحات الحفر قبل انتهاء المدة المقررة لبقائهم فيها . وسنرى أنها قامت بنفس المحاولة للمرة الثانية فى هذه اللائحة حين فرضت المادة الخامسة عقوبات على العمال الذين يحاولون الهرب . ونستخلص من هذا الاهتمام المتعدد فى اللائحة لمنع العمال من الهرب حقيقتين :

أولا : وجود عنصر الإكراه فى استخدام المصريين فى حفر القناة فهم لا يستطيعون ترك أعمالهم فى الحفر ، بل أكثر من ذلك كانت تفرض عليهم حراسة شديدة أثناء سفرهم من قراهم إلى منطقة القناة لمنعهم من الهرب فى الطريق ، ثم تفرض عليهم مراقبة دقيقة فى ساحات الحفر منعا للتراخى فى

العمل أو الإخلال بالنظام أو الهرب من منطقة القناة (١) . والحقيقة الثانية هى أن الشركة كانت تشعر من أول الأمر بأن المصريين سينفرون من العمل فى حفر القناة بسبب تفاهة الأجور وقسوة الظروف التى سيعملون فيها وأنهم لن يجدوا ما يغريهم على المضى فى حفر القناة .

وفى نهاية هذه المادة تعهدت الشركة بأن تقدم إلى العمال ماء الشرب والماء اللازم لاستعمالاتهم الخاصة . وسنرى أن الشركة قد تخبطت فى معالجة مشكلة ماء الشرب ومات المصريون عطشا فى ساحات الحفر .

أما المادة الثالثة فقد نصت على ألا يتجاوز انتاج العامل فى الحفر – وهو مايسمى مقطوعية – الإنتاج المحدد له بمصلحة الطرق والكبارى بمصر والذى طبق اثناء تنفيذ مشروعات الرى الكبرى فى السنوات الأخيرة. وهذه المادة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، فالشركة تتظاهر بأنها حانية على العمال المصريين ولاترهقهم من أمرهم عسرا ولا تطالبهم بأكثر مما كانوا يؤدونه منذ سنوات خلت فى حفر الترع . ولكنها فى الواقع كانت تريد الإستفادة من نظام ينضح بالقسوة ويتشح بالظلم العاتى حين نفذت الحكومة مشروعات الرى الكبرى فى مصر الحديثة ابتداء من حكم محمد على إذ كانت الحكومة تكره المصريين على حفر الترع من الفجر حتى مغيب الشمس تحت وطأة الضرب بالسوط – الكرباج – وكان حفر ترعة المحمودية مثالا يساق فى هذا الصدد (٢) . ومع ذلك فالشركة لم تكترث بهذه المادة واعتمدت فى تحديد انتاج العمال المصريين فى حفر القناة على ما ذهب اليه لينان بك وموجيل بك فى تقريرهما المعروف باسم « المشروع الإبتدائى لحفر برزخ السويس » ٢٠ مارس ١٨٥٥ إذ قدرا انتاج العامل المصرى فى حفر قناة السويس بمتر مكعب ونصف متر مكعب من الأنقاض التى تتخلف عن عملية

---

(١) أنظر الفصل السابع .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . أربعة أجزاء . الجزء الرابع ص ٣٠٤ . حوادث ٢٤ شوال ١٢٣٤ (٦ أغسطس ١٨١٩) .

الحفر فى اليوم الواحد ، أما فى حفر ترعة الماء العذب فإن الإنتاج اليومى يرتفع إلى مترين مكعبين من الأنقاض . وقد أخذت اللجنة العلمية الدولية بهذين التقديرين فى تقريرها الذى وضعته فى ديسمبر ١٨٥٦ وأصبح دستورا للشركة وطلبت من الشركات الهندسية والمقاولين التقدم إليها بعروضهم لتنفيذ المشروع على أساس ما جاء فى ذلك التقرير. وعلى ذلك فإن هذه المادة أصبحت غير ذات موضوع عند تنفيذ اللائحة .

وقد جاءت فى نهاية هذه المادة الفقرة التى ظلت حبرا على ورق وسبق أن تعرضنا لها وهى الخاصة بوجوب مراعاة المواسم الزراعية عند جمع العمال لحفر القناة .

أما المادة الرابعة فقد تعرضت لمسائل الأمن العام فى منطقة القناة فذكرت أن أعمال الشرطة فى ساحات الحفر يقوم بها ضباط الحكومة ورجالها تحت أوامر كبير مهندسى الشركة وطبقاً لتعليماته . وهنا تكمن خطورة هذه المادة لأنها أخضعت السلطة المصرية المحلية فى منطقة القناة لمستخدم فرنسى كبير فى شركة القناة وظل الموقف دقيقاً شائكا طوال حكم سعيد باشا إلى أن صدر قرار بانشاء محافظة القناة فى مارس ١٨٦٣ .

وتعرضت المادة الخامسة لفرض العقوبات على العمال بسبب الإهمال أو الهرب من العمل أو الإخلال بالنظام فى ساحات الحفر. وحددت لكل حالة من هذه الحالات الثلاث عقوبة خاصة تناسبها ، فالعامل الذى يبدو منه إهمال فى عمله يخصم جزء من أجره على ألا يتجاوز الخصم ثلث أجره اليومى ، كما أن الخصم يجب أن يكون متناسبا مع مقدار إهماله فى عمله وانتاجه . وأما العامل الذى يهرب فيفقد أجر الخمسة عشر يوما المحفوظ له بخزانة الشركة ، على أن تدفع الأخيرة المبالغ المتجمدة لديها بهذا السبب لحساب المستشفى المقام فى البرزخ .وكذلك يفقد العامل الذى يخل بالنظام فى ساحات الحفر أجر الخمسة عشر يوما ، كما أعطى للشركة الحق ، زيادة على ذلك ، فى فرض غرامة عليه تضاف لحساب المستشفى .

وتناولت المادة السادسة مسألتى سكنى العمال والعناية الصحية فاشترطت أن تقوم الشركة بإسكانهم سواء تحت خيام أو فى عنابر أو فى بيوت ملائمة كما فرضت على الشركة إنشاء مستشفى ومراكز أسعاف للعمال وأن تتولى الشركة تعيين الأطباء والمستخدمين وأن تزود كلا من المستشفى ومراكز الاسعاف بالأدوية والأجهزة لعلاج المرضى على حسابها الخاص .

ونصت المادة السابعة على أن تتحمل الشركة مصاريف انتقال العمال وعائلاتهم من مكان سفرهم حتى وصولهم إلى ساحات العمل . ويبدو من هذه المادة ألا شأن للشركة بنفقات عودة أولئك العمال مع عائلاتهم إلى قراهم. ومع ذلك فقد أعفى سعيد باشا الشركة من عبء ترحيلهم إلى ساحات الحفر وتكفلت الحكومة المصرية بنقلهم على نفقتها سواء فى السفن النيلية أو فى القطر الحديدية. وقد اشترطت هذه المادة أن تدفع الشركة لكل عامل مريض سواء أكان بالمستشفى أم فى مركز الاسعاف ، عدا مصاريف العلاج التى تتطلبها حالته ، أجرا يوميا قدره قرش ونصف قرش طوال المدة التى يكون فيها عاجزا عن العمل .

ونصت المادة الثامنة على أن الصناع الفنيين مثل الحدادين والنجارين والنحاتين وغيرهم تحدد أجورهم على أساس الأجر الذى تدفعه الحكومة لهم عن مثل تلك الأعمال فى أشغالها وذلك عدا الجراية أو ثمنها .

أما المادة التاسعة فقد نصت على أن تدفع الشركة أجوراً ممتازة لرجال الجيش المصرى الذين فى الخدمة إذا استخدمتهم الشركة فى تنفيذ الأعمال .

وتعهدت الحكومة المصرية فى المادة العاشرة أن تصرف للشركة جميع المقاطف والفؤوس والأدوات اللازمة لنقل الأتربة والمهمات وكذا البارود لعمل الألغام فى المحاجر بسعر التكلفة على أن تقدم الشركة طلبا توضح به ما يلزمها من تلك الأدوات قبل الميعاد بثلاثة أشهر على الأقل .

وأخيرا عهد سعيد باشا فى المادة الحادية عشرة إلى لينان بك وموجل بك – وقد وضعهما تحت تصرف الشركة لإدارة الأعمال وتنفيذها – بالمراقبة

العليا على العمال وأذن لهما فى الاتفاق مع مدير الشركة لتذليل الصعوبات التى قد تظهر فى أثناء تنفيذ ماجاء بهذه اللائحة .

استغلال ديلسبس للائحة

كان صدور لائحة العمال كسبا كبيراً لدى لسبس وسرعان مااستغلها استغلالا واسعا تعددت صوره فقام بدعاية فى انجلترا فى ابريل ١٨٥٧ حين طاف بالمراكز الصناعية والتجارية بها داعيا لمشروع القناة . وعقد اثنين وعشرين اجتماعا عرفت باسم « الاجتماعات الانجليزية English Meetings (١) وقد أبان خلالها أن الشركة وقد جرم عليها استخدام العمال الأجانب إلا بنسبة ضئيلة فلن يعوزها العمال المصريون إذ ستحصل عليهم بكثرة عظيمة وأجور زهيدة بفضل صدور لائحة العمال (٢) . ولما حان الوقت لطرح أسهم الشركة فى الأسواق ودعوة الجماهير إلى الإكتتاب فيها كانت لائحة العمال دعامة قوية قامت على أكتافها الدعوة إلى الإكتتاب فى أسهم الشركة (٣) يضاف إلى ذلك أن دى‌لسبس وجه الدعوة إلى الشركات الهندسية الكبرى وكبار المقاولين فى أوروبا إلى التقدم بعروضهم لتنفيذ المشروع على أساس

---

(١) بخصوص تلك الاجتماعات انظر

De Lesseps F. : Inquiry into the Opinions of the Commercial Classses of Great Britain on the Suez Canal, 1857.

Charles Roux J.— ouvr. cit., t. I, pp. 270-280.

Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., pp. 110-120.

وانظر أيضاً مقالين ظهرا فى جريدة L'Isthme de Suez الأول تحت عنوان

Caractère Général des Meetings Anglais en faveur du Canal de Suez.

فى العدد ٢٥ الصادر فى ٢٥ يونيو ١٨٥٧ مجموعة السنة الثانية . والمقال الثانى تحت عنوان

Meetings de Londres en faveur du Canal de Suez.

فى العدد ٢٦ الصادر فى ١٠ يوليو ١٨٥٧ مجموعة السنة الثانية

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 216.

(٣) المصدر السابق ص ٢١٧ .

ما جاء فى تقرير اللجنة العلمية الدولية . وقد أرفق بهذا التقرير وبعقد الإمتياز وثيقة ثالثة لا تقل أهمية عنها هى لائحة استخدام العمال المصريين فى أعمال قناة السويس حتى يقبل المقاولون على الإشتراك فى تنفيذ المشروع وهم مطمئنون إلى أن اليد العاملة المصرية لن تعوزهم ومدركون الظروف التى سيعمل فيها العمال والأسس التى تحسب عليها أجورهم (١) . وقد استطاعت الشركة بفضل هذه اللائحة أن تعقد إتفاقا مع أحد كبار المقاولين هو الفونس هاردن Alphonse Hardon فى ١٤ فبراير ١٨٥٩ أخذ فيه على عاتقه تنفيذ المرحلتين الأولين من مراحل حفر القناة وفق الشروط والمواصفات والتكاليف التى جاءت فى تقرير اللجنة العلمية الدولية (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) سارعت جريدة الشركة إلى إذاعة ذلك الخبر فنشرت فى عددها الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٥٩ مايلى « تلقينا والجريدة ماثلة للطبع نبأ الاتفاق الذى عقد فى ١٤ فبراير الجارى بين شركة القناة وبين الفونس هاردن المقاول فى باريس . ونحن لا نعرف ردا اكثر افحاما للجدل الذى أثير حول التشكك فى تقديرات المناقصة من شروط هذا الاتفاق » .

وانظر أيضا

Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, pp. 11-13 et 37-52.

Fontane Marius, ouvr. cit., p. 34.

الفصل الثالث

البدء فى تنفيذ المشروع وتعطيل لائحة العمال

دى لسبس يغفل الشرط الأساسى فى عقد الإمتياز – ويضلل المسهمين – الشركة توفد لجنة للبدء فى المشروع – سعيد يعدلها مفاجأة سارة – بدء عمليات الحفر – اشتداد معارضة الحكومة الانجليزية – تأرجح موقف سعيد بين التأييد والمعارضة – دى لسبس يهدد سعيدا – سعيد يغادر مصر ويعهد إلى شريف باشا بمواجهة الموقف – الحكومة المصرية تأمر دى لسبس بايقاف العمل فى حفر القناة – منشورها إلى القناصل – الحكومة تسحب العمال المصريين – وتلجأ إلى تدابير غير ودية – تبادل المكاتبات بين تركيا ومصر – قدوم الاسطول الانجليزى إلى الاسكندرية – سعيد ودى لسبس يتفقان فى على حل إذا صفت الشركة أعمالها – تجدد الأزمة فى اكتوبر – تحديد أول نوفبر ١٨٥٩ لإيقاف العمل فى حفر القناة – تحدى الفرنسيين لقنصلهم وللحكومة المصرية – تدخل فرنسا – نقل قنصل فرنسا مغضوبا عليه من مصر – سعيد يعاود بحذر سياسته الودية نحو الشركة – دى لسبس يحرج سعيدا – احتلال فرنسا لسوريا وتأزم الموقف فى الشرق – الشركة تنصرف عن عمليات الحفر وتقصر نشاطها على إقامة منشآت بحرية وصناعية فى بور سعيد

تضمن كل من عقدى الإمتياز الأول والثانى شرطا حتميا هو ضرورة تصديق سلطان تركيا على العقد قبل البدء فى تنفيذ عمليات حفر القناة . وقد بذل دى لسبس محاولات مضنية طيلة أربع سنوات (١٨٥٥ – ١٨٥٨) فى

القسطنطينية وباريس ولندن وغيرها فى سبيل صدور هذه الموافقة ، ولكنه عجز عن أن يظفر بها بسبب معارضة الحكومة الإنجليزية للمشروع وضغطها على الباب العالى لرفضه . وكانت الحكومة التركية تقدم رجلا وتؤخر أخرى فى هذه المسألة : فلم تجرؤ على اغضاب انجلترا باقرار المشروع ، ولم تجرؤ على اغضاب فرنسا برفضه رفضاً باتا . فامتنعت عن التصديق عليه .وفارق كبير بين الرفض والإمتناع . وإن كان امتناعها قد اتخذ مظهر التسويف فى بحث المشروع .

وقـد استقر رأى دىلسبس على أن يشرع فى تأليف الشركة ويغفل الشرط الأساسى الخاص بموافقة السلطان علىالعقد فيبدأ فى حفر القناة.وكتب بتاريخ ٢٨ يوليو ١٨٥٨ إلى الوكيل الأعلى لشركة القناة فى مصر خطابا جاء فيه « سنرفع الستار عن الفصل الأخير ، ولن نضيع الوقت فى مفاوضات لا طائل منها مع الأتراك . » (١)

ويطلق بعض المؤرخين على تلك الخطة سياسة الأمر الواقع (٢) ولكنها هى سياسة الإستخفاف بالقانون والتنكر للمبادىء الخلقية . وقد تدرجت خطة دىلسبس فى ثلاث خطوات هى طرح الأسهم للإكتتاب العام ثم تكوين الشركة ثم البدء فى عمليات الحفر . واتسمت تصرفاته فى تلك الخطوات الثلاث بالتضليل والتغرير والأكاذيب والمخالفات الخطيرة والتنكر لسعيد باشا وتهديده بمطالبته بتعويضات ضخمة إذا هو تمسك بحرفية القانون فأثار مشكلة تصديق السلطان على العقد أو تعرض لنشاط الشركة فى مصر بسوء .

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. II, p. 309.

(2) Sammarco: Précis etc., ouvr. cit., t. IV, p. 93.
Hallberg, ouvr. cit., p. 158.

فمن ناحية الإكتتاب غرر دىلسبس بالجماهير حين طرح الأسهم للإكتتاب العام . إذ أخفى عنها أن عقد الإمتياز قد تضمن شرطا أساسياً هو ضرورة تصديق سلطان تركيا على العقد قبل البدء فى تنفيذ المشروع ، وأن تلك الموافقة لم تصدر بعد . ثم ادعى فى جرأة أنه يعمل باسم والى مصر وبصفته وكيلا عنه . وكان يستهل المنشورات بهذه العبارة « فرديناند دىلسبس صاحب امتياز قناة السويس بمقتضى التوكيل الصادر له من حضرة صاحب السمو والى مصر يفتتح اكتتابا عاما . »

وقد عجزت الشركة عن بيع جميع أسهمها البالغ عددها اربعمائة الف سهم ، وكان ثمن السهم خمسمائة فرنك تدفع على آجال متباعدة وبأقساط زهيدة .وانتهت المدة المحددة لقبول الإكتتاب– وكانت من ٥ نوفمبر ١٨٥٨ إلى ٣٠ منه – وظل لديها ١١٧ ألف سهم أى أكثر من ربع مجموع عدد الأسهم .

وقد عول دى لسبس على إخفاء هذا الفشل الذى حاق بحركة الإكتتاب وقرر متابعة سياسة التغرير والتضليل وخرق القانون . فانتقل إلى المرحلة الثانية وهى تأليف الشركة تمهيدا للبدء فى عمليات الحفر . وقد انتهك فى هذه الخطوة انتهاكا صارخا قانون الشركة الأساسى الصادر فى ٥ يناير ١٨٥٦ لأن تأليف الشركة لا يتم إلا بعد تغطية رأس المال بأكمله طبقاً للمادة الرابعة من ذلك القانون . ولكن دىلسبس تجنى على الحقيقة وزعم كذبا وزورا فى خطاب أرسله فى ٩ ديسمبر ١٨٥٨ إلى مدير تحرير جريدة L' Isthme de Suez لنشره فى الجريدة أن جميع الأسهم قد اكتتب بها خلال فترة الإكتتاب وأن الشركة تبعا لذلك قد استكملت عناصر قيامها (١) . وفى اليوم الخامس عشر من ديسمبر ١٨٥٨ ألف شركة القناة نهائيا « بمقتضى التوكيل الشامل والتعليمات الخاصة الصادرة إليه من حضرة صاحب السمو

---

(١) نشر دى لسبس هذا الخطاب أيضا فى

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc. t. II, pp. 389-392.

الوالى » (١) ثم مالبث أن كون مجلس إدارة للشركة ضم اليه شخصيات كبيرة واختار ابن عم الإمبراطور نابليون الثالث وهو الأمير جيروم نابليون Jérôme Napoléon حاميا للشركة . وكان رجــلا خليعا فاسقاً عـــرف باخلاصه العميق لمحظياته وعشيقاته . ويلاحظ أن دىلسبس لم يعين مصريا واحداً فى ذلك المجلس . وقد اجتمع المجلس للمرة الأولى فى ٢٠ ديسمبر ١٨٥٨ وأصدر خطابا دوريا إلى حملة الأسهم يبلغهم أن جميع أسهم الشركة قـد اكتتب بها (٢) . ويرى كرابيتس المستشار السابق بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية سابقاً أن الطرق الملتوية التى اتبعها دىلسبس فى تأليف الشركة تؤدى به إلى المحـاكمة الجنـائية (٣) . ولـكن الشـركة كانت تضم بعض الشخصيات الكبيرة فى فرنسا وكان يهمها نجاح المشروع فتغاضت عن تصرفاته غير القانونية .

أراد دىلسبس أن يخطو الخطوة التالية وهى الشروع فى عمليات الحفر . وقد مهد لها بخطاب ضاف للغاية أرسله فى ٣١ ديسمبر ١٨٥٨ إلى سعيد باشا أخطره فيه بتأسيس الشركة ، وأنه - أى سعيد باشا ، قد أصبح مو ضـع التقدير العميق من رجالات السياسة فى أوروبا بسبب رعايته للمشروع . وأقحم فى خطابه الناحية الدينية الإسلامية . فقال إن سلطان تركيا هو رئيس العالم الإسلامى وإن مشروع القناة يهدف إلى تقريب السلطان من مكة المكرمة التى هى أهم جزء فى الإمبراطورية العثمانية لأنها أساس سلطته الروحيـة والدينية . وحاول دىلسبس أن يدلل على أنه ليست هناك ضرورة تدعو

---

(1) De Lesseps F. : Question sur le Canal de Suez. Paris, 1860. pp. 29-30.

(2) Charles Roux J., ouvr. cit., t. I, p. 293. Voir aussi : Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 134.

(3) Crabites Pierre : The Spoliation of Suez. London 1940, pp. 62-67. Voir aussi.

Sabry M. : L'Empire etc., ouvr. cit., p. 259.

إلى انتظار صدور تصديق السلطان على عقد الإمتياز . وأخيرا أخطر الوالى بأن الشركة ستواصل بنشاط الأبحاث والأعمال التمهيدية الخاصة بشق قناة السويس وعلى الوالى أن يتفق مباشرة مع الحكومة التركية على هذاالموضوع لأنه ليس من اختصاص أية دولة أجنبية أن تقيم عقبات أمام مشروع تكوّن من رءوس أموال أفراد ينتمون إلى كافة الدول (١) .

ويلاحظ آن هذا أول تهديد من جانب دى‌لسبس لسعيد باشا بأن الشركة أصبحت ـ فى نظره ـ قوة دولية على أساس أنها تضم مسهمين ينتمون إلى دول عديدة . وهو تهديد حرص دى‌لسبس على أن يردده على مسامع الوالى سعيد ثم الخديو اسماعيل . وكان يبرز هذا التهديد فى المذكرات التى يضعها كلما لاح فى الجو شبح أزمة سياسية أو مالية أو عمالية .

وكانت شركة القناة قد وجهت نداء إلى المؤسسات الهندسية الكبرى فى دول أوروبا لتقدم عطاءاتها لتنفيذ المشروع فى حدود المقايسة التى أقرهـا مجلس الأشغال الأعلى (٢). واختارت الشركة عطاء الفونس هاردن Alphonse Hardon وهو مقاول قيل إن له سمعة طيبة فى الأوساط الهندسية . فعقدت معه اتفاقا مبدئيا فى ١٤ فبراير ١٨٥٩ لتنفيذ المرحلتين الأوليين من المراحل الخمس ، كما سبق أن ذكرنا.

وعقد مجلس إدارة الشركة اجتماعا فى فبراير ١٨٥٩ اتخذ فيه قرارات

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. II, pp. 408-411.

(٢) مجلس الأشغال الأعلى Le Conseil Supérieur des Travaux هو إحدى الهيئات الفنية فى شركة القناة . وكان يجتمع فى باريس برئاسة دى لسبس لدراسة المسائل الخاصة بأعمال التنفيذ مع أن دى‌لسبس لم يكن مهندساً . وقد وضع المجلس برنامجا لحفر القناة قسمة إلى خمس مراحل تتم فى ست سنوات . واسترشد المجلس فى أبحاثه بتقرير اللجنة العلمية الدولية التى قدرت تكاليف الحفر بمبلغ لا يتجاوز مائتى مليون فرنك . أنظر.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 131.
Charles Roux J., ouvr. cit., t. I, pp. 292-293.
Ernest Desplaces, ouvr. cit., pp. 283-285.

عملية سريعة للبدء فى حفر القناة ، كان من بينها ايفاد لجنة إلى مصر تتكون من أربعة أعضاء يرأسهم دىلسبس ، لوضع يد الشركة على الأراضى التى خولها عقد الإمتياز حق استملاكها ، وإقامة ساحات الحفر وتنظيم إدارات الشركة فى مصر والبدء فوراً فى تنفيذ المشروع . وأفصحت جريدة L'Isthme de Suez عن الهدف الأخير فقالت « فى خلال الأسابيع القليلة المقبلة سيضرب أول معول فى الأرض وسيكون له دوى فى العالم أجمع . » (١)

وقابل أعضاء اللجنة سعيد باشا فى ٧ مارس ١٨٥٩ وقدم له رئيسها مذكرة عن مهمة اللجنة . ويخطىء من يظن أن سعيد باشا كان فى ذلك الوقت على خلاف مع دىلسبس حول وجوب التريث فى تنفيذ المشروع حتى يصدر السلطان تصديقه على عقد الإمتياز . فسعيد كان تواقا إلى إنجاح المشروع وإلى الإسراع فى إنجازه اعتقاداً منه أن اسمه سيقترن بأكبر مشروع نفذ فى الشرق فى القرن التاسع عشر مما يخلد ذكراه على صفحات التاريخ. وسنرى أن سعيدا بذل فى تلك الفترة بالذات من المساعدات ما جعل دىلسبس ينجح فى البدء فى عمليات الحفر وفقاً للخطة التى وضعها مجلس إدارة الشركة فى باريس ، بل لقد ذهب سعيد فى مساعداته إلى أبعد من ذلك إذ أعد لأعضاء اللجنة مفاجأة سارة .

أما كل الحيطة التى اتخذها سعيد باشا إزاء تجاهل الشركة الشرط الأساسى الوارد فى عقد الإمتياز ، وهو تصديق السلطان على العقد ، فكانت ارجاء تنفيذ لائحة العمال بعض الوقت ريثما يتكشف الموقف . كما أنه طلب تغيير عبارة أعمال تمهيدية travaux préparatoires التى جاءت فى مذكرة دى لسبس والإكتفاء بعبارة أبحاث تمهيدية études préparatoires وهو تغيير لفظى لم يكن يغير من طبيعة الخطوة التى اتخذتها الشركة بعلمه وبموافقته، واعتقد سعيد أن هذه الحيطة الشكلية ستجعله بمنجاة من غضب السلطان وسخط الحكومة الانجليزية . وهذا دليل آخر نسوقه على أن سعيدا كانت تعوزه حصافة الرجل السياسى وبعد نظره .

---

(١) العدد ٦٦ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٥٩ مجموعة السنة الرابعة .

سافر أعضاء اللجنة إلى القاهرة ومنها إلى منطقة البرزخ وتتبعوا فى سفرهم الخط المقترح لسير ترعة الماء العذب فاجتازوا مديرية الشرقية حتى بلغوا بحيرة التمساح ومنها اتجهوا جنوبا إلى السويس (١). وهناك علموا أن سفينة قد قدمت دمياط من فرنسا تحمل مهمات كانت الشركة قد أوصت عليها فعاد أعضاء اللجنة إلى القاهرة وطلبوا إلى سعيد باشا اعفاء الواردات من الرسوم الجمركية تطبيقاً للمادة ١٣ من عقد الإمتياز الثانى فوافق سعيد على ذلك (٢) .

واستأنف دى لسبس وأعضاء اللجنة المرحلة الثانية من الرحلة ، فسافروا من القاهرة بطريق النيل إلى دمياط حيث أشرفوا على تفريغ شحنة السفينة. وكم كانت دهشة أعضاء اللجنة عظيمة حين وجدوا أن سعيد باشا قد حشد وفق نظام السخرة عشرة الآف عامل حفروا خلال بضعة أيام وقبيل وصول أعضاء اللجنة إلى دمياط ، قناة تخرج من النيل شمالى مدينة دمياط وتصل إلى بحيرة المنزلة (٣) . وكان موجل بك مدير عام أشغال حفر القناة وقتئذ قد عرض على مجلس الأشغال الأعلى فى شركة القناة بجلسة ٢٥ يونيو ١٨٥٨ حفر هذه الترعة حتى يمكن اتخاذها شريانا مائيا تسير فيه القوارب محملة بماء الشرب والطعام من دمياط إلى عمال الشركة فى بورسعيد (٤) . وقد أزاح

---

(١) انظر وصفا تفصيليا لهذه المرحلة من الرحلة فى جريدة الشركة العدد ٦٨ الصادر فى ١٥ ابريل ١٨٥٩ ص ص ١١٤ — ١١٥ ، ١٣١ مجموعة السنة الرابعة. كما تجد يوميات عن هذه الرحلة بقلم Mangaux عضو مجلس ادارة الشركة نشرت فى L'Isthme de Suez العدد ٧٠ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٥٩ ص ص ١٤٧ — ١٥٠ وأنظر أيضا العدد ٧١ الصادر فى أول يونيو ١٨٥٩ ص ص ١٧٣ — ١٧٦ مجموعة السنة الرابعة .

(٢) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٢٣ معيه تركى وثيقة رقم ١٦٣ فى ٢٨ شعبان ١٢٧٥ (٢ ابريل ١٨٥٩) . وانظر أيضا دفتر وارد محافظة دمياط سنة ١٢٧٥ (١٨٥٩) إفادة رقم ٤٣٤ واردة من محافظة اسكندرية فى ٩ر مضان ١٢٧٥ (١٢ ابريل ١٨٥٩).

(٣) جريدة L'Isthme de Suez العدد ٧١ الصادر فى أول يونيو ١٨٥٩ ص ١٦٤ مجموعة السنة الرابعة .

(4) Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, p. 93.

سعيد عن الشركة عبئاً ثقيلا بحفر تلك الترعة وكان اتساعها ١٥ مترا وأطلق عليها قناة الاتصال بين النيل وبحيرة المنزلة . وسمى فوازان هذا العمل من جانب سعيد بأنه مفاجأة . (١) وعلقت جريدة الشركة على حفر هـــذه الترعة فى مقال افتتاحى جاء فية « وهاهى الشركة تظفر بدليل ساطع على رعاية حضرة صاحب السموالوالى للمشروع ، فقد أمرسموه بحشد عشرة آلاف عامل شقوا فى خلال بضعة أيام ترعة اتصال تخرج من النيل شمالى دمياط بقليل وتصل إلى بحيرة المنزلة » (٢) .

واتجه أعضاء اللجنة من دمياط إلى البقعة التى اختيرت مبدأ للقناة من ناحية البحر المتوسط. وهناك وفى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ أقيم حفل متواضع ايذانا بالبدء فى عمليات الحفر . وقد شهد الحفل جمع من مستخدمى الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين بلغ عددهم فى ذلك اليوم نحو مائة عامل جيء بهم من دمياط والنواحى القريبة منها . وألقى دىلسبس الخطاب الآتى :

« باسم الشركة العالمية لقنـــاة السويس البحرية وطبقاً لقرارات مجلس إدارتها نضرب أول معول فى الأرض التى ستفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته . إننا هنا مجتمعون تحدونا فكرة واحدة هى فكرة الإخلاص لمسهمى الشركة ولصالح منشئها وراعيها العظيم الأمير محمد سعيد .

« إن رحلة الإرتياد التى فرغنا من القيام بها لتبعث فينا الإعتقاد أن المشروع الذى يبدأ تنفيذه اليوم لن يكون عملا من أعمال التقدم فحسب ، بل سيزيد من قيمة رءوس الأموال التى ساعدت على تنفيذه زيادة هائلة » (٣)

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 147.

(٢) العدد ٧١ الصادر فى أول يونيو ١٨٥٩ ص ١٦٤ مجموعة السنة الرابعة .

(٣) نشر وصف الحفل والخطب التى ألقيت فيه فى عدة مصادر نذكر منها :

Charles Roux J., ouvr. cit., t. I, pp. 295-296.

Fontane Marius, ouvr. cit., pp. 35-38.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 27.

Jean d'Elbée : Un Conquistador de Génie. Ferdinand de Lesseps, pp. 139-140.

ولما فرغ من إلقاء كلمته أمسك بمعول وضرب به الأرض فى إحدى الحفر التى عملت على خط القناة وكان ذلك ايذانا بالبدء فى عمليات الحفر ، ثم تبعه فى ذلك الوقت أعضاء اللجنة فالمهندسون ثم سائر مستخدمى الشركة . والتفت دى لسبس بعد ذلك إلى العمال المصريين والتى فيهم الكلمة الآتية :

« سيضرب كل منكم بمعوله الأرض كما فعلنا نحن الآن . وعليكم أن تذكروا أنكم لن تحفروا الأرض فقط ولكن ستجلبون بعملكم الرخاء لعائلاتكم ولبلادكم الجميلة . يحيا أفندينا محمد سعيد باشا. » (١) وقد ترجمت لهم هذه الكلمة إلى اللغة العربية ، وشرع العمال المصريون يحفرون القناة تحت إشراف المقاول وهكذا بدأت أعمال تنفيذ المشروع التى استمرت أكثر من عشر سنوات حتى افتتحت القناة للملاحة فى ١٧ من نوفمبر ١٨٦٩

ويلاحظ من ملابسات ذلك الحفل أنه لم يشهده أحد من رجال السلطات المصرية كما أن دى لسبس استغل عزلة ذلك المكان فاستطاع أن يعد التدابير الأولى فى شىء من الحرية .

. . .

ثارت ثائرة الحكومة الانجليزية حين علمت أن دى لسبس بدأ فى تنفيذ عمليات الحفر فضغطت على الباب العالى لحمله على إصدار أوامر صريحة إلى سعيد باشا لإيقاف عمليات الحفر « والتى ليست إلا ضربا من ضروب الخداع والإحتيال السياسى والشخصى » (٢) كما أثارت مخاوف الحكومة التركية من سعيد فصورته بمظهر الوالى الذى ينزع نحو الإستقلال بولايته ، وذهبت انجلترا فى ذلك إلى أنها عرضت على السلطان مساعدتها الفعالة لإخضاع وال « ثائر » على غرار ماحدث سنة ١٨٤٠ مع

وكذلك فى جريدة الشركة العدد ٧٠ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٥٩ ص ص ١٤٥ - ١٤٦ مجموعة السنة الرابعة .

(١) المصادر السابقة

(2) Hallberg, ouvr. cit., p. 163.

نقلا عن وزارة الخارجية البريطانية

F.O. No. 298 to Bulwer. Teleg. May, 19, 1859.

والده محمد على (١) . واستغلت الحكومة الانجليزية الموقف الدولى فى أوروبا إذ ذاك للقضاء على مشروع القناة ، فقد اندلعت نيران الحرب بين فرنسا وبيدمنت من ناحية وبين النمسا من ناحية أخرى فى ٢٦ ابريل ١٨٥٩ — غداة الحفل الذى أقامه دى لسبس ايذانا بالبدء فى حفر القناة — وانصرف معظم اهتمام الحكومة الفرنسية إلى المسائل الحربية . كما أن النمسا التى كانت إلى ذلك الوقت تناصر مشروع القناة انقلبت إلى مناهضته على أثر اشتباكها فى الحرب ضد فرنسا ، وسعت لدى الحكومة التركية لايقاف عمليات حفر القناة (٢)

وتعرضت الشركة لأزمتين عنيفتين فى صيف وخريف ١٨٥٩ (٣) وكادتا تعصفان بالشركة ولما تقطع إلا أشهرا معدودات . وتأرجح موقف سعيد فى تلك الفترة بين تأييد المشروع وبين معارضته ، لأن الضغط الذى تعرض له من تركيا وانجلترا والنمسا كان أقوى من أن يقاومه . ولعله شعر فى ذلك الوقت أكثر من أية فترة سابقة بخطورة اندفاعه فى تأييد دى لسبس . ولكنه كان رجلا سريع التقلب ضعيفاً أمام صديقه دى لسبس .

وقد اتخذ سعيد عدة تدابير « غير ودية » إزاء الشركة. كان من بينها إصدار أوامر إلى مدير الدقهلية ومحافظ دمياط لمنع دى لسبس من ابتياع الطعام أو استئجار قوارب ينقل عليهـا ماء الشرب أو الأطعمة أو غيرها من مواد التموين إلى بور سعيد ، وكانت الدقهلية ومحافظة دمياط أقرب الأقاليم إلى منطقة بور سعيد ، ونكتفى بأن نذكر هنا وثيقة هامة تفصح

---

(1) Charles Roux J., ouvr. cit., t. I, p. 298.

(2) Hussein Husni, ouvr. cit., p. 285. Voir aussi: Hallberg, ouvr. cit., p. 165.

وجريدة L'Isthme de Suez العدد ٧٣ الصادر فى أول يوليو ١٨٥٩ والعدد ٧٥ الصادر فى أول أغسطس ١٨٥٩ بمجموعة السنة الرابعة .

(٣) أفردنا فصلين بعنوان « أزمة يونيو ١٨٥٩ » و « أزمة اكتوبر ١٨٥٩ » فى كتابنا القادم « التاريخ السياسى لقناة السويس على عهد والى مصر محمد سعيد » .

عن الخطة التى انتهجها سعيد بين الفريق المعارض للشركة والفريق المؤيد لها « لقد قدمت إلى مقام جناب ولى النعم ذى المكانة الرفيعة شكوى من تصرفات ذاتكم العلية لأنه قيل إن المسيو دى‌لسبس قد أعطى قوارب على الرغم من التبليغ الشفوى الذى بلغتم إياه بشأن المسيو المشار اليه حيث يقضى بعدم إعطاء شيء ما من هذا القبيل مالم يصدر أمر صريح بشأنه . فأحدثت هذه التصرفات حسرة هنا لأنكم قد فهمتم تفهيما شفوياً عند ما كنتم فى مصر من قبل بضعة أيام ما يجب أن تفعلوه حيال المسيو المومأ اليه ورجاله من إعطائهم قوارب وغيرها أو عدم إعطائهم ذلك ، فلم يفهم هنا السبب الذى دفعكم إلى مخالفة ذلك حتى قدمت شكوى عنكم. وعليه فقد كتبت لكم هذه الإفادة لإخطاركم بأنه عليكم التكرم بالعمل فى هذا الشأن بموجب ذلك التبليغ الشفوى وبإشعارنا سريعا بأسباب هذه الشكوى كيفما كانت حقيقتها وبالصراحة » (١)

لهذه الوثيقة عدة مدلولات: فكان سعيد باشا يعمد إلى استدعاء مديرى الأقاليم إلى القاهرة حيث تلقى عليهم أوامر شفوية ينفذونها حين يعودون إلى مقر وظائفهم ، وكان يتحاشى قدر الإمكان وبنوع خاص إبان الأزمات السياسية إصدار أوامر مكتوبة إلى رجال الحكومة فى موضوع القناة يسجل فيها على نفسه رأيا معينا . وسنرى أنه التزم هذه الخطة أكثر من مرة فى موضوع السخرة فى حفر القناة . كما تدل هذه الوثيقة على أن سعيدا كان حريصا فى هذه الفترة على إبقاء علاقات ودية مع دى‌لسبس .

ولعل دى‌لسبس قد أحس بعد قليل بما كان يدور فى الخفاء، فأرسل إلى الوالى بتاريخ ٨ يونيو ١٨٥٩ مذكرة صيغت فى أسلوب شديد . ذكر فيها أن الشركة وقد تأسست فيجب أن تباشر حقوقها . فإذا حال الوالى بينها وبين مباشرة حقوقها وقد انقضت سبعة أشهر منذ تأسيسها فإن هذا يعرض

---

(١) محفوظات قصر عابدين : خطاب من ناظر الداخلية إلى محافظ دمياط بتاريخ ٨ شوال ١٢٧٥ (١١ مايو ١٨٥٩) دفتر وارد محافظة دمياط ١٢٧٥ . افادة واردة من نظارة الداخلية بتاريخ ٨ شوال ١٢٧٥ رقم ١٤ وردت فى ١١ منه .

الوالى للمسئولية الجسيمة . ثم قال « إن المسئولية تنتفى عن سموكم إذا تابعت الشركة — وقد تأسست وفق القانون — أعمالها بدون عراقيل من جانبكم . وعلى النقيض فالمسئولية تقع على عاتق سموكم إذا كان المسهمون الذين دعاهم موكلكم وباسمكم إلى الإكتتاب يطالبونه بقيمة الخسائرالتى تنجم عن عدم تنفيذ التعهدات » (١)

وهكذا ظهر دى‌لسبس فى هذه المذكرة على حقيقته : تنكر لصديقه وولى نعمته محمد سعيد ، وتجاهل المساعدات القيمة التى بذلها له وتناسى الإمتيازات العظيمة التى أغدقها على الشركة فى عقدى الإمتياز وفى لائحة العمال ، واستأسد فى وجه سعيد ، وتكلم عن المسئولية مع أنه كان يجب أن يكون آخر من يتحدث عنها. فالخطة التى بدأها منذ أن طرح الأسهم للإكتتاب ليست إلا سلسلة متصلة الحلقات من التضليل والتغرير والإجتراء على الحق والإخلال بنصوص العقد توقعه فى مسئوليات خطيرة تدفع به إلى المحاكمة الجنائية وليست إلى المحاكمة المدنية التى هدد بها دى‌لسبس صديقه وولى نعمته سعيد .

وبدلا من أن يواجه سعيد هذا التهديد فقد آثر السلامة وغادر الأراضى المصرية فى رحلة بحرية قام بها تجاه ساحل الشام . وعهد إلى شريف باشا ناظر الخارجية المصرية أن يواجه الموقف . فأرسل الأخير فى ٩ يونيو ١٨٥٩ إلى دى لسبس مذكرصيغت فى أسلوب حازم طلب فيها أن يوقف دى‌لسبس فوراً الأعمال التى يقوم بها فى البرزخ استنادا إلى أن سلطان تركيا لم يصدر تصديقه على عقد الإمتياز ولأن الأعمال التى تباشرها الشركة « ليست لها بأية

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. III, pp. 131-132.

حال صفة الأبحاث التمهيدية » (١) .

وفى نفس اليوم - ٩ يونيو ١٨٥٩ - وجه شريف باشا منشوراً إلى أعضاء السلك القنصلى فى مصر أبان فيه أن الوالى لا يستطيع أن يسمح لأى سبب من الأسباب بالبدء فى حفر القناة قبل أن يصدق السلطان على العقد . وقال إن العمليات التى يقوم بها دىلسبس فى منطقة البرزخ هى أبعد ماتكون عن الأبحاث التمهيدية ثم اختتم ناظر الخارجية منشوره مطالباكل قنصل بالتنبيه على رعايا دولته بالإمتناع عن الأشتراك فى تلك الأعمال « حتى لاتضطر الحكومة المصرية إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان مباشرة حقوقها » (٢)

وتنسيقا لخطة الحكومة المصرية فى ذلك الوقت صدرت الأوامر مكتوبة إلى كل من مدير الدقهلية ومحافظ دمياط بأن يتوجه كل منهما إلى المنطقة التى تحفر فيها القناة وأن يسحبا جهارا وعلانية جميع العمال المصريين الذين يعملون فى الشركة وأن يعودا بهم إلى بلادهم وأن يمنع كل منهما بعد ذلك سفر عمال مصريين إلى منطقة البرزخ . ووضح فى هذه الأوامر التحدى السافر للشركة فجاء فيها أيضا أنه إذا كتب دىلسبس إلى المدير أو المحافظ طالبا السماح بإعادة استخدام العمال المصريين فليرفض كل منهما الطلب ويبلغاه أنهما ينفذان تعليمات الحكومة فى هذا الصدد ، وللمدير أو المحافظ أن يطلع دىلسبس على خطاب الحكومة الصادر فى هذا الشأن (٣) .

ومضت الحكومة فى سياستها غير الودية إزاء الشركة فمنعت صيادى السمك فى بحيرة المنزلة من التعامل مع رجال الشركة . ولولا شحنات من

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. III, p. 133.

وانظر جريدة الشركة العدد ٧٣ الصادر فى أول يوليو ١٨٥٩ ص ٢٠٢ مجموعة السنة الرابعة

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 147.

(٣) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٥٠٩ معية . ارادة إلى جعفر باشا محافظ دمياط .
دفتر رقم ٥١٠ معية . ارادة إلى اسماعيل حمدى بك مدير الدقهلية
دفتر قم ٥١٦ . معية افادة رقم ١٠٨ .

الأطعمة وماء الشرب كان يبعثها دىلسبس من الإسكندرية إلى بور سعيد حينا على ظهر السفينة البخارية « سعيد » وحينا على ظهر سفينة شراعيـة لتعرض رجال الشركة فى منطقة بورسعيد لخطر المجاعة أو الموت عطشا (١) . ويقول ريت Ritt أحـــد مستخدمى الشركة فى تلك المنطقة عن يوم ٢٠ يونيو ١٨٥٩ « لا يزال الموقف كما هو : إن الوقت يمر ببطء شديد يبعث على اليأس . إن علاقتنا مع المصريين آخذة فى التلاشى شيئاً فشيئاً . . . . ليست هناك أخبار من داخل البرزخ . لقد آن الأوان لكى نتخذ قرارا » (٢)

بيد إن إخراج البقية الباقية من العمال المصريين من خدمة الشركة فى ذلك التاريخ لم يؤد إلى تغيير ذى بال فى الموقف ، لأن عددهم كان ضئيلا جدا على أثر هجر كثير منهم لأعمالهم نتيجة للسياسة غير الودية التى انتهجتها الحكومة المصرية سرا فى المراحل الأولى لوقوع تلك الأزمة (٣) أما العمال الأجانب فلم يجمع قناصل الدول على سياسة موحدة لسحبهم استجابـة لمنشور شريف باشا ، بل التزموا موقف التريث والإنتظار ، وخاصة بعد أن أظهر بعض القناصل ميولهم الطيبة نحو الشركة . وهكذا ظل المنشور فيما يختص بالعمال الأجانب حبرا على ورق (٤) .

وكان الباب العالى قد أرسل خطابا إلى سعيد باشا بتاريخ ٩ شوال ١٢٧٥ (١٢ مايو ١٨٥٩) يستفسر منه عن حقيقة الموقف فى منطقة البرزخ وينبه عليه بضرورة تجنب أى عمل من شأنه خلق مشكلات سياسية قـــد

---

(1) Fitzgerald Percy: The Great Canal at Suez. Its Political, Engineering and Financial History. 2 vols. London, 1876, t. I, p. 171.

وانظر ايضا رسائل بتاريخ ١٤ يونيو ١٨٥٩ و ٣ يوليو ١٨٥٩ فى

Ritt Olivier: Histoire de l'Isthme de Suez. Paris, 1869, p. 166.

(2) Ritt, ouvr. cit., p. 171.

(٣) جريدة الشركة العدد ٧٨ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٥٩ ص ٢٨٤ مجموعة السنة الرابعة .

(٤) انظر فيما يختص بالعمال الأجانب إبان ازمة يونيو ١٨٥٩ كلا من :

De Lesseps F.: Lettres etc., ouvr. cit., t. III, pp. 181-184.
Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 152 et t.VI, pp. 147-148.

يستعصى حلها (١) وقد تمهل سعيد فى الإجابة عليه ثم أرسلت الحكومة المصرية باسم سعيد باشا (٢) خطابا بتاريخ ١٣ ذى القعدة ١٢٧٥ (١٤ يونيو ١٨٥٩) إلى الصدر الأعظم (٣) ردا على خطاب الأخير . وفى هذا الخطاب ألقت الحكومة المصرية التبعة على دىلسبس لأنه « شرع من تلقاء نفسه فى بعض الأعمال » وأنه استعان بفريق من العمال الأجانب تراوح عددهم بين ثلاثين وأربعين عاملا . واحتمت الحكومة المصرية بنظام الإمتيازات الأجنبية القائم فى مصر وقتئذ ، وكان هذا النظام يسلبها حق التعرض للأجانب إلا بموافقة قناصل دولهم . فقالت فى خطابها إنها اتصلت بالقناصل وطلبت إليهم سحب رعايا دولهم . على أن أبرز ما جاء فى هذا الخطاب عبارة تنم عن براعة سياسية فائقة أحرجت تركيا احراجا واضحا بصفتها دولة مستقلة وصاحبة السيادة على مصر وقتئذ ، فقد طلب منها ابلاغ الحكومة المصرية عما إذا كان السلطان قد قرر التصديق على عقد الإمتياز ، وفى هذه الحال لاحرج على الشركة إذا هى شرعت فى تنفيذ المشروع . أما إذا قرر

---

(١) الترجمه الفرنسيه لخطاب الباب العالى منشورة فى عدة مراجع فرنسيه منها :
الجزء الثالث ص ص ١٥٨ — ١٥٩ من وثائق دىلسبس .
والجزء الأول ص ص ١٤٩ — ١٥٠ من فوازان بك .

(٢) لم يكن سعيد باشا قد عاد من رحلته حين أرسل هذا الخطاب إلى الباب العالى . ومن المعروف لكل باحث اشتغل بنفسه فى محفوظات قصر عابدين وأطلع على الوثائق الأصلية أن الوالى لم يكن يوقع على الخطابات أو الأوامر باسمه بل يكتفى بختمها بخاتمه . ولهذا نرجح أن شريف باشا هو واضع هذا الخطاب وأنه قد اتفق على ارساله قبل سفر الوالى الذى ترك لشريف باشا تنفيذه فى الوقت المناسب. ويؤيد هذا الرأى أن سعيدا بمجرد عودته من رحلته أرسل خطابا بنفس المعنى إلى الباب العالى بتاريخ ٢١ ذى القعدة ١٢٧٥ (٢٢ يونيو ١٨٥٩) انظر محفوظات قصر عابدين . دفتر رقم ١٩ صادر عابدين . خطاب رقم ١٤٣ من الجناب العالى إلى الباب العالى .

(٣) محفوظات قصر عابدين : سجل رقم ١٩ صادر عابدين . كتاب رقم ١٤١ بتاريخ ١٣ ذى القعدة ١٢٧٥ (١٤ يونيو ١٨٥٩) من الجناب العالى إلى الباب العالى .
وانظر أيضا وثيقة رقم ٤٣ أصلى (٥٣٦) مسلسل وهى ارادة إلى القبو كتخدا صادرة فى نفس التاريخ . سجل رقم ١٩ .

السلطان عدم التصديق على العقد ورأى إيقاف العمل فى حفر القناة ، فعلى الحكومة التركية فى هذه الحال أن تتصل بسفراء الدول فى القسطنطينية كى يبعثوا إلى القناصل فى مصر « بتعليمات رسمية أكيدة حتى لا يقع من ناحيتهم أى تدخل » . وطبيعى ما كانت تركيا لتجرؤ على إغضاب فرنسا بهذه السهولة لأن سياسة الحكومة التركية ازاء المشروع كانت – كما قلنا – الإمتناع عن الموافقة على المشروع لا رفضه .

كان دور انجلترا بارزا فى افتعال الأزمة ومع ذلك فإن قنصل انجلترا شكا إلى حكومته أن سعيدا قد اقتصر على سحب العمال المصريين من الشركة(١) وعاود القنصل الضغط على سعيد وطالبه بأن يسلك مسلكا أكثر حزما إزاء الشركة . ولكن الوالى احتمى بنظام الإمتيازات الأجنبية وذكر للقنصل أنه قام فى حدود سلطته فسحب جميع العمال المصريين ، أما العمال الأجانب فلا هيمنة له عليهم ، وأن منعهم عن العمل يدخل فى اختصاص قناصل الدول التى يتبعونها (٢) . ولما أخفق قنصل انجلترا فى مسعاه أعرب عن أمله فى أن يجىء فيضان النيل عاليا فى ذلك العام (١٨٥٩) كى تغرق مياه الفيضان بحيرة المنزلة وماجاورها ، وأن يقوم نهر النيل بما لم يجرؤ سعيد باشا على عمله من مطاردة مهندسى شركة القناة ومستخدميها (٣) .

ولكن الحكومة الانجليزية لم تر هذا الرأى ولم تقف عند حد الأمانى ، فاتخذت خطوة عملية عنيفة . أرسلت وحدات من الأسطول الإنجليزى بقيادة مونداى Vice Admiral Monday إلى الاسكندرية فى يوليو سنة ١٨٥٩ للإشتراك فى خلع سعيد من منصبه كوال على مصر وايقاف العمل فى حفر القناة بالقوة. ولم ينقذ سعيد من عزله إلا وقوع تطورات عسكرية فى الموقف الحربى فى أوروبا جعلت الأسطول الانجليزى يعود إلى قاعدته فى مالطة دون

---

(1) Hussein Husni, ouvr. cit., p. 286.

(2) Hallberg, ouvr. cit., p. 165.

(3) Hussein Husni, ouvr. cit., p. 287.

ضجة أو جلبة (١) .

وقد بلغ مركز الشركة من السوء حدا جعل دى لسبس يتفق مع سعيد باشا على أنه إذا اضطرت الشركة إلى تصفية أعمالها نتيجة للمعارضة الإنجليزية فإن الحكومة المصرية تدفع لمسهمى الشركة النفقات التى تحملوها ، على أن تستولى الحكومة على مهمات الشركة ومنشآتها التى أقامتها فى أراضى البرزخ(٢) وقدم هذا الإتفاق قبيل أن يبرح دى لسبس مصر إلى فرنسا يلتمس مساعدة الإمبراطور وتدخل الحكومة الفرنسية لإنقاذ الشركة. ولكن الأحداث كانت أسرع منه إذلم تلبث أن تجددت الأزمة فى اكتوبر ١٨٥٩ . فقد أوفدت الحكومة التركية مختار بك القبوكتخدا - وهو مندوب والى مصر فى القسطنطينية - يحمل خطابا وتعليمات إلى سعيد. أما الخطاب فقد صيغ فى عبارات شديدة اللهجة تأمره بالعمل على « ضرورة وقف كافة أنواع العمليات فى الحال مهما كان نوعها وطبيعتها » (٣) أما التعليمات التى حملها مختار بك فتتلخص فى أن يوضح لسعيد باشا الأضرار التى تصيب مصالحه ومصالح الباب العالى إذا استمر ينتهج السياسة التى يسير عليها من تشجيع مشروع يجعل من مصر فى أية حرب أوروبية مسرحا للنزاع ، ويؤدى بها فى نهاية الأمر لا إلى فصل مصر عن تركيا فحسب ، بل إلى ضياع حكم مصر من أسرة محمد على (٤) .

---

(1) Fontane Marius, ouvr. cit.,p. 42. Voir aussi
Ritt, ouvr. cit., p. 173. Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., p. 170.
Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 154.
Sabri M. ; L'Empire etc., ouvr. cit., p. 65.

(٢) انظر خطابا أرسله دى لسبس من الإسكندرية إلى الدوق البوفرا نائب رئيس مجلس إدارة الشركة فى باريس بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٥٩ فى
De Lesseps F. : Lettres etc., ouvr. cit., t. III, pp. 189-191.

(٣) ترجمة هذا الخطاب إلى الفرنسية مذكورة فى
Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, pp. 158-159.

(4) Hallberg, ouvr. cit., pp. 166-167.

وعلى أثر تلقى الخطاب دعا شريف باشا ناظر الخارجية المصرية قناصل الدول إلى الإجتماع بمكتبه فى ٤ اكتوبر ١٨٥٩ . وفى ذلك الموعد حضر قناصل ست عشرة دولة وأبان لهم شريف المهمة التى من أجلها أوفـدت الحكومة التركية مختار بك إلى مصر . وتلا عليهم ترجمة الخطاب الوارد منها ، ثم أوضح لهم رغبة الوالى فى تنفيذ أوامر الباب العالى بإيقاف العمل فى حفر القناة وأبدى أمله فى أن تجد الحكومة المصرية تعاونا من القناصل فى هذا الصدد ، فيشيرون على رعايا دولهم الذين يعملون فى عمليات تنفيذ المشروع بالتخلى عن أعمالهم . فإذا أصروا على مواصلة العمل وجب على القناصل مساعدة السلطات المصرية عند التجائها إلى استخدام القوة وذلك بتحميل رعايا دولهم مسئولية رفضهم تنفيذ الأمر . وقد وافق القناصل على طلب الحكومة المصرية من حيث المبدأ ثم دارت مناقشة طويلة حول تحديد موعد لإخلاء منطقة البرزخ من جميع المستخدمين والعمال . وأخيرا أخذوا باقتراح قنصل اليونان فى تحديد المهلة بأول نوفمبر ١٨٥٩ . ووقع القناصل على ذلك القرار (١)

وقد استجاب الأجانب الذين يعملون فى تنفيذ المشروع لأوامر قناصل دولهم وغادروا منطقة البرزخ ولم يشذ عنهم سـوى المستخدمين والعمال الفرنسيين ورفضوا ترك أعمالهم على الرغم من الأوامر الصريحة المتتالية التى أصدرها إليهم ساباتيه Sabatier قنصل فرنسا العام فى مصر (٢) . وأظهروا تحديا سافرا له وللحكومة المصرية . وتزعم الحركة لاروش Laroch رئيس قسم بورسعيد فى شركة القناة وقد خطب فى الفرنسيين وأشاع فيهم روح

---

(١) محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٢٤ معية . وثيقة رقم ٢٣٠ فى ٨ ربيع الأول ١٢٧٦ (٥ أكتوبر ١٨٥٩) من محمد شريف باشا إلى الجناب العالى .

(٢) أنظر الأوامر والخطابات التى أرسلها قنصل فرنسا العام لهم وردود لاروش عليها فى جريدة الشركة العدد ٨٢ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٥٩ ص ٣٤٧ مجموعة السنة الرابعة . وتجد تكملتها فى

Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, pp. 160-162

Ritt, ouvr. cit., pp. 175-176.

التهور والعناد وكان مما قاله « إن القنصل لا يستطيع أن يحملنا على البقاءفى البرزخ إذا قررنا نحن مغادرته . أما والحال هذه فقد صممت على البقاء وسأحتج بشدة على هذا العمل باسم مصالح الشركة وباسم مهابة دولتنا »
فأقره الفرنسيون على رأيه وقرروا المضى فى أعمالهم ومقابلة القوة بمثلها إذا حملهم أحد على الرحيل . وعاد القنصل يحملهم « مسئولية النتائج المؤسفة التى تقع نتيجة مقاومتهم وامتناعهم عن تنفيذ أمر الحكومة المصرية » ثم أوضح لهم مرة أخرى أنه إذا استخدمت الحكومة المصرية القوة فى إيقاف العمل فى حفر القناة « فسيلقى هذا الإجراء التأييد التام من القنصلية العامة لفرنسا فى مصر » .

وصلت أنباء تلك الأزمة إلى دىلسبس فى باريس فأنزعج انزعاجا شديدا وسارع إلى الإتصال بالإمبراطورة أوجينى ينهى إليها أنباء تلك الأزمة الطارئة ويصور لها حرج مركز الشركة . وثار الرأى العام فى فرنسا عندما نقلت إليه الصحف أنباء الأزمة ، وقامت الصحافة الفرنسية تطالب الحكومة بتأييد الشركة دفاعا عن المصالح الفرنسية المشتركة فى المشروع (١) وقابل وفد من أعضاء مجلس إدارة الشركة امبراطور فرنسا فى ٢٣ اكتوبر ١٨٥٩ ونجحت المقابلة نجاحا بعيدا إذ استطاع دىلسبس أن يوثر على الإمبراطور الذى وعد بالتدخل لحماية الشركة . وبدت نتائج تلك المقابلة بسرعة فأرسلت وزارة الخارجية الفرنسية إلى ساباتيه قنصل فرنسا العام فى مصر أوامر بعدم اتخاذ أى اجراء ضد نشاط الشركة فى البرزخ وعدم التعرض للفرنسيين هناك . وعلقت على ذلك جريدة الشركة فقالت « وقد وصلت هذه الأوامر لحسن الحظ قبل أول نوفمبر ، وهو الموعد الذى أبلغه ساباتيه لرعايا دولته

---

(١) انظر تفصيلات وافية عن أحداث أزمة اكتوبر ١٨٥٩ فى كل من

De Lesseps F. : Souvenirs de 40 ans dédiés à mes enfants t. II, pp. 686-695.

Origines etc., ouvr.cit., pp. 188-193.

وكذلك أعداد جريدة الشركة الصادرة فى أول نوفمبر و ١٥ نوفمبر وأول ديسمبر ١٨٥٩ .

لأنه إذا كانت التدابير الشديدة التي هدد بها العمال المسالمين قد نفذت لوقعت بلا شك اصطدامات خطيرة . . » (١)

ولم يلبث أن أصدر الكونت ولوسكى Walewski وزير خارجية فرنسا قراراً فى ٢٦ أكتوبر ١٨٥٩ بنقل ساباتيه قنصل فرنسا العام من مصر. وأبان وزير الخارجية فى قرار النقل استياءه لمسلك القنصل العام إزاء موضوع القناة ولأنه لم يحتج على التدابير التى اتخذت فى اجتماع قناصل الدول فى ٤ اكتوبر ١٨٥٩ (٢) .

كان من نتائج تدخل الحكومة الفرنسية السافر مواصلة عمليات تنفيذ المشروع فى نطاق ضيق وبدون تنفيذ لائحة العمال . فقد كان نقل قنصل فرنسا العام من مصر بسبب موقفه خلال الأزمة مدعاة لأن يعاود سعيد باشا بحذر أول الأمر سياسته الودية نحو مشروع القناة ، والتى لم يعدل عنها إلا فترة وجيزة تحت الضغط السياسى الشديد . ولم تكن هذه السياسة الودية فى تلك الفترة تسخيراً للمصريين فى حفر القناة . فالمعارضة الانجليزية لم تخف وطأتها ، وكان سعيد لا يرغب فى أن يزود تركيا أو انجلترا بسلاح جديد إذا هو أقدم على بذل مساعدة علنية للشركة بتسخير جموع من المصريين فى حفر القناة تنفيذاً للائحة العمال . ولذلك كانت هذه السياسة الودية تتلخص فى موقف سلبى اتخذته الحكومة المصرية : فهى لم تكره المصريين على العمل فى تنفيذ المشروع ، ولكنها لم تضع عراقيل أمام الشركة عندما استأنفت استخدامهم بل تركتها وشأنها تتعاقد مع من شاء منهم أن يعمل فى خدمتها ، ولم تتعرض الحكومة للعمال بسوء . فكان العمل فى الشركة يقوم وقتئذ على عرض من جانبها وقبول من جانب العمال المصريين .

---

(١) العدد ٨٢ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٥٩ ص ٣٣٨ مجموعة السنة الرابعة .

(2) Hallberg, ouvr. cit., pp. 169-170.

واستطاعت الشركة بفضل هذه السياسة الجديدة أن تستخدم نفــرا من الفلاحين وغيرهم من دمياط ومديرية الدقهلية والإسكندرية والقاهرة وغيرها وكان يطلق عليهم « العمال المصريون (الوطنيون) الأحرار (١) Ouvriers indigènes libres تمييزا لهم عن عمـــال السخرة فيما بعــد. كما استعانت بالبدو الذين يرتادون صحـــراء مديرية الشرقية . فكانت تستأجر جمالهم فى نقل ماء الشرب والأقوات إلى مستخدميها الذين كانوا يقومون بالأبحاث الفنية فى داخل البرزخ . وقد عمل اولئك البدو أيضا فى قيادة قوافل الجمال وإقامة الخيام فى مراكز الأبحاث وسط الصحراء. أما العمال الأجانب فقد استخدمت الشركة عــددا لابأس به من الفرنسيين والنمساويين والبحارة اليونانيين .وامتاز العمال النمساويون على أقرانهم بخبرتهم فى الأعمال الفنية الدقيقة. وقد قال دى لسبس « بدأنا العمل باستخدام العمال الأوربيين وكانوا على جانب كبير من الذكاء والإخلاص » (٢)

وهكذا بدأت منذ منتصف شهر نوفمبر ١٨٥٩ تتوالى أفواج العمال المصريين والأجانب إلى منطقة القناة وغدت المواصلات سهلة بين دمياط وبور سعيد وشرعت الشركة تواصل تنفيذ المشروع. ويقول ريت Ritt بعــد انفراج أزمتى يونيو واكتوبر ١٨٥٩ « إن عزيمتنا القوية قد شلت منذ شهر ابريل بطريقة مؤسفة للغاية . وكم من وقت ثمين ضاع سدى».(٣)

ونحن نورد هنا إحصائية عن عدد العمال المصريين والأجانب مستقاة من تقرير مدير عام الأشغال فى شركة القناة . ففى أول ديسمبر ١٨٥٩ كان عــدد العمال المصريين قد بلغ ٧٨ وقد جىء بهم من دميــاط ، وبلغ عدد العمال الأجانب ٤٩ . وفى آخر ديسمبر ١٨٥٩ كان عدد العمال المصريــين

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 176.

(٢) من محاضرة ألقاها دى لسبس فى اتحاد المهندسين بباريس فى ٢٢ يونيو ١٨٦٢ ونشرت فى جريدة الشركة العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص ص ٢٢٥ — ٢٣١ مجموعة السنة السابعة

(3) Ritt, ouvr. cit., p. 178.

قد ارتفع إلى ٣٣٠ ووصل عدد العمال الأجانب إلى ٨٠ (١) وقد وزع هؤلاء واولئك على النحو الآتى :

اسم المكان	عدد العمال الأجانب	عدد العمال المصريين
بورسعيد	٨٠	٢٢٠
القنطرة	١٢	٨
فردان	٨	١٦
طوسن	٣٢	٥٢
سرابيوم	٨	١٢
جنيفه	١٨	٢٢

وإذا كان شبح الأزمة السياسية قدتوارى إلى حين فإن الحاجة إلى العمال ظلت قائمة متفاقمة . فهذا العدد الضئيل من العمال لم يكن شيئاً مذكوراً أمام ضخامة المشروع إذا علمنا أن الشركة لم تكن لديها الآت ميكانيكية قوية كثيرة تغنيها إلى حد كبير أو صغير عن استخدام الأيدى العاملة ، فكانت الشركة تواجه استحالة مادية فى تنفيذ المشروع ، ومن ثم تطلعت ، بعد انفراج أزمة اكتوبر ١٨٥٩ وبدء العام الجديد - ١٨٦٠ - إلى استخدام عمال السخرة تنفيذاً للائحة العمال ، يدل على ذلك أن الشركة وضعت مادة تشير صراحة إلى هذه الرغبة وذلك فى الإتفاق النهائى الذى أبرمته فى ٢٠ فبراير ١٨٦٠ مع الفونس هاردن مقاول الشركة العام لتنفيذ بعض مراحل المشروع فنصت المادة (١٥) من هذا الإتفاق على أن « تتعهد الشركة بأن تقدم للمقاول بكافة الوسائل الممكنة جميع العمال المصريين الذين وعد بهم حضرة صاحب السمو والى مصر » (٢)

ولكن كان الموقف لا يزال دقيقاً بالنسبة لسعيد باشا بوجه خاص .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 149-150.

(٢) انظر نصوص هذا الاتفاق والملاحق التى أرفقت به فى
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 43-52.

فالحكومة الانجليزية لم تكف ، بعد انفراج ازمة أكتوبر ١٨٥٩ ، عن الضغط الشديد على الباب العالى لنبذ المشروع كلية ، بل قد هددته بأنها ستبحث فى تحديد موقفها من تركيا إذا الأخيرة أقرت المشروع وحفرت القناة (١) . وكان الباب العالى يقوم بدوره بضغط على سعيد لإيقاف عمليات الحفر . وتبودلت فى هذا الصدد مكاتبات وتبليغات سياسية بين لندن والقسطنطينية والقاهرة . كما أمعنت المعارضة الانجليزية فى مهاجمة المشروع والشركة فى مجلس العموم والصحافة الانجليزية .

وازداد موقف سعيد باشا حرجا حين التى دىلسبس قنبلة سياسية فى اجتماع الجمعية العامة لمسهمى الشركة فى ١٥ مايو ١٨٦٠ ، إذ أعلن فى خطابه يومئذ أن سعيد باشا قد وافق علي أن يضم لحسابه جميع أسهم الشركة التى عجزت عن بيعها وكان عددها ١١٧ الف سهم . بعد أن اعلن دىلسبس كذبا وزورا واجتراء على الحق عقب قفل باب الاكتتاب فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٨ أن جميع الأسهم قد بيعت وأن رأس المال قد غطى بأكمله . ومن الإنصاف لسعيد أن نقرر أنه رفض هذه الصفقة ، ولكن دىلسبس أراد أن يضعه أمام الأمر الواقع ، فلما انتهى اجتماع الجمعية العامة أسرع إلى مصر يرجو سعيدا ويسأله إلحافا أن يقبل الصفقة فقبل الأخير بعد لأى . وأصبح مجموع عدد الأسهم التى اكتتبت بها مصر ١٧٧٦٤٢ سهما كانت قيمتها الإسمية ٨٨,٨٢١,٠٠٠ فرنك . وكانت نتيجة هذه الصفقة أن أشارت الحكومه الإنجليزية على الباب العالى فى ١٥ يونيو ١٨٦٠ بضرورة خلع سعيد من منصبه لأنه أضر بمصالح ولايته واستخدم الأموال المصرية فى توطيد المشروع وإنقاذ الشركة من انهيار محقق (٢) .

ومالبث أن تأزم الموقف فى منطقة الشرق الأدنى بنزول قوات فرنسية فى سوريا فى صيف ١٨٦٠ واحتلال بعض جهات منها على أثر المذابح الدينية

---

(1) Hoskins, ouvr. cit., pp. 358-359.

(2) ibid.

التى وقعت أول الأمر بين الدروز والموارنة فى لبنان . وقد انفردت فرنسا باحتلال سوريا دون أية دولة أوربية طبقاً لبروتوكول باريس (٥ أغسطس ١٨٦٠) وقد رأى بعض المراقبين السياسيين فى ذلك الوقت أن هذا الاحتلال يزيد من النفوذ الفرنسى فى منطقة شرق البحر المتوسط . وكان من الطبيعى أن يثير هذا الإحتلال قلق الحكومة التركية ويجعلها تخشى مقاصد السياسة الفرنسية فى الشرق وبالتالى مشروع القناة الذى ما فتئت انجلترا تصوره لتركيا بأنه مشروع سياسى فرنسى . كما أن انجلترا – وهى إحدى الدول الموقعة على بروتوكول باريس – أبدت مخاوفها من أهداف فرنسا فى الشرق حين تباطأت الحكومة الفرنسية فى جلاء قواتها عن سوريا وخشيت حدوث تقارب سياسى بين فرنسا وروسيا على حساب تركيا (١) .

وازاء هذه الظروف غير المواتية استمرت الشركة تجمع العمال المصريين بوسائلها الخاصة وتزيد من عددهم قدر الإستطاعة ، وكونت لجنة عهدت إليها بالطواف فى قرى الوجه البحرى والعمل على استمالة العمال المصريين للإلتحاق بخدمة الشركة . وضمت هذه اللجنة مستخدما فى الشركة يتكلم العربية بطلاقة هو يوسف فرنونى Vernoni ومندوبا من قبل المقاول العام كما ضمت عاملين بارزين من العمال المصريين للمساعدة فى تنظيم جمع العمال وإرسالهم إلى منطقة البرزخ (٢) .

ولم تصادف هذه اللجنة عقبات فى قرى الوجه البحرى إلا فى منطقة بحيرة المنزلة ، إذ كان هناك رجل إقطاعى يعتبر السكان المقيمين على ضفاف البحيرة عبيدا أرقاء له . وأرسل دى لسبس إلى سعيد شكاية بخصوص تلك العقبات (٣)

(١) أنظر الفصل الخامس .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p.177.

(٣) كانت تسود منطقة بحيرة المنزلة ولا تزال إلى حد ما حالة اجتماعية واقتصادية تمتد جذورها إلى أعماق بعيدة فى التاريخ . فسكان تلك المنطقة يشتغلون بصيد الأسماك. وكان لهم رئيس يتحكم فيهم احتكر لنفسه صناعة صيد الأسماك ومايتصل بها فى المنطقة بأسرها . وكان يمدهم بقوارب الصيد وأدواته ويستولى على الأسماك لقاء أجور تافهة للغاية ثم يتولى توزيع الأسماك لحسابه الخاص=

وابتدع دهاؤه حيلة انطلت على عقلية محمد سعيد المتواضعة . وستصادفنا هذه الحيلة مكرورة فى معظم مذكراته وخطاباته إلى سعيد باشا كلما تطلع إلى مزيد من العمال المصريين . وهى أن عظمة سعيد الشخصية وتقدير الرأى العام فى أوروبا له إنما يتوقفان على زيادة عدد العمال المصريين الذين يعملون فى حفر القناة .

وفى ظل التدابير التى اتخذها سعيد باشا استطاعت الشركة أن تستخدم أفواجا من سكان بحيرة المنزلة فى حفر القناة البحرية الصغيرة la rigole de service فى منطقة البحيرة . ويقرر دى لسبس أن العمل الذى قاموا به كان مضنيا(١) ، فكانوا يقفون عراة تغمر المياه سيقانهم يضربون القاع بالفأس فيزحزحون الكتل المتماسكة المستقرة ثم ينزعونها من القاع بأيديهم ويناولها العامل بكلتا يديه لزميله الواقف إلى جانبه وهذا يناولها لغيره حتى تصل إلى حافة القناة (٢) . ويقول

وقد أدى هذا النظام الإقطاعى إلى انتشار البؤس بين السكان الذين أصبحوا فى حالة: تشبه الرق . فكان من الطبيعى أن يعارض هذا الرئيس « الإقطاعى » سفر « أتباعه » للعمل فى الشركة إذ أن غيابهم يؤثر على حصيلته اليومية من الأسماك. وتدخل سعيد فى الموضوع رأى أنه لا مناص من تغيير الأساس الذى تقوم عليه تلك الحياة الأقتصادية الجائرة فسلب السلطة من رئيس الصيادين وألغى احتكار صيد الأسماك وهو النظام الذى كان قائما لصالح رئيس الصيادين وشجع الأهلين على امتلاك قوارب الصيد مقابل دفع رسوم عنها للحكومة . وقد أدت هذه التدابير إلى بعض التحسن فى أحوال سكان المنطقة وإلى نوع من التحرر من قبضة رئيس الصيادين . انظر بخصوص هذا الموضوع كلا من :

De Lesseps F. : Association Polytechnique. Séance du 1er juin 1862. Conférence sur les Travaux du Canal de Suez et le sort des ouvriers en Egypte. Paris, 1862, pp. 13-15.

Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 11.

جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص ص ١٩٣-١٩٩ السنة السابعة .

(1) De Lesseps F. : Conférence etc., ouvr. cit., pp. 13-15.

(٢) تجد وصف هذه الطريقة البدائية القاسية التى اتبعتها الشركة فى كل من :

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 163 et 198-202.

Ritt, ouvr. cit., pp. 196-198. =

ارنولد إنه يجب إقامة تمثال لإولئك العمال الذين كابدوا الأهوال فى حفر القناة فى تلك المنطقة بوجه خاص . (١) .

ولم تسفر جهود لجنة جمع العمال عن نجاح يذكر ،فى الشهور الأخيرة من عام ١٨٦٠ بلغ عدد عمال الشركة المصريين ١,٧٠٠ (٢) فكأن الزيادة التى استطاعت تحقيقها عبارة عن ١,٣٧٠ عاملا . وكان هذا العدد هو الفارق بين عدد العمال المصريين فى آخر ديسمبر سنة ١٨٥٩ وآخر ديسمبر ١٨٦٠ .

ويلاحظ أنه لما حيل بين الشركة فى هذا الوقت وبين ما كانت تشتهيه من تسخير أفراد الشعب المصرى فى عمليات حفر القناة أخذت تباشر أعمالا لاتتطلب حشودا كبيرة من العمال المصريين تصل إلى الآف مؤلفة كما حدث فى السنوات التالية، بل قصرت نشاطها على أعمال تغلب عليها فى مجموعها الصبغة الفنية . ويمكن القول إن نشاطها حتى مستهل عام ١٨٦١ كان بحريا وصناعيا أكثر منه نشاطا امتد إلى عمليات حفر القناة. فاتجهت جهودها فى هذا الوقت إلى جعل بورسعيد مكانا صالحا لرسو السفن التى تفد من أوربا والإسكندرية حاملة مواد التموين ومهمات تنفيذ المشروع ، فأقامت منارة (فنارا) وكوبريا يمتد فى البحر من الشاطىء تجاه بورسعيد حتى يصل إلى أعماق كافية تقف عندها السفن لتفريغ شحناتها . ورأت الشركة أن يكون هذا الكوبرى من الخشب ريثما تتمكن من نقل الأحجار من محاجر المكس بالإسكندرية ومن ثم تشرع فى بناء أرصفه للميناء وحاجزى أمواج من

Percy Badger : A visit to the Isthmus of Suez Canal Works. London = 1862, p. 38.

وانظر أيضا محاضرة عامة القاها دى لسبس فى ١٢ فبراير ١٨٦٥ فى مدينة ليون بفرنسا وكان فى طريقه إلى مصر . وقد نشرت جريدة الشركة العدد ٢٠٩ الصادر أول مارس ١٨٦٥ مجموعة السنة العاشرة .

(1) Wilson Arnold, ouvr. cit., p. 33.

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. III, p. 398.

الصخور القوية . ومدت على هذا الكوبرى الخشبى قضباناحديدية تسير عليها عربات تحملما تفرغه السفن وتسيربها إلى حيث ورش الشركة ومستودعاتها فى بورسعيد . وأنشأت أيضا حوضا للميناء وأقامت بعض الورش الميكانيكية الصغيرة فى بورسعيد من نجارة وحدادة وخراطة وسبك معادن ولحمها إلى غير ذلك من الأعمال الفنية . وشيدت مصنعا لعمل الطوب وكانت الشركة تجد فى طمى بحيرة المنزلة الأسود مادة طيبة لعمل الطوب ثم مالبثت أن أسست فرنا لحرق قطع الطوب . واشترت صفقة من مخلفات الجيش الإنجليزى فى حرب القرم (١٨٥٢-١٨٥٦) وكانت عبارة عن أكواخ خشبية ضخمة كان يستعملها الجنود الإنجليز ثكنات وقد أعدتها الشركة لتكون مساكن لمستخدميها وعمالها الأجانب (١) .

أما عمليات الحفر فلم تكن فى ذلك النطاق ولا بتلك الأهمية . وكان أهمها حفر قناة صغيرة تصل بين منشآت ميناء بورسعيد وبين بحيرة المنزلةتسهيلا لنقل ماءالشرب ومواد التموين إلى بورسعيدمباشرة بواسطةالقواربوقد أطلق على هذه القناة La rigole de service entre les établissements du port et le lac Menzaleh وبلغ طولها ٢,١٠٠ مترا وعمقها نصف متر واتساعها خمسة أمتار.وأعدت الشركة من أجلها صنادل تسير فيها بسهولة إذكان الجزء الغاطس منها لايزيد ارتفاعه على ١٢ سم (٢) . ويقول ارنولد « كان العمل الذى تم خلال السنتين الأولين قليلا وقد تم فيها مسح الأراضى وإقامة المستودعات والورش وتنظيم ساحات الحفر وشراء الكراكات والآلات والأخشاب والحديد (٣). »

---

(١) تجد تفصيلات وافية عن نشاط الشركة الفنى والبحرى فى كل من

Lavalley : Extrait du compte rendu des travaux de la Société des Ingénieurs Civils. Travaux d'exécution du Canal Maritime de l'Isthme de Suez. Paris, 1866, p. 8.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 134-140, 158-163, 193-198.

Fontane Marius, ouvr. cit., p. 48.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 136-137.

(3) Arnold Wilson, ouvr. cit., p. 23.

وهكذا انقضت سنتا ١٨٥٩ ، ١٨٦٠ ولم تقطع الشركة إلا هذا الشوط المتواضع فى إقامة المنشآت البحرية والصناعية وغيرها فى بور سعيد وأدركت المعارضة الإنجليزية حرج مركز الشركة فنشرت جريدة التايمز Times تقول إن الأعمال التى تزعم الشركة أنها تقوم بها فى منطقة برزخ السويس ليست إلا ضربا من الأوهام ونسجا من الخيال وإن الشركة تخدع مسهميها وتقدم لهم ألفاظا بدلا من أعمال تتم ومشروع ينجز (١) .

---

(١) نشرت جريدة التايمز المقال فى ديسمبر ١٨٦٠ وأعادت نشره مترجما إلى اللغة الفرنسية جريدة L'Isthme de Suez وعلقت عليه بإسهاب وفندت ماحواه من بيانات . انظر العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ مجموعة السنة السادسة .

الفصل الرابع

دعاية الشركة فى مصر لجمع العمال وفشلها

اختزال عمليات الحفر — أزمة بين تركيا ومصر — سعيد يدافع عن نفسه ويلقى التبعة على دى لسبس ونظام الإمتيازات الأجنبية — ويثير مخاوف تركيا من فرنسا — ويسجل على نفسه أنه تعوزه الأناة والحصافة — اتفاق سعيد ودى لسبس على حل موقت بخصوص العمال — الجمع الحر — سعيد يغادر مصر إلى الحجاز — الشركة توزع اعلانات على المصريين للعمل فى حفر القناة — وتتفق مع مقاولين لتقديم عمال مصريين — نشاط دى لسبس فى الحقل الدينى — علاقة مع البطريرك والأقباط — ومع المسلمين — دى لسبس يصبغ مشروعه بصبغة دينية — فشل الشركة فى جمع العمال المصريين .

أرادت الشركة أن تصل بعمليات الحفر ذاتها إلى نتيجة عملية سريعة ، وكان رائدها من اتباع هذه الخطة اقحام المعارضة الإنجليزية التى كانت تنادى وقتئذ باستحالة حفر القناة فى أراضى البرزخ ، وإشاعة الطمأنينة فى نفوس مسهمى الشركة من ناحية ثانية ، وحل مشكلتى النقل والتموين فى ساحات الحفر من ناحية ثالثة (١) وتحقيقا لهذه الأهداف الثلاثة لجأت الشركة إلى وسيلة سريعة : فلم تحفر أول الأمر قناة السويس الحقيقية التى كان مقررا أن يكون عرضها ثمانين مترا وعمقها ثمانية أمتار ، وهى الأبعاد التى قررتها اللجنة العلمية الدولية (٢) ، ولكنها عملت على شق طريق مائى صغير يتراوح عمقه

---

(١) أنظر تقرير موجل بك Mougel مدير عام الأشغال فى الشركة بتاريخ أول مايو ١٨٦٠ وقد نشر فى جريدة الشركة العدد ٩٤ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦٠ صص ١٦٧ — ١٧٣ مجموعة السنة الخامسة .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, p. 61.

بين متر وبين متر وعشرين سنتيمترا ، ويتفاوت عرضه من ثمانية أمتار إلى اثنى عشر مترا ، يبدأ من بور سعيد ويتجه جنوبا إلى بحيرة التمساح فالسويس على الخط المقترح لسير قناة السويس ذاتها بحيث تكون تلك القناة صورة مصغرة لقناة السويس حتى يحين الوقت الذى يتوفر فيه للشركة الوسائل لتعميقها وتوسيعها فتغدوالقناة البحرية فى أبعادها المقررة (١) . وقد عرف هذا الطريق المختزل باسم « قناة الخدمة البحرية الصغيرة La Rigole de Service. وأطلق عليه دى لسبس فى خطابه الذى ألقاه فى إجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة الذى عقد فى ١٥ مايو ١٨٦١ Le Canal Maritime de petit cabotage أى القناة البحرية التى تسير فيها سفن ذات حمولة صغيرة (٢)

وكما اتبعت الشركة سياسة الإختزال فيما يختص بقناة السويس انتهجت هذه السياسة ذاتها فى حفر ترعة الماء العذب . لقد نص عقد الإمتياز الثانى على أن يكون مأخذ الترعة من النيل بالقرب من القاهرة فعمدت الشركة إلى اجراء سريع أطلقت عليه « الحل الموقت » La solution provisoire وكان يقوم على الإستفادة من ترعتين قائمتين هما ترعة الزقازيق وتبدأ من الزقازيق إلى العباسة فى مديرية الشرقية ، وترعة الوادى وتبدأ من العباسة إلى

---

(١) أنظر شرحا لهذه الفكرة فى كل من

Percy Badger, ouvr. cit., pp. 34-35.

تحت عنوان: What is meant by the " Rigole ?"

وأنظر أيضاً

Fol M.: Notice sur l'état actuel des travaux de l'Isthme de Suez. Avril 1863, p. 9.

Fontane Marius, ouvr. cit., p. 58.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 186.

(٢) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١١٨ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦١ ص ٥٤ ، مجموعة السنة السادسة . وأنظر أيضاً

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. IV, p. 49.

القصاصين ، وعندها تحفر الشركة ترعة تكون امتدادا لها وتتجه إلى نفيشة بالقرب من بحيرة التمساح (١) . وكانت مدينة الزقازيق على اتصال مائى بالقاهرة عن طريق بحر مويس وفرع دمياط كما كانت على اتصال حديدى بالإسكندرية والقاهرة وغيرها إذ كان ينتهى عندها - على عهد سعيد باشا - الخط الحديدى المتفرع من بنها (٢) .

ولم ترغب الشركة وهى فى صدد تنفيذ هذا البرنامج المزدوج فى وقت واحد أن تعتمد على الآت حفر قوية تغنيها عن استخدام أفواج كبيرة من العمال المصريين، ولكنها ظلت تتطلع إلى تطبيق لائحة العمال وذلك لعدة أسباب، منها الوفر الكبير الذى يحققه نظام السخرة ، وارتفاع أثمان الكراكات وصيانتها ، إذ كان ثمن الكراكة الصغيرة فى ذلك الوقت يبلغ ٥٤,٩٠٠ فرنك (٣) ، عدا نفقات شحنها إلى بور سعيد ونقلها إلى ساحات الحفر داخل منطقة البرزخ و إعادة تركيب أجزائها هناك . يضاف إلى تلك الأسباب طمع دى لسبس فى استغلال الشعب المصرى إلى أبعد الحدود معتمدا على صلته الشخصية بصديقه سعيد باشا .

وكان دى لسبس قد استراح من مشكلة الأسهم المتبقية لدى الشركة دون بيع بعقد الإتفاق المالى مع الحكومة المصرية فى ٦ أغسطس ١٨٦٠ وقفزت مشكلة تنفيذ لائحة العمال المصريين إلى مكان الصدارة من اهتمام دى لسبس وعول على أن يطالب سعيدا بتنفيذها . ولكن كان مركز سعيد باشا ضيقا حرجا ، فإن صفقة الأسهم التى عقدها مع الشركة قد أساءت إلى مركزه فى انجلترا بوجه خاص وجعلته هدفا لحملة سياسية عنيفة (٤) ، كان

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 208-209.

(2) Wiener L. : L'Egypte et ses chemins de fer. Bruxelles, 1932, p. 88.

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 87.

(٤) أنظر بخصوص هذه المسألة كلا من :

من ذيولها أن أرسل الصدر الأعظم بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٢٧٧ (٦ ديسمبر ١٨٦٠) خطابا إلى سعيد أبدى فيه استياء الباب العالى من النشاط البادى فى عمليات تنفيذ المشروع ، إذ أن الشائعات تردد أن عدة الآف من العمال يشتغلون فى حفر القناة ، وطلب الصدر الأعظم من سعيد باشا أن يوافيه بحقيقة الموقف وأمره بعدم تجاوز قرار الحكومة التركية السابق بإيقاف العمل فى حفر القناة لأن السلطان لم يصدر تصديقه بعد على عقد الإمتياز (١) .

وقد رد سعيد بكتاب مسهب بتاريخ ١٩ جمادى الآخره ١٢٧٧ (٢ يناير ١٨٦١) استهله بالدفاع عن موقفه كما فعل فى خطاب سابق ، وقرر أنه وضع فى عقد الإمتياز شرطا صريحا هو ضرورة تصديق السلطان على العقد قبل الشروع فى حفر القناة ، ولكن دى لسبس « شرع من تلقاء نفسه فى القيام ببعض عمليات جزئية معتبرا إياها من أعمال الإستكشاف التمهيدية » ثم أشار إلى أحداث أزمة أكتوبر ١٨٥٩ ومسارعته إلى تنفيذ الأمر الذى حمله إليه مختار بك بإيقاف العمل فى حفر القناة ، وأنه عقد اجتماعا من قناصل الدول واتفقوا على أن يكون أول نوفمبر ١٨٥٩ موعدا لتنفيذ أمر الباب العالى ، ثم قال « وبينما كان هذا الأمر على وشك التنفيذ فقد عزل لهذا السبب فقط القنصل العام للحكومة الفرنسية الفخيمة وعوتب أيضا القنصل العام للحكومة النمساوية » ثم أوضح سعيد استحالة ايقاف العمل فى تنفيذ المشروع بسبب قيام نظام الإمتيازات الأجنبية وأنحى باللائمة على قناصل الدول لأنهم لايتعاونون مع الحكومة المصرية فى هذا الصدد، فهم يرفضون منع رعايا دولهم من العمل فى الشركة ، « وعلى ذلك بقيت الحالة على ما هى عليه » .

وقد نفى سعيد باشا فى خطابه ما كانت تردده الشائعات وقتئذ من

Hallberg, ouvr. cit., pp. 183-184.

Hussein Husni, ouvr. cit., p. 294.

Ibrahim Nomeir Seifed Dean, ouvr. cit., p. 99.

(1) Douin George : Histoire du Règne du Khèdive Ismail, t. I. Rome 1933, p. 23.

استخدام عدة الآف من العمال فى حفر القناة ، وقرر أن عددهم يقرب من خمسائة عامل فحسب يقومون « بأعمال اختبارية » وأنه يوجد فى صفوفهم عدد قليل من المصريين المتعطلين ، وأما غالبية العمال فمن الأجانب « وفيهم جماعة من الإنجليز كان قنصلهم يلتزم الصمت حيالهم » . وأخيرا عمد سعيد إلى تصوير دقة موقف الحكومة التركية إذا أصرت على إيقاف عمليات الحفر فقال « وقد استدعيت مؤخرا المسيو دى‌لسبس الموجود.هنا وأفهمته فى إلحاح وإصرار لزوم إيقاف ما يقوم به من تركيب الآت الحفر وإجراء التجارب عليها ، فأجاب : إذا أقدمتم الآن على تعطيل هذه العمليات فلا يخالجنكم أى شك فى أن المسهمين فى الشركة والبالغ عددهم خمسة وعشرون ألف نفس يقومون قومة واحدة مطالبين بتعويضات ضخمة ويثيرون مشكلات . وقد جعلنى هذا القول من جانبه أتوهم أن المسألة ستزداد تعقيدا وأنها تؤدى فى النهاية إلى متاعب تشغل السلطنة السنية فبقيت فى حيرة وتردد (١) » .

وفى نفس اليوم وهو ٢ يناير ١٨٦١ الذى أرسل فيه سعيد هذا الخطاب إلى الصدر الأعظم بعث بخطاب ثان إلى مختار بك القبوكتخذا — مندوب والى مصر فى القسطنطينية — اعترف فيه صراحة أنه مضطرب اضطرابا لامزيد عليه بسبب تطور الموقف فى مشكلة القناة ، وقال إنه ما كان يعتقد ، حين أصدر عقد الإمتياز إلى دى‌لسبس ، أن الموضوع سيصل إلى هذه الدرجة من الخطورة والتعقيد ، وأنه لو كان يعلم أن الموضوع سيثير كل تلك المشكلات لما أصدر عقد الإمتياز على الإطلاق ، ولكنه أخطأ فى إصدار العقد وكان شأنه فى الخطأ كشأن سائر البشر لأنهم معرضون للخطأ فى تصرفاتهم (٢) وهكذا سجل سعيد على نفسه أنه كانت تعوزه صفات الحاكم من الحصافة والأناة وبعد النظر .

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٩ صادر عابدين . وثيقة رقم ٢١٢ من الجناب العالى إلى الباب العالى بتاريخ ١٩ جماد آخر ١٢٧٧ (٢ يناير ١٨٦١)

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٩ صادر عابدين وثيقة رقم ٦١٦ (٣٦ من الجناب العالى إلى الباب العالى بتاريخ ١٩ جماد آخر ١٢٧٧ (٢ يناير ١٨٦١)

اعتقد سعيد أن فرنسا لن تعمد إلى نصرته أو تأييده إذا اكفهر الجو السياسى بينه وبين تركيا أو انجلترا (١) ، فاذا أقدم على تنفيذ لائحة العمال وسخر للشركة جموعا هائلة من المصريين لكان من المحتمل أن يعتبر هذا التصرف تحديا صريحا من والى مصر للباب العالى ، ولكان من المحتمل أيضا فى هذه الحال أن تنجح محاولات الحكومة الإنجليزية لدى الباب العالى لخلع سعيد . يقول هلبرج « كان الوالى لذعره من المعارضة الإنجليزية يؤجل شهراً بعد شهر ارسال العمال المصريين وهو أمر أعاق تقدم العمل فى القناة إلى حد بعيد » (٢) .

تدارس سعيد باشا الموقف من جميع نواحيه مع دىلسبس ومدير عام الأشغال فى شركة القناة ومقاولها العام . وقد قرر دىلسبس « أن سعيد باشا كان منزعجا إلى حد بعيد وبدا الأفق السياسى متلبدا بعداء ظاهر نحونا(٣) ». وطلب سعيد الا تثير الشركة أمام الحكومة المصرية المتاعب والصعاب بمطالبتها بتنفيذ لائحة العمال فى تلك الآونة . واعترف دىلسبس بأن سعيدا كان على حق فى هذا الطلب (٤) . وقد أخذ دى لسبس برأى سعيد فى وجوب التريث فترة أخرى فى تنفيذ اللائحة وأن يستمر جمع العمال وفق الطريقة الحرة Le recrutement libre دون أن تتدخل السلطات المصرية لإكراه المصريين على العمل فى حفر القناة (٥) .

وقد رفع دىلسبس فى يناير ١٨٦١ مذكرة إلى القنصلية الفرنسية العامة

---

(1) Hallberg, ouvr. cit., p. 187.

(2) Hallberg, ouvr. cit., pp. 187-188.

وأنظر أيضا بخصوص هذه المسألة

Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., pp. 226-227.

(3) Fitzgerald, ouvr. cit., t. I, pp. 281-282.

(4) ibid.

(5) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 58.

فى مصر يخطرها بهذا الوضع الذى أخذته مشكلة السخرة . وقد جاء فى تلك المذكرة « أرادت الشركة أن تجنب سعيد باشا تهديدات انجلترا والباب العالى فتخلت موقتا عن مطالبة الحكومة المصرية بتنفيذ اللائحة التى تفرض على الحكومة تقديم العمال إلى المقاول ، واتخذت من التدابير ما يكفل قدر الإمكان جمع العمال بالطريقة الحزة . وقد قامت الشركة فى بورسعيد والقنطرة وفردان والجسر والتمساح وسرابيوم وغيرها بإنشاء قرى للفلاحين الذين يفدون من الدلتا وتخوم سوريا حيث أبدوا رغبتهم فى العمل بدافع من المعاملة الطيبة والأجور التى ستصرف لهم وهو أمر جديد بالنسبة لهم ، وهكذا سوف يعتمد المقاول العام للشركة دون خوف أو وجل على عمال مجدين يكفون تنفيذ الأعمال فى مراحلها الأولى (١) » .

وقد بلغ من حرج الموقف فى مصر أنه بعد أن تم الإتفاق على هذا الحل وبعد أن أرسل سعيد خطابيه بتاريخ ٢ يناير ١٨٦١ إلى الباب العالى والقبوكتخدا ، قام سعيد باشا برحلة إلى الأقطار الحجازية . فغادر القاهرة فى ٢٤ يناير ١٨٦١ إلى السويس ومنها أبحر فى ٢٦ يناير إلى العويجه على ساحل البحر الأحمر فى طريقه إلى المدينة المنورة . ويقول أحد الذين اصطحبهم الوالى فى رحلته ، وهو القائمقام المهندس محمد صادق بك ، أن لهذه الرحلة سببا سياسيا ، إذ كانت الحكومة التركية قد استدعت الوالى للحضور إلى القسطنطينية فرفض الذهاب إليها واتخذ من رحلته إلى الأقطار الحجازية مبررا لعدم سفره إلى العاصمة التركية.(٢) ويؤيد هذا القول أن الرحلة لم تتم

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. IV, pp. 5-8.

(٢) أنظر بحثا بعنوان

Médine. Il y a vingt ans. Souvenirs d'un voyage à la suite de Son Altesse Saïd Pacha.

للقائمقام محمد صادق بك فى مجلة الجمعية الخديوية الجغرافية العدد رقم ٨ شهر مايو ١٨٨٠ ص١٩ — ٣٢ والعدد رقم ٩ ، ١٠ شهرأغسطس ونوفمبر ١٨٨٠ ص ص٥ —

فى موسم الحج فقد بلغ المدينة المنورة فى مستهل شهر شعبان ١٢٧٧ وأقام بها خمسة أيام وغادرها إلى ينبع ومنها أبحر فى طريق عودته إلى القاهرة التى بلغها فى ١٧ شعبان ١٢٧٧ (٢٨ فبراير ١٨٦١) . ومهما يكن من أمر استدعاء الباب العالى له فقد أراد أن يكون غيابه عن مصر كفيلا بتخفيف حدة التوتر فى العلاقات المصرية التركية بسبب موضوع القناة وحتى لا يتهمه الباب العالى بأنه ضالع مع شركة القناة فى حشد العمال المصريين لحفر القناة .

. . .

وأخذت جريدة L'Isthme de Suez قبل انعقاد الجمعية العمومية لمسهمى الشركة والتى كان محددا لاجتماعها ١٥ مايو ١٨٦١ تمهد الرأى العام الأوروبى عامة وحملة الأسهم خاصة لقبول الوضع الذى أخذته موقتا مشكلة الأيدى العاملة المصرية فى حفر القناة قبل أن يعلنه دى لسبس لهم فى ذلك الإجتماع ، فقالت إن الطريقة التى تتبعها الشركة فى جمع العمال المصريين ، وهى تقوم على أساس الرغبة من جانب الفلاح فى العمل فى ساحات الحفر

---

١٥ . وأنظر أيضا محضر جلسة الجمعية الخديوية الجغرافية بتاريخ ٢ يناير ١٨٨٠ فى مجلتها العدد رقم ٧ شهر فبراير ١٨٨٠ ص ص ٤٧ — ٥٣ وجلستها بتاريخ ٩ أبريل ١٨٨٠ فى مجلتها العدد رقم ٨ شهر مايو ١٨٨٠ ص ص ٣٧ — ٣٩ . وأنظر أيضا محفوظات قصر عابدين : دفتر ١٨٩٤ جزء أول صادر أوامر عربى وثيقة رقم ٦٥ ص ٦١ ووثيقة رقم ٦٣ ص ٩٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن سعيد باشا وجه منشورا إلى كبار موظفى الحكومة المصرية أبلغهم فيه أنه يعتزم السفر إلى الحجاز وطلب منهم ابداء رأيهم فى هذه الرحلة. وقد خشى كبار الموظفين أن يكون المنشور خدعة من سعيد باشا ليعرف حقيقة شعورهم نحوه فلم يرحبوا بسفره خوفا من أن يتهمهم الوالى بأنهم يفضلون غيابه عن مصر . وقد اصطحب فى سفره قوة عسكرية كبيرة تمثل مختلف أسلحة الجيش كما رافقته حاشية كبيرة العدد من أفراد أسرته ومجموعة من باشوات مصر وكبار الموظفين والمهندسين والأطباء البشريين والبيطريين . وبلغ عدد الجميع ألفى شخص عدا ثلاثمائة جمل لحمل ماء الشرب والأمتعة . وتعد هذه الرحلة مثلا صارخا لتبذير سعيد وتبديد أموال الشعب .

وعلى قبوله الشروط التى تعرضها الشركة عليه ، لاتدع مجالا لمعارضى المشروع ليطعنوا فى وسائل تنفيذه ، كما أن هذه الطريقة تحول فى نفس الوقت دون وقوع أى تصادم مع الحكومة المصرية (١) .

وقد نشرت جريدة Le Constitutionnel الباريسية فى عـددها الصادر فى ١٠ ابريل ١٨٦١ مقالا فى هذا الصدد قالت فيه إن دى‌لسبس كان يتجنب المشكلات السياسية التى يتيح إثارتها تسخير المصريين فى حفر القناة ، ومن هنا نبتت فكرة جمع العمال المصريين وفق الطريقة الحرة . ووصفت الجريدة هذه الطريقة بأنها « تجديد لم تشهد له مصر من قبل نظيرا مما يعد انقلابا فى تنفيذ المشروعات الكبرى (٢) » . والواقع أن هذه الجريدة كانت تحاول أن تخفى ما كانت تشعر به من مرارة وألم إذ حيل بين الشركة فى ذلك الوقت وبين استخدام السخرة فى حفر القناة . فلم يكن هذا الأساوب تجديدا ، بل كان طبيعيا وعاديا جداً أن تستخدم شركة فى مصر عمالا هى فى حاجة إليهم دون أن يقع عليهم إكراه كى يعملوا فى خدمتها . وإذا كانت الجريدة تشير إلى ما كان يحدث فى مصر إلى ذلك الوقت وبعده من قيام الحكومة بتسخير المصريين فى تنفيذ المشروعات الكبرى ذات المنفعة العامة مثل حفر الترع وتطهيرها ومد الخطوط الحديدية وما إلى ذلك فإن هذا عرف موروث وتقليد حكومى قديم لاينسحب على شركة القناة .

ولما اجتمعت الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى ١٥ مايو ١٨٦١ تعرض دى‌لسبس فى خطابه الضافى الذى ألقاه فى ذلك الإجتماع (٣) لمشكلة الأيدى

---

(١) العدد ١١٦ الصادر فى ١٠ أبريل ١٨٦١ صص ١١٤—١١٥ مجموعة السنة السادسة .

(٢) أعادت جريدة L'Isthme de Suez نشر هذا المقال فى العدد ١١٧ الصادر فى أول مايو ١٨٦١ صص ١٣٨ — ١٣٩ مجموعة السنة السادسة

(3) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. IV, pp. 42-63.

كما نشرته وقتئذ جريدة L'Isthme de Suez فى العدد ١١٨ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦١ مجموعة السنة السادسة .

العاملة المصرية فى حفر القناة ، فذكر أن الشركة قد تخلت موقتا عن المطالبة بتنفيذ لائحة العمال المصريين ، وأنها فى تلك الآونة تجمع العمال وفق الطريقة الحرة دون ضغط أو إكراه . وبرر دىلسبس هذا المسلك تبريرا ينطوى على التفضل والمن على سعيد باشا إذ قال إن هذا الحل قد تم « رغبة منا فى تجنيب الحكومة المصرية مضايقات مؤلمة ، وفى نفس الوقت مع عدم المساس بحقوق الشركة ومصالحها » . ثم حاول فى خطابه أن يشيع نوعا من الطمأنينة فى نفوس المسهمين فزعم أن جمع العمال وفق الطريقة الحرة قد أسفر عن حشد عمال مصريين « يكفون مطالبنا الأولى » وأبدى رجاءه فى أن يستجيب أهالى مصر وسوريا لنداء الشركة فيهرعون طواعية إلى ساحات الحفر .

وفى الواقع لقد اضطر دىلسبس إلى قبول هذا الحل لأنه كان يدين بالرأى القائل إن ما لايدرك كله لايترك كله . فهذا الإتفاق كسب للشركة لايمكن تجاهله إذا قورن بالأيام العصيبة التى مرت بها خلال أزمة أكتوبر ١٨٥٩ وحيل بينها وبين استخدام العمال المصريين والأجانب على السواء ، فحسب الشركة أنها كانت تستطيع فى ذلك الوقت أن تباشر عملية استخدام العمال المصريين بحرية تامة وأن يتسع نطاق حركة جمع العمال فيمتد إلى الوجه القبلى . وكان دىلسبس يعتقد أن هذه الخطوة من جانب سعيد ستتلوها خطوات ايجابية فى صالح الشركة عند ما تنقشع الغيوم السياسية . وكان الزمن حليفا قويا للشركة ، فكلما مضت الأيام زاد مركز الشركة توطدا أمام تردد الحكومة التركية فى موقفها وضعفها عن اتخاذ قرار حاسم صريح فى مشروع القناة . يضاف إلى ذلك أن هذا الحل الموقت لايدع مجالا للمعارضة الإنجليزية وغيرها لاتخاذ موضوع تسخير المصريين فى حفر القناة ذريعة لمناوأة المشروع وكان دىلسبس يحرص على الأيزود معارض المشروع بسلاح جديد يشهرونه ضده . وقد قال فى خطاب أرسله من الإسكندرية بتاريخ ١٤ مارس ١٨٦١ إلى الدوق دى البوفرا نائب رئيس مجلس إدارة الشركة فى باريس « وإنى لا أهمل شيئاً فى العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من العمال الأحرار إلى ساحات الحفر . إن هذه المسألة على قدر من الأهمية عظيم

بالنسبة لنا إذ أن لفظ السخرة هو المحور الذى تدور حوله المناقشات الحالية عند خصومنا لتعطيل سير عمليات الحفر (١) » ولا يعزب عن البال أن دى لسبس رجل ماكر : يرى أنه إذا عجز عن بلوغ هدفه دفعة واحدة فلا أقل من أن يصل إليه على مراحل ، وكان أهم ما يحرص عليه أن يبلغ هدفه ويحقق مطمعه ويسخر الشعب المصرى فى حفر القناة .

طالت إقامة دى‌لسبس فى مصر فبلغت ستة أشهر ليشرف بنفسه على التدابير الخاصة بمواجهة مشكلة العمال(٢). ولم يقطع هذه الإقامة إلا سفره إلى بلاد الشام لجمع عمال منها . وأخذ يتنقل بين ساحات الحفر ليكون عونا لرؤسائها ومستخدميها يذلل الصعاب التى تواجههم ويثير الحماس فى نفوسهم. وقد أبدى خلال هذه الفترة ألوانا كثيرة من ضروب النشاط والجلد على تحمل المتاعب والمقدرة على إعداد وسائل الدعاية والتماس العون من كبار المسلمين والأقباط فى مصر ومن الهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام بعد أن أضفى على مشروع القناة صبغة دينية تارة اسلامية وتارة مسيحية.

وضع دى‌لسبس اعلانا باللغة الفرنسية دعا فيه المصريين إلى العمل فى ساحات الحفر ووعدهم بالكسب الوفير والحياة الرغيدة . وأرفق الإعلان بخطاب أرسله من عتبة الجسر فى ٨ فبراير ١٨٦١ إلى رويسنرس Ruyssenaers الوكيل الأعلى لشركة القناة فى مصر يطلب إليه العمل على ترجمة هذا الإعلان إلى اللغة العربية ثم طبعه فى إحدى المطابع (٣) . ولم تقع فى أيدينا الترجمة

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 28-30.

(٢) قدم دى‌لسبس مصر فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر ١٨٦٠ (أنظر جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠٥ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٠ ص٣٣٧) وأقام فى مصر حتى ١٨ أبريل ١٨٦١ حين سافر إلى باريس ليرأس اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى ١٥ مايو ١٨٦١ ولم يبرح دى‌لسبس مصر خلال تلك الشهور الستة إلا عند قيامه برحلة إلى الشام استغرقت اسبوعين لجمع العمال من هناك .

(3) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 18-20.

العربية لهذا الإعلان . وقد أغفلته معظم المؤلفات الفرنسية التى تناولت تاريخ القناة فى شىء من الإسهاب ، فلم يذكر فى صورته الأصليه باللغة الفرنسية إلا فى جريدة الشركة (١) . وفى بعض كتب فرنسية قليلة جدا عاصر مؤلفوها حفر القناة (٢) كما نشره دى لسبس فى وثائقه .

وفى هذا الإعلان دعا دى لسبس المصريين للإشتراك فى حفر القناة وحبب إليهم العمل وزينه فى قلوبهم ، فذكر أن الشركة قد أنشأت قرى لسكنى العمال وأنها أقامت فى كل منها مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وقرر أن ماء الشرب متوفر ، وحدد لهم الأجور فجعلها على أساس إنتاجهم وليس على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى الحفر ، وذهب إلى أن أجر العامل سيتراوح بين ستة قروش وثمانية قروش فى اليوم . كما أبان فى إعلانه أن هناك فرصة أمام العمال المجدين لزيادة أجورهم إذا ضاعفوا جهودهم فى أعمال الحفر . وأوضح لهم طرق المعيشة فى جهات البرزخ وترك للعمال حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين . واختتم دى لسبس الإعلان بقوله إنه حرم على الرؤساء الأوروبيين مهما كانت مناصبهم أو درجاتهم ضرب الفلاحين أو اساءة معاملتهم (٣) .

وقد طبع من هذا الإعلان ثلاثة الآف نسخة وزعت فى المدن والقرى ، وألصقت نسخ منه على أبواب المساجد ومحطات السكك الحديدية وأقسام البوليس والأسواق والشوارع الآهلة بالسكان كما علقت نسخ منه فى ساحات الحفر المختلفة (٤) .

---

(١) العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٧ مجموعة السنة السادسة

(2) Fontane Marius, ouvr. cit., p. 55.
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 229-230.

(٣) أنظر الترجمة العربية للنص الفرنسى فى الملحق رقم ٢

(٤) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١١٥ الصادر فى أول أبريل ١٨٦١ ص ١٠٢ مجموعة السنة السادسة

واستكمالا لأسباب نجاح الدعاية أنشأت الشركة مكاتب تتولى تنظيم عملية جمع العمال والإشراف على سفرهم إلى ساحات الحفر . وكان مقر هذه المكاتب القاهرة والمنصورة ودمياط والزقازيق وطنطا . أما فى الوجه القبلى فقد أنشأت مكتبين أحدهما فى أسيوط والآخر فى قنا . وألحقت بكل مكتب مجموعة من المستخدمين المصريين أو اللبنانيين وكان يطلق على كل منهم agent recruteur أى المندوب الخاص بجمع العمال . ويطوف لهذا الغرض بالجهات التى تحددها له الشركة فى المنطقة التى يتبعها المكتب. فكان إذا حل بأحد مراكز المديرية قصد منزل العمدة فى القرية الأولى وطلب إليه أن يبحث له عن راغبى العمل فى حفر القناة. فكان العمدة يبعث فى طلب الأشخاص الذين يأنس فيهم رغبة فى العمل . وكانوا يجتمعون فى منزل العمدة ويشرح لهم المندوب محتويات إعلان الشركة ويتعاقد مع الراغبين منهم على أساس ماجاء فى الإعلان ويدفع لهم مقدما جزءا من أجورهم يدبرون بها أمر عائلاتهم قبل رحيلهم . وكان يطلب منهم موافاته فى مركز المديرية بعد يومين أو ثلاثة أيام وكان عقد العمل يسرى لمدة شهر واحد (١) . وواضح أن العمدة كان يتحمل المسئولية الضمنية إذا أخل أحد رجال قريته بالإتفاق كأن يرفض السفر ولا يرد ما دفع له من مقدم الأجر . وكان المندوب يقصد بعد ذلك القرية المجاورة ويتحدث فى هذا الصدد إلى رجالها فى منزل عمدتها وهكذا حتى يتم طوافه بقرى المركز . وعند ما يلتئم شمل العمال الذين يجمعهم المندوب بهذه الطريقة يؤلفون فرقة يرأسها شيخ بلد من إحدى القرى ويرافقهم فى سفرهم إلى منطقة البرزخ .

وقد عمدت الشركة إلى وسيلة أخرى لجمع العمال المصريين — بجانب الإعلانات والمكاتب التى أنشأتها — فأبرمت اتفاقات مع بعض المقاولين أخذوا على عاتقهم تقديم عدد من العمال المصريين لها على أن يتقاضى المقاول عن

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 28. Voir aussi Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p.231.

كل رجل عشر بارات (نصف قرش) عن كل يوم من الأيام التي يقضيها العامل فى عمليات حفر القناة (١) . وكان أولئك المقاولون - أو غالبيتهم العظمى - من الأجانب نذكر منهم اثنين على سبيل المثال هما كوستا Costa وباليدى Palidi . وقد يبدو هذا الأمر غريبا ولكن الغرابة تتلاشى إذا علمنا أنه كان لإولئك المقاولين أن يطلبوا مساعدة السلطات المصرية فى جمع العمال لشركة القناة (٢) . وقد وجدت الشركة أن هذه الوسيلة تساعد على زيادة عددَ العمال المصريين الذين تحصل عليهم وخاصة لأن مندوبى العمال لم يكونوا من الكثرة والمقدرة بحيث كان يتوقع أن ينجحوا فى جمع العدد الكبير الذى كانت تتطلع الشركة إليه . غير أن اشتغال المقاولين بتقديم العمال لم يدم طويلا ، إذ ما لبثت - كما سنرى - أن نفذت الحكومة لائحة العمال فلم تعد هناك حاجة إلى استخدام المقاولين وبالتالى إلى تحمل النفقات التى كانت تدفعها الشركة لهم طالما أنها كانت تظفر بافواج ضخمة العدد من أفراد الشعب المصرى بمجرد طلب بسيط تبعث به الشركة إلى مديري المديريات .

وتقرب دى‌لسبس إلى الشخصيات المصرية التى يأنس فيها مقدرة على مساعدة المشروع من أية ناحية كانت وسواء كانت هذه المساعدة مادية أو أدبية . كانت قد دارت محادثات بين الأنبا كرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس وبين ساباتيه Sabatier قنصل فرنسا العام فى مصر بصدد مسألة فى الحبشة اهتمت بها فرنسا والتمست وساطة البطريرك لدى امبراطور الحبشة لحلها (٣) . ويلوح أنه كانت بين الأنبا كرلس الرابع

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc.,ouvr. cit., 5. IV, pp. 28-30.

(٢) الجزء الرابع ص ٢١٩ من المصدر السابق .

(٣) أرادت فرنسا أن يدخل الرهبان اليسوعيون الحبشة ويباشروا نشاطهم بها وعرض ساباتيه قنصل فرنسا العام فى مصر على البطريرك مساعدته لدى محمد سعيد والى مصر لمساواة المسلمين بالاقباط فى الوظائف العسكرية فى مقابل أن يحصل البطريرك على تصريح من امبرطور الحبشة بدخول الرهبان اليسوعيين فى بلاده والتوطن فيها . انظر الشماس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ ص ٦٧٢ .

وبين الفرنسيين صلات مودة ، وانتهز دى‌لسبس الفرصة ووطد علاقاته مع البطريرك كى يبذل نفوذه لدى كبار الأقباط فى الصعيد بوجه خاص لتشجيع الأقباط على العمل فى حفر القناة . فلما وافته المنية فجأة فى ٣٠ يناير ١٨٦١ لم يفكر دى‌لسبس إلا فى النتائج التى ترتبت على وفاته من حيث تعطيل أو تأخر حشد الأقباط لحفر القناة . فكتب من القاهرة فى ٤ مارس ١٨٦١ إلى الدوق البوفرا نائب رئيس مجلس إدارة الشركة فى باريس خطابا جاء فيه « كنت أخشى أن تنجم عن وفاة بطريرك الأقباط الفجائية عرقلة فى جمع العمال الأقباط ، ولكن لن يعدو الأمر إلا بعض التأخير فقط . وإنى أرسل إلى قرى مصر الوسطى وبلاد الوجه القبلى أحد رجال الأقباط المخلصين لنا وهو على جانب عظيم من الذكاء . وقد زودته بكافة التعليمات والتوصيات اللازمة . وقد أرسلته إلى اسيوط حيث يعاونه عبد المسيح ، وإلى قنا حيث يساعده بشاره عبيد ، وهذان الأخيران هما مندوبا قنصلية فرنسا فى هاتين المدينتين ، وقد عينتهما كذلك مندوبين للشركة (١) » .

ولما قرب موعد انتخاب البطريرك الجديد أقحم نفسه فى المعركة الإنتخابية وسعى أن يقحم معه قنصلية فرنسا محاولا أن تميل كفة الإنتخابات فى صالح قائمقام البطريرك ، لأن هذا المطران معروف « بالعطف علينا وبميوله الطيبة نحونا وتربطنى به علاقات طيبة جداً منذ شهورعديدة بمناسبة جمع العمال الأقباط (٢) » . واشار دى‌لسبس على قنصلية فرنسا أن تجمع معلومات عن هذا المطران من مترجم يشتغل عندها ويدعى « نجار » . وعلى ضوء هذه المعلومات تستطيع قنصلية فرنسا « تكوين رأى واتخاذ التدابير التى تراها مناسبة (٣) » . وهكذا كان دى‌لسبس لا يربط صداقاته بالمصريين إلا برباط

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. IV, pp. 24-25.

(٢) تقرير أرسله دى‌لسبس بتاريخ ٧ يونيو ١٨٦١ إلى دى بوفال ، منشور فى الجزء الرابع ص ص ٨١ — ٨٣ من المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

المنفعة التى يجنيها ، فإذا تحققت المنفعة أو مات صاحبها تناسى دىلسبس الماضى القريب والبعيد . وقد فعل ذلك مع سعيد بل مع مصر نفسها .

غير أنه من الراجح جدا أن الأقباط لم يهرعوا طواعية وبكثرة عددية كبيرة إلى منطقة البرزخ للعمل فى حفر القناة ، فأدوات البحث التى لدينا تقطع بأن الشركة لم تشيد فى أية ساحة من ساحات الحفر فى ذلك الوقت حتى فى وقت استخدام نظام السخرة كنيسة قبطية أرثوذكسية مع أنها شيدت عددا من المساجد المتواضعة للعمال المسلمين وأكثر من كنيسة كاثوليكية لمستخدميها وعمالها الأجانب . ولهذا الأمر دلالته، فلو كان العمال الأقباط يؤلفون كثرة عددية فى ساحات الحفر لأقامت الشركة لهم كنيسة يقيمون فيها شعائرهم الدينية،وخاصة أن الشركة كانت قد أنشأت فى ١١ ديسمبر ١٨٦٠ إدارة دينية (١) . وكان دىلسبس يحرص على أن يردد فى مصر والشام أن مشروع القناة قد جاء ذكره فى الإنجيل والقرآن .

وقد بذل دىلسبس نشاطا واضحا فى الحقل الإسلامى كان من مظاهره الحرص على أن يذكر فى إعلانات الشركة أنها شيدت مسجدا فى كل قرية من القرى التى أقامتها فى ساحات الحفر . واستعانت الشركة ببعض رجال الأزهر ، فبادرت فى سنة ١٨٦٠ إلى تعيين إمام للمسلمين فى الحى العربى ببورسعيد والذى أنشأته شرقى الميناء لتكون إقامته المستمرة هناك من أسباب إقبال المسلمين على ذلك المكان المقفر (٢) . ولما نظمت الشركة ساحات الحفر فى منطقة عتبة الجسر شمالى بحيرة التمساح عينت الشركة إماما آخر قام الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى بتزكيته لدى دىلسبس فعينه بمرتب شهرى قدره ١٢٥ فرنكا ، وعهد إليه فضلا عن الإمامة بالفصل فى الخصومات بين العمال المسلمين فى منطقة عتبة الجسر وفردان والتمساح . وقد سافر هذا الإمام إلى ساحات الحفر فى النصف الأول من شهر مارس ١٨٦١ على رأس فوج

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 157.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit.,t. VI, p. 164.

من العمال قوامه مائة عامل جمعهم أحد المقاولين للشركة (١) .

وكان الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر بعد أن وطد دىلسبس علاقاته معه . ولايغيب عن الأذهان أن الشيخ رفاعه أقام فى باريس سنين عددا إماما لأعضاء البعثة التعليمية المصرية بها ونهل من الثقافة الفرنسية وقد نظم قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة الأولى فى سنة ١٨٥٦ والثانية فى سنة ١٨٦٢ وقام الدكتور بيرون Perron بترجمتها إلى اللغة الفرنسية (٢) ولعل التأييد الذى أبداه الشيخ رفاعه لمشروع القناة كان من بين الأسباب التى جعلت الشيخ رفاعه يظفر بتقدير الرجال الفرنسيين . وكان جومار بك Jonnard مدير البعثة المصرية فى فرنسا قد أرسل خطابا فى ٢٥ أكتوبر ١٨٦٠ إلى محرر جريدة Moniteur Universel أشاد فيه بميول الشيخ رفاعه الطيبة نحو مشروع القناة (٣).

وكانت الشركة تستكتب بعض الكتاب المصريين مقالات تهدف إلى الدعاية لمشروع القناة ودعوة الجماهير فى مصر إلى الإشتراك فى تنفيذه . وقد ذهب أولئك الكتاب إلى أن حفر القناة فى البرزخ بين البحرين إنما هو تطبيق

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 28-29.

وأنظر ايضا جريدة L'Isthme de Suez العدد ١١٥ الصادر فى أول ابريل ١٨٦١ ص ١٠٢ مجموعة السنة السادسة .

(٢) أنظر الترجمة الفرنسية للقصيدة الثانية فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٣٩ الصادر فى أول أبريل ١٨٦٢ ص‌ص ١١١ — ١١٢ مجموعة السنة السابعة .

(٣) كان مما قاله جومار بك فى ذلك الخطاب :

Le cheykh Refa'ha, partageant avec ses compatriotes lettrés, comme avec les principaux personnages de l'Egypte, l'impression profonde qu'a excitée partout le projet hardi de réunir les deux mers, a voulu consacrer, par la poésie, le souvenir de l'entreprise. Il avait déjà célébré en vers la campagne de Crimée, où se sont illustrés les soldats et les marins de l'Egypte ; une conquête pacifique sur le désert lui a paru aussi un sujet poétique et digne de parler à l'imagination.

عملى لما ورد فى القرآن الكريم . وجريدة L'Isthme de Suez سجـــل يحفل ببعض تلك المقالات التى ترجمت إلى اللغة الفرنسية وفيها ذكر بعض آيات القرآن الكريم .

ودىلسبس رجل يجيد فن الدعاية ، وقد وضع مصباحا قويا فى أعلى مأذنة المسجد الذى اقامته الشركة فى الساحة رقم ٥ فى منطقة عتبة الجسر ، فغدت هذه المأذنة بمثابة منارة تشع نورا كان يهتدى به العمال القادمون ليلا إلى ساحات الحفر (١) وكذلك البدو الذين يقودون قوافل الجمال المتجهة إلى وسط البرزخ من جهة بورسعيد والقنطرة أو من مديرية الشرقية .

وكان دىلسبس يحرص على أن يشهد مفتى الديار المصرية ومن إليه من كبار رجال الدين الإسلامى فى مصر الإحتفالات التى كانت تقيمها الشركة كلما صادفت نجاحا جزئيا فى اتمام عمليات الحفر ، وكان يلقى أحد كبارهم كلمة مناسبة فى الحفل يوجه فيها الكلام إلى العمال المصريين ويبارك عمل الشركة ويشيد بحضارة فرنسا ويزجى المديح إلى سلطان تركيا ووالى مصر « افندينا الذى ينشر العدل ويعمل على اسعاد شعبه وعلى أن يزيل عنهم كل ما يضرهم » وبعد انتهـــاء الحفل كان يذهب المدعوون المسلمون لأداء الصلاة فى المسجد الذى اقيم الحفل بجواره (٢) .

وسنرى أنه اتبع نفس الأسلوب حين قام بدعاية لجمع العمال المسلمين من ولاية الشام فقد أضفى على تلك الدعاية صبغة دينية إسلامية .

. . .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود وتعددها ووسائل الدعاية وتنوعها فانها لم تسفر عن نجاح يذكر ، وتضافرت عوامل الطبيعة والمواسم الدينية الإسلامية على فشل الشركة فى حركة جمع العمال المصريين وفق الطريقة الحرة

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p.215.

(٢) أنظر الفصل الثامن

فقد طغت على ساحات الحفر خلال شهرى يناير وفبراير ١٨٦١ موجة عاتية من البرد القارس الشديد إلى حد لم يكن له مثيل فى السنوات السابقة ، وقامت عواصف رملية عنيفة وهطلت الأمطار بغزارة ودام هطولها دون انقطاع مدة طويلة ، وكانت النتيجة أن فشلت الشركة فى اجتذاب المصريين للعمل فى منطقة القناة . ولم ينته شهر فبراير ١٨٦١ حتى لم يكن فى ساحات الحفر سوى بضع مئات (١) مع أن الشركة كانت قد أعدت إحدى مناطق الحفر وهى عتبة الجسر، بحيث يعمل فيها بصفة مبدأية ستة الآف عامل (٢) ، وهكذا عجز العمال الذين كانوا لديها عن مواجهة عمليات الحفر المطلوبة وظلت تلك الساحات فى حالة ركود . ولم يلبث بعد ذلك أن حل شهر رمضان ١٢٧٧ فى ١٣ من مارس ١٨٦١ وجاءت على أثره أيام عيد الفطر . وهما فترتان يفضل المصريون قضاءهما مع ذويهم . ولم تنته هاتان الفترتان إلا فى منتصف ابريل١٨٦١. وهكذا ظلت ساحات الحفر إلى ذلك الوقت تعانى نقصا كبيرا فى عدد العمال وتراخيا فى عمليات الحفر . وقالت جريدة L'Isthme de Suez فى ثنايا مقال طويل « كان من أثر صيام العمال المسلمين فى شهر رمضان أن تأخرت عمليات الحفر إلى درجة محسوسة (٣) » .

ازداد مركز الشركة تحرجا فلم يعد باقيا أمامها سوى شهر واحد على الإجتماع الثانى للجمعية العمومية للمسهمين فى ١٥ مايو ١٨٦١ حيث تقدم لهم الشركة بيانا بالأعمال التى تمت خلال العام المنصرم . وكان دى لسبس قد أعلن فى الإجتماع السابق بتاريخ ١٥ مايو ١٨٦٠ عن برنامج ضخم تعتزم الشركة تنفيذه ، ولم يكن قد تم منه شىء ذو بال . والشركة سلخت عامين منذ شرعت فى عمليات تنفيذ المشروع ولم تصل إلى نتيجة عملية جاسمة فى حفر القناة . وكانت تتحاشى أن تعرض نفسها لنقد شديد يوجهه إليها المسهمون

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit.,t. VI, p. 205.

(٢) المصدر السابق

فضلا عن أعداء المشروع من جراء البطء الملحوظ فى عمليات الحفر . وكان هذا البطء يدعم النظرية البالمرستونية القائلة باستحالة حفر القناة فى صحراء برزخ السويس ، كما كان ذلك البطء يؤيد أقوال الصحافة الإنجليزية بأن الشركة تخدع المسهمين وتقدم لهم ألفاظا وأوهاما وأن الأعمال فى حفر القناة كادت تقف (١) .

ويقول بعض أنصار دى‌لسبس أنه شعر فى ذلك الوقت بدنو اليوم الذى يضطر فيه إلى إخطار المسهمين بعجز الشركة عن متابعة عمليات الحفر إن لم يعلن فشل المشروع وسقوطه سقوطا تاما إذا سارت الأمور على هذه الوتيرة(٢) وكانت هذه حالة قهرية ، فى نظر دى لسبس ، تستدعى تدخل الحكومة المصرية لتسخير المصريين فى حفر القناة تنفيذا للائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ . وهو فى سبيل تنفيذ المشروع والمضى به قدما لايتردد عن الأخذ بهذا الرأى بلغت ما بلغت شدة المعارضة الانجليزية وعنفها . وكان دى‌لسبس قد صارح صديقه رويسنرس الوكيل الأعلى لشركة القناة فى مصر بهذا الرأى إذ قال له فى خطاب بتاريخ ٨ مارس ١٨٦١ « ...... ولكن فى اليوم الذى يكتب لى فيه رسميا المسيو هاردن المقاول العام أن وسائله ووسائلى فى جمع العمال لاتكفى لتنفيذ البرنامج الذى أعلناه فى الإجتماع الماضى للجمعية العمومية للمسهمين فسأكون مضطرا فى هذه الحال إلى أن أطلب رسميا من الحكومة المصرية باسم مسهمى الشركة، الذى يوجد فى مقدمتهم حضرة صاحب السمو الوالى والذين يجب أن أدافع عنهم — تنفيذ لائحة العمال . وهذه اللائحة من بين المستندات الأساسية التى تكونت على أساسها الشركة بأمر الوالى وهى لاتتضمن أى نوع من التحديد وهى فى نفس الوقت تنفذ فى كافة الأحوال(٣)

---

(١) انظر على سبيل المثال جريدة L' Isthme de Suez :
العدد ٩٦ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٠ ص ١٩٤ بمجموعة السنة الخامسة .
العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ص ٢١٨-٢١٩ بمجموعة السنة السادسة .

(2) Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., p. 227.

(3) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr.cit., t. IV, pp. 26-27.

الفصل الخامس

دعاية الشركة فى الشام لجمع العمال وفشلها

موجز للإضطرابات فى الشام — تدخل الدول الأوربية — فرنسا ترسل حملة عسكرية إليها — الأزمة الإقتصادية — هجرة اللبنانيين إلى مصر — استغلال دى لسبس لتلك الأحداث — جهوده لجمع العمال — رحلته — اقتصار حركة جمع العمال على المسيحيين ثم امتدادها إلى المسلمين — صبغ مشروع القناة بصبغة دينية — نداء إمام مسجد عمر ببيت المقدس — الشركة تباهى بفضلها على الإنسانية .

فى منتصف عام ١٨٦٠ وقعت فى لبنان فتنة دينية بين الدروز والموارنة أول الأمر (١) ، ثم مالبثت أن اتسع نطاقها واتخذت شكل مذابح بين المسلمين عامة والمسيحيين عامة (٢) بسبب تهاون السلطات التركية فى سوريا فى قمع الحركة وهى فى مهدها (٣) ، فبلغ عدد الأهلين الذين اشتركوا فيها قرابة عشرين ألفا (٤) وسقط فى تلك المذابح ضحايا كثيرون وأحرق عدد من القرى كان من بينها دير القمر وزحلة وبيت مرى (٥) وهام الأهالى

---

(١) أنظرمقالا فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠١ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦٠ ص ٢٨٢ مجموعة السنة الخامسة .

(٢) أنظر محضر جلسة مجلس العموم البريطانى فى ٣٠ مايو ١٨٦١ فى الجزء ١٦٣ ص ص ٢٣٤ — ٢٤٢

Hansard's Parliamentary Debates.

(٣) محمد كرد على : خطط الشام . الجزء الثالث ص ص ٨٢ — ٨٣ .

(٤) أنظر بيان اللورد جون رسل وزير خارجية انجلترا والذى ألقاه فى مجلس العموم بجلسة ١٢ يوليو ١٨٦١ فى الجزء ١٥٩ ص ١٧٧٢

Hansard's Parliamentary Debates.

(٥) محمد كرد على : خطط الشام . ج ٣ ص ص ٨١ — ٨٢ . وكذلك المقال الفرنسى المشار إليه فى رقم ١ فى هذه الصفحة .

فى الجبال وهم فى حال شديدة من الذعر (١) وبلجأ عدد كبير منهم إلى الإسكندرية (٢) وقبرص واليونان والقسطنطينية وغيرها (٣) . وإمتدت تلك المذابح (٤) إلى دمشق بسبب سوء تصرف واليها (٥) إذ أنه وضع المسلمين فى السلاسل وأكرههم على كنس الشوارع لأنهم كانوا قد أهانوا المسيحيين(٦) فأهاج ذلك العمل شعور المسلمين . وقد وصفت الحكومة الانجليزية تصرف والى دمشق بأنه اجراء تعوزه الحكمة (٧) . وقد هوجم بعد ظهر ٩ يوليو ١٨٦٠ منزل قنصل روسيا ثم أعمل المتظاهرون النار فى منازل كبار التجار المسيحيين ، كما أحرقوا الحى المسيحى فى المدينة (٨) ولجأ كثير من المسيحيين إلى دار الأمير عبد القادر الجزائرى (٩) .

---

(١) بيان وزير خارجية انجلترا المشار إليه فى رقم ٤ فى الصفحةالسابقة

(2) Poujoulat: La verité sur la Syrie et l'Expédition française. Paris 1860, p. 308.

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٩٣ .

(٤) بخصوص تلك المذابح أنظر

Lebon G.: La Civilisation des Arabes. Paris 1882, p. 49.

(٥) محمد كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٨٦

(٦) أنظر تقرير برانت Brant قنصل انجلترا فى دمشق تلاه اللورد ستراد فورد دى ردكليف Stradford de Redcliffe فى مجلس اللوردات بجلسة ٣ أغسطس ١٨٦٠ فى الجزء ١٦٠ ص ٦٢٧

Hansard's Parliamentary Debates.

(٧) المرجع السابق

(٨) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠٢ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٠ ص ٢٩٧ مجموعة السنة الخامسة .

(٩) المصدر السابق . ومما يذكر أن مسلك الأمير عبدالقادر الجزائرى إبان تلك الاضطرابات كان موضع التقدير العميق من الحكومة الانجليزية فكلفت القنصل الانجليزى فى دمشق ابلاغه شكرها وتقديرها لموقفه . أنظر محاضر جلسات ٣ أغسطس ١٨٦٠ و ٦ أغسطس ١٨٦٠ و ٢٥ أغسطس ١٨٦٠ بمجلس العموم البريطانى فى الجزء ١٦٠ صص ٦٤١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ١٨١٦

Hansard's Parliamentary Debates.

وقد رأت بعض الدول الأوروبية فى تلك الإضطرابات فرصة للتدخل . ففرنسا تعطف على الموارنة وتلقبهم « فرنسيو لبنان Français du Liban » (١) وأراد نابليون الثالث امبراطور فرنسا إرسال حملة عسكرية إلى لبنان بحجة حماية المسيحيين هناك ورغبة فى أن يكتسب عواطف رجال الدين الكاثوليك فى فرنسا (٢) ولكن عارضت انجلترا هذا الإتجاه خشية أن يكون إرسال الحملة مقدمة لانتزاع ولاية الشام من الدولة العثمانية وبسط النفوذ الفرنسى فى ربوعها . وكانت سياسة انجلترا تقوم فى ذلك الوقت على المحافظة على أملاك الإمبراطورية العثمانية لأن فى ذلك سلامة للمتلكات البريطانية فى الهند وغيرها . وقد أعلنت الحكومة الإنجليزية فى مجلس اللوردات بجلسة ١٠ يوليو ١٨٦٠ تمسكها بهذه السياسة وكان مما قالته « تذكرون يا حضرات اللوردات أن والى مصر (محمد على) قد استولى على هذه البلاد (الشام) فى فترة سابقة وأن قوات حضرة صاحبة الجلالة الملكة قد أسهمت لإعتبارات سياسية فى الجهود التى بذلت لإرجاع هذه الولاية إلى تركيا . وفى خلال الفترة التى دانت فيها للحكم المصرى ظفرت هذه البلاد بأمن وطمأنينة أكثر مما تتمتع به الآن (٣) » . وكانت الروسيا قد تقدمت ببعض الإقتراحات (٤) وألقت بعض القطع الحربية الروسية مراسيها أمام سواحل الشام (٥) . فرأت انجلترا أن يكون تدخل الدول فى هذا الموضوع مقيداً بأسس تتفق الدول على وضعها .

---

(1) Poujoulat, ouvr. cit., p. 21.

(2) Miller William : The Ottoman Empire and its Successors. Cambridge 1927, p. 302.

(٣) أنظر بيان اللورد ستراد فورد دى ردكليف Stradford de Redcliffe الجزء ١٥٩ ص ١٦٤٨

(4) Miller W., ouvr. cit., p. 302.

(٥) محضر جلسة ١٠ يوليو ١٨٦٠ بمجلس اللوردات . الجزء ١٥٩ ص ص ١٦٥٣ — ١٦٥٤

Hansard's Parliamentary Debates.

ولهذا اجتمع فى يوليو ١٨٦٠ بباريس سفراء الدول الخمس التى وقعت على معاهدة باريس ١٨٥٦ عدا سردينيا لتحديد الظروف والطريقة التى تتدخل بها أوربا عسكريا لإخماد الفتنة فى الشام . ووقعوا فى ٥ أغسطس ١٨٦٠ بروتوكولا (١) نكتفى بأن نذكر منه ثلاث مواد :

أولا : عرضت الدول على السلطان مساعدتها له لوضع حد للإضطرابات فى سوريا وقد وافق السلطان على ذلك .

ثانيا : ترسل قوة حربية إلى سوريا قوامها ١٢ ألف رجل . وقد وافق امبراطور فرنسا على أن يرسل فورا نصف هذه القوة وأن تتقدم إلى أماكن الإضطرابات دون تأخير ، وأن ترسل الدول فيما بعد – إذا تطلب الموقف ذلك – نصف القوة على أن يتم الإتفاق عليها وقتئذ .

ثالثاً : حددت مدة وجود القوات الأوربية فى سوريا بستة أشهر (٢) .

وقبيل نزول القوات الفرنسية إلى ساحل سوريا أرسلت تركيا قوات كبيرة إلى تلك الجهات كما أوفدت فؤاد باشا الذى اتخذ تدابير صارمة جدا لإرجاع الأمن إلى نصابه ، فنفى بعض الأعيان من دمشق وقتل ١١١ مسلما رميا بالرصاص وشنق ٥٦ وسمح لجميع المسيحيين الذين دانوا بالإسلام كرها أن يرتدوا إلى دينهم وكان عددهم يقرب من الخمسمائة (٣) ، وأعطى

---

(١) وضع هذا الاتفاق فى أول الأمر فى صيغة بروتوكول a protocol ولم يأخذ صورة اتفاق a Convention إلا بعد ذلك بشهر لأن الموقف فى نظر الدول الموقعة عليه كان لا يحتمل تأخيرا وكان وضع الاتفاق يتطلب اجراءات خاصة يستغرق اتمامها وقتا طويلا . أنظر تصريح اللورد سترادفورد دى رد كليف فى جلسة ٣ أغسطس ١٨٦٠ بمجلس اللوردات . الجزء ١٦٠ ص ص ٦١٧ – ٦١٨ فى

Hansard's Parliamentary Debates.

وأنظر فى هذا الصدد :

Miller W., ouvr. cit., p. 302,

(٢) المصدر السابق

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٩٠

أملاك المسلمين فى الحى التجارى فى دمشق كتعويض للمسيحيين الذين دمرت منازلهم (١) .

وكانت الحملة الفرنسية بقيـــــادة General de Beaufort d'Hautpoul ونزلت فى بيروت فى أغسطس ١٨٦٠ وعسكرت فى جهات متعددة فى جبل لبنان (٢). وقد ما طلت فرنسا فى الجلاء بعد انتهاء المهلة المحددة فى بروتوكول أغسطس ١٨٦٠ وأثير هذا الموضوع فى مجلس اللوردات بجلسة ٧ مارس ١٨٦١ وذكر بعض الأعضاء أن تسويف فرنسا فى الجلاء إنما يرجع إلى أن التفاهم يزداد بين روسيا وفرنسا بخصوص المسائل التركية وأبدوا خشيتهم من أن تتخذ الروسيا احتلال فرنسا لسوريا ذريعة لتدخلها فى بلغاريا (٣) كما أثير هذا الموضوع فى مجلس العموم وصرح اللورد جون رسل John Russel أن عدد القوة الفرنسية قد زاد حقيقة عن العدد المتفق عليه إذ كان يتراوح وقتئذ بين سبعة الآف وثمانية الآف جندى (٤) .

وأخيرا استقر الرأى على أن يتم جلاء القوات الفرنسية عن سوريا فى ٥ يونيو ١٨٦١ وعاد الجنود الفرنسيون إلى فرنسا بعد أن أقاموا بساحل سوريا تسعة أشهر نعموا خلالها « بنزهة خيرية » (٥) .

وقد جاءت فى أعقاب تلك المذابح الدينية أزمة اقتصادية خانقة فعزت

---

(1) Poujoulat, ouvr. cit., pp. 16-17.

(2) Hanotaux Gabriel: Histoire de la Nation française, t. VIII. Histoire militaire et navale, 2ème volume. Du Directoire à la Guerre de 1914, par le Maréchal Franchet d'Esperey. Paris 1937, pp. 383-384.

(٣) محضر جلسة مجلس اللوردات بتاريخ ٧ مارس ١٨٦١ ص‌ص ١٠٢٥ — ١٠٢٦ الجزء ١٦١ من
Hansard's Parliamentary Debates.

(٤) محضر جلسة مجلس العموم بتاريخ ٧ مارس ١٨٦١ و ١٨ مارس ١٨٦١ فى الجزء ١٦١ ص‌ص ١٠٤٠ — ١٠٤١ ، ٢١٥٤
Hansard's Parliamentary Debates.

(5) Miller, ouvr. cit., p. 302.

الأقوات إذ نقص محصول القمح فى عام ١٨٦١ نقصانا خطيرا (١) ، كما غدا كثير من أهل البلاد متعطلين ، ولم يجرؤ كثير من الناس على الخروج من قراهم والذهاب على مألوف عـادتهم إلى دمشق أو بيروت لتلمس أسباب الرزق فيها (٢) . واتجهت أنظار كثير من أولئك اللبنانيين المسيحيين إلى مصر للهجرة إليها (٣) ، وكانت كل سفينة تصل الإسكندرية قادمة من موانى سوريا أو من بيروت تقل عددا كبيراً منهم (٤) . وقـد كتب Jules Rosé أحد محررى جـريدة L'Isthme de Suez مقالا عن هجرة السوريين واللبنانيين إلى مصر جاء فى ختامه « إن مصر الكريمة المضيافة لترحب بهم وتفتح لهم صدرها ، وسيجدون فيها ملاذا يقيهم الإضطهاد والسوء (٥) » .

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٩ مجموعة السنة السادسة

(٢) جريدة الشركة العدد ١١٦ الصادر فى ١٥ ابريل ١٨٦١ مجموعة السنة السادسة

(٣) محمد كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٩٣

(٤) جريدة الشركة العدد ٩٩ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦٠ ص ٢٤٢ مجموعة السنة الخامسة

(٥) المصدر السابق . وقد بلغت حالة أولئك اللاجئين من السوء مبلغا دفع البعض إلى فتح اكتتابات لمساعدتهم . وتبرع سعيد باشا وغيره من أفراد أسرته بمبالغ سخية ، كما تبرعت شركة القناة بخمسة آلاف فرنك واكتتب أجانب مصر بمبالغ متفاوتة ، وأسهم أيضا الطلبة المصريون فى باريس بمائتين وستين فرنكا تولى جومار بك Jomard ارسالها إلى مدير تحرير جريدة الشركة وأرفقها بخطاب بتاريخ أول سبتمبر ١٨٦٠ جاء فيه ما ترجمته « إن طلبة البعثة المصرية فى فرنسا قد تأثروا أشد التأثر للنكبات التى حلت بالسكان المسيحيين فى سوريا وقد أرادوا استنكاراً لعمل الذين شوهوا سمعة المسلمين بقسوتهم فتح اكتتاب فيما بينهم لمساعدة ضحايا هـذه الإضطهادات » . وقد نشرت أسماء الطلبة المصريين والمبالغ التى تبرعوا بها وقد نشر خطاب جومار فى جريدة الشركة العدد ١٠٢ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٠ ص ٣٠١ مجموعة السنة الخامسة . وبخصوص هذا الموضوع انظر أيضا جريدة الشركة العدد ٩٩ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦٠ ص ٢٤٢ والعدد ١٠٠ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦٠ ص ٢٥٩ مجموعة السنة الخامسة

لم تغب تلك المذابح الدينية ولا ذلك الكساد الإقتصادى فى سوريا عن ذهن دىلسبس، فعول من أول الأمر على استغلال الموقف لمصلحة الشركة ، وكان أن عين فى بيروت مندوبا لها يدعى نيقولا بورتاليس Nicolas Portalis

وأرسل إليه دىلسبس خطاباً ضافيا بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٦١ جاء فيه « لقد تحدثت معى كثيراً بخصوص احتمال جمع عمال مسيحيين من سوريا ، وقد حان الوقت لنبحث هذا الموضوع سويا ، وعليكم أن تعملوا بلباقة وفى طى الكتمان فى سبيل حضورهم . ويجب الأ تتفاوضوا مع الزعماء أو الرؤساء أو العائلات التى لها بأس وسيطرة، فهؤلاء جميعا يعملون على استغلال العمال. عليكم أن تتجهوا إلى العمال مباشرة (١) » .

وكانت العروض التى تقدمت بها الشركة لاستخدام العمال السوريين فى أعمال حفر القناة تقوم على الأسس الآتية .

أولا : تستخدم الشركة الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين ستة عشر عاما وأربعين عاما .

ثانيا : تحتسب الأجور إما على أساس أيام العمل وإما على أساس الإنتاج أى المقطوعية وفق رغبة العامل . فاذا قبل العمل على الأساس الأول يعطى أجرا يوميا قدره فرنك واحد ويمنح يوما واحدا إجازة كل أسبوع . وإذا قبل العمل على الأساس الثانى أمكنه أن يكتسب أجرا يتراوح بين ١,٥٠ فرنك وبين فرنكين فى اليوم تبعا لإنتاجه .

ثالثاً : لاتمنع الشركة استخدام الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاما كما تستخدم الرجال المسنين والسيدات ، فتعهد الشركة إليهم بأعمال تتناسب مع حالتهم وتقدر أجورهم حسب أهمية ونوع العمل الذى يقومون به.

رابعا : الأفراد الذين فى حوزتهم جمال يستطيعون الحضور بها من

(1) De Lesseps F., Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 13-15.

سوريا إلى البرزخ عن طريق الصحراء ، وتستأجر الشركة منهم هذه الجمال وتدفع عن كل جمل أجرا قدره ٢,٥٠ من الفرنكات فى اليوم .

خامسا : يقيم العمال فى قرى تباع فيها المواد الغذائية بأسعار محددة .

سادسا : يتسلم العمال عند سفرهم إلى البرزخ سواء عن طريق البحر أو عن طريق البر نفقات السفر ، وكذلك يعطون إذا شاءوا مبلغا من المال يدبرون به أمر عائلاتهم قبل سفرهم على أن يخصم المبلغ الأخير من أجورهم .

سابعا : لا يحضر العمال دفعة واحدة سواء أقدموا عن طريق البحر أم عن طريق البر ، وإنما يحضرون جماعات صغيرة ، قوام كل جماعة خمسون أو ستون فردا .

ثامنا : عند انتهاء أعمال حفر القناة توزع على جميع العمال السوريين الذين يرغبون فى الإقامة فى مصر أراض لزراعتها واستغلالها . وستختار هذه الأراضى من الجهات الواقعة على مقربة من وادى الغساسنة الخصيب (١) .

ويكشف البند الأخير بأجلى بيان عن حقيقة شركة القناة وأهدافها وأطماعها فهى لم تكن تقنع باستغلال مرفق حيوى هام هو قناة السويس طيلة تسع وتسعين سنة بل كانت ترمى إلى انشاء دولة قائمة بذاتها فى مصر على الأراضى الشاسعة التى منحها إياها محمد سعيد باشا فى عقدى الإمتياز بالإضافة إلى تفتيش الوادى الذى بلغت مساحته ٢٢ ألف فدان وابتاعته الشركة من سعيد باشا فى مارس ١٨٦١ بثمن بخس (٢) .

---

(١) المصدر السابق

(٢) اشترت الشركة تفتيش الوادى بثمن إجمالى بلغ ١,٩٩٧ , ٥٣٧ فرنكا ويمتد من قرية العباسة إلى بحيرة الحسمة على مسافة طولها ٢٥ كيلومترا وهو يقع فى مديرية الشرقية . وقد اشترته الحكومة المصرية من الشركة بمبلغ عشرة ملايين من الفرنكات طبقا للمادة السادسة من اتفاقية ٣٠ يناير ١٨٦٦ .

هذا وقد عقدت الشركة مع الحكومة صفقتين أخريين : الأولى فى سنة ١٨٦٠ إذ اشترت مبانى ضخمة فى دمياط وتقع على النيل وكانت من قبل ثكنات للجيش المصرى وكانت مساحتها أكثر من عشرين فدانا وقررت الشركة انها اشترتها بثمن بخس

وطلب دى‌لسبس إلى مندوب الشركة فى بيروت أن يبذل جهوده لإرسال عمال فى حدود ثلاثة الآف عامل وفق تلك الشروط على أن يتم وصولهم فى أوائل شهر رمضان ١٢٧٨ (مارس ١٨٦١) حتى لا يتعرض العمل فى ساحات الحفر للتعطيل إذ كانت الشركة تتوقع انصراف العمال المسلمين عن العمل خلال ذلك الشهر (١) .

وجدير بالذكر أن دى‌لسبس كان يحرص على أن تتم حركة جمع العمال من سوريا فى شيء كثير من الحذر وفى طى الكتمان أول الأمر . وقد صور تلك الحركة بأنها تيسير الوسائل أمام « بضعة أفراد فقراء لا مأوى لهم يريدون الذهاب للعمل لكسب قوتهم (٢) » .

ولم يحضر عدد كبير من السوريين للعمل فى حفر القناة . ورأى دى لسبس أن يستفيد من فترة الهدوء التى سادت ساحات الحفر خلال شهر رمضان ١٢٧٨ (مارس ١٨٦١) فسافر إلى تلك البلاد ليقوم فيها بدعاية لحض الأهالى على السفر إلى البرزخ من ناحية (٣) وليحضر الحفلات الدينية التى تقام فى القدس ابتهاجا بعيد الفصح من ناحية ثانية . وكتب من الجسر (شمالى بحيرة التمساح) فى ١٩ مارس ١٨٦١ إلى الدوق البوفرا فى باريس يقول « سأسافر غدا إلى القنطرة ومنها سأقوم برحلة إلى فلسطين . وأرجو

للغاية بلغ ٥٠ ألف فرنك . أما الصفقة الثانية فقد اشترت الشركة فى أواخر سنة ١٨٦١ مستودعات واسعة للغاية على نهر النيل فى بولاق بالقاهرة وبلغت مساحتها عشرة الآف متر مربع وكانت تشغلها مدرسة المهندسخانة على عهد محمد على . وكان سعيد باشا قد سمح للشركة بشغل هذه المستودعات مجانا ثم اشترتها الشركة بمبلغ ١٩٩,٢٠٤ فرنكا . وقد استردتها الحكومة منها مع بعض امتيازات أخرى للشركة بمبلغ عشرة ملايين من الفرنكات طبقا للمادة السابعة من الإتفاق الأول بتاريخ ٢٣ ابريل ١٨٦٩ وهكذا كانت الشركة تعقد الصفقات مع الحكومة ثم تردها إليها بعد أن ترفع قيمتها أضعافا مضاعفة .

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 13-15.

(٢) المصدر السابق

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 230.

أن تسهم دعايتى الشخصية فى زيادة عدد العمال . وسأقوم فى أثناء طوافى بهذه البلاد بتوزيع اعلانات طبعتها فى القاهرة باللغة العربية تدعو الأهلين إلى الإشتراك فى عمل جاء ذكره فى الإنجيل والقرآن وأرجو أن يستبدل هؤلاء الرجال بحياتهم الحافلة بالآلام والبؤس حياة شريفة وكسبا مضمونا (١) » .

وقد بدأ دى‌لسبس رحلته (٢) من القنطرة فى ٢١ مارس ١٨٦١ ومعه نفر من أصحابه وكان يستقل عربة خاصة تجرها أربعة من الجمال ويتبعها عدد آخر منها فبلغ العريش فى ٢٤ مارس ١٨٦١ وقضى ليلته فى ضيافة حاكم العريش وتحدث إليه فى شأن تذليل الصعاب التى قد يلقاها العمال السوريون عند اجتيازهم الحدود المصرية للعمل فى البرزخ وقرر تعيين مندوب للشركة يقيم فى العريش لتقديم المعونة إلى أولئك العمال . واستأنف دى‌لسبس وصحبه السفر فى صبيحة اليوم الثانى بعد أن أرسل حاكم العريش معهم رجلا من الأدلاء .

وأجاد دى‌لسبس الدعاية فكان إذا مر وهو فى طريقه ببعض الأعراب الضاربين فى الصحراء توقف عن المسير وقرأهم السلام باللغة العربية ، وبذلك يستحوذ على قلوبهم فيدعونه إلى تناول الشاى أو القهوة فى داخل الخيمة ، ثم يوزع عليهم اعلانه المطبوع باللغة العربية وكان قائدو الجمال المرافقون له يتولون الشرح ويعددون لهم المزايا التى تعود عليهم إذا هم أقبلوا على العمل فى ساحات حفر القناة حيث الرزق المضمون والحياة المستقرة .

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. IV, p. 32.

(٢) برنامج الرحلة مذكور بالتفصيل فى الجزء الرابع ص‌ص ٣٩ — ٤١ من المصدر السابق . وأنظر أيضا جريدة الشركة العدد ١١٦ الصادرة فى ١٥ ابريل ١٨٦١ مجموعة السنة السادسة . وأنظر كذلك ملفا محفوظا بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠٩ Tr. Publ. بعنوان :

Dossier contenant une collection de brochures, d'articles, de revues et de journaux sur L'Isthme et le Canal de Suez. Paris 1870, pp. 35-38 la dernière partie titrée : Lectures et conférences de la Société des Gens de Lettres (Séance du 10 avril 1870).

وبلغ دى لسبس غزة فى ٢٥ مارس ١٨٦١ ثم بيت المقدس فى ٢٧ منه وأقام فيها خمسة أيام شهد فيها حفلات عيد الفصح مع عدد كبير من الضباط الفرنسيين فى جيش الإحتلال الفرنسى لسوريا .

وعين دى لسبس مندوبين للشركة فى غزة ويافا وحيفا وبيت المقدس يتولون جمع العمال والإشراف على سفرهم . وكان مندوب الشركة فى العريش يستقبل العمال ويوجههم إلى القنطرة حيث يكون فى انتظارهم مندوب آخر يوزعهم على ساحات الحفر .

وواضح أن قبول عمال سوريا العمل فى الشركة كان يتم بمطلق الحرية على أساس اتفاق حر بين الشركة والأهالى دون ضغط من السلطات الحكومية عليهم ، فاذا ما قبل العامل العمل دفعت له الشركة قبل رحيله مبلغا من المال لينظم أمور أسرته كما تتكفل بنفقات سفره إلى مصر . وكان شيخ القرية يضمن العامل إذا أخل بالإتفاق أو عدل عن السفر (١) . وكانت أقل مدة يقضيها العامل السورى فى ساحات الحفر ويسمح له بعدها بالعودة إلى وطنه إذا شاء شهرا ونصف شهر ، فإذا أراد متابعة العمل فله أن يجدد الإتفاق فترة أخرى ، وله أيضا أن يبعث فى طلب أسرته إذا شاء .

وكان العمال يصلون فى جماعات قوام كل جماعة ثلاثون عاملا . وكان مندوبو الشركة يحرصون على أن يكون أفراد الفوج القادم من قرية واحدة كلما كان ذلك فى الإستطاعة .

وكانت دعاية الشركة فى سوريا لجمع العمال مقصورة أول الأمر على المسيحيين دون المسلمين ، وتوقعت الشركة أن تستجيب لها جموع حاشدة من العمال المسيحيين. ولكن لم يفد عدد كبير منهم ، فرأت أن تعمم دعايتها فى أوساط المسلمين والمسيحيين على السواء ، واستعانت بالشخصيات الدينية الإسلامية هناك لحض المسلمين على العمل فى حفر القناة واستصدرت

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٩ مجموعة السنة السادسة .

من الشيخ عثمان محمد شيخ مسجد عمر ببيت المقدس نداء باللغة العربية وجهه إلى الأهلين هناك . وقد نشرته جريدة الشركة مترجما إلى اللغة الفرنسية ونعيد تعريبه فيما يلى :

« أيها الناس . تعالوا وابحثوا عن دى لسبس وكونوا له السواعد القوية. أمسكوا بالفؤوس وأعملوا طوع أمره

« استمعوا أيها الإخوان لكلام مبعوثيه. إنهم قوم عدول، ولا تصغوا إلى ما يشيعه حساده ودعاة السوء الذين يطمسون بصائركم .

« اتبعوا دى لسبس واحتقروا أعداء مشروعه النبيل .

« سيروا تحت رايته تكونوا سعداء ولن تحيق بأى مسلم يسير وراءه إهانة أو يصيبه ظلم، ولكنه سيحظى بالرفق الذى يزخر به قلبه. إن تقارير إخواننا سكان جبل فلسطين وبيت المقدس تجمع على أن دى لسبس هو والد الجميع .

« أيها الناس . إدعوا الله ينصر دى لسبس وأطلبوا إلى الله القوى القدير أن يبارك عمله فى وصل البحرين .

« أيها الناس . اعتقدوا فيما يقوله مبعوثوه فإن نداءهم يجب أن ينفذ إلى أعماق قلوبكم وإن من يستجيب لهم فلن يحس بالندامة أبدا » .

ويلوح أن العمال المسلمين قد أقبلوا على الرحيل إلى مصر للعمل فى حفر القناة بتأثير الصبغة الدينية التى اتسم بها هذا النداء ، فضلا عن أن واضعه كان يشغل مركزا دينيا محترما ، بل لعل بعضهم قد نزح إلى مصر مع أفراد عائلاتهم بدليل أن الشركة عينت لهم مأذونا يتولى تصريف الأمور الإجتماعية بينهم ويقوم فى نفس الوقت بتعليم أولادهم ، كما عينت أحد القضاة الشرعيين

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٢٩ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦١ ص ص ٣٣٨ — ٣٣٩ مجموعة السنة السادسة . هذا وقد وردت بعض فقرات من هذا النداء فى Marius Fontane, ouvr. cit., pp. 55-58.

للفصل فى المنازعات التى تقع بينهم . وقد استقدمت الشركة القاضى والمأذون من سوريا وجعلت مقرهما القنطرة (١) حيث رأت تجميع العمال السوريين فى ساحات الحفر القائمة فى تلك المنطقة .

وأخذت أبواق الدعاية فى الشركة – فى كل من باريس ولندن – تباهى وتتشدق بفضل الشركة على الإنسانية (٢) وذهبت فى ذلك مذهبا غريبا . فنشرت جريدة الشركة مقالا قالت فيه « إن حالة الضنك والآلام التى يعانيها سكان سوريا فى هذه الأيام من جراء أزمة التموين والإضطرابات السياسية وتقدم شركة القناة لتوفير أسباب العيش أمام السوريين فى هذه الظروف الحرجة لدليل على أنها قد أسدت خدمة جليلة للإنسانية وللحكومة العثمانية ، لأنها ساعدت على تهدئة الحال . وهى بهذا العمل قد قضت على مواطن الإضطراب فليس هناك أخطر من شبح الجوع إذا زحف على شعب من الشعوب (٣) » . كما بعث لانج Lange مندوب شركة القناة فى لندن بخطاب إلى جريدة الديلى نيوز Daily News نشرته فى عدد ١١ سبتمبر ١٨٦١ جاء فيه : « تبرعت انجلترا بأموال لمساعدة المسيحيين المنكوبين فى سوريا . وهذا اجراء مؤقت سرعان ما يزول أثره . أما عمل شركة القناة للتخفيف من ويلات هؤلاء المنكوبين فأعظم نفعا وأعم أثرا إذ أنها تدخلهم فى خدمتها (٤) » .

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٩ مجموعة السنة السادسة .

(٢) أنظر أعداد جريدة الشركة فى الفترة بين شهر ابريل ١٨٦١ وشهر نوفمبر ١٨٦١ تحت عنـــوان حوادث البرزخ Chronique de l'Isthme ومن المصادر الفرنسية التى تعرضت لهذا الموضوع :

Marius Fontane, ouvr. cit., p. 54.

Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., p. 202.

(٣) جريدة الشركة العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٩ مجموعة السنة السادسة .

(٤) أعادت جريدة الشركة نشر هذا الخطاب مترجما إلى اللغة الفرنسية فى العدد ١٢٦ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦١ ص ٢٩٠ مجموعة السنة السادسة

ولا ريب أن استقدام عمال من سوريا لايثير من الناحية النظرية صعابا خطيرة ترقى إلى المشكلات المعقدة التى تنشأ من استقدام عمال أجانب من أوربا لأن بلاد الشام كانت فى ذلك الوقت ولاية عثمانية وسكانها من رعايا الدولة العثمانية يخضعون لسلطانها وقوانينها .

على أن عدد العمال السوريين الذين نزحوا إلى مصر للعمل فى حفر القناة لم يبلغ رقما عاليا بالنسبة إلى مجموع العمال المصريين الذين تحملوا وحدهم العبء الأكبر فى عمليات حفر القناة . فقد كان مجموع عدد العمال فى شهرى ابريل ومايو ١٨٦١ يتراوح بين ستة الآف وسبعة الآف عامل بما فيهم المصريون وكان عدد العمال المصريين خمسة الآف وبذلك بلغ عدد العمال السوريين ألفين على أكثر تقدير . ولما بدأت الحكومة المصرية فى تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة اعتبارا من شهر أبريل ١٨٦١ وفى نطاق ضيق أول الأمر بدأت الشركة تكف عن استقدام العمال السوريين تخلصا من عبء النفقات التى كانت تتحملها فى سفرهم وأجورهم العالية بالنسبة لأجور العمال المصريين ، حتى إذا توسع سعيد فى تنفيذ لائحة العمال كفت الشركة عن استقدام عمال من سوريا .

الفصل السادس

السخرة المقنعة

الآف المصريين يأخذون طريقهم إلى ساحات الحفر – تعليل الشركة لهذه
الزيادة الفجائية فى عدد العمال – صحافة انجلترا تزيح الستار عن
حقيقة الموقف – سعيد يتجنب اصدار أوامر مكتوبة لجمع العمال –
سعيد يضلل الرأى العام ويحتاط من تدخل تركيا أو انجلترا –
المصريون يربطون بالحبال ويسحبون سيرا على الأقدام إلى
ساحات الحفر – مدير عام الأشغال فى الشركة يشرح
ملابسات بدء استخدام السخرة – فرنسى آخر يؤيد
تدخل سعيد لإكراه المصريين على حفر القناة –
زيارة سعيد لبورسعيد – جشع دى لسبس : لم
يقنع بثلاثة الآف مصرى وطالب بعشرة
الآف – استعانته بقنصل فرنسا – عودته
إلى فرنسا مغاضبا – صفاقة الشركة :
وضع عرائض باسم المصريين
يشيدون فيها بحسن المعاملة وأنهم
ذهبوا طواعية إلى ساحات
الحفر وأنه لم يمت أو
يمرض منهم أحد –
تفنيد هذه العرائض
– تهكم الصحافة
الإنجليزية عليها .

× × ×

تغير الموقف فى ساحات الحفر تغيرا ملموسا منذ النصف الثانى من شهر ابريل ١٨٦١ ، فبعد أن كانت تلك الساحات تستقبل العمال المصريين بالعشرات إذا بالآف من أفراد الشعب المصرى يأخذون طريقهم إليها ،

واستطاعت الشركة أن تبدأ فى ١٩ ابريل ١٨٦١ فى حفر ترعة الماء العذب من قرية القصاصين بمديرية الشرقية فى اتجاه بحيرة التمساح بعد أن انسلخ عامان منذ بدأت الشركة فى تنفيذ المشروع على الرغم من أنه كان مقررا أن تتم حفرها قبل أن تشرع فى شق قناة السويس . وقد ارتفع عدد العمال خلال

شهر مايو ١٨٦١ إلى ٧,٠٤٩ عاملا، ثم استمر عدد العمال المصريين يتأرجح بين الزيادة والنقصان فى حدود الآلاف بقية شهور ١٨٦١ حتى بلغ ذروته فى شهر ديسمبر من ذلك العام إذ قفز إلى ١٤,٦٩٧ عاملا (١) .

وتقول الشركة فى تفسير هذه الزيادة فى عدد العمال المصريين إن مردها إلى الدعاية التى قامت بها ، والأجور التى كانت تعطيها لهم ، والمعاملة الطيبة التى ظفروا بها ، وأخيرا إلى انقضاء فترتى شهر رمضان (١٢٧٧) وعيد الفطر — وقد انتهتا فى ١٤ ابريل ١٨٦١ . ولكن هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة لاتنهض لتفسير هذا التطور الفجائى فى عدد العمال . فالإعلانات التى وزعتها الشركة فى القرى لم تجد نفعا فى وقت كانت الأمية فاشية بصورة ساحقة بين الفلاحين . أما الأجور فلا تتناسب مطلقا مع طبيعة عمليات الحفر ولا مكان العمل وبعده عن الجهات الآهلة بالسكان ولا السفر الشاق الطويل الذى تتعدد وسائله إلى ساحات الحفر . وأما المعاملة الطيبة فكانت تتنافى مع مبيت غالبيتهم فى العراء وتعرضهم جميعا لخطر الموت عطشا وانتشار الأمراض وفتك الأوبئة بهم . أما انقضاء شهر رمضان فلا يفسر تدفق الآف من المصريين للعمل فى حفر القناة .

الواقع كان السبب هو تدخل الحكومة المصرية لإكراه المصريين على الإشتراك فى عمليات الحفر تنفيذا للائحة العمال . وكان تدخلها أول الأمر فى نطاق ضيق ، وبشكل خفى ، خشية المعارضة الإنجليزية والحكومة التركية .

وقد كتبت الصحافة الإنجليزية فى تلك السنة — كما كتبت فى السنوات التالية — مقالات عن السخرة فى حفر القناة . ونختار من بينها مقالين ظهرا خلال تلك الفترة ، يكشف المقال الأول عن أسلوب سعيد باشا فى اخفاء تدخل الحكومة لجمع المصريين من أجل حفر القناة . أما المقال الثانى فيرسم

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 232.

صورة مزرية للطريقة التي كان يكره بها المصريون على الذهاب إلى ساحات الحفر .

نشرت جريدة التايمز Times فى عدد ٦ يونيو ١٨٦١ مقالا لمراسلها فى الإسكندرية جاء فيه « لم يكن فى مقدور دىلسبس أولا أن يعلن عن تقدم كبير فعال حدث فى البرزخ . ولكنه استطاع أخيراً أن يؤكد بحق أنه نجح فى الحصول على عدد كبير من العمال . إن التفسير لهذا النجاح الفجائى بعد ذلك الفشل الذى دام أمدا طويلا هو أن الحكومة المصرية انتهى بها الأمر إلى التدخل فى الموضـــــــوع وقدمت مساعدة فعالة ، وأن دىلسبس أخل بوعده الذى قطعه بأنه لن يلجأ بأية حال إلى نظام السخرة .... ويجدر بى أن أذكر أن هؤلاء العمال تصفهم الحكومة المصرية والشركة بأنهم رجال جاءوا بمطلق حريتهم وبمحض رغبتهم . والحكومة المصرية تساعد فى هذا السبيل ، فهى لا تصدر أوامر مكتوبة بخصوص هذا الموضوع إلى مديرى الأقاليم ، وبهذه الروح نفسها لا يصدر المحافظون والمديرون إلى العمد ورجال الإدارة أوامـر مكتوبة لجمع العمال. وفى نفس الوقت تعلن الحكومة المصرية على الملأ أنها أذنت لدى لسبس فى جمع العمال وفق الطريقة الحرة. وهى تقصد بذلك تضليل الرأى العام من ناحية ، ولتأخذ لنفسها الحيطة إذا تدخلت تركيا أو أية حكومة أخرى فى هذا الموضوع .... علينا أن نعد أنفسنا لتلقى أنباء من باريس بأن الفلاحين يهجرون قراهم وزراعاتهم من أجل العمل فى حفر الأرض ونقل الرمال فى برزخ السويس . هذه جزية فرضتها الشركة على البلاد بعد أن حملت الحكومة المصرية على الإرتباط ازاءها بالتزامات مالية تعادل ايرادها فى عام (١) » .

---

(١) نشرت جريدة L'Isthme de Suez هذا المقال مترجما إلى اللغة الفرنسية فى العدد ١٢٠ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦١ ص ١٩٨ مجموعة السنة السادسة . وتناولت فى العدد التالى ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ٢١٦ تفنيد ما جاء فى مقال الجريدة الإنجليزية . وعادت مرة أخرى تؤكد حيدة الحكومة المصرية فى حركة جمع العمال وذلك فى العدد ١٢٤ الصادر فى ١٥ اغسطس ١٨٦١ ص ٢٦٢ مجموعة السنة السادسة .

ولم يجانب مراسل جريدة التايمز الحقيقة حين قرر أن سعيد باشا كان يتجنب إصدار أوامر مكتوبة إلى مديرى الأقاليم لجمع المصريين من أجل حفر القناة . فهذه كانت خطته التى درج عليها إذا أراد أن يتفادى ضغطا سياسيا من جهة أو أخرى . وقد رأينا أنه اتبع هذا النهج خلال أزمة يونيو ١٨٥٩ حين تحاشى إرسال أوامر مكتوبة إلى محافظ دمياط واكتفى باستدعائه إلى القاهرة حيث أبلغه أوامر شفوية ينفذها حالما يعود إلى مقر وظيفته .

أما المقال الثانى فنشرته جريدة Standard وجاء فيه « هل يعقل أن يفد عشرة الآف عامل من الجهات النائية فى مصر إلى البرزخ بمجرد قراءة عابرة لإعلانات تعرض عليهم عروض مستر دى لسبس السخية ؟ لقد أمر سعيد باشا بإلصاق هذه الإعلانات على حوائطهم المبنية من الوحل . وهل يتصور أحد أن جماهير الفلاحين تتزاحم حول إعلان ألصق على جدران من الطين ثم يسرعون للحاق بخدمة المغامر الفرنسى ؟ لقد علمنا من مصدر موثوق به أن هؤلاء العمال التاعسين كانوا يسحبون سيرا على الأقدام إلى بورسعيد ، وقد ربط بعضهم إلى بعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد فى افريقيا والتى يسوقها تجار الرقيق من الأقاليم الداخلية إلى الساحل حيث تكون السفن فى انتظارهم لنقل هذه السلع الآدمية (١) » .

وقد تناولت جريدة الشركة الرد على هذا المقال فكانت إلى تأييده أقرب منها إلى تفنيده إذ قالت « . . مامن شك فى أن العمال الذين تجمعهم الشركة يذهبون إلى ساحات الحفر سيرا على الأقدام فى بلد لايحظى بطرق زراعية كثيرة أو خطوط حديدية منتشرة أو طرق مائية متشعبة . وقطع المسافات سيرا على الأقدام أمر مألوف للغاية فى مصر وفى بلاد أوربية كثيرة (٢) » .

وعلى الرغم من الحقائق التى تضمنها هذان المقالان فرب قارىء يعترض

---

(١) أعادت جريدة L'Isthme de Suez نشر هذا المقال مترجما إلى اللغة الفرنسية فى العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٨ مجموعة السنة السادسة

(٢) المصدر السابق

بأنها لرجلين انجليزيين تأثرا فى مقاليهما بمعارضة حكومتهما لمشروع القناة ، فلدينا دليل قاطع جازم نستقيه من فرنسى معاصر أشرف على عمليات حفر القناة هو فوازان بك Voisin مدير عام الأشغال فى شركة القناة ، وهو دليل يكشف عن الملابسات التى بدىء فيها باستخدام السخرة فى تنفيذ المشروع ويبين كيف وضع سعيد باشا خزانة الحكومة المصرية وجهود الشعب المصرى فى خدمة الشركة .

كانت شركة القناة تواجه فى ذلك الوقت أخطر مشكلة صادفتها أثناء تنفيذ المشروع وعرضت أرواح العمال المصريين فى صحراء البرزخ لخطر الموت عطشا ونعنى بها مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر . وقد تخبطت الشركة فى التماس الحلول لها : فكانت أحيانا تنقله إلى بورسعيد من دمياط فى قوارب ومن الإسكندرية فى باخرة ، ثم استوردت ثلاثة مكثفات تباعا لتحويل ماء البحر إلى ماء مستساغ ، كما كانت تعتمد حينا ثالثا على آبار متناثرة فى الصحراء تنقل منها الماء فى براميل على ظهور الجمال إلى مسافات بعيدة حيث كان يشتغل العمال ، ولقى كثير من المصريين مصرعهم بسبب تأخر وصول ماء الشرب إليهم . وقد رأينا أن الشركة اختزلت مشروع ترعة الماء العذب ، فبدلا من أن تحفرها من القاهرة إلى بحيرة التمساح رأت أن تحفرها موقتا من قرية القصاصين فى مديرية الشرقية لتكون امتدادا لترعتى الزقازيق والوادى واللتين كانتا متصلتين بدورهما بالقاهرة عن طريق بحر مويس وفرع دمياط .

تدخلت الحكومة المصرية وقتئذ لإنقاذ الموقف ولإصلاح الخطأ الذى وقعت فيه الشركة لأنها بدأت عمليات حفر قناة السويس قبل أن تشق ترعة الماء العذب خلافا لما كان مقررا من قبل (١) وتوغلت الشركة فى الصحراء تعد ساحات الحفر وتجمع العمال دون أن تتخذ التدابير الفعالة لتأمين وصول

---

(١) أنظر الفصل الحادى عشر

ماء الشرب إليهم . وقد اتخذ تدخل الحكومة المصرية فى ذلك الوقت مظهرا عماليا ومظهرا ماليا . فأرسلت ثلاثة الآف عامل لحفر ترعة الماء العذب فبدأوا فى حفرها فى النصف الثانى من ابريل ١٨٦١ من قرية القصاصين (١). أما المظهر المالى فيتلخص فى أن الشركة قامت بواسطة مهندسيها بتهذيب وتعميق مجرى ترعتى الزقازيق والوادى وطولها ٤٥ كيلومترا لتحقق الشركة أغراضها التى تستهدفها من استخدام ذلك الطريق المائى، كما أقامت هويسا على الترعة فى الزقازيق وكوبريا عند أبى حماد وآخر عند التل الكبير . ولم تكتف الحكومة المصرية بإرسال عمال السخرة للقيام بتلك الأعمال الإنشائية والإصلاحية بل تكفلت بجميع نفقات تلك المنشآت والأعمال (٢) .

وهناك فرنسى آخر هو اوليفيه ريت Olivier Ritt كان أحد رؤساء العمل فى شركة القناة وأقام فى منطقة البرزخ فى ذلك الوقت . وقد ذكر فى سياق خطاب بعث به من البرزخ فى النصف الأول من عام ١٨٦١ أن « الحكومة المصرية أرسلت عددا كبيرا من المصريين لحفر ترعة الماء العذب وهم يؤدون أعمالهم على أكمل وجه (٣) » وواضح من هذه العبارة أن الحكومة

---

(1) Les travaux ont été entièrement exécutés par les ouvriers des contingents... .... Les travaux, commencés dans la deuxième quinzaine d'avril, furent terminés dans le courant de la deuxième quinzaine de janvier 1862, c'est-à-dire dans un délai de neuf mois.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 209.

ويقرر الطبيب الذى أشرف على الحالة الصحية بين عمال السخرة الذين حفروا ترعة الماء العذب أن الشركة بدأت فى حفرها فى ١٩ أبريل ١٨٦١ .

(2) Le Gouvernement égyptien avait consenti à prendre à sa charge la dépense de tous ces travaux qui furent exécutés sous la direction des ingénieurs de la Compagnie *à l'aide d'ouvriers fournis par le Gouvernement.*

Les travaux, commencés dans les premiers mois de 1861, furent terminés dans le courant de septembre de la même année.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 209.

(3) Ritt, ouvr. cit., p. 209.

المصرية هى التى تولت جمعهم وإرسالهم وأنهم لم يذهبوا استجابة للإعلانات التى وزعتها الشركة بين المصريين .

نخرج مما سبق بهذه الحقيقة وهى أن شركة القناة بدأت تعتمد على نظام السخرة فى تنفيذ المشروع فى النصف الثانى من شهر أبريل ١٨٦١ وعلى وجه التحديد فى التاسع عشر من ذلك الشهر .

ومما هو جدير بالذكر أن سعيد باشا فاجأ الشركة بزيارة قام بها لبورسعيد فى ١٢ أبريل ١٨٦١ . وكان قد أبحر من الاسكندرية فى رحلة بحرية (١) ، ثم لاح له أن يعرج على الميناء الجديد الذى يحمل اسمه ، فكان نزوله إلى الشاطىء مفاجأة سارة لمستخدمى الشركة ،وأعدوا له إحدى عربات السكة الحديدية الضيقة التى يستعملها مهندسوها ، فاستقلها من الميناء وزار مختلف الورش والمستودعات وغيرها من المنشآت ، وكانت كلها متصلة بشبكة من الخطوط الحديدية الضيقة (٢) . وكانت هذه الزيارة مظهرا عمليا واضحا من مظاهر عطفه على الشركة واهتمامه بنجاح المشروع . وقد جاء فى أعقاب هذه الزيارة تنفيذ لائحة العمال بشكل خفى وفى نطاق ضيق أول الأمر .

. . .

وكان سعيد باشا قد حشد لشركة القناة ثلاثة الآف عامل من عمال السخرة من أجل حفر ترعة الماء العذب التى بدأت الشركة فى شقها فى ١٩ أبريل ١٨٦١ من قرية القصاصين . ولكن دى لسبس لم يقنع بهذه الآلاف

---

(١) أرسل محافظ دمياط خطابا إلى المعية السنية فى ٤ شعبان ١٢٧٧ (١٥ فبراير ١٨٦١) يقول فيه إنه لما كان سعيد باشا يعتزم زيارة دمياط فى القريب فانه يطلب ارسال أعلام وقناديل لإقامة الزينات وقت زيارته . (محفوظات عابدين : محفظة ٢٧ معية وثيقة رقم ١٦٤ من حسن راسم محافظ دمياط إلى المعية) ولعل زيارة سعيد لبور سعيد كانت امتدادا لهذه الزيارة .

(٢) بخصوص هذه الزيارة أنظر كلا من

جريدة L'Isthme de Suez العدد ١١٧ الصادر فى أول مايو ١٨٦١ ص ١٣١ مجموعة السنة السادسة

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 224.

الثلاثة من عمال السخرة يشقون الترعة الحلوة. بل أراد أن يتخذ من هذا الحشد سابقة يستند إليها ، فمالبث أن طالب سعيدباشا فى يونيو ١٨٦١ برفع عددهم إلى عشرة الآف مصرى . وأسس طلبه على الأهمية البالغة التى تعلقها الشركة على ترعة الماء العذب من حيث إنقاذ أرواح العمال المصريين من الموت عطشا وهم فى ساحات حفر القناة البحرية . واستخدم فى أحاديثه مع سعيد باشا الأسلوب الذى طالما استجاش به مشاعر العظمة فى عقلية سعيد ، فأوضح له أن التأخير فى إنجاز المشروع يعرض سمعة سعيد للنقد فى فرنسا حيث يحظى من الرأى العام الفرنسى بتقدير وعطف بالغين ، كما أن التأخير يضر بمصالح مسهمى الشركة . وابتدع هذه المرة ذريعة أخرى وهى أن الحقول لم تكن وقتئذ فى حاجة إلى آيد عاملة كثيرة إذ كان موسم حصد القمح قد قارب الانتهاء(١). وقد لقى دى لسبس من سعيد قبولا لفكرته من حيث المبدأ ، ولكن سعيد رأى أن يمضى فى تنفيذ لائحة العمال فى نطاق ضيق فترة أخرى من باب الحيطة والحذر . وقدر هذه الفترة بشهرين آخرين هما يونيو ويوليو ١٨٦١ . فاذا وقفت الحكومتان التركية والإنجليزية على أمر تسخير المصريين فى حفر القناة وأثارتا أزمة سياسية بسبب موضوع السخرة أمسك سعيد عن تنفيذ اللائحة ، أما إذا سارت الأمور سيرا هادئا فقد وعد برفع عدد عمال السخرة فى شهر أغسطس ١٨٦١ إلى تسعة الآف ، ثم يزداد عددهم إلى عشرة الآف عامل خلال الشهور التالية اعتبارا من شهر سبتمبر ١٨٦١ .

وكان سعيد قد تلقى خطابا بتاريخ ٣٠ رمضان ١٢٧٧ (١١ أبريل ١٨٦١) من القبوكتخدا — مندوب والى مصر فى القسطنطينية — يستفسر منه عن الخطة التى يتبعها لدى الباب العالى بخصوص موضوع القناة . فرد عليه سعيد

---

(١) قدم دى لسبس مصر يوم ٢٦ مايو ١٨٦١ وغادرها إلى فرنسا فى ١٩ يونيو ١٨٦١ وتمت مقابلاته مع سعيد باشا خلال هذه الفترة . أنظر جريدة L'Isthme de Suez عدد أول يونيو وعدد ١٥ يونيو وعدد أول يوليو ١٨٦١ وأنظر هذه النقطة الحساسة التى أبرزها فى أحاديثه مع سعيد باشا بخصوص انتهاء موسم الحصاد فى
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 231.

فى ١٩ شوال ١٢٧٧ (٣٠ أبريل ١٨٦١) يأمره بالتزام الصمت وعدم إثارة موضوع القناة لدى الحكومة التركية (١) .

وقد أدرك دى‌لسبس أن الوالى لايزال على خوف من التيارات السياسية المعادية للمشروع (٢) ، وأن ذلك الخوف يقبض يد الوالى عن التوسع فى تسخير المصريين فى حفر القناة ، فآثر أن يستعين بقنصلية فرنسا العامة فى مصر كى تتدخل لدى سعيد باشا لرفع عدد عمال السخرة رفعا عاجلا إلى عشرة الآف ، فكتب فى ٧ يونيو ١٨٦١ إلى بوفال « يعتزم المقاول رفع عدد العمال الذين يشتغلون فى حفر ترعة الماء العذب من ثلاثة الآف إلى ستة الآف رجل . ولهذا كان من الضرورى العمل على أن يصل عدد العمال إلى عشرة الآف رجل ، وهذا ما يطلبه مندوب هاردن المقاول العام . وأعتقد أن كلمة واحدة تصدر منكم تكفى حتى نظفر بهذا العدد .... ونحن الآن ندخل فى أحسن فصول السنة ، إذ أن الحقول لاتحتاج إلى كل هذه الأيدى العاملة (٣) . »

ولكن قنصلية فرنسا العامة فى مصر لم تدخر وسعا فى خدمة مصالح الشركة (٤) بعد الدرس الذى لقنته إياها حكومة الإمبراطور نابليون الثالث

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر ١٩ صادر عابدين مكاتبة رقم ٦٨٣

(٢) كان دى‌لسبس قد أرسل خطابا بتاريخ ١٤ مارس ١٨٦١ إلى الدوق البوفرا نائب رئيس مجلس إدارة الشركة بباريس قال فيه « وقد لاحظت أن الوالى مضطرب البال من ناحية الموقف السياسى فى أوروبا . وقد تسرب إلى الشك فى أن قنصل انجلترا العام قد أثار مخاوفه بغية حمله على عرقلة عمليات الحفر . وقد راجت شائعات مؤداها أن الوزارة الإنجليزية قد حملت الدول الأوروبية على اتخاذ قرار يقضى بأن تسحب فرنسا قواتها من سوريا ، وأن هذا سيؤدى إلى إضعاف النفوذ الفرنسى فى الشرق وقيام نفوذ آخر معاد له لا ينظر إلى مشروع القناة بعين الإرتياح » . أنظر

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 28-30.

(٣) الجزء الرابع ص‌ص ٨١ — ٨٣ من المصدر السابق .

(٤) كثيرا ما امتدح دى‌لسبس مسلك موظفى قنصلية فرنسا فى مصر ودفاعهم

حين نقلت ساباتيه Sabatier القنصل العام من مصر مغضوبا عليه لأنه لم يؤيد الشركة فى موقفها إبان أزمة أكتوبر ١٨٥٩ . وتمشيا مع هذه السياسة الجديدة قام بيشار Béchard القنصل العام بسعى لدى سعيد باشا فى ١٩ مايو ١٨٦١ — قبل حضور دىلسبس إلى مصر بأيام قلائل من اجتماع الجمعية العمومية للمسهمين — كى تتوسع الحكومة المصرية فى تنفيذ لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ بزيادة عدد عمال السخرة (١) . ويقرر القنصل أن سعيد باشا وعده بتحقيق طلبه (٢) . ولكن دىلسبس لم يقنع بذلك الوعد ولا بتلك الآلاف من عمال السخرة فغادر مصر فى ١٩ يونيو ١٨٦١ إلى فرنسا يضمر أمرا ...

حدث كل هذا والشركة تعلن على الملأ وفى اصرار عجيب أن العمال المصريين الذين يحفرون القناة إنما ذهبوا طواعية إلى ساحات الحفر مدفوعين بالأجور الطيبة وبالمعاملة الكريمة التى يحظون بها من الشركة . وأمعنت الشركة فى صفاقتها إلى حد أنها وضعت — باسم رؤساء العمال — عرائض ذيلتها بأختامهم وأشادوا فيها بحسن المعاملة التى يلقاها العمال المصريون من الشركة وما ينعمون به من وفرة المأكولات وماء الشرب وانتظام دفع الأجور وأنهم ذهبوا إلى ساحات الحفر بمحض رغبتهم وأنه لم يقع حادث وفاة واحد أو مرض واحد بين جميع العمال وأنهم موضع احترام وتقدير بالغين من مستخدمى الشركة وانتهوا من هذه العرائض إلى القول بأنهم يسبحون بالحمد والشكر على هذا المركز الذى يتمتعون به !! وقد ترجمت الشركة هذه

عن مصالح الشركة . أنظر على سبيل المثال

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 86, 97.

(1) Hallberg, ouvr. cit., p. 188.

نقلا عن خطاب سرى أرسله بتاريخ ١٩ مايو ١٨٦١ بيشار إلى توفنيل سفير فرنسا فى القسطنطينية

(٢) المصدر السابق .

العرائض إلى الفرنسية ونشرتها تباعا فى نجريدتها، وعنها نقلتها ثم علقت عليها بعض الصحف فى فرنسا وانجلترا (١).

وكانت أولى هذه العرائض بتاريخ ٢٩ مايو ١٨٦١ وصدرت من المحسمة إحدى ساحات الحفر فى ترعة الماء العذب . وهذا تعريبها .

« نحن الموقعين على هذا أدناه مشايخ قرى مديريتى روضة البحرين والدقهلية الذين نشتغل فى أعمال ترعة الماء العذب فى اقليم الوادى نقر ونشهد بأن العمال الفلاحين الذين يعملون تحت إشرافنا يثنون على الطريقة التى يعاملون بها . وفضلا عن ذلك لم يتقدم أحد منهم بأية شكوى من حيث الطعام أو دفع أجورهم إليهم رأسا ، وهم يتمتعون جميعا بصحة جيدة » .

ويلى ذلك أسماء ٢٩ فردا من مشايخ البلاد من جهات منوف وابيار واشمون ومحلة منوف وزفتى والجعفرية والمحلة ومليج والمنصورة وصهرجت وميت حبيش وميت الحين (٢) .

وصدرت العريضة الثانية بدون تاريخ ودون عليها أسماء ٢٧ شيخا من رؤساء العمال من مديريات القليوبية والدقهلية وروضة البحرين وجهات اشمون وابيار وزفتى ومنوف وفيشيا (مركز اجا) يشهدون بأن العمال الذين تحت إمرتهم وكان عددهم ٣٤٧٥ رجلا قد جاءوا للعمل بمحض رغبتهم لكسب قوتهم وأن مقادير الماء متوافرة لديهم وتزيد على حاجاتهم ، كما يقدم إليهم كل ما يحتاجون إليه من أطعمة سواء كانت خبزا مجففا أو مواد غذائية ويخصم ثمنها من الأجور التى يستحقونها والتى اتفقوا عليها ، وأن هذه الأجور تدفع إليهم بانتظام . ثم يقرر الرؤساء فى هذه العريضة أن العمل يتم على أساس الإختيار والرغبة وليس على أساس الإجبار والرهبة ، وأنهم —

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٤٨ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦٢ ص ٢٥٣ مجموعة السنة السابعة .

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٢٠ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦١ ص ص ١٩٤ — ١٩٥ مجموعة السنة السادسة .

أى رؤساء العمال – يقومون بتوزيع الأعمال على الفلاحين ، وأن مستخدمى الشركة لا يوجهون إلى العمال أية إهانة ولا يوقعون عليهم عقوبة الضرب ، كما أنه لم يقع إلى ذلك الوقت حادث وفاة أو مرض فى ساحات الحفر (١) .

أما العريضة الثالثة والأخيرة فكانت كسابقتها بدون تاريخ وعليها أسماء ٣٥ شيخا من رؤساء العمال من مديريات الدقهلية وروضة البحرين والقليوبية . وهذه ترجمتها :

« نحن الموقعين على هذا أدناه أعيان ومشايخ العمال الذين يشتغلون فى الأعمال الجارية فى برزخ السويس نقر ونشهد على هذه العريضة التى ذيلناها بأختامنا أنه :

أولا : نحن والعمال الذين تحت أوامرنا نعمل فى أماكن حفر قناة السويس برغبتنا التامة ولكى نكسب ما يقيم أودنا.

ثانيا : يجلب لنا الماء بوفرة ويزيد على الحاجة .

ثالثا : توزع الأغذية فى الحال على العمال كلما طلبوا ذلك ويخصم ثمنها من قيمة الأجور التى سبق تحديدها فى الإتفاق .

رابعاً : يقوم العمل على أساس « المقطوعية » ووافق العمال على ذلك وتدفع إليهم الأجور بانتظام .

خامسا : يؤدى العمل بالإختيار ويوزع على العمال بحضورنا ، ولم تثر مطلقا مناقشات ولم تحدث مشكلات من جانب مستخدمى الشركة أو من جانب العمال .

سادسا : لا يوجد إلى هذا اليوم أى عامل مريض ولم يتوف أحد منهم . ونحن والعمال الذين تحت إشرافنا نثنى على هذا المركز الذى وضعنا فيه .

ونحن لهذا قد ختمنا على هذه الشهادة (٢) » .

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ٢١٠ مجموعة السنة السادسة . وأنظر أيضا:
Marius Fontane, ouvr. cit., p. 54.

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٢٩ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦١ ص ٣٣٩ مجموعة السنة السادسة .

يلاحظ أن هذه العرائض لم تكن طبيعية ولم تصدر بدافع ذاتى من العمال ، ونحن نعلم أن العمال المصريين فى ذلك الوقت ومشايخهم كانوا فى الجهل بالقراءة والكتابة سواء . وما الذى دفعهم ابتداء من شهر مايو ١٨٦١ إلى تذييل هذه العرائض بأختامهم وقد سلخت الشركة أكثر من عامين منذ بدأت فى تنفيذ المشروع ؟ لقد وضعت هذه العـــرائض فى وقت كان كل من سعيد باشا ودى‌لسبس يخفى عنصر الإكراه فى جمع أفراد الشعب المصرى للعمل فى حفر القناة . فالشركة — وعلى رأسها رجل يجيد فن الدعاية — هى صاحبة الفكرة فى وضع هذه العرائض وقد أطلقت عليها لفظة « وثائق » فكانت هى المؤلفة وهى الطابعة وهى الناشرة لهذه الوثائق .

وقد غالت الشركة فى البيانات التى تضمنتها هذه العرائض ففقدت قيمتها حتى أن القارىء العادى ليرفضها . وحسبنا أنها تؤكد أنه لم يقع حادث وفاة أو مرض بين جموع العمال خلافا لما قرره ريت Ritt فى معـــرض المقارنة بين حفـــر ترعة الماء العذب وحفر القناة البحرية الصغيرة . وكان ريت أحد الفرنسيين الذين عاصروا أحداث الحفر وكان مقيما فى منطقة القناة ، وقد ذكر أن العمال الذين اشتغلوا فى حفر ترعة الماء العذب خلال الفترة التى أشارت إليها هذه العرائض قد أصيبوا بالأمراض (١) . كما أن بو جوا Bougouin طبيب الشركة الذى أشـــرف على الحالة الصحية بين جموع العمال الذين عملوا فى حفر ترعة الماء العذب من ١٩ أبريل ١٨٦١ إلى ٢٣ يناير ١٨٦٢ قد أرفق بتقريره احصائيتين عن إصابات العمال المصريين يتضح منها أن عدد العمال الذين اصيبوا بأمراض مختلفة قد بلغ — فى زعمه — ٤٦ عدا عشرة عمال لقوا حتفهم هناك (٢) . فهذه الشهادة الرسمية تدحض بعض ماجاء فى هذه العرائض ، ولو أن هذه الأرقام دون الحقيقة بكثير . إذ

---

(1) Ritt Olivier, ouvr. cit., p. 209.

(٢) تجد احصائيتى الوفيات والمرضى فى نهاية تقريره الطبى فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٢ مجموعة السنة السابعة .

لا يعقل أن يمرض ٤٦ عاملا خلال تسعة أشهر من بين ٥٥,٠٤٣ عاملا سخروا فى حفر ترعة الماء العذب من القصاصين إلى نفيشة وفى وقت كانت فيه الشركة تتخبط فى مشكلات التموين وتلتمس الحلول لتدبير ماء الشرب .

ولم تحقق هذه العرائض الغرض الذى من أجله وضعت ، فقد تابع مجلس العموم البريطانى إثارة موضوع السخرة فى حفر القناة ، كما أن الصحافة الانجليزية لم تخدع بهذه الحيلة ، وأخذت تعقب عليها بأسلوب تهكمى لا ذع يستدل عليه من مقال افتتاحى كتبـــه ارنست دبلاس Ernest Desplaces مدير تحـــرير جريدة الشركة عن موقف الصحافة الإنجليزية من عرائض رؤساء العمال المصريين، ويبين فى أسلوبه ما كان يحس به من الخيبة ومرارة الألم من الأثر العكسى الذى أحدثته هذه العرائض فى صحافة انجلترا . وكان مما جاء فى هذا المقال : « كنا نظن أن نشر هاتين الوثيقتين سيكون موضع تقدير من الصحافة الإنجليزية ، ولا سيما أن لهاتين الوثيقتين أهمية خاصة ، لأنهما تصدران عن العمال الذين يزعم البعض أنهم يعانون ألوانا من الظلم وسوء المعاملة . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد بعض الصحف تبدى تشككها فى هاتين الوثيقتين وتعلق عليهما تعليقا يصل بها إلى حد الإسفاف بل الوقاحة الناجمةعن الحقد والكراهية (١) » .

وقد كفت الشركة عن سياسة وضع العرائض لأنها لم تؤد إلى النتيجة المرتجاة من ناحية ، ولأن سعيد باشا مضى يتوسع فى تنفيذ لائحة العمال من ناحية ثانية فى علانية واستهتار بمصالح الشعب المصرى .

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١ص ٢٢٨ مجموعة السنة السادسة .

الفصل السابع

السخرة السافرة

دى لسبس يستعين بالإمبراطورة لرفع عدد عمال السخرة إلى ثلاثين الفا — ضغط الحكومة الفرنسية على سعيد وإذعانه — أساطين القانون فى فرنسا يقررون أنه ليس للوالى أن يبيع المصريين لشركة القناة وأنه لا يمتلكهم كما يمتلك عقاراً أو قطيعا من الأغنام — زيارة سعيد لساحات الحفر — سعيد يصحب معه حرسه الخاص وقوات من الجيش فيمنعها دى لسبس — نتائج الزيارة — تمرد جنود الجيش احتجاجا على تسخيرهم فى حفر القناة — اصطدام فى ساحات الحفر بين المصريين والفرنسيين — هروب العمال — اخلالهم بالنظام — سعيد يرسل اسماعيل حمدى وقوات بوليسية إلى ساحات الحفر — انشاء سجن بها للعمال المتمردين — شدة اسماعيل حمدى على العمال — مشهد تعذيب العمال — رجال افندينا فى خدمة الفرنسيين — جمع العمال — فرزهم — ترحيلهم إلى ساحات الحفر — ازدهار الزقازيق تغيير العمال كل شهر — تبرير غريب لدى لسبس — نتائج التغيير الشهوى للعمال .

× × ×

لم يكد دى‌لسبس يصل باريس حتى شرع يبذل مساعيه لدى وزارة الخارجية الفرنسية كى تتدخل لحمل سعيد باشا على زيادة عدد عمال السخرة . ورأى أن يستعين بنفوذ الإمبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، جريا على عادته كلما تعرضت الشركة لأزمة عارمة ، ولكنه لم يطلب رفع عدد عمال السخرة إلى عشرة الآف كما كان يرجو ويسعى فى مصر ،

بل طالب بزيادة عددهم إلى ثلاثين ألفا . فرفع إلى الإمبراطورة مذكرة بتاريخ ٥ أغسطس ١٨٦١ استعرض فيها موقف الشركة وأظهر حاجتها الملحة إلى ثلاثين ألف عامل ، ثم قال « ومن الأهمية البالغة أن يكتب توفنيل Thouvenel إلى القنصلية الفرنسية العامة فى مصر كى تقوم بتشجيع الوالى على تقديم هذا العدد (١) » . وهكذا يتكشف دى لسبس ، كل حين وآن ، على حقيقته ، فاذا هو مستعمر أوروبى فى أبشع صورة يستعين بنفوذ حكومته كى يستنزف عرق الشعب المصرى ودمه وماله من أجل حفر القناة .

نجحت مساعى دى لسبس فأخطرت الحكومة الفرنسية سعيد باشا أن السبيل الوحيد للمحافظة على سمعته وتدعيم مركزه المالى هو أن يسود النشاط ساحات الحفر حتى تصل سريعا مياه البحر المتوسط وماء النيل إلى بحيرة التمساح (٢) . واستمع سعيد لهذه الرغبة . وكانت النتيجة أن تحسن الموقف كثيراً لمصلحة الشركة فيما يختص بمشكلة عمال السخرة ، إذ تدفقوا نحو ساحات الحفر بكثرة ملحوظة لم تعهدها الشركة من قبل ، فبعد أن كان عدد العمال خلال شهر يوليو ١٨٦١ قد بلغ ٤٣٧٢ إذا به يرتفع فى أغسطس إلى ٧٩٢٩ ثم يقفز فى سبتمبر ١٨٦١ إلى ١٠,٠١٣ واستمر ذلك الصعود فى كافة الشهور التى تلت ، عدا شهر أكتوبر ١٨٦١ إذ وقعت فيه حوادث أعاقت وصول عمال السخرة إلى منطقة البرزخ.(٣) وكتب دى لسبس فى ١٠

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit,. t. IV, p. 87.

(2) Charles Roux J., ouvr. cit., t. I, p. 331. voir aussi Bertrand et Ferrier, ouvr. cit., p. 228.

Ibrahim Nomeir Seifed-Dean, ouvr. cit., p. 103.

(٣) لم يذكر فوازان Voisin سببا لهذا النقص فى عدد العمال الذى انفرد به شهر أكتوبر ١٨٦١ إذ هبط عددهم فيه إلى ٤٨٤٥ وبمراجعة أعداد جريدة L'Isthme de Suez التى ظهرت خلال تلك الفترة وجدنا مقالا بعنوان : Chronique de l'Isthme « حوادث البرزخ » جاء فيه أن فيضان النيل كان عام ١٨٦١ عاليا جدا فأغرق بعضا من قرى الوجه البحرى وأتلف المزروعات وطفت المياه على

نوفبر ١٨٦١ خطابا يفيض بالغبطة إلى الدوق البـوفرا نائب رئيس مجلس إدارة الشركة فى باريس . وكان مما جاء فيه « ويلوح أن حضرة صاحب السمو لا يخشى الآن بذل المساعدة لتقدم أعمالنا. وسنستخدم حالا عشرة الاف رجل لإيصال ترعة الماء العذب من رمسيس إلى بحيرة التمساح (١) » . وهكذا حق لدى لسبس أن يطلق على الإمبراطورة أوجينى الملاك الحارس للقناة ، ويقول عنها إنها بذلت من أجله ما بذلت الملكة ايزابلا الكاثوليكية لكرستوف كولمب المستكشف الشهير (٢) .

كانت هناك عدة اعتبارات جعلت سعيدا يخطو هذه الخطوة التعسة بالنسبة للشعب المصرى فعرضه لمحنة لم يشهد فى تاريخه الحديث لها مثيلا . كان سعيد يعانى فى ذلك الوقت أزمة مالية ، وكان فى صدد عقد قرض خارجى مع إحدى المؤسسات المالية فى فرنسا . واستغلت الحكومة الفرنسية حاجة سعيد الملحة الى المال فضغطت عليه لزيادة عدد عمال السخرة الذين يعملون فى حفر القناة فى مقابل بذل مساعدتها لإتمام عقد القرض . وكان هذا القرض بفوائد باهظة للغاية جعلت شرنير Schriener قنصل النمسا العـام فى مصر يعتقد ، حين علم بأمر فوائد هذا القرض فى أغسطس ١٨٦١ ، بأن الغرض

مساكن الفلاحين وسقط ضحايا كثيرون . وقد أضر الفيضان فى مواضع كثيرة بالخط الحديدى الذى يربط القاهرة بالاسكندرية وبالفرع الذى يخرج من بنها إلى الزقازيق . ثم جاء فى المقال « ولم يكن لهذا الحادث من أثر على مشروع القناة سوى أنه عطل المواصلات وأعاق وصول العمال إلى ساحات الحفر ... أنظر العدد ١٢٩ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦١ ص ٣٣٧ مجموعة السنة السادسة .

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 101-103.

(2) Alloury L.: Comment s'est fait le Canal de Suez. Pages d'histoire contemporaine recueillies sur les documents de M. de Lesseps. Paris 1882, p. 91.

" L'ange gardien du canal et qu'elle a fait pour lui ce que la reine Isabelle-la-Catholique avait fait pour Christhope Colomb ".

منه إنما هو وضع الوالى تحت السيطرة الفرنسية (١) .

وكان سعيد يخشى قيام حملة الأسهم مطالبين بتعويضات عن الأضرار التى تصيبهم إذا فشل المشروع أو تأخرت عمليات الحفر بسبب عدم وفاء سعيد بالتزاماته فى لائحة العمال . وكان دىلسبس يحرص على أن يبرز مسألة التعويضات فى أحاديثه مع سعيد الذى كان ينقلها بدوره فى مكاتباته إلى الباب العالى . وقد سيطرت هذه الفكرة على سعيد إلى حد بعيد فكان يحسب حسابا قويا لتلك التعويضات وما ينجم عنها من مشكلات مالية وسياسية يثيرها تدخل بعض الدول وعلى الأخص فرنسا للدفاع عن الأموال الفرنسية التى أسهمت فى المشروع . وقد هددت الشركة سعيد باشا فعلا بهذا السلاح فى منتصف عام ١٨٦١ .

وكانت فترة التريث والترقب التى أشرنا إليها فى الفصل السابق قد انقضت بانتهاء شهر يوليو ١٨٦١ . ولم يقع ضغط ذو بال يمنع سعيد باشا من تنفيذ وعده بالتوسع فىلائحة العمال. والتزمت الحكومة التركية الصمت حيال هذا الموضوع فلم توجه لسعيد خطابا منذ كتاب ٦ ديسمبر ١٨٦٠ .

ومن البواعث التى حدت بسعيد إلى التوسع فى تسخير المصريين فى حفر القناة حيازته لعدد ضخم من الأسهم بلغ ١٧٧ ٦٤٢ منها ، فلم يسعه كمسهم كبير أن يرى المشروع ينهار صرحه ويصاب بالفشل بسبب عدم كفاية الأيدى العاملة المصرية لدى الشركة ، فأقبل على سد الثغرات فى ساحات الحفر بحماس عميق . ويمكن تشبيه موقفه فى عام ١٨٦١ بموقفه عام ١٨٦٠ حين قبل أن يكتتب بكافة الأسهم التى عجزت الشركة عن بيعها فى أسواق أوربا المالية، وكان تدخله وقتئذ لشرائها انقاذا للمشروع من انهيار محقق .

تضاف إلى هذه الأسباب الرغبة الجامحة التى كانت تجيش فى نفسه .

---

(1) Hallberg, ouvr. cit., pp. 188-189.

نقلا عن دار المحفوظات النمساوية فىفينا . رسالة رقم ١٩ بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٦١ من شرنير Schriener إلى ريشبرج Rechberg .

وهى تنفيذ المشروع حتى يصبح علما من أعلام التاريخ يذكره الحفدة والذرارى على مر الأحقاب والدهور مما كان دى لسبس يزينه له فى كل حين وآن ، وأنه غدا موضع تقدير الصفوة الممتازة فى المجتمع الأوربى بأسره .

ولكن هذه الأسباب مهما بلغت قوتها ووجاهتها فى نظر سعيد باشا فإنها لا تعد شيئاً مذكورا بجانب التضحيات الجسيمة التى فرضها ذلك الوالى على الشعب المصرى بتسخيره فى حفر القناة. فسعيد فى تطبيقه نظام السخرة تطبيقا واسعا عريضا قاسياً كان يذعن للضغط الفرنسى من ناحية ، وينظر إلى مصلحته الشخصية بتخليد ذكراه فى التاريخ من ناحية ثانية ، وفى سبيل ذلك ضحى بمصالح الشعب الإقتصادية والإجتماعية التى كان يجب أن تكون لها الصدارة فى اعتباره وسياسته. وقد قرر بحق ثلاثة من أعلام القانون فى فرنسا فى سنة ١٨٦٣ أنه ليس لسعيد باشا أن يبيع رعاياه لشركة القناة ، وأنه إذا كان فرمان ٢٣ مايو ١٨٤١ قد منح الولاة من أسرة محمد على حق حكم المصريين فإن هذا الفرمان لم يعطهم الحق فى امتلاك المصريين كما يمتلك الانسان قطيعا من الغنم أو عقارا تنتقل ملكيته من شخص إلى آخر (١) .

* * *

وكان من أبرز مظاهر الإهتمام البالغ من سعيد باشا بنجاح المشروع وتقدم العمل فى تنفيذه أن قام بزيارة ساحات حفر القناة فى شهر ديسمبر ١٨٦١ . ويعزو بعض المؤرخين قيام سعيد بهذه الرحلة إلى أن العمل فى حفر القناة البحرية الصغيرة قد وصل إلى مرتفعات عتبة الجسر ،وهى أعلى هضبة تعترض سير القناة البحرية ، وكانت تقع شمالى بحيرة التمساح . فدعا دى لسبس صديقه سعيد باشا إلى وليمة أقامها له فى البرزخ ، مسرح نشاط الشركة ،

(1) Note consultative pour Son Altesse Ismaïl Pacha, Vice-Roi d'Egypte, délibérée par Mtres. Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre en date du 30 novembre 1863.

وهناك حصل منه على تصريح بعشرين ألف رجل يشتغلون كل شهر فى عمليات الحفر (١) .

ومهما يكن سبب هذه الرحلة والحيلة التى تفتق عنها ذهن دىلسبس فإن هذه الرحلة تعتبر دليلا ماديا على تحمس سعيد للمشروع لسببين : أولهما أن هذه الرحلة كانت الزيارة الثانية التى قام بها الوالى فى خلال عام واحد إلى منطقة القناة . وكانت الزيارة الأولى ، وقد تمت فى ابريل ١٨٦١ ، مقصورة على منطقة بورسعيد . أما الزيارة الثانية فكانت إلى ساحات الحفر القائمة فى أعماق صحراء البرزخ عند بحيرة التمساح . وثانيهما أن السفر إلى ساحات الحفر كان فى ذلك الوقت قطعة من العذاب ، فالمواصلات إلى منطقة القناة كانت بطيئة صعبة ، يستخدم المسافر الثرى إليها ثلاث وسائل : هى القطار إلى بنها فالزقازيق ، ثم قارب شراعى أو دهبية إلى القصاصين ، ثم دابة أو عربة تجرها دابتان أو أكثر إلى ساحات الحفر .

وقد نشرت جريدة L'Isthme de Suez نبأ هذه الزيارة فى أولى صفحاتها وقالت « نشرت أمس صحف المساء برقية تقول إن الأمير سعيد قد زار البرزخ » وخصت موضوع هذه الزيارة بمقال افتتاحى ختمته بقولها « إن قراءنا يرون فى هذه الزيارة الكريمة ، كما نرى نحن ، دليلا جايدا على اهتمام حضرة صاحب السمو الأمير سعيد بمشروع يتطلع العالم المتمدين بأسره إلى إنجازه (٢) » .

ذهب سعيد فى ركب حافل واصطحب معه حاشية كبيرة وقوة من حرسه الخاص بلغ عدد أفرادها ألف نوبى وقوة أخرى من الجيش المصرى بأعلامها وأسلحتها وموسيقاها ، وكان يمثل أفرادها سلاحى المشاة والهجانة وارتـــدوا أفخم الملابس المزركشة (٣) . وكان سعيد يصحب عادة فى

---

(1) Sammarco Angelo : La verità sulla questione del Cannale di Suez. Roma 1939, p. 25.

(٢) العدد ١٣٢ الصادر فى ١٥ ديسمبر ١٨٦١ ص ٣٨٦ مجموعة السنة السادسة .

(٣) أنظر وصفا لمظاهر الأبهة التى أحاط سعيد نفسه بها اثناء الرحلة فى

رحلاته كتيبة أو أكثر من الجيش تقوم بين حين وآن باستعراضات عسكرية طيلة الرحلة. وأنتظر دى لسبس سعيد باشا فى التل الكبير ليكون فى استقباله وليرافقه فى طوافه بمناطق الحفر المختلفة . وقد هال دى‌لسبس كثرة عدد أفراد الحاشية والجنود وهمس فى اذن أحد رجال الحاشية أنه من الصعب أن يصحب الوالى ذلك العدد الضخم من الحرس وجنود الجيش إلى ساحات الحفر ، لأن مشكلة المشكلات التى كانت تواجهها الشركة فى الصحراء وقتئذ هى توفير ماء الشرب للعمال ، وأن وجود ذلك العدد الكثيف من الجنود والمرافقين يزيد المشكلة تفاقما ويؤثر على كميات الماء المحدودة التى تجلبها الشركة على ظهور الجمال من مسافات نائية . وكانت نتيجة هذا النصح أن أنقصت القوة العسكرية المرافقة إلى خمسين جنديا وتخلف الباقون عن مواصلة السفر (١) . ويدل هذا الحادث على أن سعيد باشا كان لا يدرك تماما كيف كانت الأمور تسير فى حفر القناة والأخطار التى كانت تحدق بأفراد الشعب المصرى المسخرين فى حفر القناة .

وقد تحرك ركب سعيد من التل الكبير فى اتجاه منطقة القناة ، فبلغ فى مساء ٦ ديسمبر ١٨٦١ عتبة الجسر شمالى بحيرة التمساح ، وزار ساحة الحفر رقم ٥ وهى إحدى الساحات الست المقسمة إليها تلك المنطقة . وقضى سعيد هناك اليوم التالى زار فيه أنحاء تلك الجهة، كما شاهد الموقع الذى اختير مصبا للقناة البحرية فى بحيرة التمساح . وأعجب سعيد بهذا الموقع وطلب أن يشيد له سكن خاص على الهضبة يشرف على مصب القناة البحرية فى البحيرة حتى «يرى ويسمع هدير انسياب مياه البحر المتوسط فى بحيرة التمساح (٢) » .

وغادر سعيد عتبة الجسر فى الساعة التاسعة من صباح ٨ ديسمبر ١٨٦١

Berchère N. : Le Désert de Suez. Cinq Mois dans l'Isthme. Paris. Librairie Hetzel 1863, pp. 82-83.

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 11.

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 114.

ومعه دى‌لسبس والحاشية وقاموا بجولة عند الجهة التى وقع عليها الإختيار لتكون موقعا لمدينة التمساح (الإسماعيلية فيما بعد) ، وقد أعجب أيما إعجاب بروعة المناظر الطبيعية التى تتراءى للناظر من عل . ومن هناك قام بجولة أخرى حول آبار نفيشة ثم تابع طوافه إلى مزرعة بير « أبو بلاح » وهى من منشآت الشركة ، وأمر سعيد بأن تؤخذ نماذج من المزروعات التى قامت الشركة بغرسها فى تلك المزرعة (١) ، وأخيرا واصل رحلته فبلغ حوالى الظهر مركز طوسن‌جنوبى بحيرة التمساح ، وقد أطلقت الشركة على هذا المركز اسم طوسن وهوابن سعيد باشا ، وأقامت فيه كثيرا من المنشآت حتى غدا من أهم مراكز العمل الواقعة فى داخل البرزخ (٢) .

وفى طوسن أعد للوالى استقبال حافل فدخل المدينة ممتطيا صهوة جواده وبجواره دى‌لسبس راكبا هو الآخر حصانه ، وسارا بين صفوف متراصة من العمال المصريين هتفوا بحياته ، وعزفت مرسيقى الحرس . وكان ركب سعيد باشا يتألف ، عدا هذين الجوادين ، من ستة جمال عليها فاخر السروج ركب عليها كبار أفراد الحاشية ، وتتبعها عربة سعيد الخاصة تجرها ستة بغال ثم عربة دى‌لسبس تشدها ستة جمال ثم قوة من الجيش المصرى . وعلى أثر هذا الإستقبال وطوافه بالمنشآت التى أقيمت فى طوسن انتهت الزيارة وقفل سعيد عائدا إلى عاصمة ولايته .

هذه الزيارة تهمنا بنوع خاص لارتباطها الوثيق بموضوع السخرة فى حفر القناة ، فقد عادت على الشركة بأطيب النتائج (٣) ، إذ حلت مشكلة عمال السخرة حلا يتمشى إلى حد كبير مع ما كانت الشركة تبتغيه ، وقد قال دى‌لسبس « لم يكن هناك شىء فى مصلحتنا أكثر من الأثر الطيب الذى تركته فى نفس سعيد باشا هذه الزيارة . وكانت هى اللحظة التى كنت أتطلع

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 233.

(2) Courbon : Observations topographiques et medicales, recueillées dans un voyage à l'Isthme de Suez. Paris 1861, p. 11.

(3) Berchère, ouvr. cit., p. 82.

إليها منذ زمن طويل لمعالجة كافة المسائل الخاصة بالتنفيذ المتصل بعمليات الحفر ولتصفية الناحية المالية الخاصة باكتتاب الحكومة المصرية (١) » .

حرص دى لسبس على أن يشاهد سعيد خلال الرحلة نشاط الشركة فى الناحيتين الرئيسيتين اللتين كانت تركز جهودها فيهما فى ذلك الوقت وهما

أولا : ترعة الماء العذب وقد أبحر فيها سعيد وهو فى طريقه إلى البرزخ حتى قرية مخفر فى مديرية الشرقية . وقد رغب سعيد أن ينشط العمل فى حفر هذه الترعة حتى تصل إلى بحيرة التمساح ومن ثم تمتد فى اتجاه الجنوب لتبلغ مدينة السويس فى وقت وجيز دون أن يؤثر ذلك على نشاط الشركة فى النواحى الأخرى (٢) .

ثانيا : القناة البحرية الصغيرة — مصغر قناة السويس — وكانت الشركة تحاول جاهدة شق مجرى ضيق لها وسط هضبة عتبة الجسر شمالى بحيرة التمساح . وكانت أكبر عقبة طبيعية تعترض سير قناة السويس (٣) إذ ترتفع ١٠ ,١٩ مترا عن سطح البحر (٤) وتمتد مسافة أربعة عشر كيلومترا. وقدر الإخصائيون فى الشركة مقدار الأنقاض الواجب إزالتها لحفر مجرى للقناة فيها بمقدار عشرة ملايين من الأمتار المكعبة(٥) والقوة الآدمية التى تستخدم فى حفر تلك المرتفعات بأربعين ألف رجل (٦) .

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. IV, p. 113.

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents, ouvr. cit., t. IV, p. 110.

(٣) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٣٦ الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٦٢ ص ٥٠ مجموعه السنه السابعه وكذلك العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو١٨٦٢ص ص ٢٢٥ — ٢٣١ وهى محاضرة عامه ألقاها دى لسبس بتاريخ ٢٢ يونيو ١٨٦٢

(4) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 153.

وأنظر أيضا جريدة L'Isthme de Suez العدد ١١٨ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦١ ص ١٥٢ مجموعة السنة السادسة

(5) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit. t. III, p. 388.

(٦) الجزء الرابع ص ٢١٦ من المصدر السابق .

وكانت زيارة سعيد لساحات الحفر المختلفة فرصة مواتية لدى لسبس ظهرت فيها براعته ولباقته. ومدى تأثيره على صديقه سعيد . فأعاد عليه شرح الموقف وحرج مركز الشركة إذا لم تخف الحكومة المصرية إلى مساعدة الشركة بجمع الأيدى العاملة لها ، وأبان الخسائر التى تتكبدها الشركة وبالتالى جمهور المسهمين إذا تعرضت عمليات الحفر مرة أخرى للتأخير . واستجاب سعيد وهو فى البرزخ وفى ضيافة الشركة إلى رجاء دى لسبس وأصدر أوامره فى الحال إلى مديرى الأقاليم لحشد عمال السخرة بحيث يصل عددهم فى نهاية شهر ديسمبر ١٨٦١ ، وهو الشهر الذى تمت فيه الزيارة ، إلى خمسة عشر ألف رجل ، على أن يزداد هذا العدد خلال الشهور التالية إلى خمسة وعشرين ألف مصرى (١) ، وذلك بالإضافة إلى جموع أخرى من العمال وعد سعيد بأن يبعث فى طلبها من أقاصى الصعيد . وعهد سعيد إلى عرفان باشا ناظر الخاصة أن يتولى الإشراف على جمع وترحيل أولئك العمال ، على أن يعاونه فى هذه المهمة كل من مديرى الدقهلية والغربية والقليوبية (٢) ، وهذه المديريات الثلاث هى أقرب الجهات إلى ساحات الحفر .

وقد بدت نتائج هذه التدابير سريعا ، فبلغ عدد العمال الذين ظفرت بهم

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 233.

هذا ويختلف فوازان مع ساماركو Sammarco ومع دوان Douin فى عـــــدد العمال الذين وعد بهم سعيد . فيذكر المؤرخان الآخران أنه وعد بارسال عشرين ألف رجل فقط . أنظر

Douin George: Histoire du Règne du Khèdive Ismaïl5 vols. t. I, Rome 1933, p. 24.

Sammarco A. : La verita etc., ouvr. cit., p. 25.

أما دى لسبس فيذكر فى محاضرة عامة ألقاها فى باريس فى أول فبراير ١٨٦٤ أن سعيد باشا قد وعد أثناء زيارته لساحات الحفر بإرسال عشرين ألف عامل كحد أدنى . أنظر جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٩٤ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة . وسترى فى الفصول القادمة أن عدد العمال المصريين لم يتجاوز فى أى وقت اثنين وعشرين ألفا .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 233.

الشركة ١٤٦٩٧ رجلا فى شهر ديسمبر ١٨٦١ . وكان هذا أكبر رقم قفز إليه عدد العمال خلال ذلك العام . وقد قابل بادجر السائح الإنجليزى ، وهو فى طريقه من الزقازيق إلى منطقة القناة فى شهر ديسمبر ١٨٦١ ، جموعا غفيرة من العمال المصريين يقطعون الطريق إلى ساحات الحفر سيرا على الأقدام . وقد عن للسائح الإنجليزى أن يوجه إلى فريق منهم بعض الأسئلة ، فكان من بينها سؤال : هل جاءوا بمحض رغبتهم ؟ فكانت إجاباتهم مجمعة على أنهم قد قدموا رغما عنهم . وحرص السائح على أن يسجل هذه الإجابة باللغة العامية الدارجة كما انطلقت بها ألسنتهم : أخذنا بالزور (١) We are taken *bizzor*

وقد تتابع التدفق الآدمى بشكل منقطع النظير طوال عام ١٨٦٢ ، إذ كان عدد العمال الذين يساقون زمرا إلى ساحات الحفر يتراوح بين عشرين ألفا واثنين وعشرين ألفا فى الشهر الواحـــد . ويقول دوان Douin « وفى شهر ديسمبر ١٨٦١ ذهب سعيد بنفسه إلى البرزخ وشاهد الأعمال ورغب فى أن يزداد نشاط العمل فأمر بحشد عشرين ألف رجل. ومن ذلك اليوم كان هذا الأمر ينفذ بصورة مستمرة . وكانت أفواج العمال يتتابع قدومها شهرا بعد شهر مجتازة فى طريقها إلى البرزخ وعودتها منه الوجه القبلى والوجه البحرى . وكان موظفو الحكومة المصرية يشرفون على جمع العمال وإرسالهم ومرافقتهم (٢) » .

وهكذا نرى أن سعيدا اتخذ فى أعقاب زيارته لساحات الحفر خطوة حاسمة فى سبيل تدعيم المشروع بتسخير المصريين فى نطاق واسع ونظام رتيب لحفر القناة . وحق لدىلسبس أن يقول « إن وجود الوالى فى البرزخ كان أسعد حادث وقع لنا (٣) » .

---

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 13.

(2) Douin, ouvr. cit., t. I, p. 24.

(3) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 110-112.

وفى أقل من شهر نفذ سعيد الشق الثانى من وعده ، فانتهز فرصة قيامه برحلة إلى الوجه القبلى فى يناير ١٨٦٢ وأمر بأن يرسل إلى ساحات حفر القناة خمسة الآف جندى من جنود الجيش المصرى قاربوا اتمام مدة خدمتهم العسكرية . وكان أولئك الجنود هم الحشد الإضافى الذى وعد سعيد أثناء رحلته إلى البرزخ بأن يبعث بهم من أقاصى الصعيد . وقد نقل الجنود من الصعيد إلى القاهرة فى النيل على السفن البخارية الحكومية ، ثم استقلوا من القاهرة القطار إلى الزقازيق . ومن هناك بعث بهم مندوب الشركة إلى ساحة الحفر رقم ٦ فى منطقة عتبة الجسر (١) .

ولما بلغوها بدت منهم بوادر دلت على أن حركة تمرد وعصيان وشيكة الوقوع بين صفوفهم . وزاد الموقف حرجا أن عدد الضباط المرافقين لهم كان قليلا . فعجز الضباط عن السيطرة على الموقف من بادىء الأمر ، وقضى الجند ليلتهم والموقف ينذر بانفجار خطير . فلما كان صباح اليوم التالى رفضوا علانية العمل فى حفر القناة وغادروا ساحات الحفر فى طريق عودتهم إلى بلادهم . وفى هذه الأثناء وقع اصطدام بينهم وبين رؤساء ساحات الحفر من مهندسى الشركة ومستخدميها الفرنسيين . وقال دى لسبس فى تقرير له عن هذا الحادث « وقد أبدى رؤساء ساحات الحفر فى عتبة الجسر كثيرا من ضروب الحكمة وحسن التصرف والذكاء والنشاط . ولولا شجاعتهم ونظامهم لاستفحل أمر الفتنة التى قام بها جنود الجيش المصرى الذين وفدوا من الصعيد ، إذ كانوا على جانب كبير من القوة والشراسة والحدة والتمرد والصلابة وبفضل حكمة رؤساء ساحات الحفر أمكن تجنب وقوع نكبات (٢) » .

ولكن الرؤساء الفرنسيين فى ساحات الحفر أظهروا حماقة ما بعدها حماقة . ودفاع دى لسبس عنهم دفاع هزيل لا يستقيم مع المنطق لأنه إذا كان ضباط الجيش ، وهم الرؤساء الذين تجب على الجند طاعتهم — لم يقفوا فى

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 151-152.

(2) ibid.

وجه التيار الجارف عند ماثار خمسة الآف جندى فى ساحات الحفر احتجاجا على استخدامهم فى حفر القناة فكان يجدر بالقلة من الرؤساء الفرنسيين ألا يتعرضوا للجنود فى هياجهم وفى تركهم العمل . ولكن شق عليهم أن يحضر هذا الحشد من الجنود ولا تستنزف الشركة طاقتهم فى حفر القناة أسوة بزملائهم الفلاحين . وأكثر من ذلك لقد بلغت الحماقة بالرؤساء الفرنسيين أن اعتزموا توقيع عقوبات على بعض الجنود الذين حاولوا الهرب وفشلوا فيه (١) ، فكتب دىلسبس إلى مندوب مقاول الشركة يسفه هذا الإتجاه وقال « ولم يرغب حضرة صاحب السمو الوالى فى إثارة ضجة بمناسبة هروب العمال أخيرا . وهو على حق فى هذا . وتتلاقى رغبتى مع رغبته فى عدم توقيع عقوبات على الهاربين بحيث يشعر بها الرأى العام (٢) » .

وقد خشى دىلسبس أن يحذو عمال السخرة حذو جنود الجيش فير فضون العمل ويهجرون ساحات الحفر ويتسع نطاق الحركة ، فأسرع بالسفر إلى منطقة القناة ليعمل على تهدئة الموقف . وقال فى هذا الصدد « لقد أوقف حضورى اتجاهات كان من المحتمل أن تؤدى إلى نتائج مؤسفة (٣) » ثم مضى فى نفس التقرير يقول « هذا الحادث لا يثير فى نفسى الذعر ولكنى أراه مبررا لاتخاذ التدابير التى نصحت الوالى باتخاذها ولم تنفذ إلى الآن .... وليس من الحكمة إذاعة هذا الموضوع . وإذا تعرضت له الصحف فيجب أن نرد على ذلك بقولنا إن فى سفر هؤلاء الناس ، وقد جاءوا لأول مرة من جهات بعيدة وكانوا يتلهفون على العودة إلى بلادهم ، أكبر دليل على أن العمل لم يكن ينطوى على الإكراه ، إذ لم تكن لدى الشركة قوة تحول دون عودتهم . وهذا حادث فردى نجم عن تصادم بين العمال ورؤسائهم الوطنيين » .

---

(١) يذكر دىلسبس أن عدد الذين بقوا فى ساحات الحفر من الجنود ١٠٠ . أنظر الجزء الرابع ص ١٥٧ من المصدر السابق

(٢) الجزء الرابع ص‌ص ١٤٩ — ١٥٠ من المصدر السابق

(٣) الجزء الرابع ص‌ص ١٥١ — ١٥٢ من المصدر السابق .

وهكذا تبلغ الجرأة بدىلسبس فى مسخ الحقائق . فلم يكن الحادث فرديا بل اشترك فيه خمسة الآف جندي ، ولم يحدث الإصطدام بين المصريين بعضهم وبعض ولكنه وقع بين المصريين ورؤساء ساحات الحفر الفرنسيين . ويقول الدكتور محمد صبرى إن العصيان الذى قام به جنود الجيش المصرى الذين حشدوا لحفر قناة السويس كان مظهرا قويا من مظاهر الإستياء الذى عم الشعب بسبب تسخير الأهلين فى حفر القناة فبرز استياؤه على هذه الصورة على الرغم من أنه شعب مسالم لايجنح إلى أعمال العنف (١) .

والحقيقة أن الشعب المصرى لم يذعن لهذا النظام الجائر الذى فرضه سعيد بحشد عشرين ألف عامل كل شهر لحفر القناة ، بل قاومه ما وسعته الحيل و الوسائل . فازداد عصيان العمال فى ساحات الحفر وساء سلوكهم إزاء الرؤساء الفرنسيين فى الشركة ، وتعددت حوادث هرب العمال من ساحات الحفر بل من منطقة القناة كلية . وكان يكثر هربهم أول الأمر فى الليالى غير القمرية حيث كان يسهل عليهم التسلل لواذا فى ظلامها الدامس (٢) ، ثم أشتدت حركة الهرب فلم تكن حركة فردية بل كانت حركات جماعية . نذكر على سبيل المثال أنه هرب ٦٢ عاملا فى ليلة واحدة ، وفى الليلة التالية هرب ١٩٩ رجلا من الذين سيقوا من مديرية المنيا ، كما هرب عمال مديرية روضة البحرين (٣) والعمال الذين جىء بهم من طلخا ودسوق . ومالبث أن أظهر عمال الوجه القبلى تحديا سافرا للشركة اثناء هربهم إذ كانوا يطلقون الأعيرة النارية فى الهواء تحريضا لزملائهم على الهرب معهم (٤) .

وكان الرؤساء الفرنسيون يتعرضون لأخطار جسيمة إذا وقفوا فى وجه

---

(1) Sabry M., ouvr. cit., p. 265.

(2) Berchère, ouvr. cit., p. 111.

(٣) كانت مديرية روضة البحرين تشمل ما يسمى الآن مديريات المنوفية والغربية و كفر الشيخ .

(٤) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٢٨ معية تركى ، وثيقة رقم ٤١٢

العمال الهاربين الذين كانوا يقذفونهم بقلل الماء . وكان العمال لايقفون عند هذا الحد ، فإذا كان الرئيس الفرنسى راكبا جواده ، كما كان الحال غالبا ، طرحوه أرضا وأوسعوه ضربا (١) .

وهناك كاتب فرنسى مال به الحقد عن الحق : طعن فى كفاءة عمال السخرة وبطء عملهم إلى غير ذلك من التهم غير الصحيحة التى رماهم بها ليشفى غله بسبب سحب عمال السخرة فى مستهل عام ١٨٦٤ من ساحات الحفر ، ثم قال إن فكرتهم عن الكرامة الإنسانية تمثلت فى حركات تمرد وعصيان قاموا بها فى أكثر من مناسبة واستطاع دى لسبس إخمادها بصعوبة (٢) .

وكان مندوب المقاول العام فى ساحات الحفر يرفع الشكايات تباعا إلى دى لسبس عن هذه الحوادث فيبلغها بدوره إلى الوالى ويعلق عليها بضرورة تعيين موظف كبير فى البرزخ يمثل سلطة الحكومة المصرية ومعه قوة من البوليس يخشاها العمال وتحول دون وقوع الإضطرابات .

وقد وعد سعيد باشا بتعيين أحد كبار موظفى الحكومة فى ساحات الحفر ، ثم مضت فترة لم ينفذ سعيد وعده واستبطأ دى لسبس تعيين الموظف فكتب فى ٢١ يناير ١٨٦٢ إلى زكى بك — أحد رجال المعية — يتساءل عن البواعث التى أدت إلى عدم الوفاء بالوعد ، وأبان أن سلوك العمال يبرر التعجيل بإرسال الموظف والقوة البوليسية إلى ساحات الحفر (٣) .

وحدث بعد إرسال هذا الخطاب أن ازدادت مقاومة العمال لرجال الشركة وكثر اخلالهم بالنظام اعلانا عن سخطهم على تسخيرهم فى حفر

---

(1) Berchère, ouvr. cit., p. 111.

(2) Kostolany André : Suez. Le Roman d'une entreprise, pp. 114-115.

(٣) خطاب دى لسبس إلى زكى بك بتاريخ ٢١ يناير ١٨٦٢ أنظر
De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 143.

القناة مما هدد سير عمليات الحفر بالتعطيل ، فعاود دىلسبس فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ الكرة لدى سعيد وطالب بتعيين عرفان باشا ناظر الخاصة للإشراف على حفظ النظام فى ساحات الحفر طيلة المدة التى يستغرقها حفر مرتفعات عتبة الجسر . ورأى تعزيزا لطلبه هذه المرة أن يرفق بخطابه كتابا تلقاه من مندوب المقاول العام بخصوص سوء سلوك العمال وكذلك صورة من محضرين لحوادث فريق منهم . وقال دىلسبس تعليقا على هذه الحوادث إنها « تجعل وجود عرفان باشا أمرا لا مندوحة عنه (١) » .

وتجلى مرة أخرى اهتمام سعيد بتقدم عمليات الحفر على حساب مصالح الشعب المصرى ، ولجأ إلى العنف لكبح جماح العمال الثائرين ، فأمر باتخاذ « تدابير حازمة جدا » (٢) وأرسل فى الحال سفينة بخارية سريعة إلى الوجه القبلى تأخذ من كل مديرية مشايخ البلاد ، وجعل كل شيخ منهم مسئولا عن العمال الذين يفدون من ناحيته ، فيراقب انتاج العمال فى ساحات الحفر اثناء النهار ويحول دون هربهم أثناء الليل . ووضع سعيد ضباط البوليس فى خدمة الشركة منذ يناير ١٨٦٢ فأمر بأن يصحب عمال السخرة فى سفرهم أحد ضباط البوليس من المديرية التى يفد منها الفوج . وكانت مهمة الضابط ، ويطلق عليه معاون البوليس ، تنتهى فى الزقازيق بتسليم الأنفارإلى مندوب الشركة (٣) .

واتجه سعيد إلى تعيين عرفان باشا ناظر الخاصة (المعية السنية) كى يسافر إلى البرزخ ويتولى مهمة حفظ النظام فى ساحات الحفر ، الا أنه مرض ، ولعله تمارض حتى يتجنب الإقامة فى صحراء البرزخ . فعهد سعيد إلى اسماعيل حمدى بك بالقيام بهذه المهمة . وأخطر زكى بك فى ٢٦ يناير

---

(١) خطاب أدىلسبس إلى زكى بك بتاريخ ٢٣ يناير ١٨٦٢ أنظر الجزء الرابع صص ١٤٧ — ١٤٨ من المصدر السابق .

(٢) خطاب زكى بك إلى دىلسبس من بنها بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٦٢ فى الجزء الرابع ص ١٥٤ من المصدر السابق

(3) Berchère, ouvr. cit., p. 114.

١٨٦٢ دى‌لسبس رسميا بهذا التعيين وأبلغه أن هذا الضابط الكبير سيذهب قريبا إلى ساحات الحفر ومعه قوات بوليسية لحفظ النظام بين العمال (١) .

وعنى دى لسبس بتوفير وسائل الراحة لاسماعيل حمدى بك وظل فى عتبة الجسر ليكون فى استقباله ، وأشرف دى لسبس بنفسه على إعداد حجرة له فى كل ساحة من ساحات الحفر ليقيم فيها أثناء تنقله للتفتيش على العمال (٢). وأعدت الشركة له منزلا لسكناه . وفى أول فبراير ١٨٦٢ وصل اسماعيل حمدى منطقة عتبة الجسر ومعه قوة بوليسية كانت تسمى فى ذلك الوقت « القواصة » ونصب حول منزله ست خيام يقيم فيها خدمه وحرسه الخاص .

استهل اسماعيل حمدى عمله فى البرزخ استهلالا قاتما معتما ، إذ قبض على زعماء العمال المتمردين وألقى بهم فى غياهب سجن أقيم فى منطقة عتبة الجسر. وكان مبنى السجن عبارة عن منزل منخفض أقيم فى مكان منعزل يفصله عن الطريق العام فناء فسيح (٣) . وأعلن فى ملأ من العمال أن سعيد باشا قد أمره بالأ يسمح لأى عامل بأن يقضى يوما واحدا فى البرزخ بدون عمل، لأن الوالى يريد أن تمضى عمليات الحفر فى سرعة ونظام (٤) .

ومضى اسماعيل حمدى فى استخدام وسائل العنف والإرهاب ازاء عمال السخرة ، ففرض عليهم مراقبة دقيقة من لدن مشايخ العمال ، وعين قوات من فرسان البوليس ترتاد المنطقة الواقعة بين ساحات الحفر والتل الكبير لتعقب العمال الهاربين (٥) ، وبعث إلى السجن بكل عامل بدا منه إخلال بالنظام أو إهمال فى العمل أو نزوع إلى الهرب . وقد شاهد أحد السائحين الفرنسيين فى ٢٣ فبراير ١٨٦٢ فى إحدى حجرات السجن عشرة

---

(١) خطاب زكى بك بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٦٢ السابق الإشارة إليه

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 274.

(3) Berchère N., ouvr. cit., p. 217.

(4) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 274.

(٥) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٢٨ معية تركى وثيقة رقم ٤١٢

من العمال يجلسون القرفصاء . وخطر له أن يسأل أحد حراس السجن ، وقد ألفاه جالسا على الأرض عند باب السجن يقتات خبزا وبصلا ، عن أسباب حبسهم. فأجابه بأن البك – يقصد اسماعيل حمدى – هو الذى أمر بزجهم فى السجن (١) .

وأخذ اسماعيل حمدى يقوم بجولات تفتيشية متكررة اثناء النهار ، فكان يركب حصانا ويتبعه ضابطان على جواديهما ثم عدد من الجنود على ظهور الخيل . وكان يحرص على أن يثير موكبه الرعب فى نفوس العمال . وكان لايتحدث إليهم إلا وهو على ظهر جواده . لاحظ فى إحدى جولاته تقصيرا فى عمل اثنين من رؤساء العمال فأمر بتنزيلهما فورا إلى رتبة « نفر » من أنفار السخرة ، وحمل كل منهما الفأس والقفة وهبطا إلى قاع القناة ينزعان الرمال ويملآن القفف ليصعدا بها إلى جسر القناة لتفريغها ثم يهبطان مرة أخرى وهكذا . وقد علق أحد الفرنسيين على هذا الحادث فوصف اسماعيل حمدى بالعدل والشدة (٢) .

وقد انعكست شدة اسماعيل حمدى على المشايخ من رؤساء العمال خوفا من أن ينزل عليهم غضب « البك» فكان «الشيخ» يقسو على العمال الذين تحت إمرته إذا لاح له أن تقصيرا بدا منهم (٣) . وقد أراد اسماعيل حمدى أن تكون عقوبة الضرب علنية وأن يشهد عذاب العمال طائفة منهم . فكانت عقوبة الجلد أو الضرب تتم فى الحى العربى فى عتبة الجسر ، فتفرش على الأرض قطعة كبيرة من جلد البقر ، ويجلس عليها العامل « المذنب» وينهال الشيخ عليه ضربا بالكرباج أو العصا (٤) . ويتهكم أحد الفرنسيين على هذا الأسلوب فى توقيع العقوبات ، وقد شاهده بنفسه ، فيطلق على قطعة جلد البقر أنها

---

(1) Berchère N., ouvr. cit., p. 218.

(2) Berchère N., ouvr. cit., pp. 195-196.

(3) Fontane Marius, ouvr. cit., p. 51.

(4) Berchère, ouvr. cit., p. 114.

محـــــل العدالة العـربية (١) le lit de justice de la(٢) Thémis arabe. وفى هذا القول مجانبة للحق والواقع . فالشركة حظرت حقيقة على مستخـــــدميها الأجانب ، مهما كانت مناصبهم ودرجاتهم ، ضرب العمال المصريين ، ولكنها أجازت ذلك لرؤساء العمال الذين هم عادة مشايخ البلاد (٣) . ومن الواضح أن الحظر المفروض على المستخدمين الأجانب لم يكن إلا اجراء شكليا ومخادعة من شركة القناة ، إذ تتوارى خلف رئيس العمال وتتخذه أداة لتوقيع العقوبات البدنية عليهم وتظل الشركة بمنأى ظاهرى عن مواطن القسوة . وهذه إحدى وسائل المستعمر الأوربى . وتتكشف هذه الحيلة إذا علمنا حقيقتين أولاهما أن « الشيخ » كان مسئولا أمام الشركة عن الأعمال التى تناط بأفراد فرقته (٤) ، وثانيهما أن العمال لا يتلقون الأوامر إلا منه مباشرة (٥) .

وقد برر هذا الكاتب الفرنسى نفسه مسلك الشركة تبريرا غريبا فقال إن رجال الشركة هم الذين طلبوا أن يكون ضرب العمال المصريين بواسطة المشايخ « لأن أبغض شيء إلى نفوسنا أن نقوم نحن بهذا العمل » .

---

(1) ibid.

(٢) هى ربة العدالة عند الإغريق وكان يرمز إليها بفتاة معصبة العينين تمسك بيدها ميزانا ذا كفتين متعادلتين .

(٣) كثيرا ما هللت دوائر الشركة لهذا التحريم وقالت فى هذا الصدد جريدة الشركة « حرم على المستخدمين الأوربيين توقيع العقوبات البدنية على العمال المصريين ، ولكن أجيز لرؤساء العمال الذين هم عادة مشايخ البلاد ضرب العمال إذا تراءى لهم ذلك » . أنظر العدد ١٥٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٧٠ مجموعة السنة السابعة . ولم تكن هذه أول مرة تنشر فيها الجريدة هذه المسألة بل سبق أن أشارت إلى هذا التحريم . أنظر على سبيل المثال العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ص ٢١٦ - ٢١٧ مجموعة السنة السادسة .

(٤) محاضرة دىلسبس فى باريس بتاريخ ٢٢ يونيو ١٨٦٢ ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص ص ٢٢٥ — ٢٣١ مجموعة السنة السابعة

(٥) L'Isthme de Suez العدد ١٥٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٧٠ مجموعة السنة السابعة

وقد تعرض هذا الكاتب الفرنسى لنقطة حساسة فقال إن بعض الناس يلومون الشركة لأنها تعامل العمال المصريين فى بعض الأحيان معاملة غير كريمة ، فدافع عن الشركة دفاعا هزيلا سقيما لا يخلو من تعال ينم عن العقلية الإستعمارية للرجل الأوربى فى القرن التاسع عشر ، فقد أرجع سوء معاملة الشركة للعمال المصريين إلى رغبتها فى المحافظة على كرامة الأوربيين حين يتجاوز العمال المصريون الحدود المسموح بهـا les limites permises (١) . ولكنه لم يوضح ما هى الحدود المسموح بها وما هى الحدود غير المسموح بها. ثم تساءل هذا الفرنسى عما يصير إليه موقف الشركة إذا لم تكن لديها السلطة الكافية لحمل العامل على أداء نصيبه اليومى فى العمل المفروض عليه كاملا . وهو تبرير غريب لأنه يتناسى أن الوسيلة إلى ذلك ليست الضرب والإكراه على أداء العمل ، ولكن الوسيلة هى المعاملة الطيبة والأجور المناسبة وتوفير ماء الشرب وإعداد الأماكن لمبيتهم فى الصحراء .

وكان من الطبيعى أن يعقد رجال الشركة على اسماعيل حمدى بك أعذب الآمال . فصرح دى لسبس بقوله « إن الرجال الذين يمثلون سلطة « افندينا » مهما كان عددهم سيؤدون لنا خدمات جليلة (٢) » . ورضخ العمال بعض الرضوخ لهذه الألوان المتعددة من العسف والجور يلقونها على يد الموظف التركى الذى أرسله سعيد إليهم ليكون فى معظم الأوقات سوط عذاب عليهم . وليس بمستغرب أن يقرر دى لسبس وفوازن مدير عام الأشغال فى الشركة أنها أول من أحست بمزايا وجوده (٣) . والحق إن إقامته المستديمة فى ساحات الحفر ، يحيط به رجال البوليس ينشرون الرعب والهلع فى نفوس عمال السخرة ، كانت كفيلة باقرار النظام والهدوء فى مناطق الحفر . وقرر رئيس الساحة رقم ٦ فى منطقة عتبة الجسر أن تحسنا كبيرا

(1) Berchère, ouvr. cit., p. 113.

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 155.

(3) De Lesseps F. : t. IV, p. 158.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 274.

طرأ على سير عمليات الحفر بفضل وجود اسماعيل حمدى بك ، إذ كثر عدد العمال وزاد إقبالهم على العمل وانحصر دور الرجل الأوربى فى توزيع العمل واعطاء الأوامر إلى المشايخ الذى يقومون بتبليغها إلى العمال ويراقبون تنفيذها بدقة ، ثم يترك الأوربيون الأمور وهم مطمئنون إلى أنها تسير على النحو الذى يراد لها . وعلى الرغم من زيادة عدد عمال السخرة زيادة ضخمة فإن مهمة الأوربيين غدت من السهولة بمكان إذ لم تكن إلا نوعا من المراقبة العليا (١) . واستطاعت الشركة أن تجتاز المرحلة الخطيرة لشق قناة السويس البحرية الصغيرة فى طول هضبة عتبة الجسر بطريقة بدائية هى الفؤوس والقفف على أكتاف ما يقرب من مائة وثمانين ألف عامل حفروها فى أقل من عشرة أشهر. وقد ذكر فوازان فى هذا الصدد أنه « لم يكن من الضرورى تعبئة جيش حقيقى من العمال، فحسب بل كان من الأهمية بمكان أن تقود هذا الجيش شخصية كبيرة على حظ موفور من الذكاء والنشاط تستمد نفوذها من سلطة سامية عليا ترعى المشروع كل الرعاية وتعمل على انجاحه (٢) » . وقد عمل الرجلان — اسماعيل حمدى بك وفوازان بك — معا فى منطقة القناة طيله سبع سنوات (١٨٦٢ — ١٨٦٨) وكان الأول أكبر موظف للحكومة المصرية فى تلك المنطقة كما كان الثانى أكبر مستخدم للشركة فيها (٣) .

(1) Berchère, ouvr. cit., p. 196.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 275.

(٣) ظل اسماعيل حمدى يشرف على شئون العمال المصريين طيلة البقية الباقية من حكم محمد سعيد . ولما انشأ الخديو اسماعيل فى مارس ١٨٦٣ محافظة القناة عين اسماعيل حمدى بك محافظا لها نظرا للخبرة التى اكتسبها فى العام السابق . وظل يشغل هذا المنصب إلى سنة ١٨٦٨ حين خلفه فى منصبه مراد باشا . وتزخر المحفوظات التاريخية بقصر عابدين بالتقارير المسهبة التى كان يرسلها تباعا اسماعيل حمدى بك . وتعتبر هذه التقارير مرجعا هاما لتاريخ انشاء القناة .

أما فوازان بك فقد اشتغل فى شركة القناة فى ١٨٦١ وظل بها حتى سنة ١٨٧٠ مديرا عاما للأشغال ثم وكيلا أعلى للشركة فى مصر . وأنعم عليه برتبة البكوية سنة ١٨٦٦ . وقد عاد لخدمة الحكومة الفرنسية فى سنة ١٨٧٣ حيث شغل عدة مناصب رئيسية فنية . ثم أعيد مرة أخرى لشركة القناة وشغل منصب نائب رئيس مجلس إدارة الشركة . وقد توفى فى ١٧ مارس ١٩١٨ بعد أن بلغ من العمر

ومما هو جدير بالذكر أن دى لسبس ورجال الشركة وجريدتها كانوا يطلقون على اسماعيل حمدى بك أنه مندوب الوالى Délégué du Vice-Roi أو ممثل الوالى الرسمى (١) Représentant Officiel du Vice-Roi وهذه التسمية لها مغزاها ومرماها (٢) .

+ + +

وتنفيذا لأوامر سعيد باشا الجائرة كان على عمدة القرية أن يقدم عند صدور أول إشارة له من المديرية العدد المطلوب من رحال قريته (٣) . ويذهب العمال إلى المكان الذى يعين لهم لإجتماع الفريق المسافر وينتظرون ريثما يتكامل عدد الفوج . وتفرض الحكومة عليهم خلال ذلك الوقت رقابة شديدة حتى لا يعمدوا إلى الهرب . وكان تشددها فى مراقبتهم يدفعها

مائة عام تقريبا . وأقيم له تمثال نصفى فى الاسماعيلية . وقد توفر حقبة طويلة فى شيخوخته على اخراج مؤلفه النفيس عن قناة السويس والذى يعتبر مرجعا رئيسيا لتاريخ القناة .

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 158.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 274.

جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٢ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٢ ص ١٥٤ مجموعة السنة السابعة .

(٢) كانت الشركة تعتبر منطقة القناة بما تضمه من أراض شاسعة منحها إياها سعيد باشا عن قلة تبصر فى عقدى الإمتياز الأول والثانى ملكا خالصالها لا يمتد إليها سلطان الحكومة المصرية وليست لها ولاية عليها وللحكومة أن تبعث بممثل رسمى لها فى منطقة القناة أسوة بمندوبها فى مجلس إدارة الشركة . ثم حدث بعد وفاة سعيد أن دار لغط حول هذا الموضوع وتطلعت الحكومة التركية إلى سلخ منطقة القناة بأسرها عن مصر ، فسارع اسماعيل إلى انشاء محافظة القناة فى مارس ١٨٦٣ وعين اسماعيل حمدى بك محافظا للقناة على أن يكون مقره بورسعيد وأن تدخل مدينة التمساح (الاسماعيلية) فى حدود المحافظة . وبذلك قطع اسماعيل على الشركة وتركيا وغيرها من الدول خطة التفكير فيما كانوا يبيتون .

(٣) L'Isthme de Suez العدد ١٥٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٦٧ مجموعة السنة السابعة .

فى بعض الأحايين إلى حبسهم (١) .

وكان عمال كل مركز من مراكز المديرية يؤلفون فرقة عليها رئيس يطلق عليه لفظ « الشيخ » وهـو ما يطلق عليه فى فرنســا chef tâcheron يتمتع بسلطة على رجال الفرقة كلها (٢) . فكان من واجباته مراقبة سلوك العمال أثناء سفرهم إلى البرزخ (٣) وقيادتهم صباح كل يوم إلى ساحة الحفر والإشراف عليهم أثناء العمل وفض المنازعات التى تنشأ بينهم (٤) ، كما كان يضرب المقصرين منهم على النحو الذى أوضحناه .

وحين يتكامل عدد الفوج يستقل العمال القطر الحديدية أو السفن الشراعية تقلهم إلى أقرب مكان لساحات الحفر ، ويوضع العمال أثناء سفرهم تحت الحراسة المسلحة (٥) . وكانت الحكومة هى التى تعد لهم وسائل النقل وتتكفل بنفقاته (٦) خلافا لما نصت عليه لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ التى نصت المادة السابعة منها على أن تتحمل شركة القناة نفقات انتقال العمال وعائلاتهم من مكان سفرهم حتى وصولهم إلى ساحات الحفر . وهذه حلقة جديدة تضاف إلى سلسة الخدمات التى أسداها سعيد باشا إلى شركة القناة ، إذ أزاح عنها عبئا ماليا ثقيلا وهو نفقات سفر الأفواج الهائلة المتعاقبة من

---

(1) Note explicative sur le travail et le salaire des ouvriers égyptiens réquis pour la Compagnie du Canal de Suez. Renseignements transmis par Ismaïl Bey, préposé par le Gouvernement égyptien à la direction des ouvriers indigènes dans l'Isthme de Suez. Septembre 1863, p. 31.

(٢) محاضرة ألقاها دىلسبس فى باريس فى ٢٢ يونيو ١٨٦٢ ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص ص ٢٢٥ — ٢٣١ مجموعة السنة السابعة .

(3) Fol, ouvr. cit., p. 8.

(4) Ritt Olivier, ouvr. cit., p. 244.

(5) Dicey Edward : The Story of the Khediviate. London 1902, p. 36.

(6) Ismaïl Hamdi : Note explicative etc., op. cit.

وأنظر أيضا جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧٩ الصادر فى ٣ ديسمبر ١٨٦٣ ص ٤٧٩ مجموعة السنة الثامنة .

المصريين . وكان يجدر بسعيد أن يخصم نفقات سفرهم من ثمن الأسهم التى فرضها دىلسبس على مصر . وكانت هذه الوسيلة فى سداد نفقات سفر العمال خدمة كبيرة فى ذاتها للشركة ، ولكنه لم يخصم شيئاً ولم يتقاض أجرا .

وكان سفر عمال الوجه القبلى يتم فى السفن النيلية إلى القاهرة ومنها بالسكة الحديدية إلى بنها فالزقازيق ، نهاية الخط الحديدى فى ذلك الوقت ، ومن ثم يساقون زمرا إلى ساحات الحفر فى منطقة القناة سيرا على الأقدام تحت الحراسة الشديدة من فرسان « القواصة » أى البوليس . وكانوا يقطعون المسافة الأخيرة فى أربعة أيام . أما الرحلة بأكملها لعمال الوجه القبلى فكانت تستغرق وقتا يصل عادة إلى عشرين يوما تبعا لموقع المديرية التى يفدون منها (١) .

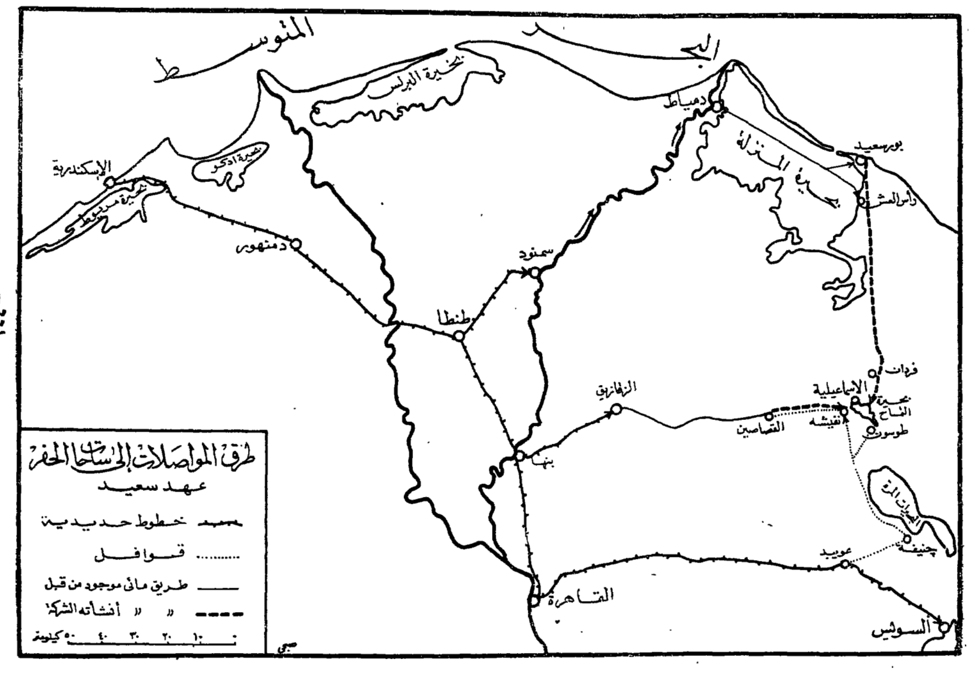
وكان عمال الوجه البحرى يسافرون إلى الزقازيق إما بالسكة الحديدية وإما فى السفن النيلية تبعا لموقع المديرية التى يفدون منها واتصالها بالشبكة الحديدية المتواضعة وقتئذ أو عدم اتصالها بها ، فقد كانت هناك بضعة خطوط فرعية تخرج من خط القاهرة — الإسكندرية هى فرع من طنطا إلى سمنود وآخر من بنها إلى الزقازيق وثالث من بنها إلى ميت بره فى مديرية المنوفية حيث كانت لسعيد باشا أراض زراعية ، ثم خط من الإسكندرية إلى قصر الوالى فى مريوط (٢) . وكانت الطرق المائية فى الوجه البحرى تزدحم

(1) Ismaïl Bey, op. cit.

(٢) بلغ طول الشبكة الحديدية فى مصر على عهد سعيد باشا ٤٧٧ كيلومترا على النحو الآتى :

خط اسكندرية — القاهرة	طوله	٢٠٩	كيلومترا
خط القاهرة — السويس الصحراوى	«	١٤٤	«
خط بنها — الزقازيق	«	٣٩	«
خط طنطا — سمنود	«	٥٣	«
خط بنها — ميت بره	«	١٣	«
خط اسكندرية — اتجاه مريوط	«	١٩	«
المجموع		٤٧٧	

Wiener, ouvr. cit., p. 88.


طرق المواصلات إلى ساحات الحفر
عهد سعيد
خطوط حديدية
قوافل
طريق مائي موجود من قبل
« « أنشأته الشركة
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ كيلومتر
البحر المتوسط
بحيرة البرلس
بحيرة إدكو
الإسكندرية
دمنهور
طنطا
سمنود
دمياط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
رأس العش
فردان
الإسماعيلية
بحيرة التمساح
طوسون
نفيشه
القصاصين
الزقازيق
بنها
القاهرة
عويبد
جنيفة
السويس

بالسفن والقوارب محملة بعمال السخرة فى طريقهم إلى الزقازيق ، ويروى أحد السياح الإنجليز الذين زاروا ساحات الحفر فى منطقة القناة خلال شهر ديسمبر ١٨٦١ أنه شاهد فى فرع دمياط عند بنها ما يقرب من عشرين سفينة مكتظة بالفلاحين المسخرين فى حفر القناة (١) . وكانت الرحلة من قراهم إلى ساحات الحفر تستغرق وقتا يتفاوت بين ستة أيام واثنى عشر يوما (٢) .

وكانت عملية تسليم عمال السخرة بواسطة موظفى الحكومة وتسلمهم بمعرفة مندوبى شركة القناة تتم أول الأمر فى منطقة الوادى بمديرية الشرقية، وقد نجم عن تجمع العمال بكثرة كبيرة فى هذه الناحية أن أصيبت مزروعات الوادى بأضرار بالغة ، فاختيرت « أبو حماد » بمديرية الشرقية مركزا يتجمع فيه العمال تمهيدا لفرزهم وترحيلهم إلى ساحات الحفر (٣) ، ثم مالبث أن وقع الإختيار على الزقازيق كى تكون مركزا لهذه العملية، وذلك لسهولة المواصلات المائية والحديدية إليها من جهات الدلتا . وكان متوسط عدد العمال الذين ينقلهم القطار فى كل مرة إلى الزقازيق ١,٥٠٠ رجل من عمال السخرة (٤) . وكان من نتائج ذلك أن اكتسبت الزقازيق أهمية كبيرة وانتعشت الحياة الإقتصادية فيها ، ووفد إليها كثير من الأهلين والتجار يقيمون فيها محلات تجارية ومستودعات تموينية ، وأخذوا يترددون بين الزقازيق وبين ساحات الحفر فى منطقة القناة (٥) . وقد أرسل فيض الله

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 66.

(2) Ismaïl Bey, op. cit..

(٣) محفوظات قصر عابدين : أنظر مكاتبتين الأولى من نقولا فازاروس مفتش عموم السكة والحبل إلى فيض الله نورى مدير الشرقية والثانية من مدير الشرقية إلى المعية السنية . محفظة رقم ٣٠ معية تركى وثيقة رقم ٥٦ ومرفقتها . وأنظر أيضاً خطابا من مدير الشرقية إلى المعية السنية بتاريخ ١١ شوال ١٢٧٩ فى دفتر ٥٣٤ تركى وثيقة رقم ٢ ص ٤٣

(٤) L'Isthme de Suez العدد ٢٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ ص. ص ١٨٠ — ١٨٢ مجموعة السنة السابعة

(5) Casimir Le conte: Promenade dans l'Isthme de Suez. Paris. 1864, p. 25.

نورى مدير الشرقية إلى سعيد باشا تقريرا عن ازدهار الزقازيق قال فيه « إن بندر الزقازيق قد أصبح بلدا عامرا من إقامة كثير من التجار المسلمين والأوربيين فيه ، ومن إقامة العمال المشتغلين فى حفر قناة السويس والذين يفدون من أقاليم الوجهين القبلى والبحرى .... (١) » .

ومنذ شهر يناير ١٨٦٢ ازدادت أهمية الزقازيق إلى حد بعيد لأن الشركة كانت قد أنجزت فى ٢٣ من ذلك الشهر حفر ترعة الماء العذب من قرية القصاصين إلى نفيشه على مقربة من بحيرة التمساح (٢) وأعدتها للملاحة فى نفس ذلك اليوم (٣) ووجد بذلك شريان مائى متصل يربط الزقازيق بساحات الحفر فى منطقة القناة . وأصبح يمر بالزقازيق فى طريقهم إلى ساحات الحفر سفراء الدول وقناصلها وأمراء اوربا وأعضاء المجالس النيابية والغرف التجارية فيها وكثير من الشخصيات البارزة (٤) . وكان

---

(١) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٢٨ معية تركى. وثيقة رقم ٥٦٢ بتاريخ ١٩ ذى القعدة ١٢٧٨ (١٨ مايو ١٨٦٢) . وأنظر الرد على ذلك التقرير فى وثيقة رقم ٦٢١ بتاريخ ٢٠ ذى الحجة ١٢٧٨ (١٨ يونيو ١٨٦٢) فى نفس المحفظة

(٢) تقرير Bougouin طبيب ترعة الماء العذب الذى أشرف على الحالة الصحية بين عمال السخرة أثناء حفر الترعة . وقد رفع هذا التقرير فى ١٥ مارس ١٨٦٢ إلى روش Aubert Roche كبير أطباء الشركة ونشرته جريدة L'Isthme de Suez فى العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٢ ص‌ص ١٢٢ — ١٢٨ مجموعة السنة السابعة .

(٣) أنظر مقالا افتتاحيا فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٢٥ الصادر فى أول فبراير ١٨٦٢ ص‌ص ١٣٥ — ١٣٦ مجموعة السنة السابعة . وأنظر أيضا
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 348.

(٤) L'Isthme de Suez العدد ١٥٨ الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٣ ص ٢١ مجموعة السنة الثامنة. هذا وتجد وصفا لمدينة الزقازيق : شوارعها وميادينها وفنادقها وعلاماتها العامة فى

Percy Badger, ouvr. cit., p. 11.
Berchère, ouvr. cit., pp. 159-160.

وأنظر أيضاً مقالا نشر فى L'Isthme de Suez العدد ١٩٩ الصادر فى أول أكتوبر ١٨٦٤ ص‌ص ٤٠٨ — ٤٠٩ والمقال فى مجموعه مقتبس من كتاب

Casimir Le conte ; ouvr. cit.

هؤلاء واولئك يحضرون إلى مصر إما بإيعاز من حكوماتهم لمراقبة تنفيذ المشروع عن كثب ومحاولة تعرف أهداف الشركة ، وإما تلبية لدعوة الشركة لهم من باب الدعاية لها .

وكان لشركة القناة مكتب فى الزقازيق يضم مندوبين عنها وعن المقاول العام للشركة . وكانت السلطة المحلية فى الزقازيق تخطر المكتب بوصول أفواج عمال السخرة فيخف المندوبون لاستقبالهم ويقفون على عدد أفراد الفوج ، ثم يقومون بفرزهم فيستبعدون العمال هزيلى الأجسام ويأخذون الشبان الأقوياء الأصحاء(١). ويوقعون اقرارا بتسلم « أنفار » السخرة ويذكرون فيه عدد « الأنفار » ثم يرسل الإقرار إلى مدير المديرية التى وفد منها أفراد الفوج (٢) . وهكذا شاء تشجيع سعيد للمشروع أن يهبط بالشعب المصرى إلى سلع آدمية يتسلمها ويتصرف فيها حفنة من الأجانب المستخدمين فى شركة القناة . وكان مكتب الشركة فى الزقازيق على علم تام بسير عمليات الحفر وحاجة كل ساحة من ساحات الحفر إلى الأيدى العاملة ، فيعين مستخدموه لكل «شيخ » الجهة التى يعمل فيها أفراد فرقته، ثم تصدر الأوامر للفوج باستئناف السفر إلى منطقة القناة سيرا على الأقدام تحت الحراسة الشديدة من قوات البوليس . وكان طريق التل الكبير يبدو كأنه مغطى بالآدميين من كثرة عدد عمال السخرة(٣) . وفى نفس الوقت يقوم المكتب بإخطار مهندس أول ساحة الحفر التى سيتجه إليها أفراد الفوج ، كما يخطر مفتش التموين بوصول الفوج وعدد أفراده .

---

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 13. Voir aussi :

Fontane Marius, ouvr. cit., p. 51.

Guillemin A. : L'Egypte actuelle. Son Agriculture et le Percement de l'Isthme de Suez. Paris 1867, p. 249.

(2) Ritt, ouvr. cit., p. 244.

(٣) مشاهدات Roussin أحد سكرتيرى الأميرال Faures قائد القوات الفرنسية البحرية فى الشرق الأقصى . وكان قد انتهز فرصة مروره بمصر فى طريقه إلى مقر منصبه فزار ساحات الحفر . أنظر جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠٠ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ص ٣٦٦ — ٣٦٨ مجموعة السنة السابعة .

وكان يسير فى مقدمة الفوج عدد من الجمال تحمل أمتعة العمال وزكائب تحوى مأكلهم وقلل الماء ، ثم يسير العمال فى خط طويل خلف الجمال (١) . ويقول سائح فرنسى أنه شاهد صباح أحد أيام شهر يناير ١٨٦٢ جموعا كثيفة من العمال يجتازون الصحراء ولاحظ أن طلائعهم الأولى قد اختفت تماما عن الأنظار بينما كانت صفوف متراصة منهم لا تزال تسير فى صف طويل متجهة شطر منطقة القناة (٢) .

وكان العمال يصلون إلى ساحات الحفر منهوكى القوة بعد سفر طويل شاق تنوعت وسائله (٣) . وهناك تبدأ عملية فرز أخرى بعد عملية الفرز التى تمت فى الزقازيق . فيقسم رجال الشركة العمال إلى فريقين : فريق قوى وفريق أقوى . ويعطى كل عامل من الفريق القوى قفة يضع فيها الأنقاض التى تتخلف من عملية الحفر ثم يحملها ليلقى بمحتوياتها بعيدا عن مجرى القناة فى المكان الذى تحدده الشركة . أما عمال الفريق الأقوى فيعطى كل منهم فأسا يضرب بها الأرض لحفر القناة ويهبط فى الأرض إلى أن يبلغ فى حفرها العمق المطلوب . وقبل أن يشرع العامل فى عمليات الحفر كان يخلع جلبابه الأزرق ويلقى به جانبا على الأرض وبجواره قلة ماء يشترك معه فيها عدد من زملائه (٤) . ولم يكن العامل يشتغل إلا تحت إكراه « المشايخ (٥) » وكان « الشيخ » يمسك فى يده طوال النهار بالكرباج (٦) .

وكان العامل يشتغل فى عمليات الحفر لمدة شهر واحد يسمح له بعد انتهائه بالعودة إلى قريته (٧) . وكانوا بدون استثناء تقريبا يغادرون البرزخ

---

(1) Berchère, ouvr. cit., p. 163.

(2) Berchère, ouvr. cit., p. 108.

(3) Lavalley, ouvr. cit., p. 55.

(4) Berchère, ouvr. cit., pp. 196-197 et 203-204.

(5) Kostolany, ouvr. cit., pp. 114-115.

(6) Dicey, ouvr. cit., p. 36.

(7) Fol, ouvr. cit., p. 8. Voir aussi :

بمجرد انتهاء المدة المفروضة عليهم ، بل إن كثيرين منهم كانوا يتحينون الفرص للهرب ولما يمض عليهم بضعة أيام فى ساحات الحفر (١) على الرغم من الرقابة الدقيقة التى فرضتها عليهم الحكومة حتى ضجت الشركة بالشكوى من تعدد حوادث الهرب (٢) .

وقد تخبط دى‌لسبس فى تفسير الباعث على اتباع السياسة التى كانت تقضى بتغيير عشرين ألف رجل من عمال السخرة كل شهر وما نجم عن ذلك من نتائج سنتعرض لها فى حينها وأصابت الحياة الإقتصادية والإجتماعية بأضرار بالغة . وقد ذكر دى‌لسبس مرة أن قسوة الحياة فى صحراء البرزخ فى ذلك الوقت هى التى فرضت على الشركة هذا التغيير الشهرى لعمال السخرة إذ كانت حالة التموين لا تزال مضطربة . وكانت مشكلة توفير ماء الشرب فى الصحراء لاتزال على خطورتها، فكانت الشركة لا تستطيع أن تسمح للعمال بأن يفدوا مع أفراد عائلاتهم ويقيموا معهم فى منطقة القناة ، ولهذا أرادت الشركة أن تتيح الفرصة للعمال كى يعودوا سريعا إلى ذويهم بعد شهر واحد (٣)

وبعد وفاة سعيد باشا برر دى‌لسبس هذا التبديل الشهرى للعمال تبريرا غريبا ، فقرر ، فى خطابه الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى أول مارس ١٨٦٤ ، أن سعيدا هو الذى أشار بهذا الرأى رغبة منه فى إنهاض شعبه !! فاذا أقام العامل شهرا وعاد إلى قريته وقدم عامل آخر يواصل الحفر بعده شهرا آخر تهيأت الفرصة أمام أكثر عدد ممكن من أفراد

Ritt, ouvr. cit., p. 243.
= De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p p. 220-221.

وكذلك جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٩ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦٢ ص‌ص ٢٦٦ — ٢٧٠ مجموعة السنة السابعة .

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 68.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 232 et 274.

(٣) محاضرة ألقاها دى‌لسبس فى باريس بتاريخ ٢٢ يونيو ١٨٦٢ ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص‌ص ٢٢٥ — ٢٣١ مجموعة السنة السابعة .

الشعب المصرى للذهاب إلى ساحات الحفر حيث يعملون تحت إرشاد مهندسين أوربيين على جانب كبير من البراعة والمهارة ، وبذلك يتاح للمصريين الإتصال بأسباب الحضارة الأوربية ممثلة فى شركة القناة : ! ثم استطرد دىلسبس فقال « والحكومة المصرية هى التى طلبت التبديل الشهرى بين العمال ، وقبلت الشركة المتاعب التى تنجم عن هذا التغيير المستمر فى مقابل أن يتولى سعيد باشا نقل العمال على حسابه إلى الزقازيق سواء كان هذا النقل يتم فى السفن النيلية أو القطر الحديدية (١) » . وطبقا لهذا التبرير من جانب دىلسبس تكون شركة القناة هى المتفضلة على الشعب المصرى بالعمل على إنهاضه ، وفى نفس الوقت هى الخاسرة لأنها تحملت « متاعب » فى سبيل تغيير العمال شهريا . وهذا القول لايستسيغه عقل ولا يقبله منطق ، ولكن دىلسبس يقلب الحقائق ويتنكر لأصحاب الفضل عليه جريا على عادته فى مثل تلك المواقف . فالشركة هى التى جنت أجل الفوائد من هذا النظام ، إذ لا يكاد العامل يقضى الشهر المقرر له فى ساحات الحفر حتى يكون قد أنهك قواه ذلك العمل المضنى المتصل فى حفر القناة ، وأصابه الضجر من معيشته التى يحياها فى الصحراء ، وضاق بالرقابة الصارمة المفروضة عليه فى ساحات الحفر ، كما أن إنتاجه فى الحفر يغدو ضئيلا إذا قيس بإنتاجه فى الأيام الأولى لمباشرته العمل ، وفوق ذلك لاتتكبد الشركة

---

(١) خطاب دىلسبس فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة بتاريخ أول مارس ١٨٦٤ . ونشر فى L'Isthme de Suez العدد ١٨٥ الصادر فى ٤ مارس ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة .

وفى مذكرة وضعتها الشركة بتاريخ ٧ يناير ١٨٦٤ قالت فيها إن تغيير العمال كل شهر كان استجابة لرغبة سعيد باشا كى يحتك الفلاحون بالأوربيين ويقفون على أسلوبهم فى العمل وتزول عنهم الأوهام والمزاعم الباطلة التى تسيطر عليهم من ناحية الأوربيين . أنظر

Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez: Mémoire à consulter sur la Consultation de Mtres Odilon Barrot, Dufaure et Jules Faure en date du 30 novembre 1863.

شيئاً من نفقات السفر ، فكان من مصلحتها أن تتخلص من هذا العامل المجهد وتستبدل به عاملا جديداً . وقد كشف النقاب عن جانب من هذه الحقيقة التي أوردناها أحد الرجال المناصرين لشركة القناة وهو Flachat وذلك في بحث ألقاه بجلسة ٧ أكتوبر ١٨٦٤ أمام أعضاء جمعية المهندسين المدنيين في باريس ، بعد مضى سبعة أشهر على الأكذوبة التي أطلقها دىلسبس في جرأة أمام مسهمى الشركة ، إذ قال Flachat إن شهرا يقضيه الفلاح في الصحراء وفي العمل كان كافيا لاستنفاد قواه ، ولم يكتف هذا المهندس بذلك بل نسب نجاح الشركة في أعمالها إلى هذا النظام الذى اقتضى تغيير العمال شهريا (١) . وهكذا شهد شاهد من أهلها . أما كرابيتس Crabites فيقول « كانت الشركة تستخدم الفلاح حتى يصبح عديم النفع فتلقى به جانبا كما يلقى الإنسان علبة ثقاب فارغة (٢) » .

وقد ترتبت على هذا التغيير الشهرى للعمال عدة نتائج أثرت تأثيرا عميقا في الحياة المصرية ، وكان من بينها أن ارتفع عدد العمال الذين يتغيبون عن حقولهم إلى ستين ألفا كل شهر ، لأنه بينما يكون عشرون ألفا قائمين بالعمل في ساحات الحفر يكون مثل هذا العدد من العمال في طريق عودتهم إلى قراهم ، وعشرون ألف رجل آخرون في طريقهم من بلادهم إلى

---

(1) La moyenne de la durée du séjour du fellah sur les chantiers était d'un mois. C'est cette mobilité qui a été la base du succès de l'organisation du service sanitaire. *Un mois de séjour au désert et de travail suffisait pour épuiser la force des ouvriers les plus faibles*, et le contingent était alors renvoyé dans ses foyers ; il était remplacé par un autre, jusqu'au moment où le repos permettait de le ramener au désert. أنظر

Société des Ingénieurs Civils. Paris 1864. Procès-verbal de la séance du 7 octobre 1864. Présidence de M. Petiet. Communication faite par M. Flachat.

(2) Crabites : Spoliation etc., ouvr. cit., p. 100.

وأنظر أيضاً

Crabites : Ismaïl etc., ouvr. cit., p. 48.

منطقة القناة أى بمعدل ٧٢٠ ألف مصرى فى العام فى الوقت الذى لم يتجاوز عدد سكان مصر خمسة ملايين نسمة (١) .

وقد يقال إن عودتهم من منطقة القناة إلى قراهم لا تستغرق شهرا ، ولكن تستغرق بضعة أيام قد تصل إلى ستة أو أسبوع (٢) . ولكن هذا القول مردود عليه لسببين : أولاهما أن الحكومة والشركة كانتا تتركان العمال وشأنهم فلا تتكفل إحداهما أو كلتاهما بإعادتهم إلى بلادهم ، ولم يكن لهم سوى حق استخدام السكك الحديدية بالمجان إذا كانت بلادهم تقع على الشبكة الحديدية المتواضعة . وثانيهما أنهم كانوا لايستطيعون استئناف نشاطهم الزراعى عقب وصولهم إلى بلادهم مباشرة بل يظلون مدة طويلة عاجزين عن العمل لما انتابهم من هزال، لان الشركة قد استنفدت كل ذرة من النشاط فيهم (٣) . أما فى ذهابهم إلى ساحات الحفر فان تحمس سعيد باشا للمشروع قد انعكس على مديرى المديريات ، أو لعلهم كانوا ينفذون أوامره الصارمة فى هذا الصدد ، فكانوا يحرصون على التبكير فى جمع عمال السخرة خوفا من أن تنتهى نوبة الشهر لأحد الأفواج قبل أن يصل بعد الفوج الجديد ، ويظل العمال فترة طويلة بعد جمعهم تحت المراقبة المسلحة فى عاصمة المديرية أو المركز بضعة أيام فى انتظار إعداد وسائل ترحيلهم إلى ساحات الحفر ثم صدور الأوامر لهم من المديرية بالتحرك .

كما كان من نتائج التغيير الشهرى للعمال أن وقع ضغط شديد على وسائل المواصلات الحكومية — النهرية والحديدية — وفى وقت ارتفعت فيه الشكوى

---

(١) تعرضنا لهذه المسألة بالبحث فى فصل « جناية سعيد والشركة على الإقتصاد المصرى »

(2) Ritt, ouvr. cit., p. 286.

(3) Crabites : Ismail etc., ouvr. cit., p. 48.

من أن السكة الحديدية فى مصر لا تغطى نفقاتها على عهد سعيد وقبل أن يتولى نوبار إدارتها خلفا لمديرها الانجليزى جرين Green الذين عين وكيلا للقنصلية البريطانية العامة (١) .

يضاف إلى النتيجتين السابقتين الإضطراب الذى ساد الحياة الإجتماعية والإقتصادية فى مصر نتيجة هذه التحركات الآدمية الهائلة التى كانت تتم فى نظام رتيب بإشراف رجال الحكومة وجنودها . وقد فشا التذمر بين الأهالى من أقصا البلاد إلى أقصاها ، إذ كان هذا فى الحقيقة حشدا لمصر كلها لخدمة شركة القناة (٢) .

(1) Sabry M., ouvr. cit., pp. 46-47.

(2) Sammarco : La verità sulla etc., ouvr. cit., p. 25. "Non occorre dire quali danni portava all' agricoltura egiziana e quali perdite alle famiglie una simile corvée, che venne imposta mensilmente a 20 mila operai.................. Un tale concorso di operai egiziani rappresentava una cifra enorme par una popolazione di appena cinque milioni ; era una vera mobilitazione di tutto l'Egitto, di piv di quattro a cinque mila operai ".

الفصل الثامن

الإسراف فى استخدام السخرة

دى‌لسبس يطمع فى مزيد من عمال السخرة – ويضغط على سعيد – ويؤكد له أن نقص عددهم يسىء إلى سمعة سعيد فى فرنسا – حمل المصريين على حفر القناة فى ليالى شهر رمضان – تخفيض الجيش وارسال الجنود المسرحين والشبان المقترعين لحفر القناة – موقف الفرنسيين من هذه المسألة قبل وفاة سعيد وبعد مماته – تلاعب الفرنسيين بعقلية سعيد – أهواء سعيد المتقلبة ازاء الجيش – تخفيض اعتمادات الجيش – الشركة تطالب بأربعين ألف عامل كل شهر – ساحات الحفر يحتلها جيش من الفلاحين – جهودهم فى حفر مرتفعات الجسر – الحفر ليلا ونهارا – أيصال مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح – حفل ١٨ نوفبر ١٨٦٢ – مفتى الديار المصرية يشيد بعدالة سعيد

+ + +

زادت أطماع دى‌لسبس فى الحصول على مزيد من عمال السخرة . وقد حدث أن حشدت الحكومة ١٦,٥٠٠ رجل من عمال السخرة فى النصف الأول من يناير ١٨٦٢ (١) . فلم يرقه هذا الرقم (٢) وأرسل مذكرة سرية إلى الوالى بتاريخ ١٨ يناير ١٨٦٢ شرح له فى شىء من الإسهاب حاجة

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 139.

(٢) كتب دى‌لسبس إلى الدوق البوفرا فى باريس خطابا من القاهرة فى ٢٠ يناير ١٨٦٢ يقول فيه « لقد ذكرت للوالى أنه إذا كان جمع الخمسين ألف رجل – وهذا ما وعد به – سيكون وقتيا ، فانى أفضل وجود ثلاثين ألف رجل فى ساحات الحفر بصفة دائمة وبدون انقطاع حتى نفرغ من حفر كل من ترعة الماء العذب والقناة البحرية الصغيرة وايصال كل منها إلى السويس . أنظر الجزء الرابع ص ١٤٢ من المصدر السابق .

الشركة الملحة إلى أفواج غزيرة العدد من العمال . وحاول أن يدلل على أن النقص فى عدد عمال السخرة الذين يرسلون إلى ساحات الحفر يسىء إلى سمعة سعيد باشا نفسه ويضر بمصلحته قبل أن يضر بمصلحة الشركة !! ثم مضى يقول « .... فإذا صرفنا النظر عن شهر رمضان لم يعد يتبق أمامنا سوى شهرين لحفر عتبة الجسر قبل حلول شهر مايو ، وهو الوقت الذى نرى فيه ، لمصلحة سموكم أكثر من مصلحتنا نحن ، ضرورة اعلان نتيجة هامة للرأى العام الأوربى ولمسهمى الشركة . ولا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة باستخدام اثنى عشر ألف رجل ولا عشرين ألف رجل. ولذلك كان من واجبى أن أخطر سموكم بأن القناة البحرية الصغيرة لا يمكن أن تصل إلى بحيرة التمساح فى خلال أربعة أشهر — أى فى مايو — باستخدام عشرين ألف عامل . إن هذا التأخير لا يمكن أن تسوغه الأحوال السياسية ، فبدلا من أن تكون هذه الأحوال سببا فى عرقلة أعمالنا نجد أنها على النقيض مواتية للغاية » .

يتضح من هذه المذكرة أن دىلسبس كان ، فى طلبه زيادة عدد عمال السخرة ، يربط بين مصلحة سعيد وإعلاء شأنه لدى الحكومة الفرنسية والرأى العام الأوربى وبين مسألة زيادة الأيدى العاملة المصرية فيجعل من المسألتين موضوعا واحدا . وكان هذا أسلوبا بارعا فى حمل سعيد على حشد أكبر عدد ممكن من عمال السخرة لحفر القناة . ويظهر ذلك الأسلوب واضحا قويا فى خطاب آخر بعث به دىلسبس فى ٢١ يناير ١٨٦٢ إلى كنيج بك سكرتير الوالى تناول فيه هذا الموضوع بالذات، وقال فيه « تلقيت خطابا من أخى الكونت دى لسبس بباريس جاء فيه أنه قام هو والدوق دى البوافر (٢) ببذل جهود طيبة لدى وزير خارجية فرنسا دفاعا عن مصالح الوالى . وقد كلفنى أخى أن بلغ حضرة صاحب السمو الوالى أن الطريقة الوحيدة لكى يبلغ

---

(١) الجزء الرابع ص ١٣٩ من المصدر السابق .

(٢) نائب رئيس مجلس إدارة شركة القناة فى باريس .

شأوا رفيعا إنما هى تنشيط أعمال الحفر فى البرزخ حتى يتم ايصال ترعة الماء العذب والقناة البحرية الصغيرة إلى بحيرة التمساح . فإذا قرر استخدام جيش من العمال هناك فإن هذا العمل سيحيط الوالى بهالة من المجد ويعمل على زيادة رخاء شعبه ويساعد على استهلاك دينه بسعر معتـــدل يجذب جمهور المسهمين نحوه (١) » .

استهوت الفكرة سعيد باشا وحظيت الشركة فى فبراير ١٨٦٢ بعدد هائل من عمال السخرة بلغ ٢١ ألف مصرى (٢) . ففاق ذلك الشهر ، من حيث كثرة عدد العمال ، الشهر السابق ، إذ لم يتجاوز عدد العمال فيه ١٨,٥٩٩ رجلا (٣) . وقد اندفع سعيد فى هذه الخطة التعسة بتسخير الفلاحين فى حفر القناة اندفاعا أفسد عليه صواب الرأى وحسن التفكير فى مصالح الشعب المصرى . فلما حل شهر رمضان ١٢٧٨ فى ٢ مارس ١٨٦٢ (٤) أكره

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 145-146.

(٢) الجزء الرابع ص ١٦٩ من المصدر السابق . وأنظر أيضاً عدد العمال خلال ذلك الشهر فى تقرير روش كبير أطباء الشركة وقد نشر فى جريدة الشركة العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٢ صص ١١٥ — ١٢٨ مجموعة السنة السابعة .

(٣) أنظر خطابا أرسله دىلسبس فى ٩ فبراير ١٨٦٢ إلى بوفال قنصل فرنسا فى مصر فى الجزء الرابع ص ١٦٤ من وثائق دىلسبس . أما فوازان بك فيذكر أن عدد العمال بلغ فى شهر يناير ١٨,٦٤٠ رجلا كانوا موزعين على النحو الآتى :

١٢,٠٠٠ — عملوا فى انجاز ترعة الماء العذب بعدها إلى نفيشه ثم مدوا منها مجرى صغيرا وصل إلى الساحة رقم ٦ فى عتبة الجسر

١,٦٤٠ — عملوا فى الساحة رقم ١ فى منطقة عتبة الجسر وكانت تلك الساحة أولى ساحات المنطقة من ناحية الشمال وتقع عند فردان

٥,٠٠٠ — عملوا فى الساحة رقم ٦ فى منطقة عتبة الجسر وكانت تلك الساحة آخر ساحات المنطقة من ناحية الجنوب وكانت تقع شمال بحيرة التمساح

١٨,٦٤٠

أنظر

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 273.

(٤) أنظر تواريخ سنة ١٢٧٨ فى كتاب « التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية » لمحمد مختار باشا . المطبعة الأميرية ز ١٣١١ هـ.

الفلاحين على حفر القناة فى ليالى ذلك الشهر حرصا منه على عدم تعريض عمليات الحفر للتعطيل .

يقول دى‌لسبس إنه طلب إلى سعيد ، فى خطاب أرسله إليه بتاريخ ١٠ فبراير ١٨٦٢ ، الأ يبعث له بعمال خلال شهر رمضان على أن يعاود مديرو الأقاليم إرسال أفواج العمال بعد إنتهاء شهر الصيام بحيث يبلغ عددهم ثلاثين ألفا ابتداء من أول أبريل ١٨٦٢ . وحاول دى‌لسبس أن يهون على سعيد ضخامة ذلك العدد من العمال فاقترح عليه تخفيض عدد جنود الجيش ، وأن يرسل الجنود المسرحين إلى منطقة البرزخ للعمل فى حفر القناة دون أن تتحمل الحكومة نفقات بشأنهم . ولم يفت دى‌لسبس أن يشيد فى خطابه بالفوائد التى يجنيها سعيد باشا والبلاد من وراء ايصال ماء النيل ومياه البحر المتوسط إلى مدينة السويس (١) .

وحين أعلنت الشركة عن عدم حاجتها إلى العمال خلال شهر رمضان كان يحدوها عدة اعتبارات : فقد رأت على ضوء تجارب الأعوام السابقة أن انتاج العمال فى رمضان يقل بكثير عن إنتاجهم فى سائر الشهور الأخرى ، وأن النفقات التى تتحملها بتقديم الجراية لهم وغير ذلك من وجوه الإنفاق الأخرى لاتتناسب مع إنتاجهم فى رمضان (٢) . وكانت الشركة ترغب انتهاز هذه الفرصة فتعمل على جرد المستودعات واستكمال أسباب النقص فى مشكلات التموين (٣) ، وفى تنظيم إدارة الحسابات بالشركة (٤) ، وكثيرا ما أظهر دى‌لسبس استياءه من سوء نظام هذه الإدارة وتأخير العمل فيها على الرغم من وجود مائتى مستخدم يعملون بها (٥) ، كما رغبت الشركة فى أن

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 166-167.

(٢) الجزء الرابع ص ١٦٤ من المصدر السابق .

(٣) الجزء الرابع ص ١٥٨ من المصدر السابق .

(٤) خطاب دى‌لسبس من الجسر بتاريخ ٦ فبراير ١٨٦٢ إلى الدوق البوفرا . الجزء الرابع ص ١٥٩ من المصدر السابق .

(٥) الجزء الرابع ص‌ص ١٧٠ - ١٧١ من المصدر السابق

يستجم مهندسوها ومن إليهم من مستخدمى الشركة الذين يعملون فى ساحات الحفر استعدادا لاستئناف العمل بنشاط أوفر (١) .

فالبواعث التى أملت على دى‌لسبس خطابه ، وقد استقيناها من وثائقه ، تقوم على أساس من المنطق والحكمة وروح التنظيم . وكانت هذه فرصة طيبة لسعيد باشا فيريح ويستريح. وقد قال دى‌لسبس معلقا على‌ذلك فى نفس الخطاب « وإنى أظن أن سمو الوالى سيغتبط حين لا أطلب رجلا واحدا خلال شهر رمضان . وسأقوم من ناحيتى بوقف العمل خلال هذا الشهر » . ولكن سعيد باشا لم يرهذا الرأى وأصدر أوامره إلى مديرى الأقاليم بالمضى فى جمع العمال وترحيلهم إلى ساحات الحفر خلال شهر رمضان على أن تترك الحرية لمن شاء من العمال أن يشتغل فى النهار ومن شاء أن يعمل أثناء الليل ، على أن يكون كل منهم فى كلتا الحالتين ملزما بإنجاز نصيبه كاملا فى حفر الأجزاء التى تحدد له فى المدة المقررة لبقائه فى البرزخ (٢) .

وقد يكون الجزء الأول من هذا الخطاب والخاص بطلب إيقاف إرسال العمال خلال شهر رمضان من نسج خيال دى‌لسبس . وقد مرت بنا أمثلة عديدة على جرأته فى قلب الحقائق واختلاق الأسباب . ومن الأدلة والقرائن التى تذكر فى جانب هذا الإحتمال أن دى‌لسبس نشر هذا الخطاب فى الجزء الرابع من وثائقه فى سنة ١٨٧٩ بعد وفاة سعيد باشا بنحو ستة عشر عاما . ولعل دى‌لسبس شعر بقسوة هذا الإجراء فى حمل الفلاحين على حفر القناة فى ليالى شهر رمضان فحاول أن ينفى عن الشركة هذا التعسف ويلقى اللوم والمسئولية على سعيد باشا كما فعل تماما فى نظام تغيير عمال السخرة كل شهر . والمقارنة بين الحالتين محكمة . فالشركة هى التى استفادت من كلا

(١) جريدة l'Isthme de Suez العدد ١٣٨ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٦٢ ص ٩٤ مجموعة السنة السابعة .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 275-276. voir aussi :

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 169.

النظامين ، وهى التى ألقت التبعة على سعيد بعد مماته فى ابتداع النظامين ، وكما أن دى لسبس هو الذى طلب إلى سعيد تغيير عمال السخرة كل شهر فمن المحتمل أنه أوحى إلى الوالى استخدام العمال فى ليالى رمضان بحجة احترام الناحيتين الدينية والإنسانية أثناء صيامهم وهو يستهدف فى حقيقة الأمر المصلحة المادية للشركة ومن ثم اختلق الجزء الأول من هذا الخطاب . ونضيف إلى ذلك قرينة أخرى هى أن دى‌لسبس قد ذكرلمندوب المقاول العام أن دوائر قصر الوالى تردد أن سعيد باشا يعتزم قضاء شهر رمضان فى الإستراحة التى أقامتها له الشركة على ربوة تطل على بحيرة التمساح . وعقب دى‌لسبس على هذا النبأ بقوله « وهذا يجعلنى آمل فى أنه سيكون لدينا عمال خلال هذا الشهر(١) ». وراود دى‌لسبس هذا الأمل مرة أخرى فى خطاب بعث به إلى باريس (٢) . ومعنى هذا أن دى‌لسبس لم تفارقه الرغبة فى الحصول على عمال السخرة فى شهر رمضان . ولكنه تمسح فيما بعد بمسوح الرهبان وتنصل عن تبعة تسخير المصريين فى ليالى ذلك الشهر الذى له فى قلوب المسلمين مكانة تعلو على سائر الشهور .

وكانت نتيجة طمع دى‌لسبس وجورسعيد أن ظفرت الشركة بعدد وافر من عمال السخرة بلغ ١٩٦٨٧ سيقوا إلى ساحات الحفر فى شهر رمضان ١٢٧٨ (مارس ١٨٦٢) (٣) ، آثر كثير منهم العمل فى حفر القناة أثناء الليل . وكانت الشركة قد اتخذت عدتها لهذا التجديد فى نظام العمل ، فابتاعت ألف مشعل من القاهرة استخدمتها فى إنارة ساحات الحفر حيث ظل العمال

---

(١) أنظر خطابا أرسله دى‌لسبس بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٦٢ لى مندوب المقاول العام

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 149-150.

(٢) أنظر خطابا أرسله دى‌لسبس بتاريخ ٢٥ يناير ١٨٦٢ إلى نائب رئيس مجلس إدارة الشركة فى باريس فى الجزء الرابع ص‌ص ١٠١ — ١٠٢ من المصدر السابق .

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 277.

يعملون على ضوء المشاعل طوال ليالى شهر رمضان (١) .

وقد ذكرت جريدة الشركة هذه المسألة بطريق خفى فقالت «كان يخشى أن تتعرض عمليات الحفر لبعض التأخير إن لم يكن التعطيل التام بسبب نقص عدد العمال خلال شهر رمضان . ولكن هذه المخاوف تبددت تماما اليوم ، فإن العمال الذين انتهت مدة عملهم فى البرزخ قد استبدل بهم عمال أكثر عدداً(٢)». كما تعرض دى‌لسبس لهذا الموضوع دون أن يشير إليه إشارة صريحة فى الخطاب الذى ألقاه فى إجتماع الجمعية العمومية للمسهمين فى أول مايو ١٨٦٢ إذ قال « وأخذت جموع العمال المحتشدة تعمل بدون انقطاع وبحمية لم يؤثر فيها صوم رمضان طوال شهر مارس (٣) » .

على أننا نذكر تقريرا للواقع أن الشركة كانت قد سبقت سعيدا فى الأخذ بنظام العمل الليلى أو السخرة الليلية قبل أن يأذن سعيد لها فى ذلك . فقد قرر السائح الفرنسى برشير أنه شاهد مائتين من عمال السخرة يشتغلون ليلا خلال شهر فبراير ١٨٦٢ فى حفر ترعة الماء العذب(٤) وأن المشاعل ويطلق عليها (ما شا الله) كانت تنير ساحات الحفر وتكشف عن جموع العمال الذين يرفعون الرمال ويضعونها فى القفف ، وأن المشايخ كانوا يصيحون بأعلى

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 169. voir aussi.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 276.

L'Isthme de Suez

(٢) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٣٩ الصادر فى أول أبريل ١٨٦٢ ص ٩٨ مجموعة السنة السابعة .

(٣) نشر خطاب دى‌لسبس فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤١ الصادر فى ٤ مايو ١٨٦٢ ص‌ص ١٣١ - ١٥٠ مجموعة السنة السابعة .

(٤) تم حفر ترعة الماء العذب من قرية القصاصين إلى نفيشه فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ وسرعان ما أدركت الشركة أن مجرى الترعة - وقد حفرت على عجل لإنقاذ أرواح الآف العمال - فى حاجة إلى تهذيب فى بعض أجزائها وتعميق فى البعض الآخر . فكان أن قامت فى الشهر التالى بتلك العمليات التكميلية .

أصواتهم يحثون العمال على المضى فى أعمالهم (١) .

والسخرة الليلية هى تجديد فى نظام العمل ودليل على الشركة يؤيد ما ردده المؤرخون والكتاب من أن الشركة كانت تعتصر كل ذرة من النشاط فى الفلاحين إلى حد أن الذين قدر لهم أن يعودوا إلى بلادهم ويعيشوا بعد تلك المحنة كانوا يظلون أسابيع عديدة عاجزين عن العمل (٢) . كما قرر أحد المؤرخين بحق أنه كثيرا ما أسىء استخدام نظام السخرة فى مصر حتى غدا سوء استخدامها أمرا عاديا فى هذه البلاد ، ولكن لم يحدث مطلقا أن أسىء تطبيقها كما حدث فى حفر قناة السويس (٣) .

ونحن بهذا القول لا ندافع عن سعيد . وإذا كانت الشركة قد أساءت استخدام السخرة بحمل الفلاحين على العمل ليلا فقد كان من واجب سعيد ألا يقر هذا الوضع الشائن لأنه سمح لها بالمضى فيه طوال شهر رمضان . ولم يقنع دى‌لسبس بذلك بل لجأ إلى هذه السخرة الليلية أكثر من مرة خلال شهور معدودة تلت شهر مارس ١٨٦٢ (رمضان ١٢٧٨) فكانت الشركة تحمل العمال على العمل فى الليل كلما رأت أن عمليات الحفر لا تمضى بالسرعة التى تشتهيها .

+ + +

أما اقتراح دى‌لسبس الذى أرسله إلى سعيد فى خطاب ١٠ فبراير ١٨٦٢ خاصا بتخفيض عدد جنود الجيش وإرسال الجنود المسرحين والمقترعين لحفر القناة فكان قد أفضى به دى لسبس إلى بوفال Beauvol قنصل فرنسا فى مصر فى ٩ فبراير ١٨٦٢ والتمس تأييد القنصلية الفرنسية كى تظفر الشركة بثلاثين ألف عامل كل شهر ثم قال « وإذا لم نحصل على هذا العدد فسيكون

---

(1) Berchère, ouvr. cit., pp. 184-185.

(2) Crabites: Ismaïl etc., ouvr. cit., p. 48.

(3) Dicey, ouvr. cit., p. 35.

ذلك خسارة كبيرة لنا . وإنى أرجو أن أجد منكم مساعدة فى هذا الصدد(١)».

ولا يوجد فى محفوظات قصر عابدين أثر لصورة الرد الذى بعث به سعيد على اقتراح دىلسبس . كما أن « الأوامر الكريمة » التى صدرت من « الجناب العالى » إلى ديوان الجهادية لم ترد فيها إشارة إلى هذا الموضوع . ويلوح أن سعيد باشا اتبع فى هذه المسألة بالذات مألوف عادته من تجنب إصدار أوامر مكتوبة إلى رجال الحكومة إذ كان يكتفى باستدعائهم وإصدار الأوامر التى يرومها دون أن يسجل على نفسه قرارا فى مسألة تتصل بالسياسة العليا فى ولايته (٢) .

ومن الأمور الجديرة بالإعتبار موقف دىلسبس وجريدة الشركة من هذا الموضوع الهام طيلة البقية الباقية من حكم سعيد باشا ثم موقف كل منهما من هذه المسألة بالذات بعد أن جاز ذلك الوالى إلى ربه فى ١٨ من يناير١٨٦٣. أما دىلسبس فقد التزم الصمت المطبق حيال هذا الموضوع ، فلم يتعرض له فى محاضراته التى ألقاها بكثرة ملحوظة فى أندية باريس فى عام ١٨٦٢ ، كما أنه لم يشر إليه فى خطابه الذي ألقاه فى اجتماع الجمعية العامة لمسهمى الشركة فى أول مايو١٨٦٢ ، وهوأول اجتماع لهم بعد اقتراح تخفيض عدد جنود الجيش المصرى ، ولكنه حام حول الموضوع دون أن يشيرإليه صراحة ، فبعد أن سرد الإصلاحات التى أدخلها سعيد باشا على نظام الجيش ذكر أن سعيدا قد أنقص عدد جنود الجيش ، ولكنه أرجع ذلك التخفيض إلى الرغبة فى التخفيف عن كاهل الميزانية المصرية التى كانت تعانى وقتئذ ضائقة مالية (٣)

---

(1) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t IV, pp. 164-165.

(٢) تمثلت هذه السياسة الملتوية إبان أزمة يونيو ١٨٥٩ وقد شرحناها مؤيدة بالوثائق .

(٣) نشر هذا الخطاب فى جريدة الشركة L'Isthme de Suez العدد ١٤١ الصادر فى ٤ مايو ١٨٦٢ ص ص ١٣١ - ١٥٠ مجموعة السنة السابعة .

على أن ما ذكره دىلسبس فى تلك الخطبة يطابق الشق الأول من اقتراحه فى خطاب ١٠ فبراير ١٨٦٢ وهو إنقاص عدد الجنود وتخفيض اعتمادات الجيش . بقى الشق الثانى الخاص بإرسال الجند المسرحين والمقترعين إلى البرزخ للإشتراك فى عمليات حفر القناة ، وهذا ما لم يجرؤ دىلسبس فى ذلك الوقت على إعلانه خشية تزويد خصوم الوالى بسلاح يشهرونه ضده من أنه يؤثر مصلحة الشركة على مصالح البلاد .

وظل دىلسبس على صمته لايصرح فى خطبه ومحاضراته بشىء عن هذا الموضوع حتى إذا اتخذ سعيد القبر مسكنا ثم قام النزاع فى مستهل حكم اسماعيل بين الحكومة المصرية والشركة حول تسخير المصريين فى حفر القناة وبعض مشكلات أخرى، نجد أن دىلسبس يعلن هذا النبأ فى الخطاب الذى ألقاه فى الإجتماع غير العادى لحملة الأسهم بتاريخ أول مارس ١٨٦٤ فيقول « وقد اختص سعيد باشا أعمال الحفر فى قناة السويس بوافر عنايته ، فأنقص عدد جنود الجيش المصرى إلى ثمانية الآف بعد أن كان عددهم يربو على الستين ألفا . وكان سعيد يجمع العمال اللازمين للحفر من أولئك الشبان الذين قيدت أسماؤهم فى الخدمة العسكرية وكان يمكن فى أية لحظة دعوتهم للإنخراط فى سلك الجيش المصرى (١) » .

وفى محاضرة عامة ألقاها دىلسبس فى صبيحة ذلك الاجتماع — أى فى ٢ مارس ١٨٦٤ تناول موضوع إنقاص عدد جنود الجيش على عهد سعيد، فذكر أن عدد جنود الجيش بلغ فى أوائل حكمه أربعين ألفا ثم هبط إلى ثلاثين ألفا ثم أخيرا إلى عشرة الآف فقط حتى يستطيع أن يبعث إلى البرزخ عشرين ألف رجل دون أن يؤثر ذلك على حالة الزراعة فى البلاد . وامتدح دى لسبس هذه الخطة لأن سعيد باشا كان يجمع الرجال « لتنفيذ مشروعات

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٨٥ الصادر فى ٤ مارس ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة .

السلم بينما تجمع دول أخرى الرجال من أجل أغراض الحرب والتخريب والتقتيل (١) » .

وفى ذلك العام — ١٨٦٤ — أعيد طبع كتاب « مصر المعاصرة » الذى وضعه سكرتير عام شركة القناة وقتئذ (٢) وأضاف دىلسبس إلى ذلك الكتاب فصلا بقلمه وتعرض فيه لهذا الموضوع. فذكرأن سعيد باشا أنقص عدد القوات المسلحة حتى يستطيع إرسال عشرين ألف رجل إلى عمليات حفر القناة دون أن تصاب الزراعة فى مصر بأضرار . ثم نسب دىلسبس الفضل إلى الشركة لأنها استخدمت رجالا كانت الحكومة تدعوهم لحمل السلاح فإذا عملهم فى شركة القناة هو بداية إنقاذهم وخلاصهم وعتقهم . ومضى دىلسبس فى مغالطاته فقال إن الذين يتهمون الشركة بأنها تبغى فى حفر القناة العمل الإجبارى ونظام الرق إنما يكشفون عن الجهالة والظلم(٣)

أما جريدة الشركة والمفروض أنها لاتغادر صغيرة ولا كبيرة تتصل بنشاط ونجاح عمليات تنفيذ المشروع إلا رصدتها وسجلتها فقد تعمدت إغفال الحديث المباشر فى هذا الموضوع .فلم تتناوله أعداد تلك الجريدة إبان حكم سعيد باشا إلا لماما وفى سياق موضوعات لاتمت له بصلة مباشرة . وإنما جاء

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٨٨ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٤ ص ص ٢١٤ — ٢١٥ مجموعة السنة التاسعة .

(2) Merruau Paul: L'Egypte Contemporaine de Méhémet Ali à Saïd Pacha. Nouvelle édition augmentée d'une étude sur l'Isthme de Suez par Ferd. de Lesseps. Paris. Librairie Académique 1864.

(٣) المصدر السابق ص ص ٣٤٨ — ٣٤٩ . هذا وقد تعرض سكرتير عام الشركة لهذا الموضوع فى مقال نشره فى مجلة

Revue des Deux Mondes, t. XVI 1876.

تحت عنوان :

Merruau Paul: L'Egypte sous le gouvernement d'Ismaïl Pacha. Paris 1876, pp. 904-930.

وذكر فيه صراحة أن سعيدا خفض عدد جنود الجيش وأنه أرسل الجنود المسرحين إلى ساحات الحفر . أنظر ص ٩٠٨ .

ذكر هذا الموضوع عرضا في ثلاثة مواضع ، أولها إشارة عابرة فى تقرير وضعه سكرتير اتحاد توريد القطن فى مانشستر الذى زار مصر لإغراء سعيد باشا على زيادة المساحات المزروعة قطنا ووعد بأن تشترى انجلترا جميع الأقطان التى تنتجها مصر بأثمان مجزية كما سنوضح ذلك فى الفصل الرابع عشر. وقد قرر سكرتير الإتحاد صراحة فى تقريره أن عمليات الحفر فى قناة السويس قد استنفدت نشاط الفلاحين ، وأن الوالى سرح عددا كبيرا من جنود الجيش المصرى للإشتراك فى حفر القناة .

وقد أشارت جريدة الشركة بعد ذلك بسبعة أشهر إلى هذا الموضوع حين أعادت نشر مقال ظهر فى جريدة فرنسية إقليمية تسمى Journal des Villes et des Campagnes فى عددى ١٩ و ٢١ فبراير سنة ١٨٦٢ . وقد كتب هذا المقال روجيه Fr. Roger من رجال الدين الذين ينتمون لطائفة الفرنشيسكان ، وكان دىلسبس قد اصطحبه إلى مصر للإحتفال بافتتاح كنيستين شيدتهما الشركة لمستخدميها وعمالها الأجانب ، الأولى فى عتبة الجسر وقد احتفل بتدشينها فى أول يناير ١٨٦٢ ، والثانية فى بورسعيد وقد احتفل بتدشينها فى ٥ يناير ١٨٦٢ . وقد أشار رجل الدين إلى هذا الموضوع فى شيء كثير من الإيجاز حتى أن إشارته لتمر على القارىء العادى دون أن يتبينها من بين ثنايا مقاله الضافى . وقد قال « لقد وعد الوالى أن يجمع خمسين ألف رجل ليعملوا فى حفر القناة بدلا من أن يخدموا فى جيشه (١) » .

وحين فرغت الشركة من شق ترعة الماء العذب من قرية القصاصين فى مديرية الشرقية إلى نفيشة قرب بحيرة التمساح رفع بوجوا Bougouin الطبيب الذى أشرف على الحالة الصحية بين العمال المصريين الذين سخروا فى

---

(١) نشرت جريدة الشركة هذا المقال على مرحلتين وأنظر L'Isthme de Suez العدد ١٣٧ الصادر فى أول مارس ١٨٦٢ ص ص ٧٦-٨٠ مجموعة السنة السابعة والعدد ١٣٨ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٦٢ ص ص ٩٣ - ٩٦ مجموعة السنة السابعة

حفرها تقريرا مسهبا يقع فى أربعة فصول إلى كبير أطباء الشركة وقد تعرض فيه لموضوع إنقاص عدد جنود الجيش المصرى من أجل حفر القناة وأطرى الخطوة التى اتخذها سعيد باشا فقال « إن الحكومات الأوروبية تنفق الأموال الطائلة لإنشاء جيوش لاعداد لها . وفى هذه الجيوش يفنى الأوربى زهرة شبابه من أجل سلامة بلاده ، وكثيرا ما تكون هذه الإعتمادات المالية التى تنفق على الجيوش بسخاء ذات أثر قليل للغاية فلا تفيد الثروة العامة فى شيء.

« أما موقف الحكومة المصرية فيختلف كل الإختلاف : ألم تضرب الحكومة المصرية للعالم أجمع المثل الحسن والقدوة المثلى فى الفهم والذكاء والإدراك حين استبقت عددا قليلا من الجند فى جيشها وأمدت شركة القناة بجيش عظيم من العمال الذين تحسنت أحوالهم بسبب الأجور التى تصرف لهم فغدوا بذلك من المهذبين البناءين فى الحضارة والتقدم ؟

«فلنذكر أن حضرة صاحب السمو سعيد باشا الذى يرعى المشروع بمساعدته القوية الفعالة لا يعرض صحة رعاياه لأقل خطر ، بل هو على النقيض من ذلك يعمل على إسعاد شعبه ويعمل على ايجاد مصدر عظيم للرخاء والثروة فى مصر . وهو بعمله على وصل البحرين قد خلد ذكره فى سجل الخلود وترك أثرا لايمحى أمام الأجيال القادمة (١) » .

وقد ظهر كتاب لأحد الفرنسيين سنة ١٨٦٩ عند افتتاح قناة السويس وأشار فيه إلى أن سعيدا قد أنقص عدد جنود الجيش المصرى إلى عشرة الآف جندى من أجل عمليات الحفر فى قناة السويس (٢) .

وقد أيد هـــذا الموضوع كذلك جورج دوان Douin مدير إدارة

---

(١) نشر هذا التقرير فى جريدة الشركة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٢ ص ص ١٢٣ – ١٢٨ مجموعة السنة السابعة

(2) Silvestre Henri : L'Isthme de Suez. (1854-1869) avec une carte et pièces justificatives. Paris 1869, p. 130.

الترانسيت فى شركة القناة سابقا وهو أحد الثقاة الذين توفروا على دراسة تاريخ قناة السويس ومصر الحديثة ووضع فيه ما يقرب من ثلاثة عشر مرجعا وجمع لقصر عابدين فى القاهرة من دور المحفوظات الرسمية فى أوربا صوراً لكثير من المكاتبات الخاصة بتاريخ القناة وتاريخ مصر. وقد ذكر أن سعيد باشا ذهب فى تشجيعه لعمليات حفر قناة السويس إلى حد أنه « أنقص عدد جنود جيشه كى يستطيع إرسال عشرين ألف عامل كل شهر دون إضرار بشئون الزراعة(١) » .

وإذا استثنينا هذين المؤلفين نجد أن كافة الكتاب والمؤرخين الذين بحثوا موضوع القناة سواء منهم من عاصر تنفيذ المشروع مثل Marius, Ritt, Charles Roux. J, Voisin Bey أو من جاء بعد تلك الحقبة مثل Crabites, Sammarco, Hallberg Siegfried وغيرهم قد أغفلوا هذا الموضوع إغفالا تاما ، كما أغفله المؤرخون والكتاب المصريون عدا الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فقد أشار إليه إشارة موجزة اعتمد فيها على ما ذكره دىلسبس فى وثائقه، ثم قال تعقيبا عليه « ومن هنا يتبين لك أن القناة، علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيجىء بيانه ، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصرى (٢) » .

+ + +

على أن الجيش المصرى قد عانى الكثير على عهد سعيد باشا بسبب أهوائه المتغيرة ، فكان تارة ينهض به ويزيد من عدد أفـــراده ويبتاع له العتاد من فرنسا وألمانيا ، وتارة يهبط هــذا الحماس فيسرح معظم جنوده . وفى أول حكمه ، حيث كانت حرب القرم لا يزال مستعر أوارها ، كان عدد الجيش ٤٥,٧٤٢ جنديا (٣) ، ولما وضعت الحرب أوزارها سنة ١٨٥٦

---

(1) Douin George : ouvr. cit., t. I, p. 24.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جزءان . مطبعة النهضة سنة ١٩٣٢ . الجزء الأول ص ٣٣ .

(٣) الأميرالاى اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . المطبعة الأميرية . القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٣١٤ هـ . الجزء الثانى ص ٢٧٤

سرح معظم الجيش وهبط عدده إلى اثنى عشر ألف رجل على الرغم من أن الباب العالى أذن له فى رفع عدد الجيش إلى ثلاثين ألفا (١) . ولما سافر سعيد إلى السودان فى أواخر عام ١٨٥٦ اصطحب معه كتيبتين من الجيش ، وعسكرت الكتائب الأخرى فى القاهرة والإسكندرية وبنى سويف ، ثم جمع ضباط الجيش وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية فى القناطر الخيرية خشية أن يقوم الجيش بثورة فى البلاد منتهزا فرصة غياب الوالى فى رحلته فى السودان (٣) .

وفى سنة ١٨٦٠ حين ساءت العلاقات بين الباب العالى وبين سعيد باشا بسبب موضوع قناة السويس رأى سعيد أن يأخذ للأمر عدته ، فزاد من عدد أفراده وأرجع إليه ضباطه ، وكان معظمهم إذ ذاك خارج الخدمة وبعضهم فى مصالح الحكومة ، وقفز عدد الجند إلى ٦٤ ألفا ، وكان عدد كتائب المشاة خمسا وأربعين ، وشمل الجيش ، عدا ذلك ، عشرين فرقة من المدفعية وفرقتين من مدفعية السواحل وست فرق من الفرسان بالإضافة إلى فرق الأسلحة الأخرى (٤) .وقاد سعيد هذا الجيش بنفسه وعسكر به فى مريوط حيث أقام ثلاثة شهور قام خلالها الجيش بمناورات حربية .

ولما خفت حدة التوتر بين الباب العالى وبين سعيد سرح الأخير معظم أفراد ذلك الجيش مرة أخرى فانكمشت القوة الحربية المصرية ، وظلت على هذه الحال طوال مدة حكمه (٥) .

ويهمنا فى هذا البحث تسريح معظم جنود الجيش فى هذه المرة ، لأنه حين خفض سعيد عدد جنود الجيش للمرة الأولى سنة ١٨٥٦ لم تكن عمليات

---

(1) Hanotaux, ouvr. cit., t. VI, p. 261.

(٢) الأميرالاى اسماعيل سرهنك: الجزء الثانى ص ٢٧٥

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) أنظر بيانات عن حالة الجيش المصرى على عهد سعيد باشا فى الجزء الثالث ، المجلد الأول ص ص ٨٦ - ٣٥٠ من تقويم النيل لأمين سامى باشا .

حفر القناة قد بدىء بها بعد . أما فى المرة الثانية فقد اقترن تسريح الجند بتدفق آدمى انساب نحو ساحات الحفر نتيجة تسخير المصريين فى حفر القناة .

كان دىلسبس ملما بدقائق الحالة الداخلية فى مصر ، وكان يدرك تماما الأزمة المالية التى يمر بها الوالى وقتئذ (١) ، ويعلم أن اعتمادات الجيش تستنزف جزءا لايستهان به من ميزانية الحكومة . فإذا أضفنا إلى هذه الحقائق مجموعة الصفات التى تجمعت فى شخص دىلسبس من سعة الحيلة ووفرة الخبث والدهاء استطعنا أن نقرر فى غير عناء أنه استغل هذه وتلك فى التأثير على سعيد ، فتقدم إليه باقتراح تخفيض عـــــدد جنود الجيش وإرســـال الجنود المسرحين والمقترعين إلى ساحات الحفر بحجة أن فى ذلك تخفيفا كبيرا عن كاهل الميزانية المصرية المتصدعة . واستجاب سعيد — كشأنه غالبا مع دىلسبس — لهذا الإقتراح بشقيه : التخفيض والتسخير .

ومن اليسير تفسير مسلك سعيد وإن كان من العسير تبريره .

فسعيد باشا كانت تجيش فى صدره رغبة قوية لتحقيق مشروع القناة على يديه ، وقد نجح دىلسبس وأعوانه فى استجاشة تلك الرغبة حتى غدا الوالى عميق الإيمان بأن خلود ذكراه فى التاريخ يتوقف على إنجاز المشروع على عهده . وقد أحس وطأة المرض تشتد عليه ، وقــرر السفر إلى أوربا عام ١٨٦٢ للإستشفاء ، ورأى أن إنقاص عدد جنود الجيش وإرسال الجنود المسرحين والمقترعين للعمل فى حفــر القناة مما يتيح له تحقيق أمنيته .. نضيف إلى هذه الرغبة رغبة أخرى هى محاولة سعيد علاج الأزمة المالية الحكومية .

ووجه المؤاخذة هو أن العلاج السلبى للأزمات المالية بتخفيض الإعتمادات أو بإلغائها لا يعتبر علاجا أصيلا يقضى على الأزمة فى مكمنها ، إنما يكون

---

(١) يوجد مقال علمى عن مركز مصر المالى فى أواخر عهد سعيد بقلم Paul Merruau وقـــد نشره تحت عنوان Finances Egyptiennes فى جـــريدة L'Isthme de Suez العدد ١٣٦ الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٦٢ ص ص ٥١ — ٥٢ مجموعة السنة السابعة .

العلاج إيجابيا بتنمية الموارد القائمة وإيجاد موارد جديدة. وكان علاج الأزمة فى سنة ١٨٦٢ يتطلب التوسع فى زراعة القطن لمواجهة « المجاعة القطنية » فى انجلترا وفرنسا وغيرهما ، وفى وقت ارتفعت أسعاره ارتفاعا جنونيا ، وفى وقت اشتد الطلب عليه، وفى وقت كانت فى مصر أراض زراعية بقيت غير ذى زرع بسبب قلة الأيدى العاملة المصرية باعتراف سعيد باشا نفسه (١) . ولم تستفد من تلك السياسة سوى شركة القناة التى ظلت تظفر بعشرين ألف مصرى كل شهر ، وأصيبت المصالح الزراعية فى مصر بأضرار بليغة، وحرمت البلاد من الحياة العسكرية تنتظم أكبر عدد ممكن من الشبان الصالحين لها .

وليس من شأن هذا البحث أن نخوض فى أسباب الأزمة المالية التى تعرضت لها فى ذلك الوقت الحكومة المصرية التى استغلها دىلسبس استغلالا تعددت صوره لخدمة شركة القناة ، ولكن يعنينا أن نقرر أن مشروع قناة السويس كان من أهم أسباب تلك الأزمة. فقد قامت الحكومة المصرية بتمويل الأعمال التمهيدية والأبحاث الخاصة بتنفيذ المشروع طيلة أربع سنوات منذ أن صدر عقد الإمتياز الأول فى ٣٠ من نوفمبر ١٨٥٤ إلى أن تأسست الشركة فى ١٥ من ديسمبر ١٨٥٨ . وقد بلغت تكاليف تلك الأبحاث كما جاء فى حسابات الشركة ، أكثر من مليونين ونصف مليون من الفرنكات (١٢ س ٢,٥١٦,١٤٧ ف) (٢) . كما قامت الحكومة بدفع نفقات الدعاية للمشروع فى دول أوربا استجابة لطلبات دىلسبس ، وفى إصدار جريدة الشركة L'Isthme de Suez وكانت تصدر نصف شهرية ، وظهر

---

(١) شرحنا هذه المسائل فى الفصل الرابع عشر من هذا البحث .

(٢) نصت المادة الخامسة من قانون الشركة الأساسى على أن تقوم الشركة حين يتم تأسيسها برد جميع المصروفات التى قام بدفعها الوالى أثناء القيام بالأعمال التمهيدية . ولما تأسست الشركة اكتتبت الحكومة المصرية بأسهم بلغت قيمتها ٨٨,٨٢١,٠٠٠ فرنك وقد خصمت الشركة من ذلك الثمن مبلغ ٢,٥١٦,١٥٧ فرنكا . وهكذا لم تدخل فى خزانة الحكومة أموالا سائلة بل دخلت إليها أموالا منقولة.

العدد الأول منها فى ٢٥ يونيو ١٨٥٦ ، وفى استضافة أعضاء اللجنة العلمية الدولية فى مصر ومن صحبهم من أصدقاء دىلسبس ومعارفه .، وغير ذلك كثير. وعلى الرغم من أن أسعار القطن المصرى قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا فى أواخر حكم سعيد إلا أن الأضرار الإقتصادية والإجتماعية التى نجمت عن تسخير الفلاحين فى حفر القناة قد حجبت عن البلاد نعمة غلاء أثمان القطن، وبات المجتمع المصرى يتطلع إلى الفكاك من تلك التعبئة التى فرضها سعيد على أفراد الشعب المصرى بسبب السخرة فى حفر القناة .

× × ×

كان تخفيض الجيش فرصة مواتية لشركة القناة إذ أتيح لها أن تحصل على جيش جرار من العمال ، فبلغ عددهم فى شهر أبريل ١٨٦٢ — وهو الشهر الذى جاء فى أعقاب رمضان وعيد الفطر — ٢٢,٤٨٢ (١) . وقالت جريدة الشركة إنه ليس لديها سوى المديح والثناء يزجيان إلى الفلاحين لحميتهم فى العمل (٢) » . ولما اجتمعت الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى أول مايو ١٨٦٢ أعلن دىلسبس فى خطابه الذى ألقاه يومئذ أن عدد العمال المصريين الذين فى خدمة الشركة ٢٦ ألف رجل (٣) . ولكن يبدو أن ذكر هذا الرقم كان من قبيل الدعاية أمام جمهور المسهمين والرأى العام الأوربى. فعدد العمال لم يبلغ ٢٦ ألفا أو ٢٥ ألفا أو ٢٤ ألفا . على أننا نلمس تناقضا واضحا فى أقوال دىلسبس بخصوص عدد عمال السخرة ، فبينما هو يذكر فى أول مايو ١٨٦٢ أن عددهم ٢٦ ألفا نجد أنه فى أول يونيو ١٨٦٢ فى محاضرة

---

(١) تقرير الطبيب روش Roche كبير أطباء الشركة بتاريخ ١٠ أبريل ١٨٦٢ . وقد نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص ص ١٩١ — ١٩٢ مجموعة السنة السابعة .

(٢) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٢ ص ١١٤ مجموعة السنة السابعة .

(3) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 187-214.

عامة ألقاها فى باريس يخفض عددهم إلى ٢٥ ألفا (١) . وقد ذكرت الشركة صراحة فى مذكرة رسمية رفعتها فى ٨ مايو ١٨٦٢ إلى وزاره الخارجية الفرنسية أن عدد العمال هو ٢٠ ألفا فقط (٢) . كما أن فوازان مدير عام الأشغال فى الشركة قدم تقريرا جاء فيه أن عدد العمال الذين سيقوا إلى ساحات الحفر إبان حكم سعيد كان ٢٠ ألفا كل شهر وفى بعض الشهور كان يرتفع ذلك العدد إلى ٢١ ألفا وأحيانا إلى ٢٢ ألفا (٣) . يضاف إلى ذلك أن الحكومة التركية كانت قد استفسرت من اسماعيل فى ٦ فبراير ١٨٦٣ — بعد توليه الحكم بتسعة عشر يوما — عن عدد عمال السخرة فى حفر القناة فأجاب بأن عددهم عشرون ألفا (٤) . فكل هذه الأدلة وغيرها كثير تثبت بجلاء أن عدد عمال السخرة لم يصل إلى ٢٥ ألفا أو ٢٤ ألفا ، بل كان عددهم فى معظم الأوقات عشرين ألفا ، وكان هذا العدد يرتفع فى بعض الأحيان إلى ٢٢ ألفا .

غير أن دى لسبس لم يكن ليقنع بهذه الجيوش الجرارة من عمال السخرة فكان دائما يطلب مزيدا . وفى الخطاب الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى أول مايو ١٨٦٢ ، أعرب عن أمله فى أن يصل عددهم إلى ٣٥ ألفا أو ٤٠ ألفا . كما أن مدير جريدة الشركة أعلن عن عزم رجال الشركة على رفع عدد عمال السخرة إلى ثلاثة أضعافهم . وذهب فى تبرير

---

(1) De Lesseps F.: Association Polytechnique. Conférence sur les travaux du Canal de Suez et le sort des ouvriers en Egypte. Séance du 1 juin 1862. Paris 1862, p. 18.

(2) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 215-222.

(٣) الجزء الرابع ص ص ٢٤٤ - ٢٤٨ من المصدر السابق .

(٤) أنظر كلا من

Douin, ouvr. cit., t. I, p. 32.

ومحفوظات قصر عابدين : سجل رقم ١٩ صادر عابدين . وثيقة رقم ٣٠٣ من الجناب العالى إلى الباب العالى فى ١٥ رمضان ١٢٧٩ هـ (٦ مارس ١٨٦٣) .

هذه الزيادة إلى أن موسم الحصاد قد انتهى فى مصر الأمر الذى يجعل زيادة عدد العمال من السهولة بمكان (١) .

ولم يكد يمر أسبوعان على نشر هذا الخبر حتى كان فوازان مدير عام الأشغال فى الشركة قد أرسل فى أول أغسطس ١٨٦٢ مذكرة إلى رئيسها ضمنها برنامج الأعمال التى يقترح تنفيذها حتى موعد الإجتماع التالى لحملة الأسهم فى منتصف عام ١٨٦٣ . وقدر فوازان عدد العمال الذين يتطلبهم تنفيذ ذلك البرنامج بأربعين ألفا اقترح توزيعهم على مختلف الأعمال على النحو الآتى :(٢) .

٢٥,٠٠٠	عامل	لحفر القناة البحرية الصغيرة
١٤,٠٠٠	«	ترعة الماء العذب من التمساح إلى السويس
١,٠٠٠	«	قنوات صغيرة تجلب الماء العذب إلى أماكن حشد العمال
٤٠,٠٠٠		

وعرض دى‌لسبس هذه المذكرة على مجلس إدارة الشركة فى جلسة عقدها خصيصا لدراستها فى ٢٥ أغسطس ١٨٦٢ فأقرها وعهد إلى دى‌لسبس بأن يلتمس من سعيد باشا إرسال ٤٠ ألف عامل بطريقة مستمرة منتظمة اعتبارا من أول نوفمبر ١٨٦٢ . وأسرع دى‌لسبس لمقابلة سعيد ، وكان وقتئذ فى باريس فى ضيافة الحكومة الفرنسية ، وعرض عليه الموضوع . ويذكر فوزان أن سعيدا وافق على هذا الطلب (٣) .

ولاشك أن مطالبة الشركة بأربعين ألف مصرى كل شهر لتسخيرهم فى حفر القناة كان تجاهلا مطلقا لمصالح الشعب المصرى ونقضا صريحا

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص ٢١٨ مجموعة السنة السابعة

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 271-272.

(3) ibid.

للائحة العمال وإخلالا صارخا لما تعهد به دىلسبس من قبل باستخدام الآت ضخمة فى حفر القناة تجعل حاجة الشركة إلى العمال المصريين لا تتجاوز أربعة الآف أو خمسة الآف عامل مصرى على الأكثر (١) . ولكن دىلسبس استضعف سعيد باشا واستغل ميوله الطيبة نحو المشروع وأسرف فى الإعتماد على نظام السخرة .

وإذا كان سعيد قد قبل طلب دىلسبس بزيادة عدد عمال السخرة إلى ٤٠ ألفا فإن هذا القبول لم يوضع قط موضع التنفيذ . ولكن سعيد باشا تظاهر بالموافقة حتى لا يكون هدفا لضغط سياسى تقوم به بعض دوائر البلاط الإمبراطورى أو وزارة الخارجية الفرنسية وهو فى باريس .

+ + +

وكانت الشركة فى ذلك الوقت تركز جهودها لحفر مجرى للقناة البحرية الصغيرة يخترق هضبة عتبة الجسر شمالى بحيرة التمساح . وقد سبق أن ذكرنا أن تلك المرتفعات كانت أكبر عقبة طبيعية تعترض سير القناة . ولهذا وجهت جموع عمال السخرة منذ فبراير ١٨٦٢ إلى تلك المنطقة ، ورأت ، لتنظيم العمل فى شق القناة وسط الهضبة ، إقامة ست ساحات حفر هناك كما يتضح من الجدول الآتى (٢) :

(1) Sammarco : Histoire de etc., ouvr. cit., t. III, p. 53.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 204.

رقم الساحة	طول امتداد الساحة بالأمتار	ارتفاع الأرض فوق مستوى البحر	
		متوسط الارتفاع	أعلى ارتفاع
الساحة رقم ١ (الفردان)	٤,٠٠٠	٢,٨٠	٧,٣٠
« « ٢	٣,٢٠٠	٢,٨٠	٦,٢٠
« « ٣	١,٦٠٠	٩,٠٠	١٠,٨٠
« « ٤	١,٢٠٠	٩,٠٠	١٠,٢٠
« « ٥ (الجسر)	١,٧٠٠	١٥,٨٠	١٨,٥٠
« « ٦	٢,٥٠٠	٩,٠٠	١٤,٦٠
الامتداد الكلي للمرتفعات	١٤,٢٠٠		

وأخذت ساحات الحفر الست منظرا لم تشهد له تلك المنطقة من قبل مثيلا ، إذ احتشدت فيها الآف مؤلفة من عمال السخرة يعملون بجد ونشاط فى شق قناة تخترق تلك المرتفعات . وقد زار تلك المنطقة أحد كبار المسهمين فى الشركة وكان يـدير كثير ا من الدور البحرية والصناعيـــة فى دنكرك Dunkerque بفرنسا زيارة استغرقت ثمانية عشر يوما ، و وصف مشاهداته خلال هذه الرحلة فى مقال ضاف نشرته جريدة الشركة وجاء فيه « إن الزائر لمنطقة عتبة الجسر لا يخيل إليه أنه فى الصحراء الهادئه الوديعة الصامتة بفضل كثرة عدد العمال المصريين الذين لا ينقطع سيل قدومهم وعملهم فى هذه الجهات (١) » . كما وصف أحد العائدين إلى أوربا وقتئذ من البرزخ إبان حفر عتبة الجسر منظر الفلاحين المصريين وهم يعملون فى الحفر وصفا شائقا قال فيه « إنه لمنظر عجيب أن يرى الإنسان هذه الجموع من العمال أشبه ما تكون بأسراب من النمل متجمعة فى ذلك المكان ، وهى تعمل وتتحرك وتتلاقى باستمرار فى صفين أحدهما يصعد نحو المرتفعات والآخر يهبط منها

(١) L'Isthme de Suez العـــدد ١٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ ص ص ١٨٠ — ١٨٦٢ مجموعة السنة السابعة .

ولم يسبق أن تشبيها أصاب موضعه وأحاط بالحقيقة مثل هذا التشبيه سواء من ناحية العدد أو من ناحية النشاط أو من ناحية النظام فى العمل (١) » . ولم تؤثر موجة الحرارة الشديدة التى حلت بالبرزخ فى شهرى يونيو ويوليو ١٨٦٢ على نشاط العمال المصريين ، فظلوا يؤدون أعمالهم كما قالت جريدة الشركة « بنفس البشاشة ونفس النشاط اللذين امتازوا وعرفوا بهما (٢) » .

وعلى الرغم من غياب سعيد باشا خارج القطر فى رحلته التى قام بها فى أوربا واستغرقت قرابة خمسة أشهر (مايو — سبتمبر ١٨٦٢) فقد استمر تسخير المصريين فى حفر القناة فى نطاق واسع . وكان سعيد قد أقام اسماعيل إبن أخيه نائباً عنه فى حكم مصر أثناء غيابه ، فسار على سياسة عمه فى موضوع السخرة فى حفر القناة ، ولعله كان ينفذ التعليمات التى زوده بها قبل سفره إلى أوربا . وكانت جريدة الشركة إبان هذه الفترة دائمة التحدث عن السيل المتدفق من عمال السخرة على منطقة القناة. وقد ذكرت تلك الجريدة فى عدد ١٥ يوليو ١٨٦٢ أن ساحات الحفر يحتلها على الدوام جيش حقيق من الفلاحين (٣) » . ويقول قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر ، فى تقرير أرسله فى ١٢ نوفمبر ١٨٦٢ إلى وزير الخارجية الأمريكية ، إن

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٥٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ص ٣٦٨ — ٣٧١ مجموعة السنة السابعة . وتجد أيضا وصفا ممتعا لعمال السخرة وهم يحفرون عتبة الجسر فى

Berchére, ouvr. cit., p.p. 196-198

أنظر رسما تفصيليا لمرتفعات عتبة الجسر وطريقه تمهيدها فى جريدة الشركة العدد ١١٤ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٦١ ص ٨٢ مجموعة السنة السادسة .

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٤٧ الصادرة فى أول أغسطس ١٨٦٢ ص ٢٣٤ مجموعة السنة السابعة

(3) Les chantiers du seuil sont toujours occupés par une veritable armée du fellahs.

L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ ص ٢١٧ مجموعة السنة السابعة

عمليات حفر القناة قد غدت من المشاهد الضرورية التى يحرص على رؤيتها السياح الذين يزورون مصر (١) .

وقد زادت الشركة من مساحة القرية المصرية التى كانت قد شيدتها فى الساحة رقم ٥ فى منطقة عتبة الجسر لمواجهة الزيادة الهائلة فى عدد عمال السخرة (٢) .

وعاد سعيد إلى مصر من رحلته فى أول أكتوبر ١٨٦٢ ، ووصل دى لسبس فى أعقابه فبلغ الإسكندرية فى ١٧ أكتوبر ، وقام على الأثر بزيارة ساحات الحفر (٣) . وكان دى‌لسبس تواقا إلى أن ينتهى ، فى أمد وجيز ، العمل فى حفر القناة البحرية الصغيرة وسط مرتفعات عتبة الجسر تمهيدا لإيصال ماء البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح ، وبذلك يعلن لحملة أسهم الشركة نتيجة حاسمة بعض الشىء يرتاحون إليها بعد أن استبد بهم القلق،(٤) ويقحم المعارضة الإنجليزية القائلة باستحالة حفر القناة . فأصدر أمره بأن

---

(١) محفوظات قصر عابدين : صور الوثائق الأمريكية

Despatch No. 24 William S. Thayer to William Seward vol. III p. 139.

(٢) L'Isthme de Suez. العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص ١٩٢ مجموعة السنة السابعة .

(٣) L'Isthme de Suez. العدد ١٥٣ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٢٩ مجموعة السنة السابعة .

(٤) كانت الشركة قد أسرفت فى تفاؤلها فأعلنت أنها ستفرغ من حفر القناة البحرية الصغيرة وسط مرتفعات عتبة الجسر فى أول يونيو ١٨٦٢ فلما حل هذا الموعد ولم تنته من حفرها حددت أول أكتوبر موعدا ثانيا . وقد أرسل كثير من المسهمين رسائل إلى جريدة الشركة يستفسرون عن أسباب ذلك التأخير فكتب مدير الجريدة مقالا ضافيا حاول فيه تهدئة النفوس الجزعة (العدد ١٥٠ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٢ صص ٢٨١ - ٢٨٣ مجموعة السنة السابعة) . ويلاحظ أن جميع أعداد الجريدة التى ظهرت من شهر يونيو ١٨٦٢ حتى نوفمبر من ذلك العام كانت تؤكد أن الشركة على قاب قوسين أو أدنى من الفراغ من حفر مجرى للقناة وسط مرتفعات عتبة الجسر . (أنظر الأعداد من ١٤٣ إلى ١٥٤) .

يستمر الحفر ليلا ونهارا فى الساحتين رقم ٤ ورقم ٥ فى منطقة عتبة الجسر(١).

واشتغل عمال السخرة فى الليل على ضوء المشاعل التى كانت تضىء مساحات واسعة تمتد مسافة أربعة كيلومترات. وزار وقتئذ هذه المنطقة أحد الفرنسيين الموالين للشركة وقال « وكان المنظر يثير الروعة فى النفوس. فهؤلاء الرجال، الذين لفحت الشمس المحرقة أجسامهم، ثم أضاءت الأنوار الحمراء التى تنبعث من المشاعل وجوههم، كانت تعج بهم الصحراء، يملأون القفف بالرمال وهم فى قاع القناة، ثم يأتى عمال آخرون يحملون القفف ويفرغونها بعيدا عن مجرى القناة. والعمال إذ يؤدون كل هذه الأعمال ينشدون ويغنون، والمشايخ من حولهم يشرفون عليهم ويحولون دون هربهم (٢) ».

وحتى هذه الصورة التى حاول الزائر الفرنسى أن يجعلها بهيجة، تفيض فيها نفوس عمال السخرة بالأغانى، تنفلت منها عبارة تردها إلى حقيقتها فاذا هى صورة مفزعة مريرة بما تكشف عنه من الستار الذى فرضته الحكومة المصرية والشركة على عمال السخرة بواسطة مشايخهم لمنعهم من الهرب وإكراههم على البقاء فى ساحات الحفر.

واستكمالا لصورة الإرهاب السائدة فى ساحات الحفر كان اسماعيل حمدى يطوف ليلا بين العمال وفى رفقته رجال البوليس تلمع أسلحتهم على ضوء المشاعل (٣) على استعداد للتنكيل بالعمال إذا بدر منهم تهاون فى عملهم.

وأخيرا وبفضل عمال السخرة فرغت الشركة من حفر القناة البحرية

---

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 249.

وأنظر أيضا كلا من

جريدة الشركة العدد ١٥٤ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٤٨ مجموعة السنة السابعة والخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا. الجزء الثامن عشر ص ١٣١.

(٢) جريدة الشركة العدد ١٥٤ سالف الذكر ص ٣٤٩.

(3) Ritt, ouvr. cit., p. 250.

الصغيرة وسط مرتفعات عتبة الجسر وايصالها إلى بحيرة التمساح . وأرسل مراسل جريدة الشركة فى مصر برقية بهذا النبأ إلى جريدته فنشرتها فى أولى صفحاتها (١) . وأقام دى‌لسبس حفلا فى صباح ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ ابتهاجا بهذا النجاح الذى أحـرزه ودعا مفتى الديار المصرية والعلماء ومطران الكاثوليك ورجال الاكليروس وأعضاء السلك القنصلى وفى مقدمتهم قناصل فـرنسا وهولندا وايطاليا والنمسا . ويلاحظ أن قنصل انجلترا قد تخلف عن حضور الحفل . وأناب سعيد باشا عنه اسماعيل حمدى . وأعدت الحكومة المصرية قطارا خاصا لنقل المدعوين من القاهرة إلى الزقازيق ، ومنها سافروا فى الدهبيات والمراكب فى طريق مائى متصل حتى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح . ومن نفيشة استقلوا العربات إلى مكان الحفل .

ووقف دى‌لسبس على منصة رفع عليها العلم « المصرى » (٢) وطلب إلى الحاضرين الإصغاء ، ثم التفت إلى العمال وقال « إنى أصدر الأمر باسم حضرة صاحب السمو سعيد باشا أن تدخل مياه البحر المتوسط بحيرة التمساح » فأزال العمال السد الذى كان يحجز مياه القناة البحرية الصغيرة عن بحيرة التمساح وانسابت فورا مياه البحر المتوسط فى البحيرة . وصدحت الموسيقى ، وعلت هتافات الحاضرين . وألقى المفتى خطابا استهله بالصلاة على رسول الله محمد عليه السلام ثم أشاد بالمشاريع العظيمة التى تعود على العالم بالخير والسعادة ودعا الله لينصر « السلطان عبد العزيز خان » ثم عرج على فرنسا فامتدح حضارتها وأثنى على دى‌لسبس وأشار إلى أن الفضل فى بلوغ تلك

---

(١) L'Isthme de Suez. العدد ١٠٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٦١ مجموعة السنة السابعة

(٢) نوهت جريدة الشركة بحادث رفع العلم المصرى فقالت إن العلم الفرنسى لم يرفع وليس له الحق أن يرفع فى هذا الحفل فشركة القناة شركة مصرية ، وقناة السويس مشروع عالمى . أنظر L'Isthme de Suez. العدد ١٠٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٧٥ مجموعة السنة السابعة

النتيجة السارة إنمــا يرجع إلى محمد سعيد باشا « الذى وزع العدالة وعمل على إسعاد شعبه وعلى أن يزيل عنهم كل ما يضرهم (١) » . ثم كتب المفتى حجة شرعية أثبت فيها أن مياه البحر المتوسط قد دخلت فى بحيرة التمساح(٢)، ثم قصد علماء الدين المسلمون وعلى رأسهم المفتى عقب الحفل إلى مسجد عتبة الجسر حيث أدوا فريضة الصلاة (٣) . كما أقيمت صلاة شكر فى الكنيسة الفرنسية التى شيدتها الشركة فى عتبة الجسر . وفى المساء مدت الموائد واختلف إليها المدعوون ومستخدمو الشركة وعمالها الأجانب ورؤساء العمال المصريين . وألقى دى‌لسبس خطبة وجيزة أشاد فيها بفضل سعيد فقال عنه « إنه لولاه — وأعرفوا ذلك جيدا — لكان حفر القناة مستحيلا » . وطلب ألا يكون هناك نخب يشرب سوى نخب محمد سعيد (٤) وفى صبيحة اليوم التالى استقل المدعوون قوارب سارت بهم فى القناة البحرية الصغيرة من التمساح إلى بورسعيد (٥) .

ولم يكن ايصال مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح بالأمر الهين .

وحسبنا تلك الآلاف المؤلفة من المصريين الذين سخرتهم الحكومة المصرية

---

(١) L'Isthme de Suez. العدد ١٥٨ الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٣ ص ص ٢٦ — ٢٧ مجموعة السنة الثامنة

(2) De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. IV. p. p. 266 - 267.

(٣) L'Isthme de Suez. العدد ١٦٢ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٦٣ ص ٨٥ مجموعة السنة الثامنة

(٤) L'Isthme de Suez. العدد ١٥٦ الصادر فى ١٥ ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٧٩ مجموعة السنة السابعة

(٥) تجد وصف احتفال ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ فى كل من :
محفوظات قصر عابدين : صور الوثائق الأمريكية . ج ٣ ص ١٤٥ تقرير رفعه قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٨٦٢ إلى وزير الخارجية الأمريكية
De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc, ouvr. cit., t. IV, p. p. 245 - 247.

للشركة من أجل حفر مجرى ضيق ضحل وسط مرتفعات عتبة الجسر (١). فكانت تلك النتيجة ظفرا للشركة أعاد الطمأنينة إلى النفوس الجزعة، كما أقحم المعارضة الإنجليزية إقحاما عمليا وانهارت النظرية البالمرستونية التي كانت تنادى باستحالة حفر القناة . ولم تعد الحكومة الإنجليزية تقيم معارضتها للمشروع على ذلك الزعم الخاطىء .

وفى الواقع ازداد الأمل فى إنجاز المشروع بعد تلك المرحلة ، لأن حفر قناة صناعية تمتد من البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فى خط مباشر كان أول عمل من نوعه فى التاريخ . فلم يحدث أن شقت قناة فى النصف الشمالى من البرزخ ، من بور سعيد إلى بحيرة التمساح . أما النصف الجنوبى الذى يقع بين بحيرة التمساح ومدينة السويس فقد تم حفر قناة فيه عدة مرات منذ عهود سحيقة فى التاريخ القديم ثم الوسيط . ولم يكن أمام الشركة بعد ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ إلا أن تعيد ماقام به الأقدمون . ثم تعمل بعد ذلك على تعميق وتوسيع القناة البحرية الصغيرة حتى تأخذ الأبعاد المقررة لقناة السويس .

لقد شهد عام ١٨٦٢ حدثين بارزين فى تاريخ السخرة فى حفر القناة ففى ٢٣ يناير ١٨٦٢ تم حفر ترعة الماء العذب من قريةالقصاصين إلى نفيشة وفى ١٨ نوفمبر تم حفر القناة البحرية الصغيرة من البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح التى تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين البحرين (٢) . والفضل

---

(١) استغرق شق القناة البحرية الصغيرة وسط مرتفعات عتبة الجسر عشرة أشهر سخر فى حفرها فى تلك المدة، وفى تلك المنطقة وحدها ١٧٦,٧٨٠ مصريا. وبلغ مقدار الأنقاض التى رفعوها ٤,٣٥٢,٣٨٩ مترا مكعبا . وتراوح عمقها بين متر ونصف متر وبين مترين . أما اتساعها فكان خمسة عشر مترا . وبلغ طولها فى تلك المنطقة أربعة عشر كيلومترا . أنظر

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 277.

(٢) يضاف إلى نشاط الشركة فى ذلك العام (١٨٦٢) أنها احتفلت فى ٢٧ أبريل ١٨٦٢ بوضع الحجر الأساسى لمدينة التمساح (الإسماعيلية فيما بعد) ونشطت

فى هذ النجاح المتلاحق يرجع إلى القوة الآدمية الهائلة التى سخرها سعيد باشا فكان لها الأثر الحاسم الفعال فى بلوغ تلك النتيجة . وكان من حسن حظ دى‌لسبس أنه استطاع أن يبلغ بمشروعه هذا الحد فى عهد صديقه الحميم محمد سعيد باشا الذى أدركته الوفاة بعد حفل ١٨ نوفبر ١٨٦٢ بشهرين تماما.

فلو أن الشركة قد تأخر بها الوقت فأقدمت على مهاجمة هضبة عتبة الجسر فى عهد خلفه اسماعيل لما ظفرت بتلك الجيوش الجرارة من العمال ، إذ مالبث بعد أن ولى حكم مصر فى ١٨ يناير ١٨٦٣ أن احتدم النزاع حول تخفيض عدد عمال السخرة ثم الغاء ذلك النظام الوبيل فى حفر القناة .

حركة بناء منشآت الشركة فى المدينة الجديدة تمهيدا لنقل مكاتب الشركة والمقاول العام من دمياط إليها فتصبح مركز النشاط والعمل فيه . أنظر جريدة الشركة L'Isthme de Suez

العدد ١٥٣ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٣٠ مجموعة السنة السابعة
والعدد ١٥٤ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٤٥ مجموعة السنة السابعة .

الفصل التاسع
النفاق الإنجليزى

انجلترا تحارب نظام السخرة فى حفر القناة لغرضين هما : القضاء على المشروع وتوجيه الفلاحين المصريين لتدعيم الإقتصاد الإنجليزى — انجلترا تتظاهر بالعطف على المصريين — وتشبه السخرة بالرق — وتستغل الحركة الإنسانية فى انجلترا والحرب الأهلية فى أمريكا وقيام المجاعة القطنية لمحاربة السخرة فى حفر القناة — انجلترا تؤيد استخدام السخرة فى المشروعات التى تخدم المصالح البريطانية فى مصر وتتغاضى عن المآسى التى تقع بسببها .

× × ×

توسع سعيد باشا فى تنفيذ لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ وسيق العمال المصريون إلى ساحات الحفر زمرا حتى إذا حاوءها وشرعوا فى حفر القناة تلقفهم الموت نتيجة الإعياء أو العطش أو الأوبئة أو سوء المعاملة . وتسربت أنباء تلك المآسى إلى الخارج حتى أصبح تسخير المصريين فى حفر قناة السويس فضيحة عامه a public scandal كما قال بحق مؤرخ مصر الخديوية (١) .

وسرعان ما استغلت الحكومة الانجليزية الموقف : وجدت فى تسخير المصريين فى حفر القناة على تلك الصورة الشائنة سلاحا ماضيا قويا لمعارضة المشروع بغية حرمان الشركة من هذه الركيزة القوية وهى اليد العاملة المصرية المسخرة ، فتعجز الشركة عن المضى فى حفر القناة ويصاب المشروع بضربة قاضية . وقد شهد مجلس العموم البريطانى ، منذ منتصف عام ١٨٦١ ولعدة سنوات تلت مناقشات كانت تثار فيه تباعا حول تسخير المصريين فى حفر قناة السويس . وكانت الصحافة الإنجليزية

---

(1) Dicey, ouvr. cit., p. 36.

تخصص مساحات ضخمة من صفحاتها لشرح ما يدور فى تلك الجلسات حينا، و حيناتكتب المقالات الضافية فى هذا الموضوع فتعيد جريدة الشركة وبعض الجرائد الفرنسية الأخرى نشرهذه المقالات مترجمة إلى اللغة الفرنسية وتتولى تفنيد ما يجيء فيها من بيانات . وهكذا ظل الفلاح المصرى موضوع مناقشات فى البرلمان الإنجليزى ومادة طيبة لا تنفد فى الصحافتين الإنجليزية والفرنسية ردحا من الزمن .

وقد أقامت انجلترا معارضتها للمشروع فى هذه المرحلة على أساس إنسانى فقالت إن تنفيذه يستند إلى السخرة ، وهى نظام تأباه الإنسانية ويتشح بالظلم وإنه ضرب من الرق بل السخرة تفوق الرق قسوة وظلما ، وإن الفلاحين المصريين الذين يسخرون فى حفر القناة أناس بائسون (١) . وهكذا أخذت المعارضة الإنجليزية لونا جديداً واتسمت بصبغة إنسانية ظاهرها الرحمة بالمصريين والرغبة فى انقاذهم من عسف شركة القناة وجورها ، أما باطنها فكان القضاء على المشروع من ناحية ، واستغلال الفلاحين المصريين لتدعيم الإقتصاد الإنجليزى من ناحية ثانية .

واستندت المعارضة الإنجليزية لنظام السخرة فى حفر القناة إلى بعض الأحداث الإجتماعية والعسكرية والإقتصادية التى وقعت وقتئذ فى العالم حتى يكون لمعارضتها أثرها فى الدوائر الرسمية وفى الرأى العام الأوربى . فاستندت إلى الحركة الإنسانية فى انجلترا والحرب الأهلية الأمريكية من أجل الغاء نظام الرق (١٨٦١ — ١٨٦٥) ثم قيام « المجاعة القطنية » فى انجلترا وفرنسا . ومن خلال هذه الحملة « الإنسانية » ضد نظام السخرة ومن تصرفات انجلترا فى ذلك الوقت بتشجيعها قيام نظام السخرة فى مصر فى تنفيذ المشروعات التى تخدم المصالح البريطانية يبين النفاق الإنجليزى بأجلى مظاهره والتناقض المعيب فى سياسة انجلترا إزاء السخرة . ونتناول الآن هذا الإيجاز بشيء يسير من الشرح .

---

(١) أفردنا الفصل التالى للمناقشات التى أثيرت فى مجلس العموم البريطانى حول تسخير المصريين فى حفر قناة السويس .

استفادت المعارضة الإنجليزية لنظام السخرة فى حفر قناة السويس من انتشار الحركة الإنسانية فى أوربا بوجه عام وفى انجلترا بوجه خاص . فقد أوجدت الثورة الفرنسية آثارا اجتماعية جديدة فى انجلترا لم يكن فى الإمكان أن تخبو وشيكا ، على الرغم من الإستياء العميق الذى أحدثته فى انجلترا أعمال جماعة اليعاقبة . وكان من بين المظاهر الجديدة التى طرأت على المجتمع الإنجليزى فى القرن التاسع عشر العناية بالطبقات الفقيرة والعمل على تحسين أحوال البائسين والمعدمين . وقـد عنى جماعة من المفكرين الإنجليز من أمثـال بنتام Jeremy Bentham وكوبت Cobett والنفعيين Utilitarians بإبراز هذه الإتجاهات للرأى العام ، فكتبوا فى وجـوب الغـاء الرق وإصلاح حال الصبية الإنجليز الذين كانوا يعملون فى المصانع فى أحوال تفيض بالقسوة والظلم ، إذ كان هناك أطفال يبلغون من العمر أربع سنوات يعملون اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، كما كان بعض الأولاد والبنات يساقون لتنظيف المداخن وهى ساخنة لاتستطيع جلود أجسامهم الغضة تحمل حـرارتها وكان البعض يتعرض لحروق شديدة بينما يختنق البعض الآخر من الدخان المنبعث منها (١) .

وقد ذاعت الحركة الإنسانية فى انجلترا وسيطرت على عقـول الملايين من الإنجليز بفضل الكتاب الذين وجدوا فى مآسى الأطفال والعمال فى المصانع الإنجليزية مادة زاخرة فياضة خصبة للكتابة ، فاندفعوا يصورون حياة القسوة والظلم فى أبشع صورها . وكانت معظم الروايات التى ظهرت فى تلك الفترة

---

(١) أنظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى

Hammerston Harmsworth : Universal History of the World. vol. VII p.p. 4404 - 4408.

ومما هو جدير بالذكر أن جريدة L'Isthme de Suez كانت ، فى سياق كلامها على موضوع الفلاحين المصريين ، تظهر عيوب النظام الإجتماعى فى انجلترا وحال العمال فى المصانع الانجليزية وتتهكم قائلة إنه حرى انجلترا أن تصلح أحوال عمالها أولاً قبل أن تتكلم فى إصلاح أحوال غيرهم فى البلاد الأخرى . أنظر على سبيل المثال العدد ١٢٤ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦١ ص ٢٦٢ مجموعة السنة السادسة .

تدور حول الناحية الإنسانية (١) . وبدأ الناس فى انجلترا يتساءلون كيف كانت انجلترا تعيش طوال تلك المدة فى مثل هذا الفساد والبؤس ، وكيف كان الإنجليزى يزهو بإمبراطوريته وعظمتها وثرائها بينما الفظائع فى أبشع صورها مستقرة فى صميم انجلترا وفى صلب الحياة الإجتماعية فيها .

× × ×

وكما استفادت المعارضة الإنجليزية لنظام السخرة فى حفر القناة من الحركة الإنسانية فقد استغلت إلى حد كبير الحرب الأهلية التى اندلعت فى الولايات المتحدة الأمريكية فى أبريل ١٨٦١ بين ولايات الشمال وولايات الجنوب . وكان منشأ النزاع هو مشكلة الرق فقد كانت الولايات الجنوبية تتمسك بنظام الرق ،وكان سكانها يعتمدون بوجه خاص على زراعة القطن . واعتمد أصحاب الأراضى فى زراعته على العبيد الذين كانوا يجلبون بكثرة من سواحل أفريقيا، وبمضى الأيام أصبحت زراعة القطن فىالولايات الجنوبية هى عصب الحياة الإقتصادية فيها . وأدى التوسع المطرد فى زراعته إلى مزيد من العبيد، وهكذا ازداد الرق تأصلا وانتشارا فى الولايات الجنوبية حتى غدا

(١) Song of the Shirt by Thomas Hood.
The Cry of the Children by Elizabeth Browning.
Michael Armstrong by Francis Trollope.
كما وضع الروايات عن الحياة فى المصانع وملاجىء الأيتام والسجون:

Charlotte Bontée.
Mrs Gaskell.
Charles Reade.

وكان شارل ديكنز Charles Dickens أبرز أولئك الكتاب أثرا فى الحركة الانسانية إذ كان ذكاؤه الممتاز وعبقريته وتجاربه فى تصوير الشخصيات مما كان يلهب صدور قرائه . وفى خلال المدة التى ظهرت فيها مؤلفاته (١٨٣٧ - ١٨٧٠) كان الأثر الذى يحدثه ظهور مؤلفاته عظيما . وكل عرف وكل اقتنع بما سماه:

Low Life
Oliver Twist
Little Dorrit.

أساس الحياة الإقتصادية والإجتماعية فيها . أما أهل الشمال فكانوا أكثر عددا وأوفر نشاطا فاشتغلوا بالصناعة والتجارة إلى جانب الزراعة وربطوا أجزاء بلادهم بالخطوط الحديدية . وكانوا يمقتون الرق ويعتبرونه ظلما إنسانيا صارخا وطالبوا بإلغائه فى الولايات الجنوبية . وهكذا وجد فى الولايات المتحدة نظامان متباينان لكل منهما أنصاره وجمعياته واشتد النزاع بين الفريقين . وتألف الحزب الجمهورى فى الشمال سنة ١٨٥٤ وكان من مبادئه الغاء الرق وانتخب مرشحه ابراهام لنكولن رئيسا للجمهورية (٦ نوفمبر ١٨٦٠) فكان هذا الإنتخاب إيذانا بقرب الإصطدام الرسمى العلنى بين الفريقين .

صممت الولايات الجنوبية على ألا تقبل رئيسا جمهوريا بل رأت أن الرق أكثر نفعا لها من اتحادها مع الولايات الشمالية، فانفصلت عن الإتحاد الجمهورى وكونت اتحادا خاصا بها باسم « الولايات المتحالفة الأمريكية Confederate States of America وانتخب جرسون دافيد رئيسا للجمهورية واتخذت ريشموند عاصمة لها . وبذلك أصبح للولايات المتحدة رئيسان. ونشبت الحرب الأهلية على أثر ذلك بين ولايات الشمال وولايات الجنوب واستمرت أربع سنوات (ابريل ١٨٦١ — إبريل ١٨٦٥) وانتهت بانتصار الشمال .

وكان ابراهام لنكولن قد أصدر أثناء العمليات الحربية فى ٢٢ سبتمبر ١٨٦٢ منشورا أعلن فيه أن جميع الأرقاء الذين فى الولايات المتحدة أو المناطق الثائرة ضد الولايات المتحدة سيصبحون منذ اليوم الأول من يناير ١٨٦٣ أحرارا إلى الأبد .

وقد تتبع الرأى العام فى انجلترا باهتمام بالغ مراحل الحرب الأهلية الأمريكية وتشيع الكثيرون للولايات الشمالية وعطفوا على أهدافها ومراميها حتى أصبح لفظ الرق بسبب هذه الحرب كلمة عالقة فى أذهان الإنجليز فى ذلك الوقت طالما انطلقت بها ألسنتهم (١) .

(1) Arnold Wilson, ouvr. cit., p. 24.

تلاقت إذن الحركتان : الإنسانية فى إنجلترا ، والعسكرية فى أمريكا الشمالية ، عند الغاء الرق . واستغلت انجلترا الحركتين فى معارضة مشروع القناة ، وباتت تصف أعمال الفلاحين المصريين المسخرين فى حفر قناة السويس بالرق « بل هى الرق بعينه تحت لفظ آخر . وإن القسوة التى يعانيها الفلاحون المصريون تفوق استرقاق العبيد فى أمريكا (١) ؛» .

. . .

وإلى جانب ذلك كانت تبرز ناحية اقتصادية فى معارضة انجلترا لنظام السخرة . فقد تعرضت الصناعة القطنية فيها وتجارتها لأزمة طاحنة بسبب نقص الوارد إليها من القطن منذ قيام الحرب الأهلية الأمريكية فى أبريل ١٨٦١. إذ لما اندلعت نيران تلك الحرب اضطر سكان الولايات الجنوبية إلى أن يستبدلوا بزراعة القطن زراعة الحبوب وغيرها من الحاصلات الغذائية التى كانوا يستوردونها من قبل من الولايات الشمالية(٢). ونتج عن ذلك انكماش الزراعة القطنية الرئيسية فى الولايات الجنوبية طيلة السنوات التى استغرقتها هذه الحرب بحيث لم تزرع من القطن إلا القليل . وحتى هذا القليل لم يعد فى الإستطاعة تصديره إلى الأسواق العالمية إذ كان اسطول الولايات الشمالية قد ضرب نطاقا محكما من الحصار البحرى حول شواطىء الولايات الجنوبية . (٣)

كان من أثر ذلك أن وقفت أو تضاءلت إلى حد بعيد للغاية حركة تصدير القطن الأمريكى إلى انجلترا وفرنسا وغيرهما . ونقصت كميات القطن فى انجلترا نقصانا خطيرا وأطلق البعض فى ذلك الوقت على هذا النقص « المجاعة القطنية (٤) » وارتفعت أصوات الغزالين بها تطالب باستيراد القطن (٥) .

---

(١) الجزء ١٦٨ ص ص ١١٤٧ - ١١٤٩ من Hansard's Parliamentary Debates.

(2) Charles Roux F. : Le coton en Egypte, p. 75.
(3) Crabites.: Ismail etc., ouvr. cit., p. 143.
(4) Fitzgerald, ouvr. cit., t. I, p. 282.
(5) Elgood : Egypt, p. 73.

وركد العمل فى مصانع مانشستر ولفربول وغيرها ، وخفضت إلى النصف أجور العمال الذين يشتغلون فى الصناعات القطنية ثم أوقف العمل فى كثير منها (١) . وتفاقمت حالة العمال الإنجليز سوءا فنظمت إكتتابات عامة لمساعدتهم اكتتب فيها سنة ١٨٦٢ بعض أمراء الأسرة الحاكمة فى مصر(٢) . وبلغ عدد العمال الإنجليز المتعطلين الذين كانوا يتلقون فى عام ١٨٦٢ إعانات منتظمة ٦٦٤ ٣٣٠ عاملا (٣) . أما فرنسا فقد وقعت فيها أزمة قطنية على غرار أزمة انجلترا وتعطلت مصانع ليون Lyons وسان اتيين St. Etienne وغيرها وعانى العمال الفرنسيون قسوة البطالة (٤) .

---

(١) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٢٨ الصادر فى ١٥ أكتوبر ١٨٦١ ص‌ص ٣٢٢ — ٣٢٣ مجموعة السنة السادسة . وأنظر مقالاً آخر فى نفس ذلك العدد ص‌ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ومقالاً نشرته جريدة Economist الانجليزية أعادت جريدة الشركة نشره مترجما إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان :

Les Menaces de la Crise du Coton en Angleterre.

فى العدد ١٣٤ الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٢ ص‌ص ٢٣ — ٢٥ مجموعة السنة السابعة

(٢) تبرع الأمير عبد الحليم بن محمد على بمبلغ مائتى جنيه لمساعدة الغزالين الانجليز وقد تولت شركة Messrs. Clegg Clare & Co. إرسال المبلغ إلى اللورد دربى Derby وأرفقته بخطاب قالت فيه «وإننا على ثقة من أن سعادتكم ستلقون بسرور بالغ هذا التبرع من أحد الأمراء المصريين ..... فإنه من دواعى الغبطة أن نذكر أنه فى بلد بعيد هزت مشاعر أحد الأمراء رفيعى الشأن الآلام التى يئن منها مواطنونا الغزالون فى لأنكشير وأنه قرر أن يشترك فى تخفيف تلك الآلام وإن لم يطلب منه ذلك » . وقد تقبل اللورد دربى هذا التبرع بقبول حسن ورأى أن يتولى بنفسه تقديمه إلى لجنة مانشستر . كما نوهت بهذا التبرع جريدة التيمس . أنظر

Blancharld Jenold: Egypt under Ismail Pacha. London 1879. pp. 85 - 87.

(3) Charles Roux F., Le Coton en Egypte, p. 75.

(4) ibid

ومما يذكر أن اسماعيل اكتتب فى أوائل مارس ١٨٦٣ بعد أن ولى حكم مصر بخمسة آلاف فرنك لمساعدة الغزالين الفرنسيين المتعطلين . أنظر جريدة L'Isthme de Suez العـــــدد ١٦٢ الصادر فى ١٥ مارس ١٨٦٣ ص

وعلى ذلك فإن حاجة انجلترا القصوى إلى القطن المصرى فى ذلك الوقت لتسد به النقص فى المصانع الإنجليزية كانت الجانب الثانى لمعارضة انجلترا لنظام السخرة فى حفر القناة. وسنرى فى فصل « جناية سعيد والشركة على الاقتصاد المصرى » أن انجلترا سعت رسميا لدى سعيد باشا كى يتوسع فى زراعة القطن فى مصر . وكان من مصلحة انجلترا إلا تتعرض زراعة القطن فى مصر إلى أى تعطيل بسبب تغيب حوالى ٦٠ ألف فلاح من حقولهم فى وقت واحد من أجل حفر قناة تقف منها انجلترا موقف العداء الصريح . وقد تلاقت مصلحة انجلترا مع مصلحة مصر فى ذلك الوقت فى وجوب التوسع فى زراعة القطن .

وقد تعرض لايارد Layard وكيل وزارة الخارجية البريطانية لهذا الموضوع فى جلسة أول أغسطس ١٨٦٢ بمجلس العموم البريطانى إذقال « إن عددا من الرجال يتراوح عددهم بين سبعين ألفا وثمانين ألفا قد انتزعوا من أعمالهم التى يؤدونها فى قراهم ليساعدوا فى انشاء قناة السويس . إن هذه الخطة لابد أن تؤدى إلى بؤس عظيم ، وتتعارض بشكل جدى وخطير مع الأعمال الأخرى التى تدر أرباحا كثيرة مثل انتاج القطن (١) » .

. . .

قلنا إن حملة انجلترا على نظام السخرة فى حفر القناة كانت مظهرا من مظاهر النفاق الإنجليزى وإن القضاء على المشروع كان الهدف الأول من تظاهرها بالعطف على الفلاحين المصريين ورغبتها فى تخليصهم من هول العذاب الذى يئنون منه فى ساحات الحفر فى صحراء البرزخ . يؤيد هذه الحقيقة أن نظام السخرة الذى حاربته انجلترا بكل عنف فى حفر القناة كان يستخدم فى مصر أثناء حفر القناة وقبل حفرها فى تنفيذ المشروعات التى

---

٨٢ تحت عنوان

Souscription de S.A. Ismail en faveur des ouvriers français sans travail.

(١) الجزء ١٦٨ ص ص ١١٤٧ — ١١٤٩

Hansa rd's Parliamentary Debates.

قامت بها الحكومة المصرية ، واقترن تطبيق نظام السخرة فى القرن التاسع عشر بوقوع ضحايا كثيرين من أفراد الشعب المصرى ولم يرتفع صوت فى البرلمان الإنجليزى يعارض استخدام السخرة فى تنفيذ المشروعات ، بل أكثر من ذلك كانت الحكومة المصرية على عهد الوالى محمد سعيد تنفذ مشروعاً يخدم - فيما يخدم - المصالح البريطانية، هو الخط الحديدى الذى يمتد عبر الصحراء من القاهرة إلى السويس . وقامت الحكومة الإنجليزية بضغط على سعيد باشا لزيادة عدد عمال السخرة حتى يتم إنشاء الخط فى أسرع وقت ممكن . ونستخلص من ذلك الحادث حقيقة أخرى هى أن سياسة انجلترا ازاء السخرة فى مصر كانت تقوم على تناقض صارخ، فبينما هى تقف من السخرة فى مد خط السويس الحديدى الصحراوى موقف التأييد والتشجيع ؛ إذا بها تقف من نفس نظام السخرة فى حفر قناة السويس موقف المعارضة والتنديد . وما ذلك إلا لأن الخط الأول يخدم المصالح البريطانية وأن القناة كانت تنظر إليها على أنها مشروع فرنسى ينطوى على تهديد خطير موجه إلى الإمبراطورية البريطانية .

ولكى يبين النفاق الإنجليزى على حقيقته نرى أن نقف وقفة قصيرة لنوضح كيف تغاضت انجلترا عن المساوىء التى نجمت عن استخدام نظام السخرة فى تنفيذ مشروع خط السويس الحديدى الصحراوى والذى اعتقدت أنه يخدم مصالحها فى الشرق .

كانت انجلترا لاعتبارات سياسية واقتصادية تهتم اهتماما بالغا بمسألة انشاء خط مواصلات قصير سريع سهل يربطها بالهند وغيرها من الممتلكات الإنجليزية فى الشرق . وفضلت على مشروع قناة السويس انشاء خط حديدى يستخدم فى نقل البريد والمسافرين من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس ومن ثم تشرع السفن فى نقلهم إلى الهند وغيرها . وقد عقدت الحكومة

المصرية على عهد عباس الأول اتفاقا بتاريخ ١٢ من يوليو ١٨٥١ مع روبرت ستيفنسن Robert Stephenson لإنشاء الخط الحـــــديدى من الإسكندرية إلى القاهرة . ونص فى هذا الإتفاق الذى يقع فى ثمانى عشرة مادة على أن تقدم الحكومة المصرية العمال وفق نظام السخرة وأن يكون العمال تحت إمرة ضباط مصريين(١).وقبل أن ينقضى عام ١٨٥١ كان ستيفنسن قد شرع فى إنشاء الخط ومعه بضعة من المهندسين الإنجليز وحشدت الحكومة أفواجا من الفلاحين وفق نظام السخرة (٢) .وتغاضت انجلترا عن المساوىء والأضرار التى نجمت عن استخدام السخرة فى مد الخط الحديدى . ولما اغتيل عباس الأول كان قد تم انشاء نصف الخط تقريبا . وقد تم الخط على عهد سعيد باشا وبدأ سير القطارات عليه فى يناير ١٨٥٦ .

وقد رأت الحكومة المصرية مد هذا الخط عبر الصحراء من القاهرة إلى السويس . وكان للسياسة الإنجليزية الأثر الأكبر فى هذا التوجيه (٣) ، وهو دليل على أن إنشاء الخطوط الحديدية الأولى فى مصر كان خاضعا لمطالب السياسة الأوربية أكثر منه لمواجهة مطالب الإقتصاد القومى وإلا لوجهت الحكومة نفقات إنشاء ذلك الخط الصحراوى فى مد خط حديدى يجتاز مناطق زراعية آهلة بالسكان فيزداد العمران ويزداد اتصال الأهلين على طول الخط بعضهم ببعض . وقد قررت الحكومة المصرية أن تتولى هى إنشاء خط السويس فطلبت من محـــل انجليزى هو برجس Briggs ارسال القضبان الحديدية وعهــــــدت بأعمال التنفيذ إلى موشيليه Mouchelet (٤) وهو مهندس فرنسى فى خدمة الحكومة المصرية (٥) . وجمع سعيد باشا مديرى المديريات وطلب منهم إرسال سبعة الآف عامل كدفعة أولى وأن

---

(١) نص هذا الإتفاق منشور فى
Wiener, ouvr. cit., pp. 641 - 644.

(2) The Egyptian State Railways Magazine. Nov. 1932.

(3) Ibrahim Nomeir Seifed Dean, ouvr. cit., p. 35.

(4) Hussein Husni, ouvr. cit., pp. 250 - 251.

(5) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 72.

يتولوا بأنفسهم الإشراف على جمع أولئك العمال . وبدأ العمل فى إنشاء الخط فى سبتمبر ١٨٥٥ (١) وإن مما يلفت نظر الباحث كثرة الأوامر التى كان يصدرها تباعا محمد سعيد باشا والى مصر إلى مديرى الأقاليم لجمع أنفار السخرة للعمل فى إنشاء ذلك الخط (٢) .

وبينما كان العمل يسير فى مد ذلك الخط إذ قامت فى شهر مايو ١٨٥٧

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ٦ الصادر فى ١٠ سبتمبر ١٨٥٦ ص ٨٧ مجموعة السنة الأولى .

(٢) محفوظات قصر عابدين نذكر على سبيل المثال من دفاتر المعية السنية دفتر رقم ٤٩٢ وثيقة رقم ١١٨٤ ودفتر رقم ٤٩٨ وثائق رقم ٤٧٢ ، ٥٣٩ ، ٥٦٨ ، ٧٠١ ، ٧٥٦ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩٢١ ، ٩٥١ ، ١١٣٠ ، ١٣٢٥ ، ١٥٤٥

ودفتر رقم ٥٠٢ وثائق رقم ٣١٤ ، ٤٧٤ ، ١٢٢٥ ، ١٣٦١ ، ٢٦٤٩ ، ٣٣١٠ ، ٣٥٠٦ .

دفتر رقم ٥٠٤ وثائق رقم ٤٦١ (للإسراع من الفراغ فى مد السكة الحديد) ، ٥٨٧ ، ١٣٩ (أصلى) ١٣٢٩ (مسلسل) ، ١٢٢٩ ، ١٥٣٨ ، ٦٩

دفتر رقم ٥٠٥ وثائق : ٦٨٩ ، ٩٦٦ جمع عمال من مديرية جرجا ، ٩٠ ، ١٠٠٣ ، ٩٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٩٥ ، ١١١٨ ، ١١٢٨ ، ١١٣٦ لجمع العمال من الغربية والجيزة والفيوم وبنى سويف والدقهلية والقليوبية واسيوط ، ١٢٥٥ عدم تمكين العمال من الهرب .

دفتر ٥٠٧ وثائق رقم ١٠٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٤١

دفتر رقم ٥٠٨ وثائق رقم ١١٠ ، ٧٠٠ ، ٧٢٧

دفتر رقم ٥٠٩ وثيقتان رقم ٧٨٣ ، ١٠٠٣

دفتر رقم ٥١٠ وثائق رقم ١٣١ ، ١٧٨ جمع عمال من بنى سويف ، ١٩٠ من الدقهلية ، ٣٦٠ ، ٤٧٣ ، ٥٣٥

دفتر رقم ٥١٢ : وثائق رقم ١٩ ، ١٩١ ، ٩٢٢ ، ٩٧٣

دفتر رقم ٥١٤ : وثيقتان رقم ١٣٤١ ، ٨٤٢

دفتر رقم ٥١٦ : وثيقة رقم ١٧٧

دفتر رقم ١٦٣٣ وثيقة رقم ١٩ ص ٣٧ بخصوص تنشيط العمل فى مد الخط الحديدى

دفتر رقم ١٦٤٣ وثيقة رقم ٣٥ ص ١٥٠ فى غاية شوال ١٢٧٥ لجمع عمال من مديريات روضة البحرين والقليوبية والجيزة وص ٩٢ رقم ٢٨

ثورة خطيرة فى الهند كادت تعصف بالحكم الإنجليزى فيها . واضطرت انجلترا أن ترسل عن طريق رأس الرجاء الصالح قوات عسكرية لإخمادها (١) وأضاعت وقتا ثمينا لطول المسافة . ثم حدث أن طلب السير ستراد فورد دى ردكليف Sir Stradford de Redcliffe السفير البريطانى فى القسطنطينية إلى السلطان أن يسمح بمرور ضباط إنجليز لا يرتدون الزى العسكرى en bourgeois فى الأراضى المصرية وهم فى طريقهم إلى الهنـــد (٢) . وقد أجيب إلى أكثر من ذلك : فسمح لفرق إنجليزية كاملة باجتياز الأراضى المصرية إلى الهند (٣) . وقامت فعلا أول قوة حربية للهند عن طريق مصر من مالطة فى أول أكتوبر ١٨٥٧ ووصلت الإسكندرية فى ٤ منه (٤)

---

(1) Hoskins, ouvr. cit., p. 339.

(2) Hoskins, ouv. cit., pp. 402 - 403.

(3) Wiener, ouvr. cit. p. 75.

وأنظر أيضا محفوظات قصر عابدين : دفتر ٥١٤ وثيقة رقم ١٨٢ بخصوص مرور الجنود الانجليز فى الأراضى المصرية وهم فى طريقهم إلى الهند . وأنظر أيضا دفتر رقم ٥١٦ وثيقة رقم ١١٥٨ وفيها طلب قنصل انجلترا إلى سعيد باشا الأذن فى مرور فرقتين من المدفعية الإنجليزية عبر الأراضى المصرية من إسكندرية إلى السويس فى طريقها إلى الهند .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن جريدة الشركة L'Isthme de Suez انتهزت فرصة مرور الجنود الانجليزية عبر الأراضى المصرية فنشرت مقالاً قالت فيه إن إنجلترا بعد أن أرسلت النجدات عن طريق رأس الرجاء الصالح عادت فاستخدمت الطريق الطبيعى عبر مصر كما استخدمته قبل ذلك بسنوات قلائل حين أرسلت قوات من الهند إلى أوربا للاشتراك فى حرب القرم . (أنظر العدد ٣٢ الصادر فى ١٠ أكتوبر ١٨٥٧ ص ص ٣٧٦ — ٣٩١ مجموعة السنة الثانية). وقد نشرت فى العدد ٣٥ الصادر فى ٢٥ نوفمبر ١٨٥٧ ص ٤٩٧ مقالاً بعنوان :

Envoi des troupes anglaises aux Indes par l'Egypte.

ونشرت فى هذا المعنى مقالاً ثالثا فى العدد ٣٦ الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٨٥٧ ص ٥١٤ بعنوان :

Envoi des troupes anglaises par l'Egypte.

(٤) أنظر مقالا بعنوان وإلى مصر ونقل الفرق الانجليزية فى صحراء السويس

واستقل أفرادها القطر الحديدية إلى القاهرة ثم استخدموا الخط الحديدى الصحراوى فى اتجاه السويس وكان لايزال إلى ذلك الوقت باقيا على إكماله ٤٠ كيلومترا حتى يبلغ السويس . وكان الجند الإنجليز يقطعون المسافة الباقية فى عشر ساعات فى عربات تسع كل عربة ستة اشخاص . وقد بلغ عدد أفراد القوات الإنجليزية التى عبرت الأراضى المصرية فى طريقها إلى الهند خلال ستة أشهر اعتبارا من سبتمبر ١٨٥٧ خمسة الآف فرد (١) تقاضت الحكومة المصرية عن كل جندى خمسة جنيهات وعن كل ضابط انجليزى ضعف ذلك الأجر (٢) .

كان من أثر تلك الثورة أن ضغطت الحكومة الإنجليزية على سعيد باشا لتنشيط العمل فى مد ذلك الخط حتى يفرغ العمل فى الجزء الباقى منه فى فى أسرع وقت ممكن(٣) واستجاب سعيد لهذا الضغط الإنجليزى فلم يجمع عشرة الآف عامل فحسب من مديريات الوجه القبلى للإشتراك فى مد الخط الحديدى بل فرض على بعض مديريات الوجه البحرى ألفى عامل ليكونوا بمثابة عمال احتياطيين (٤) . وأمر بتغيير العمال مرة كل أربعة أشهر (٥) .

Le Vice Roi de l'Egypte et le transport de troupes anglaises dans le desert de Suez.

بقلم ارنست دبلاس Ernest Desplaces مدير جريدة الشركة (العدد ٣٦ الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٨٥٧ ص ٥١٦ مجموعة السنة الثانية

(1) Hoskins, ouvr. cit., pp. 404 - 405.

(2) Wiener, ouvr. cit., p. 75.

(3) Wiener, ouvr. cit., p. 74. Voir aussi : Hoskins, ouvr. cit., p. 358.

(٤) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٥٠٤ معية تركى صادر ص ٢٧ أمر رقم ١٣٩ أصلى و ١٣٢٩ مبسلسل صادر من الجناب العالى إلى ناظر الداخلية بتاريخ ١٤ شوال ١٢٧٣ (٧ يونيو ١٨٥٧)

وأنظر أيضا دفتر رقم ٥٠٧ معية تركى وارد وثيقة رقم ١٤١ بتاريخ ٢٩ ذى الحجة١٢٧٣ (٢٠ أغسطس ١٨٥٧)

(٥) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٥٠٧ وثيقة رقم ٢٠٤

ويندد دى‌لسبس بمسلك قنصل انجلترا فى مصر وهو يضغط على سعيد باشا إذ طلب أن ترسل الحكومة المصرية فى الحال عشرة الآف عامل ، وأنه لم يشأ أن يدرك ضرورة التريث ريثما يتم إعداد ماء الشرب والجراية للعمال المصريين فى صحراء السويس . وكانت النتيجة أن اقترن إنشاء ذلك الخط الحديدى الصحراوى بوقوع كثير من المآسى . ويقول دى‌لسبس فى هذا الصدد « وقد طبق نظام السخرة بقسوة وعلى الأخص فى خط السويس الحديدى الصحراوى حتى يمكن القول إن القضبان الحديدية لهذا الخط قد استقرت فوق الآف من جثث المصريين (١) » .

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. IV, pp. 214-215 et 306-308.

وأنظر أيضا محاضرة ألقاها دى‌لسبس فى ٢ مارس ١٨٦٤ نشرت فى جريدة الشركة العدد ١٨٨ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٦٤ صص ٢١٤ — ٢١٥ مجموعة السنة التاسعة .

الفصل العاشر

الفلاح المصرى فى مجلس العموم

نائب يوجه سؤالا إلى رئيس الوزارة يستفسر عن حقيقة الموقف فى ساحات الحفر – ويقول إن دى لسبس أغوى سعيد باشا على تسخير المصريين فى حفر القناة – وإن السخرة هى الرق تحت لفظ آخر – الحكومة تطلب التأجيل – النائب يوجه سؤالا جديدا يطالب حكومته بالتدخل لمنع السخرة فى حفر القناة دفاعا عن الإنسانية – إجابة وزير الخارجية – سؤال ثالث عن رحلة قنصل انجلترا إلى ساحات الحفر وتصريحاته بها – ملابسات الرحلة – سؤال رابع إلى رئيس الوزارة – إجابة الرئيس – إثارة مناقشة عنيفة أثناء اقامة سعيد فى باريس فى ضيافة الحكومة الفرنسية – نائب يسفه عقلية سعيد وتفكيره وأسلوبه فى حكم المصريين – ويرجو أن تكون لرحلته أثر على عقليته فيكف عن استخدام السخرة – ويقترح تدابير عملية ايجابية لمنع السخرة فى حفر القناة – نائب آخر عاد من مصر مؤخرا يشترك فى المناقشة – ويصف الفلاحين المسخرين فى حفر القناة بأنهم تاعسون – النائب يقص مشاهداته – ويحمل على سياسة سعيد نحو الشركة – رد الحكومة يتناول عدة مسائل – تسخير المصريين فى حفر القناة هو تجنيد إجبارى يتم طول السنة – الآلام تصيب الرجال والنساء والأطفال – تسخير الفلاحين أشاع البؤس فى البلاد – دى لسبس يرد على الحكومة الإنجليزية – ويقول إنه لا يحق لانجلترا أن تتدخل فى موضوع السخرة – وإن السخرة نظام مألوف فى مصر – ويهدد بتدخل الحكومة الفرنسية إذا حيل بين الشركة وبين تسخير المصريين فى حفر القناة – ويقرر أن الشركة ترفع المستوى المادى والعقلى للمصريين – نائب يطالب انجلترا ببذل جهود جدية لمنع السخرة فى حفر القناة – رد الحكومة – سؤال آخر يقرر فيه النائب أن السخرة فى حفر القناة تفوق فى قسوتها استرقاق العبيد فى أمريكا – الحكومة الإنجليزية ترجو أن يدرك سعيد المساوىء التى لاحد لها فى تسخير المصريين فى حفر القناة

× × ×

فى جلسة ٢١ يونيو ١٨٦١ أثير لأول مرة فى مجلس العموم البريطانى موضوع تسخير الشعب المصرى في حفر قناة السويس . وكان هذا بداءة لسلسلة من الأسئلة والمناقشات أثيرت على فترات فى المجلس طيلة خمس سنوات (١٨٦١ – ١٨٦٥) كان الفلاح المصرى وما يلاقيه من نصب فى شق القناة هو المحور الذى دارت حوله الأسئلة والمناقشات .

ومما يلفت النظر أن عضوا واحـدا فى المجلس يسمى جريفث Griffith هو الذى انفرد بتوجيه الأسئلة إلى الوزارة الإنجليزية فى موضوع السخرة فى حفر القناة ، واختلف بذلك عن غيره من أعضاء المجلس الذين أثاروا من قبل موضوع قناة السويس ، إذ كانت أسئلتهم ومناقشاتهم تدور حول الجانب السياسى لمشروع القناة . أما جريفث فكان فى معظم أسئلته يتعرض للمشروع من الناحية الإنسانية وهى ناحية جديدة لم تكن له من قبل . فكان بذلك أحد الذين مثلوا المعارضة الإنجليزية فى هذا الدور . وقد ضاقت دوائر شركة القناة بما وجهه هذا النائب من أسئلة وما أثاره من مناقشات عن تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة، كما نددت جريدة الشركة بهذا النائب وقالت إنه لايسأم ولا يمل من إثارة موضوع السخرة فى حفر قناة السويس وكتبت فى هذا الصدد مقالات ضافية عالجت فيها ما أسمته La Philantrophie de M. Griffith أى حب جريفث للإنسانية .

كان السؤال الذى وجهه جريفث فى جلسة ٢١ يونيو ١٨٦١ إلى اللورد بالمرستون Lord Palmerston رئيس الوزارة البريطانية يدور حول ثلاثة أمور :

أولا : إن سعيد باشا قد وقع تحت تأثير دى لسبس الذى استماله إليه لكى يحتضن مشروع القناة ثم قال « وإنى أطلب إلى وزير الخزانة الأول إذا

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ١٤٨ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦٢ ص ١٨٦٢ ص ٢٢٥ مجموعة السنة السابعة والعدد ١٦٩ الصادر فى أول يوليو ١٨٦٣ صص ٢٥٤ — ٢٥٥ مجموعة السنة الثامنة والعدد ٢١١ الصادر فى أول أبريل ١٨٦٥ ص ١٠٦ مجموعة السنة العاشرة . و هذه الأعداد على سبيل المثال لا الحصر.

كان قد تلقى تقارير تشير إلى أن مستر دىلسبس قد أغوى والى مصر كى يسمح باستخدام عدد كبير من المصريين فى حفر قناة السويس وفق نظام السخرة » .

ثانيا : إن السخرة ما هى إلا الرق تحت لفظ آخر .

ثالثا : التنديد بسياسة اللورد بالمرستون إزاء مشروع القناة بوجه خاص والمسألة المصرية بوجه عام . فقال « وإنى فى نفس الوقت أعبر عن رأيى من أن اللورد النبيل وهو فى رغبته فى معارضة مشروع يعتقد أنه يضر بمصالح انجلترا قد عمل على تشجيعه بطريق غير مباشر ، إذ كان من أثر هذه المعارضة التى حمل لواءها أن ظفر المشروع بالتأييد والعطف فى فرنسا .

«كانت سياسة اللورد النبيل منذ عشرين عاما خلت هى إخضاع والى مصر (يقصد محمد على باشا) الذى شق عصا الطاعة على الباب العالى وكاد يجعل نفسه الحاكم المسيطر على مصر — إلى مرتبه وال يدين بالولاء والطاعة للسلطان . ومنذ ذلك الحين كان والى مصر ينظر بعين الرعاية إلى السياسة الفرنسية . وكان نتيجة ذلك أن الوالى الحالى قد استميل إلى أن يحتضن المشروع موضوع السؤال ، وأن يستخدم العمال كما يقال وفق نظام السخرة الذى ما هو إلا الرق تحت لفظ آخر .

« إنى أندد هنا بتدخل انجلترا بين محمد على وبين السلطان لأنه إذا كان قد سمح لمحمد على بأن يقيم دولة مستقلة لكان النفوذ الإنجليزى فى مصر أقوى بكثير مما هو عليه اليوم فى عهد حكومة تخضع إسميا للسلطان » (١) .

وقد طلب اللورد جون رسل Lord John Russel وزير الخارجية تأجيل الإجابة عن هذا السؤال .

---

(١) أنظر محضر الجلسة فى الجزء ١٦٣ صص ١٤٥٨ — ١٤٥٩ من Hansard's Parliamentary Debates.

كما نشرت جريدة الشركة موجزا وافيا عن تلك الجلسة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ٢١٤ مجموعة السنة السادسة

ولكن جريفث لم يرض عن هذا التأجيل فسارع فى ٢٥ يونيو ١٨٦١ — بعد مضى ثلاثة أيام — إلى توجيه سؤال جديد إلى وزير الخارجية فى نفس الموضوع . وأضفى على سؤاله لباس الإنسانية والشفقة بالشعب المصرى فطالب حكومته باتخاذ تدابير « دفاعا عن الإنسانية » وترمى إلى الإتصال بالحكومات التركية والمصرية والفرنسية لوقف العمل بنظام السخرة فى حفر قناة السويس . وأوضح أن تسخير المصريين فى حفر القناة إخلال من سعيد باشا بتعهداته للباب العالى باحترام قوانين الدولة العثمانية فقال فى سؤاله « وإنى أطلب إلى وزير الخارجية أن يوضح إذا كان قد تلقى معلومات تشير إلى أن مستر دى‌لسبس قد حصل ، أو على وشك الحصول من الباشا فى مصر على تصريح بالزام الأهالى بالعمل فى حفر قناة السويس وفق نظام السخرة . وهل يتفق هذا التصريح مع تعهدات الوالى نحو الباب العالى بمراعاة الخط الشريف « جلخانه » وقوانين أخرى ترمى إلى مراعاة الرحمة فى الإمبراطورية العثمانية ؟ وهل استطاع إكراه المصريين على العمل وفق نظام السخرة ؟ وهل قامت حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة أو فى صدد القيام بإرسال تبليغ إلى حكومات تركيا ومصر وفرنسا دفاعا عن الإنسانية ؟ ،» .

وقد أجاب اللورد جون رسل وزير الخارجية عن هذا السوال بقوله « تلقينا منذ حين معلومات من جناب القنصل العام لجلالة الملكة فى مصر تشير إلى أن مستر دى‌لسبس قد حصل على أمر من الباشا باستخدام عشرة الآف من المصريين للعمل فى حفر القناة وفق نظام السخرة . ويذكر القنصل العام أن عددا من هولاء الأهالى قد أرسل بالسكك الحديدية ولكن القنصل يتوقع أنه فى خلال بضعة أيام سيسمح لهم بالعودة ثانيا ، لأن هذا فى نظر القنصل إن هو إلا إجراء يرمى إلى الدعاية بأن أعمال الحفر يسودها النشاط وقد قامت حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة موخرا بتبليغ الباب العالى أن نظام السخرة هذا يتناقض مع الإتفاقات التى عقدت مع السلطان » .

« ونحن نعلم من التقارير الأخيرة التى وصلتنا أن خورشيد باشا (محافظ الإسكندرية) قد أعلن أنه لم تكن هناك سخرة وأنه — أى خورشيد —

لايعتقد فى صحة التقارير الخاصة بهذا الموضوع . ولكن هل هو مخطىء ؟ وهل أبطلت السخره ؟ يستحيل على أن أجزم بشىء . وسنقوم بتحقيق دقيق بخصوص هذا الموضوع فى هذه الجهات . وبهذه المناسبة يجدر بى أن أذكر كذلك أنى قد تلقيت أن سلطان تركيا توفى هذا الصباح (١) » .

وتدل إجابة وزير خارجية انجلترا على جهل قنصل انجلترا العام فى مصر بمرامى الشركة وأهدافها حين زعم أن الشركة ستسرح خلال بضعة أيام العشرة الآف عامل الذين أكرههم سعيد باشا على العمل فى حفر القناة وفق نظام السخرة اعتقـادا منه أن الشركة أرادت من استقدامهم إلى ساحات الحفر القيام بمظاهرة تثبت أن العمل يسير قد ما فى تنفيذ المشروع . ولا يعقل أن تظفر الشركة بهذه الكثرة من عمال السخرة ثم تعيدهم من ساحات الحفر أو بالأحرى تطلق سراحهم دون أن تستغل نشاطهم وطاقتهم إلى أقصى حد . وليس بمعقول أن الفائدة التى تجنيها الشركة من القيام بهذه المظاهرة تعدل ماتتكبده من نفقات وجهد فى توفير ماء الشرب لهذا الجيش من العمال فى الصحراء . وكان ماء الشرب وقتئذ أغلى وأثمن وأعز ما تحرص عليه الشركة ، إذ لم تكن ترعة الماء العذب قد بلغت ساحات الحفر ، وكان الماء يجلب فى براميل على ظهور الجمال من مسافات نائية وبنفقات باهظة .

وفى جلسة ٢٣ يوليو ١٨٦١ أثار جريفث للمرة الثالثة فى مدى شهر واحد موضوع تسخير المصريين فى حفر القناة . وكان ذلك بمناسبة زيارة قنصل انجلترا العام فى مصر إلى ساحات الحفر ، فوجه سؤالا إلى وزير الخارجيـــة البريطانية « عمـــا إذا كان المستر كولكوهم Colquhoum قنصل انجلترا العام فى مصر قد زار فى ٢٩ يونيو ١٨٦١ برفقة قنصل انجلترا فى الإسكندرية وبعض الشخصيات ساحات حفر قناة السويس ؟ وهل أبدى

(١) أنظر محضر الجلسة فى الجزء ١٦٣ ص ١٠٦٢ من Hansard's Parliamentary Debates.
كما نشرت جريدة الشركة موجزا وافيا عن تلك الجلسة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ٢١٤ مجموعة السنة السادسة .

هذا القنصل العام ارتياحه لما شاهده وسمعه ؟ إنى أستفسر عما إذا كان يفهم من ذلك أن السخرة يجب ألا تستخدم فى أعمال الحفر وأن تعهدات الوالى نحو الباب العالى فى هذا الشأن تنفذ بروح الإخلاص » .

وقد أجاب اللورد جون رسل وزير الخارجية بقوله « قرأت فى بعض الجرائد الأجنبية هذا الخبر الذى يشير إليه السيد النائب المحترم . ولكنى لم أتلق مكاتبات من القنصل العام منذ ١٥ يونيو . وكان هذا الموظف قد أبلغنى قبل ذلك فى رسالة برقية بعثها إلى برغبته فى زيارة البرزخ . ولكن لم يصلنى شىء عن هذا الموضوع (١) » .

وقبل أن نتعرض للزيارة التى قام بهـا كولكوهم Colquhoum قنصل انجلترا العام والتصريحات التى أدلى بها نقول إن هذه الزيارة لم تتم بعلم الحكومة الإنجليزية فحسب بل برغبتها أيضا . وقد مر بنا أن وزير الخارجية البريطانية قد وعد فى مجلس العموم بجلسة ٢٥ يونيو ١٨٦١ بإجراء « تحقيق دقيق بخصوص موضوع السخرة فى هذه الجهات » . وقد وضع سعيد باشا تحت تصرف قنصل انجلترا العام السفينة البخارية « منفلوط » فأبحر عليها من الإسكندرية فى ٢٩ يونيو ١٨٦١ وصحبه فى هـذه الرحلة سوندرز Saunders القنصل الإنجليزى فى الإسكندرية ولانج Lange مندوب شركة القنـاة فى لندن ورويسنرس Ruyssenaers الوكيل الأعلى للشركة فى مصر والدكتور أوبير روش Aubert Roch كبير أطبائها والهرهنز Henze وهو مهندس ألمانى من قبل قنصل بروسيا وغيرهم . وقـد بلغوا بورسعيد فى ٣٠ يونيو ١٨٦١ وبدأوا طوافهم بساحات الحفر واتجهوا جنوبا مارين بالقنطرة والفردان ومرتفعات عتبة الجسر إلى بحيرة التمساح ، وعندئذ قفلوا عائدين عن

---

(١) أنظر محضر الجلسة فى الجزء ١٦٤ ص ١٣٧٨ من Hansard's Parliamentary Debates.

كما نشرت جريدة الشركة موجزا وافيا عن تلك الجلسة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٢٣ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦١ ص ٢٤٥ مجموعة السنة السادسة

طريق مديرية الشرقية فروا بالتل الكبير والزقازيق ومنها استقلوا القطار إلى بنها فالإسكندرية (١) .

وقد أقام رجال الشركة حفل تكريم لقنصل انجلترا العام فى عتبة الجسر — شمالى بحيرة التمساح — وقد ألقى فى هذا الحفل خطابا طويلا جاء فيه « لقد فرغت من الطواف بكل ساحات الحفر. وإنى لا أزال تحت تأثير ما شاهدت. لقد أعجبت بشجاعتكم وتأثرت من الإتحاد والوفاق والنظام الذى يسود أعمالكم ومن هذا التنظيم الذى جعلكم تذللون كافة الصعاب التى صادفتكم. ولا أشك مطلقا بعد ما شاهدت فى أنه إذا بدت صعاب أكثر خطرا فسيكون التغلب عليها أمرا هينا بفضل رئيسكم الجليل الذى يشرف عليكم . وإنى أرجو ألا تظهر صعاب من نوع آخر ، فى العصر الذى نعيش فيه يجب أن نعمل على تلاشيها . وإنى لأشارككم من كل قلبى فى نجاح مشروعكم . ويسرنى أن أتتبع تقدمه . وأشكركم على الإستقبال الودى الذى أعددتموه لى وإنى أشرب نخب نجاح مشروعكم وإنى لا أشك مطلقا فى نجاحه . أشكركم أيها السادة شكرا عميقاً (٢) » .

وعلى أثر انتهاء حفل التكريم أراد العمال الأجانب فى شركة القناة أن يعبروا لقنصل انجلترا العام عن شكرهم وتقديرهم له، فطلبوا إلى رويسنرس Ruyssenaers الوكيل الأعلى للشركة فى مصر أن يستأذنه كى يسمح للعمال بمقابلته وليلقى أحدهم وهو تويليه Thuilier قطعة من الشعر نظمها لمناسبة هذه الزيارة . وقد أذن لهم القنصل . واستقبل وفود العمال، وقد اصطفوا على شكل دائرة ، ثم ألقى العامل الشاعر قصيدته وأبدى فيها ثقة الجميع بنجاح المشروع وإخلاصهم له . ثم خص القنصل الإنجليزى ببعض أبيات جاء فيها

---

(١) أنظر وصف الرحلة فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٢٣ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦١ ص ٢٤٤ مجموعة السنة السادسة .

(٢) المصدر السابق

Merci surtout à vous, généreux adversaire,
Digne représentant de la vieille Angleterre.
Vous nous avez compris, vous nous avez jngés,
Et faisant bon marché de certains prejugés,
Vous venez resserrer la sublime alliance
Du peuple d'Albion et du peuple de France(1).

وقد صافح القنصل العام العامل بعد أن انتهى من إلقاء القصيدة وقال إنه يصافح فى شخصه كل العمال ثم استطرد قائلا : « أنتم هنا ممهدو الطريق للحضارة . إنكم تواجهون بشجاعة الجو الحار والصعاب التى لابد منها فى مثل هذا المشروع الضخم . إنكم تضربون أحسن الأمثال للعمال المصريين الوادعين الطيبين الذين يعملون فى صفوفكم . ثقوا أن كل عواطفى تتجه نحو مشروع وصل البحرين والذى سيفتح طريقا جديدا لتجارة العالم ، وسأتتبع باهتمام تقدم أعمالكم عن بعد كما تتبعتها عن قرب . وأخيرا أشكركم باسمى وباسم جناب قنصل انجلترا فى الإسكندرية على استقبالكم الودى وأتقبل بسرور هذه القصيدة التى تقدمونها (٢) » .

وقد استغلت جريدة الشركة هذه الزيارة فنشرت تفاصيلها وعقبت عليها بقولها « لم نكف مطلقا عن أن نقول لخصوم القناة : اذهبوا بأنفسكم إلى ساحات الحفر وحينئذ تتلاشى معارضتكم (٣) » . وقد تساءل البعض فى ذلك الوقت عن هاتين الكلمتين اللتين ألقاهما قنصل انجلترا العام وهل هما يعبران عن رأى الحكومة الإنجليزية أو هما صورة انطبعت فى نفسه لما شاهده اثناء الزيارة ؟ الواقع أنهما من قبيل المجاملات الدبلوماسية فليس من الكياسة

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٢٣ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦١ ص ٢٤٥ — مجموعة السنة السادسة وملخص هذه الأبيات : شكرا لك بوجه خاص أيها الخصم الكريم وممثل انجلترا العظيم . لقد أدركت حقيقتنا وأصدرت حكمك لنا . وأنت تعمل على توكيد الإتحاد والائتلاف بين شعبى انجلترا وفرنسا .

(٢) المصدر السابق

(٣) أنظر مقالاً فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٢٣ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦١ ص ص ٢٤٦ — ٢٤٧ مجموعة السنة السادسة .

أن يهاجم القنصل العام مشروع القناة وهو فى ضيافة رحال الشركة يضفون عليه ألوانا من الرعاية والتكريم ويوجهون إليه الخطب الرقيقة . ويؤيد هذا الرأى أن الحكومة الإنجليزية ظلت بعد هذه الزيارة على عدائها للمشروع .

× × ×

وبعد مضى أسبوع واحد على السؤال السابق وجه جريفث فى جلسة أول اغسطس ١٨٦١ سؤالا إلى اللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية قال فيه « أطلب إلى رئيس الخزانة الأول ايضاحا عما إذا كان قد تلقى برقيات من قنصل انجلترا العام فى مصر يؤكد لكم أنه لايكره ولن يكره أحد على العمل فى حفر قناة السويس » . وقد رد رئيس الوزارة البريطانية على هذا السؤال فقال « يبدو أن جموعا كبيرة من العمال قد أكرهت على العمل فى حفر القناة وأن الشركة قد أعطتهم أجورهم بسخاء كبير . ولكنهم كما ذكرت قد سيقوا إلى هناك بالإكراه (١) » .

وكان طبيعيا أن تهلل جريدة الشركة لقول اللورد بالمرستون إن العمال يتناولون أجورهم بسخاء، فأبرزت هذه النقطة وعلقت عليها فى مقال ذهبت فيه مذهبا غريبا يناقض الواقع وحملت قول رئيس الوزارة البريطانية مالا يحتمل وما لا يريد ، فقالت « يبدو بجلاء فى هذا الرد الذى أدلى به اللورد بالمرستون أن خطته أصبحت تختلف عن تلك الخطة التى سار عليها إلى الآن فهو يعترف بأن العمل يسير بنشاط فى حفر القناة ، وهو يعترف بأن العمال الوطنيين (يقصد المصريين) يتناولون أجورا طيبة ، ولكنه لم يشأ أن يقول عما إذا كان العمل يقوم على أساس الإكراه أم الإختيار (٢) » وظاهر جلى أن اللورد بالمرستون فى رده قد أكد مرتين أن العمل يقوم على عنصر الإكراه

---

(١) أنظر محضر الجلسة فى الجزء ١٦٤ ص ص ١٨٢٢ — ١٨٢٣ من
Hansard's Parliamentary Debates.
كما نشرت جريدة الشركة ملخصا لما دار فى تلك الجلسة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٢٤ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦١ ص ٢٦٠ مجموعة السنة السادسة

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٢٤ سالف الذكر

أما السخاء فى الأجـور فستتعرض له عند الكلام على أجـور العمال وحسبنا أن تذكر هنا أن اللورد بالمرستون قد جانب الحقيقة فى هذه المسألة (١) .

× × ×

وفى صيف عام ١٨٦٢ قام سعيد باشا برحلة إلى أوربا استغرقت كما ذكرنا خمسة أشهر زار خلالها إيطاليا وفرنسا وانجلترا وتركيا . وقد أثار جريفث مناقشة طويلة فى مجلس العموم بجلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ حمل فيها حملة عنيفة على سعيد باشا وسفه عقليته وتفكيره وأسلوبه فى حكم الشعب المصرى وأفاض فى الكلام عن الآلام التى يتحملها المصريون الذين يسخرون فى حفر قناة السويس .

استهل جريفث المناقشة بقوله إن الاسئلة التى يوجهها إلى وزارة الخارجية عن قنـاة السويس إنما تتصل اتصالا وثيقا بقضية الإنسانية . وأبان أن انجلترا قد أظهرت فى كل الأوقات اهتماما بالغا لمنع الرق فى كافة أنحاء العالم . وذهب النائب إلى أنه من الطبيعى أن تظفر هذه المسألة باهتمام الحكومة الإنجليزية كذلك ، لأن الغالبية العظمى من العمال الذين يعملون فى حفر قناة السويس قد أكرهت على العمل وفق نظام السخرة . والسخرة ما هى إلا الرق فى صورة أخرى .

ثم أشار إلى رحلة الوالى فى أوربا وقال متهكما فى أسلوب لاذع « أرجو أن تتاح لسعيد باشا فى أثناء مروره بالدول المتحضرة فرصة الوقوف بنفسه على الآراء والأفكار التى تسود العالم المتمدين، ويكون لذلك تأثير عليه ، فيكف عن استخدام نظام السخرة الذى ما هو إلا الرق تحت لفظة أخرى » .

وكان جريفث يبغى أن تصل تفاصيل هـذه المناقشة التى يثيرها البرلمان إلى أسماع سعيد باشا وهو على مقربة من انجلترا إذ كانت الصحف الأوربية قد نشرت أن سعيدا سيصل باريس فى ١٨ مـايو ١٨٦٢ وكانت حكومة الإمبراطور نابليون الثـالث قد أعدت له استقبالا رسميا حافلا وأصدرت

(١) أنظر الفصل الثالث عشر .

أوامرها إلى القوات الإمبراطورية البرية والبحرية بالإشتراك فى هذا الاستقبال. كما كان جريفث يرمى من وراء « الآراء والأفكار التى تسود العالم المتمدين » إلى الحركة الإنسانية وما كانت تهدف إليه من وجوب التخفيف عن متاعب الطبقات الكادحة الفقيرة . وافترض جريفث أن سعيد باشا يجهل الحركة الإنسانية ومراميها وأبدى رجاءه فى أن تتيح له رحلته الأوروبية آفاقا جديدة فى التفكير والثقافة فيقف بنفسه على أهداف الحركة الإنسانية ويعمل على منع الظلم الصارخ الذى ينطوى عليه تسخير الشعب المصرى فى حفر قناة السويس . وقد ناشد جريفث الحكومة الإنجليزية كى تتدخل لمنع هذا النظام القاسى وقال « وإنى لمعتقد آن حكومتنا تولى الناحية الإنسانية فى هذا الموضوع بالغ عنايتها » .

وانتقل جريفث بعد ذلك إلى الإستفسار من وزير الخارجية عن مسألتين :

أولا : إذا كان سعيد باشا قد أكره عشرة الآف فلاح أو أكثر من هذا العدد على الذهاب إلى صحراء البرزخ لحفر قناة السويس .

ثانيا : إذا كان الإتفاق قد تم بين سعيد باشا وبين شركة القناة على أن يأخذ الوالى عن كل فرد من أولئك الفلاحين أربعين فرنكا فى الشهر وأن يقتصر التزام الشركة إزاء العمال على الخبز المقدد « الجراية » لهم .

وبعد أن فرغ جريفث من الناحية الإنسانية تدرج إلى الجانب السياسى ، فطالب الحكومة الإنجليزية باعتبار تصرف سعيد باشا من إكراه الفلاحين على ترك حقولهم لحفر قناة السويس نقضا منه لفرمان سنة ١٨٤١ الذى ضمنت تنفيذه الدول الأوربية ، وتجاهلا منه لقانون التنظيمات وخط شريف

---

(١) بخصوص تفاصيل رحلة سعيد إلى أوربا عام ١٨٦٢ (مايو — ٧ أكتوبر) ومقابلته لملك ايطاليا فيكتور عما نويل وقداسة البابا فى روما وامبراطور فرنسا وإقامة الوالى فى انجلترا . أنظر L'Isthme de Suez مجلد السنة السابعة الأعداد ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ تجد فيها سجلا شاملا لمراحل الرحلة وللخطب التى ألقيت فى الإحتفالات والمآدب التى أقيمت تكريما للوالى فى مختلف الدول الأوربية .

جلخانه . وفوق ذلك رأى جريفث أن مضى الوالى فى هذا الأسلوب الذى يسير عليه فى حكم الشعب المصرى ينطوى على إخلال خطير بواجباته نحو الولاية التى يحكمها . واقترح جريفث على الحكومة الإنجليزية أن تبذل مساعيها لإلغاء الترخيص الذى أصدرته الحكومة التركية مؤخرا إلى سعيد لعقد قرض خارجى . ثم انتقل جريفث أخيرا إلى التدابير العملية الإيجابية لمنع السخرة فى حفر القناة فاقترح أن تتضافر الدول الأربع الموقعة على اتفاق ١٥ يوليو ١٨٦٠ وعلى المذكرات التى وجهت إلى الحكومة التركية بتاريخ ٢٠ يناير ١٨٦٠ و ٢١ مارس ١٨٦٠ — على إلزام والى مصر بمراعاة هذه الإتفاقات ، كما ترك جريفث للوزارة الإنجليزية حرية اتخاذ أى اجراء آخر تراه مجديا للوصول إلى هذا الغرض (١) .

يتضح أن هذا النائب قد ربط بين الجانب الإنسانى والجانب السياسى وخرج بنتيجة أراد إبرازها وهى أن سعيد باشا يتجاهل قوانين ونظم الدولة العثمانية صاحبة السيادة وقتئذ على مصر وأنه أخل بواجباته نحو ولايته ، ورتب على هذه النتيجة مطالبة الحكومة الإنجليزية بالتدخل مع الدول الأوربية فى المسألة المصرية على أساس أن تسوية المسألة المصرية قد تمت فى سنة ١٨٤١ بضمانة الدول الأوربية ، وأن نقضها — بخروج والى مصر عن اختصاصاته — يتطلب تدخل هذه الدول من جديد . ولكن يبدو أن جريفث لم يكن يبغى افتعال أزمة سياسية خطيرة تتدخل فيها أوربا على غرار ما حدث مع محمد على سنة ١٨٤٠ ولكنها كانت مناورة سياسية أراد بها إثارة مخاوف محمد سعيد باشا وهو فى باريس يظفر بمظاهر الحفاوة والتكريم من الحكومة

---

(١) أنظر محضر الجلسة فى الجزء ١٦٦ صص ١٨٢١ — ١٨٢٥ ، ١٨٢٧ — ١٨٢٩ من

Hansard's Parliamentary Debates.

وتجد فى جريدة الشركة وصفا لما دار فى تلك الجلسة . أنظر L'Isthme de Suez العدد ١٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ صص ١٧٣ — ١٧٥ مجموعة السنة السابعة .

الفرنسية وبذلك يكف عن تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة وتحرم الشركة من الركيزة الأساسية التى تستند إليها فى عمليات الحفر ، إذ يرى سعيد باشا أن رعايته للشركة ستعضف بمركزه كوال على مصر . ومما يؤيد هذا الرأى أن الحكومة الإنجليزية قد استبعدت فى هذه الجلسة الجانب السياسى وحصرت المناقشة فى الناحية الإنسانية فقط .

وبعد أن فرغ جريفث من كلامه أعطيت الكلمة لأحد أعضاء المجلس وهو سكوت Scott وقد استهل حديثه بقوله « إنى إذ عدت من زيارة مصر منذ مدة وجيزة أعتقد أنى أستطيع أن أسرد هنا بعض الوقائع التى يطيب للمجلس سماعها » وهذه إشارة إلى أنه شاهد عيان لما يجرى فى ساحات الحفر فهو لا يعتمد فى معلوماته عن تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة على مرويات أو تقارير فما يقوله له قوته وقيمته.وانتقل بعد ذلك إلى الدفاع عن مشروع القنـــــاة أولا والشركة ثانيا ثم انقلب فهاجمها هجـــوما قويا لأنها تسىء معاملة المصريين الذين يسخرون فى حفر القناة ووصفهم بأنهم « أناس تاعسون » و « عمال مساكين » وضرب فى هذا الصدد مثالا أبرزه إبرازا قويا مؤثرا ، ثم حمل على سياسة سعيد باشا إزاء الشركة ، واتسمت كلمته بالإتزان والحكمة والتحفظ وبعد النظر فى معظم أجزائها ، وقرر أنه لا يشاطر الحكومة الإنجليزية رأيها فى أن مشروع القنـاة يحمل تهديدا خطيرا للمتلكات البريطانية فى الشرق لا من الناحية التجارية ولا من الناحية السياسية وقال « ولا يسعنى إلا أن أعتقد — مع اجلالى وتقديرى لأولئك الذين يعتنقون الرأى المخالف . — أنه إذا كانت هذه القناة ستفيد أحدا فإن التجارة البريطانية ستجنى من المزايا ما يفوق تجارة أية دولة أخرى . وليست هناك دولة يهمها أن يكون الإتصال مع الهند سريعا هينا أكثر من دولتنا » .
وبدا اتزان سكوت حين تعرض لاختلاف الآراء حول موضوع استحالة حفر القناة فى برزخ السويس فلم يتحيز إلى رأى خاص ولم يغلب رأى حكومة بلاده على رأى البلاد الأخرى و فى مقدمتها فرنسا فقال « إن المهندسين الإنجليز يعتنقون رأيا ، ويرى المهندسون الفرنسيون الرأى

المخالف ، وعلى هذا فإن الحكم لأحد الفريقين ستكشف عنه الأيام » . وأكد أن سنين عددا سوف تنقضى قبل أن يفتح أى جزء من القناة للملاحة .

وتطرق سكوت من هذه النقطة إلى الكلام عن نظام السخرة فى حفر القناة ، وكان هذا هو أهم جزء فى بيانه ، فدافع عن السخرة من حيث المبدأ فقال إنها نظام قديم مألوف فى الشرق وإنه يصعب فى كافة الدول الشرقية القيام بالمشروعات الكبرى بدون أن تتدخل الحكومة لجمع العمال ، ثم قال « إذا تذكرنا أن الفلاحين يتناولون أجورهم بانتظام ويظفرون بتغذية طيبة فلا يمكن القول بأن عملهم هو السخرة بعينها . إن أجر العامل يتفاوت من ستة بنسات (٢٤ مليما) إلى شلن (٥٠ مليما) فى اليوم وإن العمال يعيشون فى البرزخ أحسن بكثير مما لو كانوا يؤدون أعمالهم العادية فى قراهم .

« ولكن هناك مسألة جديرة بأن تنال من اهتمام الحكومة نصيبا موفورا ، هى أن الفلاحين يتناولون أجورهم فى صـورة صكوك قابلة للدفع وقت الطلب ولا تصرف قيمتها إلا من خزانة المالية فى القاهرة . والحكومة المصرية مدينة لشركة القناة ، وهذه بطبيعة الحال استغلت هذا الظرف لخفض رصيد دين الحكومة . وكان كثير من هؤلاء الناس التاعسين يضطرون إلى قطع مسافات تتراوح بين مائة ميل ومائة وخمسين ميلا لصرف قيمة هذه الصكوك .

« وحين يصل الفلاحون إلى القاهرة لا يستطيع أحد منهم صرفها واستبدال قيمتها إلا من كانت له صلة أو معرفة بشخص ذى نفوذ . أما الباقون فكانت تصرف لهم صكوك أخرى لتجديدها لمدة ثلاثة شهور . وفى هذه الحال لا يجدون وسيلة للتخلص من هذا المأزق سوى بيعها للمرابين والصرافين فى مقابل مبالغ زهيدة جدا .

« فاذا استطاعت حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة القيام بعمل من شأنه أن يمكن هؤلاء العمال المساكين من تسلم أجورهم بطريقة مريحة فإن هذا يكون عملا إنسانيا جليلا من جانبها » .

يبدو تناقض فى هذا الجزء من بيان سكوت فهو يذكر أن معاملة الشركة للفلاحين المصريين معاملة حسنة إذ هى تدفع لهم الأجور بانتظام وإذ هى تقدم لهم الغذاء الطيب حتى غدا عملهم فى حفر القناة يفضل عملهم فى الحقول من حيث مستوى المعيشة ، فكيف يتفق هذا القول مع نعته إياهم بأنهم أناس تاعسون وعمال مساكين وقوله إنهم يقطعون مائة وخمسين ميلا فى السفر إلى القاهرة من أجل صرف الصكوك ثم لايجدون حيلة لصرفها غير بيعها لجماعات المرابين بثمن بخس ؟

أما قوله بأن عمل المصريين فى حفر قناة السويس لا ينطبق عليه نظام السخرة فمردود عليه بأن أهم ما يميز نظام السخرة هو الإكراه ، وقد قلنا فى الفصل الثانى إن عنصر الإكراه متوفر فى عمل المصريين فى حفر القناة . ونقرر هنا قيام هذا العنصر قبل أن تطأ أقدام العمال منطقة البرزخ، منذ أن تشرع الحكومة فى جمعهم من قراهم إلى أن تأذن الشركة بتسريحهم من ساحات الحفر . فعملهم هو السخرة بعينها حتى بفرض أن الشركة كانت تدفع لهم أجورا فلم يكن للعمال دخل فى قبولهم العمل على أساس تلك الأجور ، فما بالنا إذا كانت الشركة لم تدفع أجورا على الإطلاق فى معظم الأحوال كما سنوضحه بالدليل المادى القاطع (١) ؟

ويلاحظ أن النائبين جريفث وسكوت قد اتفقا فى أن كلا منهما قد أولى الناحية الإنسانية عناية ملحوظة : سعى كل منهما لتخليص الفلاح المصرى من قسوة المعاملة التى يلقاها من شركة القناة ، وطالب كل منهما الحكومة الإنجليزية بالتدخل فى مشكلة الفلاحين التاعسين على نحو من الأنحاء .

واختتم سكوت كلمته بمهاجمة سعيد باشا وانتقد الإلتزامات المالية التى ربط بها مصر إزاء شركة القناة ، وقال إن الحكومة المصرية قد اكتتبت بما يقرب من نصف رأس مال الشركة التى تتمتع بامتيازات واسعة النطاق من تملك أراض شاسعة إلى مباشرة حقوق إدارية لها إلى غير ذلك وهى

---

(١) أنظر الفصل الثالث عشر .

إمتيازات قال سكوت عنها إنه « لا يحق لسعيد باشا كوال على مصر أن يصدر فرمانها » وأبدى تخوفه من أنه إذا جاء اليوم الذى تصفى فيه الشركة أعمالها فسيكون مركز الحكومة المصرية حرجا للغاية وتساءل سكوت « أى مبلغ سيفرض على الحكومة المصرية دفعه بصفة تعويض لشركة تناصرها الحكومة الفرنسية كما هو المحتمل ؟ » وأبدى رجاءه فى أن يجىء رد الحكومة الإنجليزية عن هذه المسألة شافيا (١) .

وقد أجاب لايارد Layard وكيل وزارة الخارجية ببيان مسهب باسم الحكومة الإنجليزية عن هذا الموضوع . واهتم بالناحية الإنسانية بعد أن استبعد الناحية السياسية التى تعرض لها كل من جريفث وسكوت من قبل . وكان الفلاح المصرى الذى تسخره الحكومة المصرية فى حفر القناة هو محور البيان .

تكلم لايارد عن عقد الإمتياز الثانى الذى أصدره والى مصر فى ٥ من ينساير ١٨٥٦ وكيف أن المسادة الثسانية منه نصت على الأ تتجساوز نسبة عدد العمال الأجانب خمس عدد العمال المصريين ، وأبان أن الحكمة فى وضع هذا النص هى منع تدفق عمال أجانب على مصر فى نطاق واسع وبشكل خطير . ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام عن لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ التى صدرت لتنظيم استخدام العمال المصريين فى أعمال قناة السويس وكيف

---

(١) الجزء ١٦٦ صص ١٨٢٣ — ١٨٢٥ من
Hansard's Parliamentary Debates.
ومما هو جدير بالذكر أن جريدة الشركة أشارت فى عدة مناسبات إلى الشهسادة التى جاءت على لسان سكوت فى مجلس العموم فى هذه الجلسة للتدليل على حسن المعاملة التى كان يظفر بها الفلاحون المصريون فى ساحات الحفر على يد الشركة . أنظر على سبيل المثال L'Isthme de Suez العدد ١٨٣ الصادر فى أول فبراير ١٨٦٤ ص ٨٥ مجموعة السنة التاسعة . كما أبرز دى‌لسبس هذه الشهادة ابرازا قويا فى خطابه الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العامة لسهمى الشركة بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٦٣ ونشر فى جريدة الشركة العدد ١٧٠ الصادر فى ١٩ يوليو ١٨٦٣ ص ٢٨٣ مجموعة السنة الثامنة .

نص فيها على الشروط الخاصة بإعداد محال لسكنى العمال وتقديم الطعام لهم ووجوب سهر الشركة على ما يكفل راحتهم . ثم قال لايارد بعد ذلك :

« ويلوح مع ذلك مما كنت أسمعه أن هذه الأجور كانت تدفع مقدما ، ولكن فى هذه الظروف كان العمال يعملون رغما عنهم . وقد هرب عدد كبير منهم بالمبالغ التى تناولوها مقدما . ولكى تعمل الشركة على تجنب هذا الهرب قررت وقف العمل بهذا النظام ، ورأت أن يكون دفع الأجور لأصحابها بعد الفراغ من أعمالهم .

« وقد استمرت هذه الحال بعض الوقت ثم اتضح بعد ذلك أن المقاولين توقفوا عن دفع الأجور بتاتا . ويجب على أن أذكر حتى أكون عادلا مع مستر دى‌لسبس أن المقاولين نفوا ذلك . ومع ذلك فإن الحكومة تلقت تقارير تقول إن المقاولين فى العام الماضى قد توقفوا عن دفع الأجور للعمال أنفسهم . وإن هذه الأجور التى يجب دفعها للعمال مباشرة كان يدفع جزء منها إلى مشايخ القرى — رؤساء العمال — وإن الجزء الأكبر منها كان يرسل إلى الوالى نفسه الذى كان يمد الشركة بالغالبية العظمى من العمال كما ذكر منذ لحظات السيد النائب المحترم سكوت الذى زودنا بمعلومات وفيرة . وكانت القيمة تخصم من حساب الباشا الذى يهمه جـدا كما تعلمون حضراتكم تقدم عمليات حفر القناة لأنه أحد المسهمين فى الشركة .

« هذه الواقعة يؤيدها فريق وينفيها فريق آخر ، ولكن من المسلم به أن المقاولين قد اتفقوا مع متعهدين يونانيين فى القاهرة والمدن الأخرى أخذوا على عاتقهم تقديم عمـال فى مقابل أجر خاص عن كل رأس . وقد أدت هذه الحال إلى انتشار البؤس إلى حد عظيم .

« وقد أخبرنا السيد النائب المحترم سكوت أن جما غفيرا من هؤلاء الرجال قد اضطروا إلى قطع مسافة مائة ميل ليتسلموا أجورهم الضيئلة ولكن إذا لاحظنا أن هؤلاء الرجال لا يقضون فى العمل أكثر من شهر وأنهم لايتقاضون أكثر من ستة بنسات فى اليوم ، كان عليهم أن يقطعوا مائة ميل

من أجل الحصول على الأربعة عشر شلنا التى أكتسبوها فى خلال شهر . ومن هذا يتضح أن هذه الحال لا ترضيهم على الإطلاق .

« ويؤسفنى أن أذكر أن كثيرين من هؤلاء الرجال يقطعون مسافات أطول من هذه أيضا . وقد وجد كولكوهم قنصل انجلترا العام فى مصر أن العمال يأتون من جهات بعيدة تقع بالقرب من الشلال الأول . ولما كان هذا التجنيد الإجبارى يتم فى كافة فصول السنة : فى موسم بذر البذور ، وفى موسم الحصاد ، كانت المتاعب والآلام لا تنصب على الرجال فحسب ، بل على زوجاتهم وأولادهم .

« لقد ذكر السيد النائب المحترم سكوت أن شركة القناة قد صرحت بأنها تستخدم ٢٦ الف عامل . وهى تنكر أنها تستخدم ٤٠ ألفا ولكنها فى الواقع تستخدم ٥٦ ألفا إذ أن هؤلاء الرجال يستبدل بهم غيرهم كل شهر . وتتم عملية الإستبدال هذه فى ساحات الحفر وتستغرق بعض الوقت . وكل ما أستطيع أن أقوله إنه من المحتمل أن تؤدى هذه الحال إلى شيوع كثير من ضروب الآلام والبؤس فى البلاد .

« أما الناحية السياسية فلن أتعرض لها . وكل ما أذكره أن جزءا صغيرا من العمل قد أنجز وأن ربع رأس مال الشركة قد استنفد . وفيما يختص بالأسئلة الأخرى التى وجهت إلى وتفسير المعاهدة بين انجلترا والدول الأخرى فإن الإجابات التى أستطيع الإدلاء بها لن تلقى أى ضوء على هذا الموضوع (١) » . وقد قفل بعد ذلك باب المناقشة .

إن أهم جزء فى بيان وكيل وزارة الخارجية البريطانية أنه وصف -بحق- تسخير الشعب المصرى فى حفر قناة السويس بأنه تجنيد إجبارى وأنه كان يتم فى جميع أوقات السنة بغير مراعاة المواسم الزراعية فى مصر الأمر الذى أصاب الإقتصاد المصرى بأضرار جسيمة وأن المتاعب والآلام لم تصب العمال

(١) الجزء ١٦٦ صص ١٨٢٧ — ١٨٣٢ من
Hansard's Parilamentary Debates,

المسخرين وحدهم ولكنها امتدت إلى سائر أفراد المجتمع المصرى من نساء وأطفال .

وفضلا عن ذلك فقد كشف بيان وكيل وزارة الخارجية البريطانية عن عدة حقائق منها أن تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة – أو التجنيد الإجبارى – قد شمل البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، فامتد إلى الشلال الأول جنوبى اسوان . وأن شركة القناة كانت تستبدل عمالا جددا بعمالها القدامى وأن عمليـة التغيير كانت تستغرق بعض الوقت وهو أمر أشاع الكثير من ضروب الآلام والبؤس فى أنحاء البلاد . أما الحقيقة الثالثة فهى مسألة المتعهدين اليونانيين الذين كانوا يقدمون عمالا مصريين للشركة فى مقابل أجر خاص عن كل رأس، ولعل فى استعمال وكيل وزارة الخارجية لهذا اللفظ – رأس – ما يكشف عمـا يرمى اليه من تهكم وسخرية وحقيقة مؤلمة . على أن شركة القناة قد ضاقت ذرعا بالمبالغ التى كانت تؤديها للمتعهدين وهى عشر بارات عن كل رجل فى اليوم الواحد فاستغنت عن خدمات المتعهدين وخاصة بعد أن توسع سعيد باشا فى تنفيذ لائحة العمال وباتت السلطات المصرية تقدم آلافا عديدة من أفراد الشعب المصرى لتسخيرهم فى حفر القناة . أما مسألة أجور العمال فلم يدل وكيل وزارة الخارجية برأى قاطع فيها وستتعرض لحقيقتها فيما بعد .

× × ×

ولقد سارع دى‌لسبس إلى إرسال خطاب ضاف مفتوح بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٦٢ إلى لايارد وكيل وزارة الخارجية البريطانية الذى تكلم باسم الحكومة فى جلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ بمجلس العموم . فقد رأى دى لسبس أن المناقشات التى دارت فى هذه الجلسة « قد تضمنت أخطاء أرى واجبا على أن أصححها لأنها تعطى الرأى العام معلومات خاطئة عن المشروع الذى أتشرف بأن أكون على رأسه » .

وفى مستهل هذا الخطاب أعرب دى‌لسبس عن اغتباطه وشكره لأن

الذين إشتركوا فى هذه المناقشة وفيهم وكيل وزارة الخارجية البريطانية قد اتفقوا ضمنا على فوائد المشروع من ناحيته السياسية كما سجل دى لسبس الإعتراف الصريح الذى جاء على لسان النائب سكوت بالمزايا التى تجنها انجلترا من تنفيذ المشروع وأن الشركة بعيدة عن النفوذ الذى يظن البعض أنه يوجهها .

تطرق دى لسبس بعد ذلك إلى الناحية الإنسانية الخاصة بالفلاحين المصريين فحاول أن يقيم الدليل على أنه ليس للحكومة الإنجليزية حق التدخل فى مسألة السخرة فى مصر ، لأن السخرة من عادات البلاد ومن نظمها فهى تعتبر من صميم الشئون الداخلية للحكومة المصرية واستطرد فقال إن الرق موجود فى أمريكا كما يوجد نحو أربعين مليونا من الأرقاء فى الروسيا ، ومع ذلك فلم تحرك الحكومة الإنجليزية ساكنا . واستشهد بأسبانيا فقال عنها إنها دولة كاثوليكية متعصبة لا تسمح لأحد باعتناق أو نشر مذهب يخالف المذهب الكاثوليكى ، وقد حوكم أفراد كثيرون فى أسبانيا لأنهم عملوا على نشر المذهب البروتستنتى . ولما كانت انجلترا دولة تدين بالمذهب البروتستنتى فقد تعرض البرلمان الإنجليزى لهذا الموضوع . وقد صرح اللورد بالمرستون فى البرلمان برأى الحكومة الإنجليزية فى هذا الموضوع قائلا « إن هذه مسألة تشريع داخلى ولايمكن التدخل رسميا لدى الحكومة الإسبانية » . وهنا تساءل دى لسبس لماذا كفت انجلترا عن التدخل لدى واشنطن ولماذا لم تطالب سان بطرسبرج بإلغاء رق الأرض ولماذا أظهرت هذا التحفظ فى مدريد وفى نفس الوقت تعمل على اتباع سياسة مناقضة لهذه الروح فى القاهرة ؟

وتدرج دى لسبس بعد ذلك إلى مهاجمة النظم الإجتماعية وقسوتها فى انجلترا نفسها ، وأفاض فى الكلام عن سوء نظام استخدام الصبية الإنجليز وكيف يؤخذون للعمل فى سن مبكرة جدا رغما عن ارادتهم . ووصف ما يلاقونه من عنت وقسوة من توقيع العقوبات البدنية عليهم وحرمانهم من الأكل إلى غير ذلك من صارم العقوبات التى تتنافى مع روح الإنسانية .

وأشار إلى مسألة الهندوس وحالة العمال الذين يعملون فى الممتلكات الإنجليزية بالهند ثم قال « فإذا تدخلت فرنسا باسم الحضارة والإنسانية فى هذه المسائل المؤلمة فأى هياج يحدث فى انجلترا بسبب هذا التدخل ؟ وإذا كان لانجلترا حق التدخل لحماية الفلاحين المصريين الأ يحق للدول الأخرى أن تتدخل لحماية الصبية الذين يعملون فى المصانع الإنجليزية » ؟ .

وكاج طبيعيا أن يبرز دىلسبس فى الخطاب ما جاء على لسان النائب سكوت فى مجلس العموم من قوله إن الفلاحين يعيشون فى البرزخ فى أحوال تفضل أحوال معيشتهم فى قراهم . وقد اعتز بهذه الشهادة التى جاءت على لسان نائب انجليزى اعتزازا عظيما .

وعرج على السخرة فقال عنها إنها نظام مألوف فى بلاد الشرق ولاتستطيع انجلترا أن تنكر حق الحكومة المصرية فى جمع العمال لتنفيذ المشروعات العامة. فبفضل نظام السخرة تم انشاء الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة ومن القاهرة إلى السويس ولم تعترض الحكومة الإنجليزية على استخدام السخرة فى تنفيذ هذا المشروع لأنه يخدم الإمبراطورية البريطانية ومصالحها . واستطرد مذكراً أنه حين عصفتالسيول بجزء من خط السويس الحديدى الصحراوى ضغط قنصل انجلترا على الحكومة المصرية لحشد أكبر عدد ممكن من الفلاحين لإصلاح هذا الخط بسرعة حتى لايتعرض نقل البريد الإنجليزى الإمبراطورى لأى تعطيل . وذكر دىلسبس أن الحكومة المصرية أسرفت فى جمع عمال السخرة لهذا الغرض حتى بلغ عددهم خمسين ألفا وأشار إلى الآلام التى تحملها العمال وإلى الضحايا الذين سقطوا نتيجة التسرع فى جمع العمال قبل إعداد الأقوات وماء الشرب لهم فى الصحراء .

وناقش دىلسبس بعد ذلك مسألة استخدام العمال المصريين فى عمليات — حفر قناة السويس فقال إن موضوع استخدامهم قد نظمته اتفاقات عقدت بين والى مصر محمد سعيد باشا وبين الشركة . وكان ضمان راحة الفلاحين المصريين وتحسين أحوالهم موضع العناية عند وضع هذه الإتفاقات . وأوضح أن معارضة الحكومة الإنجليزية لمشروع القناة هى التى أوحت باستخدام العمال

المصريين بهذه النسبة الكبيرة لتجنب إثارة مخاوف انجلترا من قدوم عمال أجانب بكثرة كبيرة تهدد مركز مصر السياسى . وأكد دى لسبس أن الجماهير فى أوربا قد أقبلت على الإكتتاب فى رأس مال الشركة على أساس هذه الإتفاقات التى سبق للحكومة المصرية أن ارتبطت بها ، ثم قال إنه إذا لم تنفذ الحكومة المصرية لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ الخاصة باستخدام العمال المصريين فى عمليات حفر القناة فإن ذلك يؤدى إلى تدخل الحكومة الفرنسية لحماية رءوس الأموال الفرنسية التى تتعرض للخطر .

وذكر دى‌لسبس فى هذا الخطاب أن والى مصر قد حرص فى لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ على أن يكفل للعمال المصريين سبل الراحة وأخذ يعدد المزايا التى يظفرون بها فى هذه اللائحة من حيث الأجور « التى تفوق الأجور المعتادة » والتغذية الطيبة ومنع توقيع العقوبات البدنية عليهم والعنـــاية الصحية بهم والعلاج المجانى . وذهب دى‌لسبس فى الإشادة بهذه اللائحة إلى قوله بأنه « لما نشرت هذه اللائحة استقبلتها أوربا بأسرها بمظاهر الإعجاب . ولم يجرؤ أحد على توجيه أى نقد لها » .

وأخذ دى‌لسبس بعد ذلك يفند البيانات التى ألقيت فى مجلس العموم البريطانى بجلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ فنفى منها ما تعارض مع مصلحة عمال السخرة وقال عن الأجور « إنها تدفع إلى العمال شخصيا ومباشرة دون وساطة أحد من رؤسائهم وإن العمال يتناولون هذه الأجور نقدا وفى الأمكنة التى اشتغلوا فيها فليس هناك أى ظل للحقيقة فى هذه الوقائع التى ذكرت فى البرلمان عن اضطرار الفلاحين إلى قطع المسافات للذهاب إلى القاهرة لصرف أجورهم وتركهم فريسة فى أيدى المرابين فى القاهرة » .

وفند مسألة توقف المقاولين عن دفع الأجور وقال « إنه لم يسمح لعامل بالعودة إلى قريته قبل أن يسوى حسابه ويتناول أجره كاملا وهذا ما أؤكده لجنابكم . وإنى على استعداد لإثباته لأى فرد يناقضنى » . وقال إن الوقائع

تكتلم بنفسها فقد توفى من بين عشرة الآف رجل فى البرزخ عاملان فقط « وهذه النسبة أقل بكثير جدا من نسبة الوفيات فى كافة أنحاء مصر » .

وأطلق دىلسبس العنان لقلمه فاشاد بأسطورة ابتدعها عن أثر السخرة فى حفر القناة فى رفع مستوى المعيشة بين أفراد الشعب المصرى وكان مما قاله فى هذا الصدد « إن الفلاحين يختلطون رويدا رويدا بحضارتنا . خشيتم أن نحمل اليهم البؤس ولكن نحن نحمل إليهم ملايين الفرنكات ندفعها لهم كأجور . وهذه الملايين تنشر فى الريف وستخفف فى فترة من الزمن من ويلات الوبا الذى هو آفة مصر . نحن نسمو بالفلاح إلى مرتبة العامل الحر . نحن نساعد محمد سعيد على تحقيق برنامجه فى الحضارة » .

وتدرج بعد ذلك مدافعا عن صديقه محمد سعيد فذكر الإصلاحات التى أدخلها الوالى للنهوض بمستوى الفلاح وهى الاصلاحات التى تضمنتها اللائحة السعيدية التى صدرت فى ٥ أغسطس ١٨٥٨ .

وأخيرا اختتم دىلسبس خطابه بإبداء أمله فى أن تتعاون الدولتان — فرنسا وانجلترا — بإخاء وإخلاص للنهوض بالحضارة ونشر الأنوار والثراء فى العالم (١) .

هذا هو موجز الرد الذى أرسله دىلسبس وهو خطاب شديد اللهجة فى معظم أجزائه يدل على مقدار الحنق الذى أحدثته البيانات التى ألقيت فى مجلس العموم فى نفسه ووقعها فى دوائر الشركة مما حمله على إرسال هذا الخطاب الضافى .

والواقع أن هذا الخطاب لم يتناول الوقائع التى ألقيت فى مجلس العموم فحسب فهذه لم تستغرق إلا جزءا يسيرا جدا من الخطاب ، ولكنه تعرض لمشروع

---

(١) نشرت جريدة الشركة هذا الخطاب فى العدد ١٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ ص‌ص ١٧٥ — ١٧٩ مجموعة السنة السابعة كما نشره دىلسبس فى وثائقه . أنظر

De lesseps F. : lettres, journal et Documents etc, ouvr. cit., t. IV pp. 225 - 237.

القناة برمته وموقف انجلترا منه فتضمن الخطاب ألوانا من الطعن والتنديد بسياسة انجلترا وإبراز معايب الحياة الإجتماعية فيها ، ودافع عن السخرة من حيث أنها نظام مألوف فى بلاد الشرق ، وأفاض فى الكلام عن مزايا لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ ودافع عن سعيد باشا « الذى يتهم بالباطل » كما قال فى خطابه .

على أن أهم ما يلفت النظر فى هذا الخطاب هو التهديد السافر الذى وجهه دى‌لسبس بتدخل الحكومة الفرنسية إذا حيل بين الشركة وبين تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة . وقد بنى تدخل الحكومة الفرنسية على أساس حماية الأموال الفرنسية التى أسهمت فى مشروع القناة . وقد أشهر دى‌لسبس هذا السلاح فى وجه الحكومة الإنجليزية وغيرها لأن خطابه كان مفتوحا إذ كان يخشى أن تكون للمناقشات التى تثار تباعا فى مجلس العموم حول تسخير المصريين فى حفر القناة أثر على عمليات الحفر وتحرم الشركة من عمال للسخرة. وهذا التهديد بتدخل الحكومة الفرنسية يصور السياسة الأوربية أصدق تصوير تجاه مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر : فأوربا تغزو مصر غزوا ماليا أول الأمر ثم تنتهز أية فرصة للتدخل فى شئون البلاد تدخلا سياسيا ليكون هذا التدخل السياسى بدوره تمهيدا للتدخل العسكرى . وكان يجدر بسعيد واسماعيل أن يتعظا من هذا التهديد، وكان اسماعيل يحكم مصر فى صيف ١٨٦٢ نيابة عن عمه سعيد أثناء رحلة الأخير فى أوربا . فكان يجب عليه بعد أن عين واليا على مصر سنة ١٨٦٣ أن يتخذ من هذا التهديد السافر عظة له ودرسا فلا يسرف فى عقد القروض الأجنبية حتى لا تمثل أوربا هذه السياسة فى فصولها الثلاثة المالية والسياسية والعسكرية .

أما من حيث تفنيد البيانات التى ألقيت فى مجلس العموم فإن دى‌لسبس قد غالى فى تكذيبها مغالاة لايمكن قبولها، ويكفى أنه قرر أن عاملين فقط توفيا من بين عشرة الآف فلاح فى حين أنه فى ذلك الوقت كان وباء التيفوس منتشرا فى ساحة الحفر رقم ٦ بمنطقة عتبة الجسر شمالى بحيرة

التمساح (١) وقد أودى هذا الوباء بحياة العمال المصريين كما أصيب به بعض الأطباء المصريين والأجانب الذين كانوا يتولون الخدمة الصحية بين جموع العمال ولقى بعضهم حتفهم أثناء مكافحتهم هذا الوباء (٢) .

+ + + +

وقد عملت شركة القناة بكافة الوسائل على نشر هذا الخطاب الموجه إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية فنشرته فى جريدة الشركة L'Isthme de Suez فى نفس العدد الذى نشرت فيه تفاصيل ما دار فى جلسة مجلس العموم بتاريخ ١٦ مايو ١٨٦٢ (٣). وعنها نقلته بعض الجرائد الأوربية مثل Journal des Débats فى عددها الصادر فى ٢٤ يونيو ١٨٦٢ وعلقت عليه بمقال بقلم L. Alloury (٤) هاجمت فيه انجلترا واختتمت المقال بقولها إنه لا يحق لانجلترا وهى دولة لم تسهم بأى مبلغ فى هذا المشروع أن تزعم لنفسها الحق فى مراقبة سير المشروع من الناحية الإدارية والمالية . وليعلم جيراننا وحلفاؤنا أنه قد أتيحت لهم فى هذا المشروع الفرص للكسب والإستفادة دون التعرض لأية خسارة . فاذا نجح فسيستفيدون منه أكثر من أكثر من أية دولة أخرى . وإذا فشل المشروع فماذا يعنيهم ؟ (٥) » .

لم يكتف دى‌لسبس بهذا الخطاب ولكنه ناضل لكى يقر فى أذهان الرأى العام الأوربى أن للشركة حقا فى تسخير االشعب لمصرى فى حفر القناة تنفيذا للائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ فعمد إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات العامة

---

(١) أنظر التقرير الذى أرسله الدكتور روش Aubert Roche كبير أطباء الشركة إلى دى‌لسبس بتاريخ ١٠ أبريل ١٨٦٢ يخطره بأن التيفوس ظهر بين عمال الوجه القبلى . نشر هذا التقرير فى جريدة الشركة العدد ١٤٤ الصادر فى ١٠ يونيو ١٨٦٢ ص‌ص ١٩١ — ١٩٢ مجموعة السنة السابعة .

(٢) المصدر السابق

(٣) العدد ١٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ ص‌ص ١٧٥ — ١٧٩ مجموعة السنة السابعة

(٤) هو مؤلف كتاب Comment s'est fait le Canal de Suez

(٥) أعادت جريدة الشركة نشر هذا المقال فى العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص‌ص ٢٢٢ — ٢٢٤ مجموعة السنة السابعة .

فى باريس أعاد فيها شرح المسائل التى تناولها فى خطاب ٢٣ مايو ١٨٦٢ فألقى فى أول يونيو ١٨٦٢ محاضرة عامة عن « حال الفلاحين المصريين الذين يعملون فى ساحات الحفر (١) » ثم ألقى محاضرة أخرى فى ٢٢ يونيو ١٨٦٢ أفاض فيها الكلام على عطف سعيد باشا ورعايته للمشروع وعن حال العمال المصريين والعناية الصحية التى يظفرون بها فى ساحات الحفر (٢) ثم ألقى محاضرة ثالثة فى نفس اليوم تناول فيها بالإسهاب وضوع العمال والأجور التى ينعمون بها إلى غير ذلك (٣) .

ودى لسبس رجل يجيد فن الدعاية حتى ليبدو أنه أحد المتخصصين فيها فعمل على إذاعة هذه المحاضرات فى أوسع نطاق ممكن . وكانت وسيلته إلى ذلك نشرها فى الصحف الأوربية وبعض وكالات الأنباء وطبع بعضها فى كتيبات (٤) . فنشرتها جريدة Le Constitutionnel فى عددها الصادر فى ٢٤ يونيو ١٨٦٢ (٥) وجريدة Moniteur de la Flotte فى عدد ١٠ يوليو ١٨٦٢ (٦) كما نشرت هذه المحاضرات وكالة هافاس Havas الإخبارية فى ٢٠ يوليو ١٨٦٢ ووزعتها على الصحف الفرنسية فى باريس والأقاليم (٧) وكذلك نشرتها وعلقت عليها جريدة Le Siècle فى عدد ٢٨

(١) نشرت جريدة الشركة هذه المحاضرة فى العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص‌ص ١٩٣ — ١٩٩ مجموعة السنة السابعة

(٢) نشرت جريدة الشركة هذه المحاضرة فى العدد ١٤٥ الصادر فى أول يوليو ١٨٦٢ ص‌ص ٢٠٤ — ٢١٣ مجموعة السنة السابعة

(٣) نشرت جريدة الشركة هذه المحاضرة فى العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ ص‌ص ٢٢٥ — ٢٣١ مجموعة السنة السابعة

(٤) F. de Lesseps: Conférence sur les travaux du Canal de Suez et le sort des ouvriers en Egypte. Paris 1862.

(٥) أعادت جريدة الشركة نشر هذا المقال فى العدد ١٤٥ ص‌ص ٢١٣ — ٢١٤

(٦) أعيد نشره فى جريدة الشركة العدد ١٤٦ ص‌ص ٢٢٤ — ٢٢٥

(٧) أنظر جريدة الشركة العدد ١٤٧ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦٢ ص ٢٤٧ مجموعة السنة السابعة .

يوليو ١٨٦٢ (١) وجريدة Le Nouvelliste de Rouen (٢) .

+ + +

وبعد أسبوع واحد من المناقشة التى أثيرت فى مجلس العموم بجلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ وجه نفس النائب جريفث سؤالا فى جلسة ٢٢ مايو ١٨٦٢ إلى وكيل وزير الخارجية قال فيه « أطلب إلى وكيل وزارة الخارجية إذا كانت حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة تعتزم بذل جهود جدية لمنع الباشا فى مصر من الإستمرار فى استخدام نظام السخرة فى أعمال قناة السويس (٣) » .

وقدجاء رد لايارد Layard وكيل وزارة الخارجية البريطانية على هذا السؤال مقتضباً للغاية فلم يزد على « أن هذا موضوع يبحث بين الحكومة المصرية وشركة القناة (٤) » .

وفى جلسة أول أغسطس ١٨٦٢ أثار جريفث نفس الموضوع فى شىء كثير من العنف . وكانت النقط التى أبرزها إنسانية بحته ، فرجا أن تتوصل الحكومة الإنجليزية إلى التخفيف من الآم المصريين الذين يسخرون فى حفر القناة . واستغل فرصة قيام الحرب الأهلية الأمريكية من أجل إلغاء الرق وعطف الرأى العام فى انجلترا على أهداف هذه الحرب . فوصف المصريين المسخرين فى حفر القناة بأنهم أناس بائسون وأنهم يعانون من القسوة ألوانا تفوق القسوة التى يتحملها العبيد فى أمريكا. ولهذا السؤال الذى وجهه جريفث هذه المرة دلالته : وهى أنه لم يقتنع بما جاء فى الخطاب المفتوح المستفيض الذى وجهه دى لسبس إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٦٢ وأكد فيه أن العمال المصريين الذين يعملون فى حفر القناة يظفرون بمعاملة طيبة من الشركة.

---

(١) أنظر جريدة الشركة العدد ١٤٧ سالف الذكر

(٢) أنظر جريدة الشركه العدد ١٤٥ سالف الذكر .

(٣) الجزء ١٦٦ ص ٢٠٢٢ Hansard's Parliamentary Debates.

(٤) المرجع السابق

وهذا هو نص سؤاله : « هل توصلت حكومة حضرة صاحبة الجلالة الملكة إلى التخفيف من استخدام السخرة فى عمليات الحفر فى قناة السويس ؟ إن قسوة فظيعة تفوق فى شدتها استرقاق العبيد فى أمريكا تصب على هؤلاء الناس البائسين الذين ترغمهم الحكومة على العمل فى هذا المشروع . وقد أصبح من المرغوب فيه أن توجه الحكومة كل جهودها لمنع مساوىء هذا النظام (١) » .

وقد أجاب لايارد وكيل وزارة الخارجية البريطانية على هذا السؤال بقوله « ليس فى استطاعتى أن أعطى حضرة النائب المحترم تفصيلات أخرى غير التى أدليت بها فى مناسبة سابقة . وقد ذكرت وقتئذ أنه من الحقيق أن خمسة وعشرين ألف عامل استخدموا فى هذا العمل الإجبارى الذى يزعم البعض أن الفلاحين قد تقاضوا أجورا عن عملهم هذا ، ولكنى اعتقد أن هذا الرقم دون الحقيقة ، وأن عددا من الرجال يتراوح عددهم بين سبعين ألفا وثمانين ألفا قد انتزعوا من أعمالهم التى يؤدونها فى قراهم كى يشتغلوا فى حفر قناة السويس . إن هذه الخطة لا بد أن تؤدى إلى بؤس عظيم . إنها تتعارض بشكل جدى خطير مع الأعمال الأخرى التى تدر على الفلاحين أرباحا أوفر مثل إنتاج القطن .

« ومع ذلك فليست هناك طريقة يمكن أن تتدخل بها الحكومة الإنجليزية لأنه فى كل معاهداتنا مع الحكومة التركية قد احتفظت الحكومة الأخيرة لنفسها باستخدام هذا الأسلوب فى العمل .

« إن كل ما أستطيعه هو أن أرجو أن يدرك والى مصر المساوىء التى لا حد لها والتى ترزح من تحتها بلاده وأن يضع حدا لنظام ينطوى على الكثير من ضروب الآلام والحرمان (٢) » .

---

(١) الجزء ١٦٨ ص‌ص ١١٤٧ — ١١٤٩ من المرجع السابق

(٢) الجزء ١٦٨ ص‌ص ١١٤٧ — ١١٤٩ Hansard's Parliamentary Debates.

ويلاحظ أن وكيل وزارة الخارجية قد أشار إشارة خفية إلى أن المصريين المسخرين فى حفر القناة لايتقاضون أجورا عن أعمالهم وذلك على الرغم من الخطاب الضافى الذى وجهه إليه دىلسبس بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٦٢ وأكد فيه أن العمال يتناولون أجورهم بانتظام . ولم يجانب وكيل الوزارة الحقيقة كثيرا حين قرر بصريح العبارة أن عدد العمال الذين تجبرهم الحكومة على العمل فى حفر القناة وفق نظام السخرة قد تراوح بين سبعين ألفا وبين ثمانين الفا وذلك لأن عدد العمال الذين كانت تسخرهم الحكومة لحفر القناة تراوح فى ذلك العام وهو١٨٦٢ بين عشرين الفا واثنين وعشرين الفا . وكان أولئك العمال يستبدل بهم غيرهم كل شهر . وقد خلص وكيل وزارة الخارجية من ذلك إلى أنه لا مناص من انتشار البؤس بين أفراد الشعب المصرى نتيجة لهذه التعبئة كما أكد أن السخرة فى حفر القناة تؤثر على الإقتصاد القومى فى مصر وأشار لأول مرة فى هذا النضال الذى قام بين انجلترا وبين شركة القناة إلى مسألة القطن وستتعرض لها فى فصل قادم .

وقد كتب ارنست دبلاس مدير جريدة الشركة مقالا ضافيا رد فيه على مادار فى هذه الجلسة (١) ولم يأت بجديد بل كان المقال فى مجموعه تكرارا لما ذكر فى المناسبات السابقة التى كان يثار فيها موضوع السخرة فى حفر القناة .

(١) العدد ١٤٨ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦٢ ص ص ٢٥٢ — ٢٥٥ مجموعة السنة السابعة

الفصل الحادي عشر

موت العمال عطشا فى ساحات الحفر

خطورة مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر – فشل الشركة فى حلها – نقل الماء إلى بورسعيد من الاسكندرية ودمياط والمطرية – استخدام المكثفات – التجاء الشركة إلى كبار المصريين فى منطقة بحيرة المنزلة – أزمات مروعة فى بورسعيد بسبب نفاذ ماء الشرب – خطورة الموقف فى ساحات الحفر فى الصحراء – الاعتماد على مياه الآبار – تأخر قوافل الماء – موت العمال عطشا – تخبط الشركة – العمال يشربون ماء أجاجا – اعتراف دى لسبس بخطورة الموقف – السبب الحقيقى لتفاقم المشكلة – الشركة تغلب الناحية السياسية على حياة المصريين – محكمة السين فى باريس تشهد قصة المشكلة – سعيد ينقذ الموقف – حفر ترعة حلوة صغيرة – الشركة تلجأ إلى أنصاف الحلول – المشكلة فى النصف الجنوبى من البرزخ – ١٠٠ ألف من عمال السخرة يمدون الترعة الحلوة إلى السويس – ازدهار مدينة السويس بعد اضمحلالها .

+ + +

كان جلب ماء الشرب إلى جموع العمال فى ساحات الحفر القائمة فى صحراء البرزخ هو مشكلة المشكلات التى واجهتها الشركة منذ بدأت عمليات تنفيذ المشروع فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ ، إذ كانت تلك المشكلة من الخطر والتعقيد والصعوبة ما جعل كافة مشكلات التنفيذ الأخرى التى صادفتها تتضاءل أمامها .

وقد فشلت الشركة خلال السنوات الأربع الأولى (١٨٥٩ – ١٨٦٢) فشلا ذريعا فى حل مشكلة ماء الشرب . وكان الإضطراب الشديد وارتجال

الحلول هما الطابع الذى اتسمت به تلك الفترة فيما يختص بهذه المشكلة . ولم يبد رجالها يقظة فى مواجهة الموقف واستعدادا لتطوراته وواجهت الشركة حالات خطيرة مكرورة من نقص كميات الماء أو نفادها أو تأخر وصولها أو انعدامها مما جعل تلك السنوات أحلك الفصول سوادا فى تاريخ الشركة وأخطر فترة تعرض فيها العمال لخطر الموت عطشا .

كانت منطقة بورسعيد هى أول بقعة بدأ فيها تنفيذ المشروع ، وأخذت الشركة تنقل إليها ماء الشرب أول الأمر من الإسكندرية فى سفينة بخارية استأجرتها وكانت تسمى « سعيد (١) » وقامت القوارب والسفن الصغيرة فى بحيرة المنزلة بنصيب فى نقل ماء الشرب إلى بورسعيد من المطرية (٢) كما استخدمت الجمال فى نقله من دمياط (٣) . وإلى جانب ذلك استوردت الشركة تباعا خلال عامى ١٨٥٩، ١٨٦٠ ثلاثة مكثفات لتحويل ماء البحر إلى ماء عذب سائغ شرابه (٤) . وكفت الشركة عن جلب ماء الشرب من الإسكندرية واقتصرت على إحضاره من دمياط والمطرية بجانب إنتاج المكثفات الثلاث .

ولم تكن هاتان الوسيلتان كافيتين للوفاء بحاجات عمال بورسعيد وساكنيها، وكانت المكثفات تتوقف عن العمل بسبب عطب يصيب بعض أجزائها .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 79.

(2) Percy Badger, ouvr. cit., p. 41.

(3) Bourdou: Le Miracle de l'eau. Histoire de l'eau douce dans l'Isthme de Suez, p. 323.

وكذلك

Fol, ouvr. cit., p. 14.

(٤) بخصوص تلك المكثفات أنظر كلا من :

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 79, 145 et 168.

Ritt Olivier, ouvr. cit., pp. 173 et 182.

وجريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٦ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٠ ص ٢٠٢ مجموعة السنة الخامسة .

وتأخذ الشركة وقتا طويلا فى اصلاحها بسبب عدم توفر قطع الغيار . وكان خطر انقطاع ورود الماء أو عدم كفاية كمياته لا يزال جاثما ، وهو أمر كانت تترتب عليه نتائج خطيرة من تعرض أرواح المستخدمين والعمال لخطر الموت عطشا ومن اضطراب الأمن وتعطيل سير العمل .

لجأت الشركة إلى مصطفى عنانى بك ، وهو أحد كبار المصريين المشتغلين بتجارة صيد الأسماك فى منطقة بحيرة المنزلة ، وكان له سلطان كبير على سكان تلك المنطقة ويمتلك عددا وافرا من سفن الصيد . واتفقت معه على أن يرسل كميات من الماء العذب لا تقل عن ستة أمتار مكعبة فى اليوم ويضعها فى براميل ، تقدمها له الشركة ، وينقلها فى قواربه لترسو بها تجاه الفنار المقام فى ميناء بورسعيد (١) . وفى مقابل ذلك يتقاضى عنانى بك ستة فرنكات عن المتر المكعب من الماء(٢) . وكان هذا الإتفاق فى مصلحة الشركة إذ كان المتر المكعب من الماء الذى تنتجه المكثفات يكلف الشركة عشرين فرنكا .

ولكن لم يستمر ذلك الاتفاق أمدا طويلا واعتمدت الشركة على وسائلها الخاصة فى جلب ماء الشرب عبر بحيرة المنزلة ثم فشلت وعادت إلى الأخذ بالنظام السابق فعقدت فى يونيو ١٨٦١ اتفاقا مع محمد الجيار — وهو أحد كبار أصحاب السفن فى بحيرة المنزلة ومن ذوى الموارد الضخمة — لنقل ماء الشرب فى براميل تعهدت الشركة بتقديمها إليه ، ولكنها عجزت عن تقديم العدد الكافى منها إلى أن استطاعت استيراد عدد منها فى سبتمبر ١٨٦١ . وكانت كل سفينة تحمل برميلين من الصاج . وكانت سعة كل برميل مترا مكعبامن الماء، ولدى وصول السفينة إلى بورسعيد تفرغ شحناتها ، بواسطة مضخة ضاغطة ، فى خزان شيدته الشركة من الصاج ويسع ٣٢ مترا مكعبا .

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. III, p. 430.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 217-218.

(٢) تقول جريدة L'Isthme de Suez ، أن الثمن كان خمسة فرنكات. أنظر العدد ٩٠ ، الصادر فى أول يناير ١٨٦١ ص ٣—٥ مجموعة السنة السادسة

وكان ثمن المتر المكعب عشرة فرنكات . وقد استمر ذلك الإتفاق نافذا مع محمد الجيار حتى فرغت الشركة من مد خط أنابيب الماء من الإسماعيلية إلى بورسعيد فى ابريل ١٨٦٤ (١) .

وعلى الرغم من هذه التدابير فقد كان الماء فى بورسعيد عزيزا صعب المنال وظل العمال هناك يعانون الكثير من ضروب الحرمان ويتعرضون للموت عطشا بسبب نفاد الماء فى المدينة وتأخر وصول مقادير منه إليها . ويتضح ذلك الحرمان وتلك المخاطر من وصف كتبه أحد الفرنسيين عاش فى تلك الأخطار :

« بورسعيد فى ١٥ من ديسمبر ١٨٦١

« لقد خرجنا من أزمة خطيرة مروعة . فقد كسر أحد المكثفات . ولم تكف مقادير الماء التى ينتجها المكثفان الآخران لمواجهة استهلاك المدينة اليومى فقد زاد عدد السكان زيادة كبيرة ولم نستطع الإعتماد على الماء العذب الذي تجلبه من المطرية سفن الريس محمد الجيار الذي عقد معه اتفاق لنقل الحاجيات عبر بحيرة المنزلة وخاصة لنقل ماء الشرب إلى بورسعيد ورأس العش .

« ومما زاد الموقف حرجا هبوب عاصفة شديدة دامت ستين ساعة متوالية . ولم يصل إلينا أي قارب او سفينة طوال المدة التى استمرت خلالها العاصفة . ولم يكن هناك بد من أن نطبق نظام توزيع الماء على السكان بالبطاقات . وكان نصيب الفرد لايزيد على لترين من الماء لكافة استعمالاته ...

« ولما حل اليوم الثالث ولم يظهر أى قارب أو سفينة فى طريقها إلينا تجمهر العمال ووقفوا عند مرسى السفن المنتظر وصولها من المطرية . ولم تكد هذه القوارب تقف تجاه مراسيها حتى اندفع العمال المتجمهرون -وكان عددهم يتراوح بين مائتين وثلاثمائة عامل ودفعوا جانبا وبكل عنف رجال هذه

---

(١) الإتفاق مذكور فى فوازان بك الجزء السادس ص ص ٢١٨ - ٢١٩ وأنظر أيضاً الجزء السابع ص ص ٦ - ٧ .

القوارب وفتحوا براميل الماء واغتصبوا شحنة المياه .... لم تبق جرعة من الماء فى هذه القوارب وقد غادر العمال المكان .

« إن الموقف خطير . . . » (١)

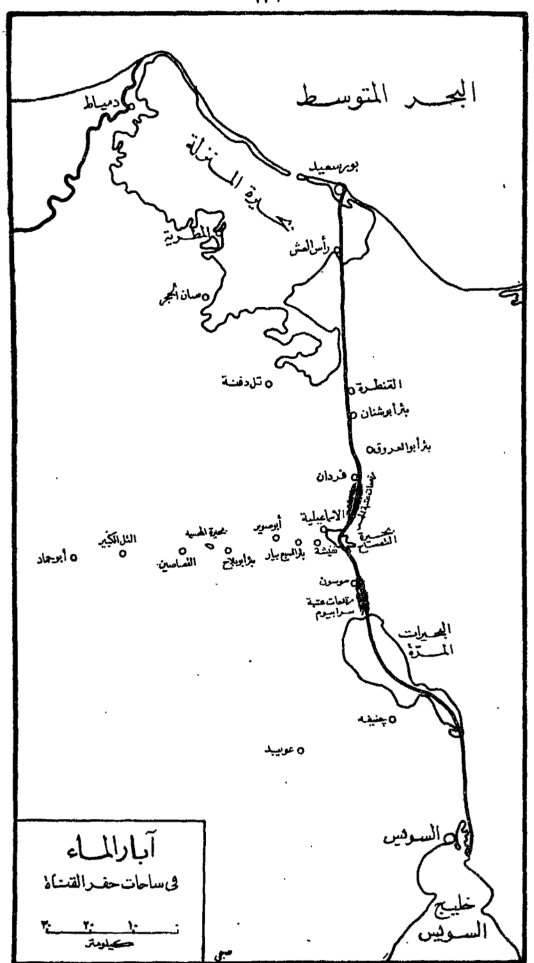
وقد تكررت تلك المأساة فى الشتاء التالى إذ قامت عواصف هوجاء فى ديسمبر ١٨٦٢ تجاه بورسعيد وحالت دون وصول قوارب الماء فعملت الشركة على جلبه من بئر يقع عند « فم طينه » على بعد ٢٥ كيلومترا من بورسعيد غير أن ماء ذلك البئر لم يكن مستساغا (٢) .

ولا يغيب عن البال أن بورسعيد كانت تفضل غيرها من مراكز العمل وساحات الحفر القائمة فى داخل البرزخ إذ توجد بها ثلاثة مكثفات والإتصال بها ميسور بحرا ، والقوارب تشق طريقها إليها من جهات متعددة فى منطقة بحيرة المنزلة ، والجمال ترتاد الشريط الساحلى الواقع بين البحر المتوسط وبحيرة المنزلة فى طريقها من دمياط إلى بورسعيد . كما أن نشاط الشركة فى بور سعيد لم يكن طارئا فقد كانت أول منطقة شهدت تنفيذ المشروع .

وإذا كان الموقف فى بورسعيد لايزال خطيرا بعد أن سلخت الشركة قرابة ثلاثة أعوام منذ بدأت فى تنفيذ المشروع وعلى الرغم من كل المميزات التى كانت تتمتع بها بورسعيد فـإن الموقف كان مروعا بشعا فى ساحات الحفر القائمة فى أعماق الصحراء فى برزخ السويس . فقد ابتعدت عمليات الحفر بعد ذلك عن منطقة بورسعيد وانتقلت جنوبا إلى القنطرة وفرادن ومرتفعات عتبة الجسر حتى بحيرة التمساح . وأخذت الشركة تنقل الماء إلى العمال فى ساحات الحفر من بعض آبار متناثرة فى الصحراء (٣) .

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 225.
(2) Fol, ouvr. cit., p. 15.

(٣) كانت هذه الآبار:
ا — أبو صوير غرب عتبة الجسر
ب — نفيشه عند بلدة نفيشه
حـ — السبع بيار بين البئرين السابقين .
ء — أبو العروق : شمال شرق هضبة عتبة الجسر
هـ — أبو شنان : جنوبى القنطرة .


البحر المتوسط
دمياط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
المطرية
رأس العش
صان الحجر
تل دفنة
القنطرة
بئر أبو شنان
بئر أبو العروق
فردان
الاسماعيلية
بحيرة التمساح
أبو صوير
بحيرة المحسمة
التل الكبير
أبو حماد
القصاصين
بئر أبو بلاح
نفيشة
طوسون
مرتفعات عتبة سرابيوم
البحيرات المرة
جنيفة
عوبيد
السويس
خليج السويس
آبار الماء
في ساحات حفر القناة
١٠ ٢٠ ٣٠
كيلومتر
صبحي

كان الماء عند استخراجه من الآبار يوضع فى براميل تحملها الجمال إلى أماكن حشد العمال(١). وكان كل جمل لا يحمل سوى برميلين ، سعة كل منها سبعون لترا (٢) . وكان متوسط المسافة التى يقطعها الجمل فى اليوم ٤٥ كيلومترا (٣). وكانت الجمال تسير فى قوافل ، قوام كل قافلة عدد يتراوح بين عشرة جمال وعشرين جملا ومعها العدد اللازم من الجمالين ورئيسهم الذى يكون فى مقدمة القافلة (٤) . واستوردت الشركة لهذا الغرض عدداً كبيرا من البراميل (٥) واستأجرت عددا ضخما من الجمال قدره أنصار الشركة بأنه كان يتراوح بين ١,٥٠٠ ١,٦٠٠ جملا (٦) .

إن هذا الأسلوب الذى سارت عليه الشركة فى جلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر كان بدائيا . ونحن لانطلق هذه التسمية جزافا بل نستعيرها من أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس ومساندة لشركة القناة (٧) . فالماء كان يجلب من مسافات بعيدة للغاية على ظهور الجمال ويكفى أن نذكر أن قافلة الجمال كانت تأخذ أربعة أيام فى ذهابها من القنطرة إلى مورد الماء وفى عودتها منه (٨) وإذا تأخر وصول القافلة ، وهو أمر كان يحدث غالبا ، كان الموت يحصد العمال حصدا (٩) . ومن هنا يقول فارمان إن العمال كانوا يموتون كالذباب (١٠) . أما ديسى فيقول إنهم كانوا يموتون كالماشية (١١) .

---

(1) Micard : Le Canal de Suez et le gènie français. Paris p. 135.
(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 221.
(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VII, p. 4.
(4) Ritt, ouvr. cit., p. 232.
(5) ibid.
(6) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VII, p. 5.
أما فارمان قنصل الولايات المتحدة فى مصر فيقرر أن ١٦٠٠ جمل أو أكثر قد استخدمت لهذا الغرض وأن مصر هى التى قدمت هذا العدد من الجمال. أنظر
Farman, ouvr. cit., p. 202.
(7) Fontane Marius, ouvr. cit., 2ème partie, p. 138.
(8) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 168.
(9) Hoskins, ouvr. cit., p. 365.
(10) Farman, ouvr. cit., p. 203.
(11) Dicey, ouvr. cit., p. 36.

كان معظم العمال يلوذون بالفرار من ساحات الحفر حين يستشعرون الخطر الداهم بسبب نفاد كميات الماء وتأخر وصول مقادير أخرى فيلتمسون النجاة بالهرب قبل أن يدركهم الموت . وكانوا فى تلهفهم على النجاة بأرواحهم لا يقدرون خطورة ما هم مقدمون عليه من احتياز صحراء وهم لايحملون ماء ، وينسون بعد الشقة التى تفصل بين ساحات الحفر وبين الأماكن المأهولة والتى توجد فيها مياه الشرب ، فكانوا يلقون حتفهم فى الطريق من شدة العطش وتظل جثثهم فى العراء على رمال الصحراء تنهشها الذئاب . ويقول ريت « إذا ضلت الطريق قافلة الجمال التى تحمل ماء الشرب نتيجة أوامر أسئ إعطاؤها أو أسئ فهمها أو أسئ تنفيذها فإن فوجا بأسره من العمال يعوزه الماء ويكون هربهم هو أقل الكوارث التى تنجم عن هذا الحادث (١) » . وقد ذكر هذا الكاتب هرب العمال على أنه أقل الكوارث ولا شك أنه كان ينظر من زاوية معينة هى مصلحة الشركة فاعتبر هرب العمال كارثة تؤثر على إنتاج الشركة فى الحفر وتجنب أن يذكر الكوارث الأخرى التى تصيب المجتمع المصرى نتيجة موت الفلاحين عطشا فى ساحات الحفر . وليس بمستغرب أسلوب هذا الكاتب فى وصف ضحايا مشكلة ماء الشرب لأنه فرنسى ومستخدم فى شركة القناة يهتم بمصالحها وكثيرا ما دافع فى كتابه عن تصرفاتها .

وكان هناك قلة من العمال يستسلمون لقضاء الله وقدره ، لايبرحون ساحات الحفر يحدوهم الأمل فى وصول القافلة التى تحمل ماء الشرب . وكان يطول انتظارهم ويلفظون أنفاسهم قبل أن تدركهم قافلة الجمال .

أما العمال الذين قدرت لهم النجاة فقد قاسوا كثيرا من جراء هذه المشكلة ، إذ كان بعضهم يشرب من آبار يميل ماؤها إلى الملوحة ، كالعمال الذين اشتغلوا فى منطقة بحيرات البلاح ، إذ كانوا يأخذون حاجتهم من الماء من بئر (أبو العروق) . وكان أنعدام الماء الصالح للشرب فى تلك المنطقة

---

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 232.

يضطرهم اضطرارا إلى تناول ذلك الماء الأجاج (١) . وظل العمال يتجرعون ذلك الماء ردحا من الزمن إلى أن دل أحد رؤساء الأعراب، ويسمى الحاج سالم، رجال الشركة فى أغسطس ١٨٦١ إلى موقع بئر بالقرب منهم . هو بئر (أبو شنان) (٢) . تصلح مياهه لشرب الانسان فوجهت الشركة قوافل الجمال شطره تنقل مياهه إلى العمال (٣) . ويكشف هذ الحادث عن اضطراب الشركة فلم تقم بدراسة تربة البرزخ دراسة وافية على الرغم من أنه كان لها عدة فرق فنية عهدت إليها فى مناسبات عديدة ارتياد البرزخ ودراسة تربته والكشف عن مواطن الآبار فيه (٤) .

ومن دلائل ارتجال الحلول والإضطراب الشديد أن تشرع الشركة فى تنفيذ مشروع موقت يجلب ماء الشرب إلى مناطق كثيرة واسعة ثم تتركه جانبا حين تكتشف على مقربة من مكان المشروع ، فى منطقة تحفها التلال ، بئرا يصلح ماؤه لشرب الانسان فتنصرف إليه ويضيع الوقت الذى صرف فى الدراسة والإعداد وتضيع الجهود التى بذلت فى تنفيذ بعض مراحل المشروع (٥) .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VII, pp. 5-6.

(2) Berchère, ouvr. cit., p. 49.

تجد فى هذا الكتاب قصة العثور على ذلك البئر .

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 220.

(٤) كانت الشركة قد كونت خمس فرق للقيام بالأبحاث فى البرزخ . وقد عهد إلى الفرقة الثالثة بالبحث عن الآبار . كما أن مجلس إدارة الشركة قد أقر فى جلسة ١٤ فبراير ١٨٦٠ عدة تدابير كانت لجنة الادارة قد اتخذتها بجلسة ٢٤ يناير ١٨٦٠ وكان من بينها مسح أراضى البرزخ ودراسته والتعرف عليها . أنظر
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 82, 141-144 et 145.

(٥) كان هذا المشروع يقوم على الاستفادة من مياه الفرع البلوزى القديم فتحفر ترعة تخرج من ذلك الفرع عند قرية تل دفنه قبيل مصبه فى بحيرة المنزلة . وتتجه الترعة شرقا مسافة ٢٠ كيلومترا حتى تبلغ القنطرة فتغذى منطقتها بماء الشرب ، وفى نفس الوقت تنشىء الشركة فى القنطرة محطة مائية يخرج منها خط أنابيب ماء يتجه شمالا إلى بور سعيد فيغذى بدوره المدينة وسائر ساحات الحفر ومراكز العمل التى تقع فى طريق خط الأنابيب . ومن ناحية ثالثة تستغل الشركة موقع القنطرة على القناة البحرية الصغيرة — مصغر قناة السويس — فتنقل ماء الترعة

كما كانت الشركة تقوم بتنفيذ مشروع موقت هو مشروع بحيره المحسمة يغنيها عن ماء الآبار وتصرف فيه جهدا ووقتا ومالا ولكنه يفشل فشلا تاما فتمضى فى طريقتها الأولى البدائية من حيث الإعتماد على قوافل الجمال فى نقل الماء من آبار الصحراء (١) .

وكان نقل ماء الشرب بهذه الطريقة البدائية إلى ساحات الحفر يكبد الشركة نفقات باهظة ، فبلغت تكاليف نقل المتر المكعب من الماء إلى منطقة القنطرة ٢٥ فرنكا أى ما يوازى مائة قرش تقريبا ، وإلى منطقة مخفسر ٢٠ فرنكا ، وإلى عتبة الجسر ١٥ فرنكا (٢) .

وليس أدل على نقص كميات ماء الشرب من خطاب نشره دىلسبس فى وثائقه . وكان قد أرسل هذا الخطاب من القاهرة بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٦٢ إلى مندوب المقاول العام للشركة فى منطقة بئر « أبوبلح » بالقرب من بحيرة التمساح ، وقد جاء فيه « أبلغنى الوالى أن رجال الوجه القبلى يشكون من أنه وزع عليهم منذ اليوم الأول لوصولهم ساحات الحفر خبز جاف قد تسرب إليه التعفن وأن ماء الشرب كان قليلا وأن .... وقد نفيت له كل

فى سفن ذات صهاريج أو قوارب عادية توضع فيها براميل تملأ ماء وتسير القوارب فى القناة البحرية إلى فردان عند سفح مرتفعات عتبة الجسر ومن هناك تحملها الجمال وتوزعها على ساحات الحفر الواقعة فى المنطقة الشمالية من هضبة عتبة الجسر . واستكمالا لأسباب نجاح المشروع شيدت الشركة فى يوليو ١٨٦١ سدا عند نهاية الفرع البلوزى يحجز خلفه ماء النيل بدلا من ضياعها فى بحيرة المنزلة من ناحية ولتعلية منسوب الماء فى ذلك الفرع فتنساب المياه فى ترعة تل دفنه فى سهولة ووفرة من ناحية أخرى . ثم شرعت فى حفر الترعة من ناحية الفرع البلوزى حتى إذا قطعت فى حفرها مسافة خمسة كيلومترات أوقفت العمل لاكتشاف بئر أبوشنان .

(١) كان هذا المشروع يقوم على الاستفادة من مياه بحيرة المحسمة غربى عتبة الجسر . ورأت الشركة أن تحفر ترعة طولها ٢٦,٨٠٠ متر تخرج من بحيرة المحسمة وتصب فى بئر « أبو بلاح » وهناك تحفظ المياه فى حوض تشيده الشركة ويخرج منه خط مزدوج من الأنابيب ينساب فيه الماء إلى ساحات الحفر فى عتبة الجسر .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 219 et 221, t. VII, pp. 4 et 9.

هذا . ولكن ليس هناك دخان بدون نار . وعليك أن تنظر فى الأمر بنفسك(١)»
وقد تكلم ديلسبس هنا عن عدم كفاية مقادير ماء الشرب وتجنب أن ينشر شيئاً عن نفاد ماء الشرب أو تأخر وصوله إلى آخر تلك الكوارث التى حلت بالعمال المصريين فى ساحات الحفر وألقت بهم فى موارد الهلاك . ولكنه قرر فى مناسبة أخرى أن شغله الشاغل كان إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء وعلى الأخص إمدادهم بماء الشرب قبل كل شيء . وقد ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هى فى توفير ماء الشرب فى ساحات الحفر ، أى أن نجاح تنفيذ المشروع وإعداد الكميات الكافية من ماء الشرب إنما هما عبارتان مترادفتان (٢) .

والشطر الأخير من قول ديلسبس هو دفاع عن الشركة سقيم لتبرير موقفها ، إذ لا شك أن شركة القناة كانت مسئولة عن هذا الوضع وعن الخسائر الجسيمة فى الأرواح لأنها قلبت رأسا على عقب المنهاج المرسوم لتنفيذ المشروع ، واهتمت بالناحية السياسية وأغفلت الناحية الإنسانية ، وبعبارة أخرى لم تكترث بأرواح العمال وعنيت وقتئذ بتدعيم مركزها فى المعترك الدولى .

ولتفسير ذلك نقول إن عقد الإمتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير ١٨٥٦ نص على أن تقوم الشركة إلى جانب إنشاء قناة السويس بحفر ترعة للماء العذب تستخدم فى أغراض الرى والملاحة النهرية ، تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح ثم تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالا إلى بورسعيد والآخر جنوبا إلى السويس

وكان لينان بك وموجل بك كبيرا مهندسى الحكومة المصرية قد وضعا بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٥٥ — قبل صدور عقد الإمتياز الثانى — تقريرهما

---

(1) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 149-150.

(٢) محاضرة عامة ألقاها ديلسبس فى جمعية المهندسين بباريس بتاريخ ٢٢ يونيو ١٨٦٢ ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٦ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٢ مجموعة السنة السابعة .

المعروف باسم « المشروع الإبتدائى لشق برزخ السويس (١) » وقررا فيه أن تكون الأسبقية فى التنفيذ لترعة الماء العذب فيتم حفرها قبل أن يشرع فى حفر قناة السويس . واستندا فى رأيهما إلى أن قناة السويس تجتاز منطقة صحراوية ينعدم فيها الماء الصالح للشرب إلا من بعض آبار قليلة متناثرة لاتفى بإمداد جموع كثيفة العدد من العمال بماء الشرب . فاذا بدأت الشركة بحفر الترعة الحلوة استطاعت أن تواجه الموقف باطمئنان حين تحشد العمال وسط البرزخ لحفر قناة السويس . كما اقترحا أن تخرج الترعة الحلوة من القاهرة عند بولاق وتتجه شرقا إلى بحيرة التمساح ، ثم يخرج من الترعة فرع طوله ٨٧ كيلو مترا يمتد جنوبا إلى السويس ، ويمد موقتا إلى بورسعيد خط أنابيب ماء طوله ٨٠ كيلومترا على أن تستبدل بذلك الخط من الأنابيب ترعة فيما بعد (٢) .

وقد اتفق سعيد وديلسبس على أن تتولى الحكومة المصرية حفر الترعة الحلوة وإنشاء ملحقاتها على نفقة الشركة قبل تأسيسها ، طبقا للمواصفات التى جاءت فى تقرير كبيرى مهندسى الحكومة المصرية ، حتى إذا ما طرحت الأسهم للإكتتاب وتكونت الشركة قامت بتسديد نفقات حفرها للحكومة المصرية (٣) .

ولما عرض تقرير لينان بك وموجل بك على اللجنة العلمية الدولية لدراسته أقرت ما جاء به خاصا بوجوب البدء بحفر ترعة الماء العذب وأحيطت علما بأن الحكومة المصرية هى التى ستتولى حفرها على نفقة الشركة المستقبلة (٤) .

---

(1) De Lesseps F.: Percement etc., ouvr. cit., t. II, p. 67-214.

(٢) أنظر معلومات مبسطة عن مشروع ترعة الماء العذب كما ورد فى تقرير كبير مهندسى الحكومة المصرية فى فوازان بك
الجزء الرابع ص‌ص ١٧ – ٢١ ، ٣٠ ، ٨٠ ، ٣٣٩
الجزء السابع ص ٢ .

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, pp. 80, 339 et 341.

(4) Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, pp. 78-80, op et 339.

وأصدر سعيد باشا « أمرا كريما » جاء فيه « إنه بمنه تعالى سيصير البدء والشروع فى عملية ترعة السويس . وحيث أن الاهتمام فى تنجيز وتأدية لوازمها بمجرد طلبها فى الوقت والحال من أقصى مرغوبنا ، فقد صدرت أوامرنا إلى جهات الإقتضاء عن ما ذكر ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتعلموا ذلك وبحال ورود مكاتبة إليكم بطلب أى شيء للزوم تلك العملية سواء كانت من ديوان محافظة مصر أو من المهندسين المأمورين بأشغال الترعة المذكورة تبذلوا كمال الهمة فى تأديته بوقته وساعته بدون تأخير كما هو مطلوبنا (١) » . وفى النصف الثانى من عام ١٨٥٦ اتخذ سعيد التدابير النهائية لحفر الترعة (٢) ، واستورد من انجلترا وفرنسا المهات اللازمة لتنفيذ مشروع الترعة الحلوة (٣) ووضع المهندسون علامات على الأرض لتحديد خط سير الترعـــة . وكان عدد العمال الذين يعملون وقتئذ اربعمائة عامل ولكن دى لسبس لم يقنع بهذا العدد وطالب برفعـــه إلى ألف . وجريا على عادته مع سعيد باشا كتب دى لسبس إليه من باريس فى ٣١ مارس ١٨٥٧ خطابا يفيض بإطرائه ومدحه ويؤكد له أنه — أى سعيد باشا — أصبح موضع تقدير العالم أجمع ، وأخذ يحثه على المضى فى حفر ترعة الماء العذب وقال

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر عربى رقم ١٨٨٤ ص ٥ فى ٢٣ جماد أول ١٢٧٢ (٣١ يناير ١٨٥٦) .

هذا وقد أصدر سعيد باشا فى نفس اليوم عدة أوامر مشددة على غرار هذا الأمر إلى كل من محافظ القاهرة ومدير القليوبية والقلعة السعيدية وغيرها من الجهات الحكومية . أنظر محفوظات قصر عابدين :

دفتر رقم ١٨٨٣ وثيقة رقم ٥٥ ص ١٩١ ووثيقة رقم ١٤٣ ص ١٩٣ ووثيقة رقم ١٨ ص ١٤٤

ودفتر رقم ١٨٨٤ وثيقة رقم ٣٣ ص ٤ .

(2) Rassignal, ouvr. cit., p. 37.

(٣) استورد موجل بك فى أكتوبر ١٨٥٦ من انجلترا بموافقة الحكومة المصرية ولحسابها ٣٨ ألف متر من الأنابيب قطر بعضها ٢٥ سم وقطر البعض الآخر ٣٠ سم . كما استورد من فرنسا ٧٢ ألف متر من الأنابيب قطر بعضها ١٦,٥ ، ١٥ ، ١٢ ، ١٠ سم . واستورد أيضا عددا كبيرا من الأكواخ الخشبية الكبيرة التى يسهل نقلها من مكان إلى آخر بعد فك أجزائها .

« وطبقا لما لمسته بنفسى فى باريس وفى لندن وطبقا لما كتبه إلى نيجريللى Negrelli (١) وباليوكابا Paleocapa (٢) يمتدح العالم كله سموكم لشروعكم فى أعمال حفر ترعة الماء العذب. وأؤكد لسموكم بكل ثقة أنكم تستطيعو ن متابعة هذه الأعمال دون أن يكون هنـاك أى مبرر للقلق أو للمخاوف إذا كان الوقت وحاجات الزراعة وموارد الحكومة تسمح بتنشيط هذه الأعمال إلى الحد المطلوب (٣) » . وقام دى لسبس من ناحيته بوضع مشروع لائحة موقته لتنظيم العمل فى حفر تلك الترعة وأرسله من أوربا فى شهر ابريل ١٨٥٧ إلى رويسنرس الوكيل الأعلى لشركة القناة فى مصر (٤) .

ولكن حدث أن تلقى سعيد باشا فى شهر يوليو ١٨٥٧ خطابا من دى لسبس يخطره فيه برغبته فى طرح موضوع ترعة الماء العذب برمته على اللجنة العلمية الدولية من جديد لدراسته مرة أخرى وإبداء رأيها فى المشروعات النهائية التى وضعها مهندسو الحكومة المصرية وخاصة فيما يتصل بتحديد الموقع الذى تخرج منه الترعة من النيل والبت فى نوعها وهل تكون ترعة صيفية أو ترعة نيلية . ثم ذكر فى خطابه أن البدء من ذلك الوقت فى حفر ترعة الماء العذب التى هى جزء متمم لا ينفصل عن مشروع شق برزخ السويس يعد أمرا سابقا لأوانه وأنه لما كان الوقت قد حان لتكوين شركة القناة فقد أصبح من المرغوب فيه أن تترك للشركة المستقبلة الحرية التامة فى العمل فتتخذ الحلول التى تراها كفيلة برعاية مصالحها وخاصة فيما يتصل بموضوع رى الأراضى الشاسعة الممنوحة للشركة (٥) . وعلى أثر تلقى هذا الخطاب أوقفت الحكومة المصرية العمل فى ترعة الماء العذب (٦) .

---

(١) مفتش عام السكك الحديدية النمساوية وعضو اللجنة العلمية الدولية .

(٢) وزير الأشغال العمومية فى مملكة بيدمنت بايطاليا وعضو اللجنة العلمية الدولية .

(3) De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. II, pp. 40-42.

(٤) المصدر السابق . الجزء الثانى ص ص ٤٧ - ٤٩ .

(5) Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, p. 340.

(٦) المصدر السابق . الجزء الرابع ص ٣٤٠ والجزء السادس ص ٨ .

ولا ريب أن الأسباب التى أوردها دى‌لسبس لم تكن طارئة بحيث تبرر تغيير الشركة لخطتها تغييرا فجائيا وتاما بل هى أعذار واهية مختلقة أريد بها تغطية موقف سعيد باشا ودى‌لسبس بعض الوقت ريثما تهدأ العاصفة السياسية التى أثارها فى ذلك الشهر اللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية. فقد وجه بركلى Berkeley أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى سؤالا إلى بالمرستون بجلسة ٧ يوليو ١٨٥٧ ليوضح أسباب معارضة الحكومة الانجليزية لمشروع القناة . وانتهز بالمرستون الفرصة فهاجم المشروع هجوما صارما وصرح بأن الحكومة الإنجليزية قد استخدمت خلال الخمسة عشر عاما السابقة كل ما فى وسعها من نفوذ فى القسطنطينية وفى مصر لمنع تنفيذ المشروع . وأعلن أن الحكومة الإنجليزية لم ولن تتأخر عن مناهضته . وأكد أن المشروع قد بنى على أساس الإضرار بمصالح انجلترا وإيجاد طريق أسهل إلى الممتلكات الإنجليزية فى الهند ، وأنه قد بنى أيضا على أساس فصل مصر عن تركيا ، وهو أمر يتعارض مع الخطة السياسية التى درجت عليها انجلترا ، وهى المحافظة على سلامة ممتلكات الدولة العثمانية والتى من أجلها خاضت انجلترا غمار حرب القرم . ولم يفت بالمرستون أن يتهكم على القائمين بأمر المشروع ، ونعته بأنه مشروع وهمى ، أريد به السطو على عقول السذج من أرباب الأموال لاغتيال أموالهم ، وختم تصريحه فى المجلس بتأكيد أن مشروع القناة إنما هو مشروع ضار بالمصالح الإنجليزية من جميع الوجوه (١) .

وقد طغت موجة من التشاؤم على الدوائر الفرنسية والمصرية وغيرها من الجهات المناصرة للمشروع . وبذل دى‌لسبس فى ذلك الوقت جهودا جبارة للتخفيف من مخاوف سعيد باشا من ناحية ، ولالتماس مساعدة الحكومة

---

(١) محضر جلسة ٧ يوليو ١٨٥٧ بمجلس العموم البريطانى الجزء ١٤٦ ص‌ص ١٠٤٣ — ١٠٤٤ من

Hansard's Parliamentary Debates.

ويلاحظ أن موضوع قناة السويس قد أثير مرة أخرى فى مجلس العموم بجلسة ١٧ يوليو ١٨٥٧ وأعاد بالمرستون الاعتراضات التى ذكرها فى جلسة ٧ يوليو ١٨٥٧ . أنظر الجزء ١٤٦ ص‌ص ١٧٠٤ — ١٧٠٧ . من نفس المصدر

الفرنسية من ناحية ثانية ، واطلاع الرأى العام الأوربى على حقيقة المشروع من ناحية ثالثة . وعلى هذا أرسل دى لسبس الخطاب إلى سعيد باشا وقال فيه « هذه التصريحات التى أدلى بها اللورد بالمرستون ستكون أساسا يسترشد به الممثلون السياسيون لإنجلترا فى الخارج وستكون حتما مبعث ارتباكات ومتاعب لسموكم أرغب فى أن تتلافوها (١) » وأبان بعد ذلك أن الطريقة المثلى فى ذلك الوقت هى وقف العمل فى حفر ترعة الماء العذب وترك ذلك المشروع تتولاه الشركة حين يحين الوقت المناسب لتأسيسها .وعلى هذا كان موقف انجلترا العدائى من المشروع وعنف معارضة اللورد بالمرستون سببا غير مباشر فى تعطيل تنفيذ حفر ترعة الماء العذب سنة ١٨٥٧ .

وقد ظل موضوع هذه الترعة على ماله من أهمية بالغة معلقا ردحا من الزمن ينتقل من هيئة إلى هيئة ويتردد بين التنفيذ والتعطيل حتى عرض على مجلس الأشغال الأعلى (٢) فى نوفمبر ١٨٥٨ . وأبلغ دى لسبس الأعضاء بالإتفاق الذى تم بين سعيد باشا وبينه بشأن إيقاف العمل فى حفرها وبأن تنفيذ مشروعها قد غدا منوطا بالشركة ثم بحث المجلس مشروع الترعة فحدد المجلس نهائيا قصر النيل بالقاهرة ليكون مخرج الترعة.وكان أمام المجلس رأيان أحدهما يقول بوضع مشروع ترعة اتساعها عشرون مترا تحقق جميع أغراض

---

(١) أنظر خطابا ثانيا ارسله دى لسبس من باريس بتاريخ ١٢ أغسطس ١٨٥٧ إلى سعيد باشا فى

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. II, pp. 118-120.

(٢) كون دى لسبس هذا المجلس فى ٢٢ نوفمبر ١٨٥٨ وتكونت الشركة فى ١٥ ديسمبر ١٨٥٨ . وفرض دى لسبس نفسه رئيسا على مجلس الأشغال الأعلى على الرغم من أنه لم يكن مهندسا ولم تسبق له دراسة الهندسة على الاطلاق . وكان يضم المجلس عدا الرئيس ستة أعضاء أحدهم باليوكابا وزير الأشغال العمومية فى بيدمنت بايطاليا وكونراد رئيس اللجنةالعلمية الدولية وهو من هولندا . أما بقية الأعضاء فكانوا فرنسيين . وكان اختصاص هذا المجلس هو دراسة المسائل الفنية ومشروعات الاتفاقات التى تعقدها الشركة مع المقاولين وغيرهم لتنفيذ المشروع

الشركة : فتجلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر وتستخدم طريقا مائيا يربط منطقة القناة بجهات الدلتا وتقوم بالدور الرئيسى الخالد المقدر لها وهو رى الأراضى الواسعة الممنوحة للشركة وكانت تبلغ مساحتها ١٣٣ ألف هكتار (الكهتار يساوى فدانين) . أما الرأى الآخر فيقول بوضع مشروع موقت قوامه حفر ترعة صغيرة اتساعها عشرة أمتار تفى بمطالب السنوات القليلة التالية . وقد أخذ مجلس الأشغال الأعلى بالرأى الثانى (١) .

وهنا أبدى موجل بك رأيا غريبا وخاطئا ، وكان موجل بك قد عين مديرا عاما للأشغال بالشركة (٢) ، فقرر أنه إذا أريد ألا يتأخر حفر قناة السويس فيجب ألا يعلق حفرها على الفراغ من حفر ترعة الماء العذب (٣) . وقد أخذ المجلس برأيه وقرر تنفيذ مشروع القناة بشقيه فى وقت واحد : قناة السويس وترعة الماء العذب ، ولكن فى حدود ضيقة بأن قلل من اتساع القناة والترعة وعمقها ريثما يحين الوقت المناسب لتوسيعها وتعميقها طبقا لما جاء فى تقرير اللجنة العلميةالدولية ..

أما وجه الغرابة فى رأى موجل بك فيرجع إلى أنه كان من أشد الناس رغبة فى سرعة الفراغ من حفر ترعه الماء العذب حتى أنه قدم تقريرا إلى اللجنة العلمية الدولية خلال الجلسة التى عقدتها فى شهر أغسطس ١٨٥٦

Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, pp. 80-89 et 340.

وأنظر أيضا محضر الجلسة فى

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc. ouvr. cit., t. II, pp. 400-402.

(٢) اشترك موجل بك فى مناقشات مجلس الأشغال الأعلى اثناء جلساته التى عقدها فى نوفمبر ١٨٥٨ بصفته مديرا عاما للاشغال على الرغم من أن قرار تعيينه فى هذا المنصب لم يصدق عليه الا فى ١٠ يناير ١٨٥٩ حين أقر مجلس إدارة شركة القناة اقتراح دىلسبس بتعيينه مديرا عاما للاشغال . أنظر حركة الترقيات والتعيينات فى المناصب الكبرى بالشركة فى

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 35.

(٣) أنظر مذكرة موجل بك فى هذا الصدد فى

Voisin Bey, ouvr. cit., t. IV, pp. 340-341.

ضمنه كافة التدابير التى رأى اتخاذها للبدء فورا ودون هوادة فى حفر ترعة الماء العذب حتى يمكن الإستفادة من مياه فيضان النيل فى صيف عام ١٨٥٦ فى نقل المهمات اللازمة لتنفيذ المشروع فى سفن تسير فى ترعة الزعفرانية . وذكر موجل بك فى ذلك التقرير أنه إذا لم يمكن نقل كافة المهمات والأدوات إلى إماكنها قبل حلول أول ديسمبر ١٨٥٦ فإن حفر ترعة الماء العذب سيتأخر لا محالة عاما آخر (١) . ولكنه عاد فى ١٨٥٨ فغير رأيه كما يغير الانسان قميصه على حد تعبير المثل الفرنسى المشهور !! ؟ أما وجه الخطأ فيكفى أن نذكر أنه نجم عن الأخذ برأيه موت العمال عطشا فى الصحراء بعد أن سيقوا إلى ساحات الحفر زمرا ودون أن يسبق حشدهم توفير ماء الشرب بطريقة مأمونة سليمة .

وقد قسم مجلس الأشغال الأعلى أعمال تنفيذ المشروع كله إلى خمس مراحل قدر الإنتهاء منها جميعا خلال ست سنوات . وشملت المرحلة الأولى حفر ترعة الماء العذب من القاهرة إلى بحيرة التمساح على أساس مشروع موقت باتساع عشرة أمتار ، وكذلك حفر قناة بحرية صغيرة باتساع ١٢ مترا وإنشاء منارة فى بورسعيد وميناء موقت وكوبرى فى البحر المتوسط يمتد من الساحل داخل البحر لترسو عنده السفن فى أعماق كافية وكذلك إقامة مخازن وورش وغير ذلك وقدر المجلس سنتين لانجاز كافة أعمال هذه المرحلة .

ولكن لما شرعت الشركة فى تنفيذ هذه المرحلة عقب حفل الافتتاح فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ نجد أنها أغفلت إغفالا تاما مشروع ترعة الماء العذب وقصرت جهودها على المنطقة الساحلية فى بورسعيد وقامت بعملين هما : إنشاء الميناء بما يتبعه من مخازن وورش ومنارة وكوبرى وغير ذلك من منشآت بحرية وصناعية ، ثم حفر القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد فى اتجاه الجنوب . وتناست الشركة أن حفر ترعة الماء العذب كان ضرورة عاجلة وإجراء هاما من الطراز الأول .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 5-6.

وفى أول مايو ١٨٦٠ رفع موجل بك مدير عام الأشغال فى الشركة تقرير اضافيا استعرض فيه الأعمال التى تمت فى البرزخ منذ ٢٥ ابريل ١٨٥٩ – تاريخ البدء فى تنفيذ المشروع – إلى ذلك الوقت . وقد تعرض فى تقريره لترعة الماء العذب وأبدى نفس الرأى الغريب الخاطىء وهو النصح بالتريث فى حفرها وتركيز كل جهود الشركة للفراغ من إنشاء ميناء بور سعيد وحفر القناة البحرية الصغيرة من ذلك الثغر إلى بحيرة التمساح ، ثم تشرع الشركة بعد ذالك فى حفر ترعة الماء العذب (١) . وقد عرض هذا التقرير على مجلس الأشغال الأعلى بجلسة ١٠ مايو ١٨٦٠ وأقر ما جاء به (٢) .

كانت هناك عدة بواعث دفعت موجل بك إلى المطالبة بتأجيل حفر ترعة الماء العذب ، وكان فى طليعتها موقف انجلترا العدائى من مشروع قناة السويس إذ كانت تنادى ، تارة فى مجلس العموم واللوردات (٣) ، وتارة فى الصحافة الإنجليزية (٤) ، باستحالة حفر قناة بحرية فى صحراء البرزخ . وأرادت الشركة أن ترد ردا عمليا على تلك المعارضة فانصرفت بجهودها لحفر قناة بحرية صغيرة حتى يكون انشاؤها أكبر دليل عملى تقحم به المعارضة الإنجليزية . كما رأى موجل بك أن حفر القناة البحرية يزيل القلق

(١) أنظر النص الكامل للتقرير فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٤ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦٠ ص ص ١٦٧ – ١٧٣ مجموعة السنة الخامسة .

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 10.

(٣) بالإضافه إلى محضرى جلستى ٧ يوليو و ١٧ يوليو ١٨٥٧ بمجلس العموم البريطانى واللتين سبقت الإشارة إليها فى هذا الفصل أنظر محضر جلسه أول يونيو ١٨٥٨ فى الجزء ١٥٠ ص ص ١٣٦٠ – ١٤٠١ فى

Hansard's Parliamentary Debates.

(٤) كانت الجـــرائد الأنجليزيه هى Morning Post لسان حال اللورد بالمرستون والتايمز Morning Herald, Times وغيرها . أنظر اعداد جـــريدة L'Isthme de Suez سنه ١٨٥٨ وسنة ١٨٥٩ تجد فيها مقالات تلك الصحف الإنجليزية ورد الجريدة الفرنسية عليها . وأنظر أيضا

Hallberg, ouvr. cit., pp. 179-180.

Charles-Roux J., ouvr. cit., t. I, pp. 290-291.

الذى بدأ يساور نفوس مسهمى الشركة ومؤيدى المشروع . وكان من رأيه أيضا أن إنشاء القناة من بورسعيد إلى بحيرة التمساح يحل مشكلتى النقل والتموين فى النصف الشمالى من البرزخ بإيجاد طريق مائى هام تنقل فيه المهمات والآلات التى تأتى بها السفن من أوربا إلى بورسعيد . ولكن من الواضح أن الإعتبار الأول وهو الرغبة فى اقحام المعارضة الإنجليزية كان السبب الأهم بل الأوحد الذى جعل موجل بك يطالب بتأجيل حفر ترعة الماء العذب . وكانت النتيجة أن ارتطمت الشركة بأخطر وأعقد مشكلة واجهتها أثناء المراحل الأولى للحفر وهى إمداد العمال وسط الصحراء بماء الشرب .

وكان موجل بك قد ذكر فى تقريره أن مياه الآبار ومياه بحيرة المحسمة كفيلة بحل مشكلة ماء الشرب فى المراحل الأولى لتنفيذ المشروع . ورددت هذا الرأى جريدة الشركة وذهبت إلى أنه « ليس هناك ما يدعو إلى انتظار حفر ترعة الماء العذب ، فالماء يمكن الحصول عليه من آبار على عمق يتراوح بين ثلاثة أمتار وخمسة أمتار (١) » . ولكن اتضح خطأ هذا الزعم وأثبتت التجارب المريرة أن موجل بك كان يجهل طبيعة تربة منطقة القناة، فالآبار كانت نادرة ومياه بعضها آسن كانت تعافه الإبل . وفشل مشروع بحيرة المحسمة فشلا ذريعا بعد عديد المحاولات التى قامت بها الشركة .

وقد شهدت المحاكم الفرنسية قصة ترعة الماء العذب فى إطارها العام، وكان ذلك أثناء نظر قضية أقامتها شركة القناة على رؤساء تحرير بعض الجرائد الفرنسية ونظرت أمام محكمة السين المدنية فى جلسة ٦ يونيو ١٨٦٦ وتبادل طرفا الخصومة تقديم المذكرات إلى المحكمة. وتبدو مذكرة الشركة للباحث المنقب لأول وهلة أنها لا تمت بصلة لموضوع ترعة الماء العذب فى كثير أو قليل ولكنها فى الواقع تعرضت لصميم الموضوع . وقد وضعها محاميا الشركة سنار Senard ودنورماندى Denormandie . ولأهميها نورد ترجمتنا لبعض فقراتها(٢) :

---

(١) L'Isthme de Suez العدد ٦٨ الصادر فى ١٥ أبريل ١٨٥٩ ص ١١٤ مجموعة السنة الرابعة .

(٢) كانت هذه القضية مظهرا من مظاهر الأزمة التى تعرضت لها الشركة عام

« حين قدم الأسطول البريطانى ورابط فى مياه الإسكندرية فى صيف عام ١٨٥٩ تمهيدا لإجراء محاولة خطيرة لوأد المشروع بل وخلع سعيد جاءت الأخبار بانتصار فرنسا فى موقعة سلفرينو ثم ما لبثت أن عقدت هدنة فيلافرنكا (١) على أثرها . عندئذ قفل الأسطول الإنجليزي راجعا إلى قاعدته فى مالطة .

« هذه المظاهرة البحرية التى قامت بها انجلترا ضد المشروع ، ولو أنها لم تتمخض عن أثر حاسم ، إلا أنها تركت ذيولا بعيدة المدى أثرت فى سير عمليات الحفر ، بل عدلت من برنامج الشركة فى التنفيذ وعدلت من الخطط التى رسمتها الشركة لنفسها .

« كان يجب أولا تهيأة سبل الحياة فى صحراء مجدبة قاحلة للأيدى العاملة التى ستتوفر على الحفر . وكان يجب تحقيقا لهذا الغرض جلب الماء العذب فى شريان إلى الصحراء يستقى منه العمال . وكان عقدا الإمتياز اللذان نالتهما

١٨٦٦ فقد عقدت اتفاقا مع الحكومة المصرية بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٦٦ تنازلت فيه الشركة عن ترعة الماء العذب وحددت مساحة الأراضى الممنوحة للشركة بعد استبعاد المساحات التى استردتها الحكومة إلى غير ذلك من المسائل التى كانت مثار النزاع بين الحكومة والشركة . وعلى أثر نشر مواد الأتفاق هاجت بعض الجرائد الفرنسية الشركة واتهمتها بتعريض أموال المسهمين للخطر وأنها لم تلتزم البرنامج الذى أخذت على عاتقها تنفيذه . وكان من مظاهر هذه الأزمة أن تكونت لجنة من بعض المسهمين ترأسها الكونت Villers واتخذت لها مقرا بشارع Aumale رقم ٧ بباريس . وكانت معظم المسائل التى تناولتها بالنقد تتعلق بميزانية الشركة والأوجه التى صرفت فيها أموالها . أما الجرائد التى شنت الهجوم على الشركة فكانت

Journal des Travaux Publics.

Le Conseiller.

Gazette des Chemins de Fer.

La Correspondance Denechaud.

(١) جاء فى الأصل الفرنسى أنها صلح فيلا فرنكا . وهذا خطأ تاريخى مادى لأن الهدنة وقعت فى فيلا فرنكا فى ١٢ يوليو ١٨٥٩ ثم أعقبها الصلح الذى أبرم فى زيوريخ Zurich فى ١٠ نوفمبر ١٨٥٩ . (المؤلف)

الشركة من سعيد ينصان على وجوب البدء فى حفر ترعة للماء العذب تخرج من النيل وتربط مصر ببرزخ السويس ، وتحقق هذه الترعة أغراضا شتى : مورد لاينضب من ماء الشرب ، شريان يصل البرزخ بنواحى مصر ، طريق مائى تسلكه السفن تحمل العمال والعتاد إلى البرزخ، عامل من عوامل إقبال السكان على تعمير الصحراء وزراعة الأراض الواقعة على جانبى الترعة .

« إن اللجنة الدولية لم تفتها كل هذه المنافع التى تعود من حفر ترعة الماء العذب ، ولذا أوصت بوجوب البدء – قبل أى عمل آخر – بحفر ترعة من النيل إلى بحيرة التمساح . ولكن حين همت الشركة بهذا العمل الحيوى لها ولكيانها ومشروعها كانت آثار المظاهرة البحرية لا تزال ماثلة أمام أعين رجال الحكومة المصرية ، فوجدت معارضة من تلك الحكومة التى رأت أن فى قيام الشركة بحفر ترعة حلوة يكون مأخذ مياهها عند القاهرة فى وسط القطر وعلى مقربة من أسوار عاصمتها عملا من شأنه أن يزيد من معارضة انجلترا بإعطائها سلاحا جديدا ماضيا تشهره فى وجه المشروع وفى وجه الحكومة وتتخذه وسيلة قوية لإثارة مخاوف السلطان وإفهامه أن الغرض من المشروع إنما هو نزع مصر – هذه الولاية الهامة – من ولايات السلطنة العثمانية وضمها إلى فرنسا .

« كان من الضرورى حتى لاتتهيأ مثل هذه الفرصة السانحة لانجلترا لتزيد فى معارضتها من أن تتجه الشركة وجهة أخرى فى سياستها الإنشائية ولم يكن فى الإستطاعة والحال هذه أن تستهل الشركة أعمالها بحفر ترعة الماء العذب ، ولم تكن هناك منطقة تبدأ عندها الشركة أعمالها سوى المنطقة الواقعة على ساحل البحر المتوسط . وهنا انكمشت الشركة وتواضعت واستقر رأيها على الرحيل إلى البحر فى المنطقة الشمالية للبرزخ . كانت هذه المنطقة موحشة جرداء ، عبارة عن شريط ساحلى رملى محصور بين بحر مالح عريض وبحيرة واسعة الأرجاء ماؤها ملح أجاج ، وكانت وسائل الحياة فى هذه المنطقة معدومة فعز فيها ماء الشرب والمكان الأمين الذى يلتمس فيه

الإنسان الأمن والراحة . هنا بدأ الحفر فى هذا الشريط الرملى الضيق الذى غدا بعد عدة سنوات مدينة زاخرة بمصانعها والآتها وسكانها من مختلف الأجناس وجالياتها الأجنبية الكبيرة وارتقى عددها إلى ستة أو سبعة الآف نفس

وسرعان ما حفرت القناة البحرية الصغيرة بأيدى الفلاحين عبر بحيرة المنزلة واتصلت المدينة الناشئة بداخل البرزخ ، وفى نفس الوقت انتشرت فرق أخرى من طلائع الموظفين الفنيين على طول الخط المقرر لسير القناة البحرية الكبرى وأقاموا خيامهم وانشأوا المعسكرات « المخيمات » وكانت وسائل الحرمان أمامهم من كل نوع ، وقاسوا الأمرين من العمل ذاته ، كما كانت القبائل الضاربة هناك قد حركتها أيد أجنبية معادية فقامت بأعمال عدائية ضد رجال هذه الفرق الذين كانوا يعملون والفأس فى يد والأسلحة النارية فى يدأخرى ، وكثيرا ما اضطروا إلىالإنتظارطويلاريثما يؤتى لهم بالخبز والماء إذ كانت وسائل المواصلات صعبة بطيئة غالية التكاليف ، وكان الماء الذى يتجرعونه أغلى ثمنا من السوائل الأخرى (١) » .

ثم تعرضت المذكرة بعد ذلك للحوادث التى تتابعت فشرحت أزمة أكتوبر ١٨٥٩ ومجىء مختار بك إلى مصر لإيقاف عمليات تنفيذ المشروع وتدخل امبراطور فرنسا لتأييد الشركة إلى أن قالت « حينئذ تشجع سعيد على أثر تدخل امبراطور فرنسا فساعد الشركة بدون تحفظ وأذن فى حفر ترعة الماء العذب » .

ولم تمض ستة شهور على تقديم هذه المذكرة لمحكمة السين حتى ألقى دىلسبس محاضرة عامة فى مدينة نانت فى ٨ ديسمبر ١٨٦٦ أيد فيها ما جاء فى المذكرة خاصا بأثر معارضة انجلترا فى تأخير حفر ترعة الماء العذب وكان مما قاله فى هذا الصدد : « لقد عملت السياسة الإنجليزية فى القسطنطينية والقاهرة لتحول دون الشروع فى شق ترعة الماء العذب ، تلك الترعة التى

---

(١) نص المذكرة منشور فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٢٤ الصادر فى أول يوليو ١٨٦٦ ص ص ١٩٧ — ٢٠١ مجموعة السنة الحادية عشرة .

هى أساس كل عملياتنا فيما يتصل بمشكلات النقل والتموين والصحة وما إلى ذلك . وكان علينا أن نترك جانبا حفر هذه الترعة وتحملنا من جراء ذلك الآما مضنية ومتاعب جمة وتكبدنا مصاريف باهظة واضطررنا إلى أن نستخدم ما لا يقل عن ألف جمل لنقل ماء الشرب إلى ساحات الحفر (١) » .

يتضح مما سبق أن الشركة قد غلبت الناحية السياسية على الناحية الإنسانية ، فاهتمت بالتهرب من المعارضة الإنجليزية حينا ومحاولة التغلب عليها حينا آخر ، ولم تبد مثل هذا الإهتمام لتوفير ماء الشرب للعمال فى الصحراء باعتبار أن هذه مسألة تتصل بحياة الآف العمال المصريين الذين سخروا من أجلها . لقد تضاءل مشروع ترعة الماء العذب فى نظر الشركة حتى استبدلت به وسيلة أخرى هى جلب ماء الشرب من الإسكندرية ودمياط والمطرية والتماسه من بعض آبار متناثرة لايتجاوز عددها أصابع اليد . ولا يمكن أن نعد هذه الوسيلة البدائية الخطرة غير المأمونة مظهرا من مظاهر اهتمام الشركة بحياة العمال المصريين .

ولم ينقذ الموقف إلا تدخل الحكومة المصرية فساعدت الشركة بالمال وعمال السخرة ، كما مر بنا فى الفصل السادس ، لحل مشكلة ماء الشرب حلا سريعا موقتا . وتم حفر ترعة الماء العذب فى خلال تسعة أشهر من قرية القصاصين فى مديرية الشرقية إلى نفيشه بالقرب من بحيرة التمساح . وكانت الترعة تمر بالمحسمة ورمسيس والمخفر والسبع بيار ، ولم تبلغ نفيشه إلا فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ وبلغ طولها ٣٤,٨٣٥ مترا وبلغ عدد عمال السخرة الذين أرسلهم سعيد لحفرها ٥٥,٨٩٣ رجلا . وهكذا خرج مشروع ترعة الماء العذب فى صورة مختزلة فى مستهل العام الرابع لبدء تنفيذ المشروع ، وخفت إلى حد ما حدة أزمة ماء الشرب فى ساحات الحفر .

موقف الشركة بعد حفر ترعة الماء العذب :

كان من المتوقع أن تتعظ الشركة من كوارث موت العمال عطشا ومن

---

(١) طبعت هذه المحاضرة فى كتاب

De Lesseps F. : Conférence à Nantes sur le Canal Maritime de Suez. (Cercle des Beaux Arts, le 8 décembre 1866). Paris 1867.

الأهوال التى قاساها من قدرت لهم النجاة من تلك المحنة ، فتكون تلك الكوارث والأهوال حافزا للشركة لأن تمضى مسرعة فى حل مشكلة ماء الشرب وفق المنهاج الذى قررته اللجنة العلمية الدولية فتمد خط انابيب تنساب فيه المياه العذبة فى النصف الشمالى من البرزخ حتى مدينة بورسعيد (١).
وكان إنشاء خط الأنابيب ضرورة ملحة لأن الشركة ركزت نشاطها عام ١٨٦٢ فى النصف الشمالى من البرزخ وبدأت جديا منذ شهر فبراير من ذلك العام فى شق مجرى للقناة البحرية الصغيرة وسط مرتفعات عتبة الجسر ، وهى أكبر عقبة طبيعية تعترض قناة السويس ، وأرسل سعيد كل شهر عشرين ألف مصرى إلى ساحات الحفر انتشروا كأسراب النمل فى مسافة طولها ٣٢ كيلومترا من القنطرة شمالا إلى الجسر جنوبا . وكان لابد من توفير ماء الشرب بطريقة آمنةمضمونة وبكميات تفى بحاجات العمال . ولكن الشركة كانت لا تقيم وزنا لحياة العمال ماداموا مصريين وكانت لاتزال ممعنة فى خطتها وهى إيثار الناحية السياسية على الجانب الإنسانى فتركت موقتا

(١) كان المفروض طبقا لعقد الإمتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير ١٨٥٦ أن تحفر الشركة فرعا يخرج من ترعة الماء العذب عند بحيرة التمساح ويتجه شمالا إلى بورسعيد على غرار الفرع الذى يتجه جنوبا إلى السويس . ولكن اقترح ليناڻ بك وموجل بك فى تقريرهما المعروف باسم « المشروع الابتدائى لشق برزخ السويس » بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٥٥ انشاء خط من أنابيب الماء يمتد من بحيرة التمساح إلى بلوز (بورسعيد) ويكون طوله ٨٠ كيلومترا على أن تستبدل بذلك الخط بعد فترة من الزمن ترعة للماء العذب . أما الأنابيب فاقترحا الإنتفاع بها ، بعد رفعها ، فى مدها فى المدينة المقترح انشاؤها على ضفاف بحيرة التمساح . ولما تكونت اللجنة العلمية الدولية أخذت بهذا الرأى وسجلته فى تقريرها .

وعلى ذلك لم يكن انشاء خط أنابيب الماء فكرة طارئة جاءت وليدة الصعاب التى واجهتها الشركة من قبل فى حفر القناة البحرية الصغيرة كما قرر بعض المؤرخين والكتاب . كذلك تتهاوى أقوال البعض الآخر بأن انشاء خط أنابيب الماء كان نتيجة مباشرة لسياسة اسماعيل حين حال بين الشركة وبين استخدام عمال السخرة فتعذر عليها حفر الترعة الحلوة واستبدلت بها خط أنابيب الماء ، لأن شركة القناة عقدت اتفاقا مع لأسرو Laeseron فى ١١ يوليو ١٨٦٢ لمد خط الأنابيب وكان ذلك قبل أن يلى اسماعيل الحكم بستة أشهر .

مشروع خط الأنابيب وانصرفت بجهودها ونشاطها إلى حفر القناة البحرية الصغيرة من بور سعيد إلى بحيرة التمساح كى تقيم الدليل المادى أمام المعارضة الإنجليزية التى تنادى باستحالة حفر القناة . وكان هناك عامل مساعد للشركة فى مد خط الأنابيب هو حفر ترعة الماء العذب إلى نفيشه ووصول المياه الحلوة إلى مشارف مدينة التمساح (الإسماعيلية فيما بعد) .

لجأت الشركة إلى أنصاف الحلول وأرباعها لتدبير ماء الشرب فى عتبة الجسر اعتبارا من فبراير ١٨٦٢ : حفرت مجرى مائيا ضئيلا عرضه نصف متر وطوله ٤٦٠٠ متر يبدأ من نفيشة ويسير حول بحيرة التمساح من ناحية الغرب ثم يصب فى خزان حفر فى الأرض ، ثم شيدت الشركة عددا من الأحواض تتفاوت سعتها ووضعتها فى جهات مختلفة من منطقة عتبة الجسر (١) . وكانت الجمال تنقل الماء من الخزان إلى تلك الأحواض حيث تفرغ فيها . ويقف عند كل حوض حارس يتولى توزيع الماء على العمال . وكان العمال يتدافعون على الجمل حين يصل إلى الحوض ويتزاحمون حوله لإرواء عطشهم ثم ملأ قللهم بعد ذلك (٢) .

وأحست الشركة أن هذه الوسيلة عبء مالى باهظ التكاليف (٣) فعادت إلى الوضع الطبيعى وعقدت فى ١١ يوليو ١٨٦٢ اتفاقا مع لاسرو Lasseron لمد خط الأنابيب من مدينة التمساح إلى بورسعيد . وقـــد تم إنشاء الخط فى ١٠ ابريل ١٨٦٤ وأقامت الشركة احتفالات فخمة ابتهاجا

(1) Hawkshaw J. : Rapport sur les Travaux du Canal de Suez. Paris 1863, p. 21. Voir aussi :
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 267.
Berchère, ouvr. cit., p. 203.

(2) Berchère, ouvr. cit., p. 200.

(٣) تقول الشركة إنها انفقت ٦٠٠,٠٠٠ فرنك (حوالى اربعة وعشرين ألف جنيه) فى جلب ماء الشرب إلى مرتفعات عتبة الجسر خلال تسعة أشهر أنظر مذكرة وضعها مجلس إدارة الشركة بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٨٦٣ ومنشورة فى
De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 350-362.

(٤) تجد نصوص الإتفاق مع مقدمة تفسيريه له فى الجزء السابع من فوازان بك ص ص ١ - ١١ .

بوصول الماء العذب فى أنابيب الماء (١) . ثم ما لبثت الشركة إذ رأت عدم كفاية هذا الخط لأن ساحات الحفر القائمة فى عتبة الجسر والقنطرة تستنفد الجزء الأكبر من كميات الماء ولاتكاد تكفيها فاحتفظت بالمكثفات الثلاث فى بور سعيد لاستخدامها فى أوقات الطوارىء (٢) ، وقررت انشاء خط أنابيب ثان يسير بمحاذاة الأول وعقدت لهذا الغرض اتفاقين آخرين بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٨٦٤ و٢٧ مارس ١٨٦٥ مع نفس المهندس .

+ + +

مشكلة ماء الشرب فى النصف الجنوبى من البرزخ .

تعلمت الشركة أخيرا من التجارب المريرة التى مرت بها خلال السنوات الأربع الأولى فى تنفيذ المشروع أن قلة الماء أو انعدامه كان السبب الأول الذى شل عمليات الحفر وأودى بحياة العمال المصريين فأدخلت تعديلا جوهريا على سياستها فى الحفر : كانت الشركة تعتزم فى تلك الآونة مد القناة البحرية الصغيرة La rigole de service فى النصف الجنوبى من البرزخ من بحيرة

---

(١) أنظر بخصوص خط الأنابيب

(1) Guillemin, ouvr. cit., pp. 257 et 264.

Fontane Marius, ouvr. cit., p. 75.

Ritt, ouvr. cit., pp. 278-279 et 398-399.

Fitzgerald, ouvr. cit., t. I, p. 185.

Dangler, ouvr. cit., pp. 256-257.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 261, 267, 277, 306 et 327, t. VII, pp. 1-24.

وجريدة L'Isthme de Suez

العدد ٥٧ الصادر فى أول يناير ١٨٦٣ ص ٤ مجموعة السنة الثامنة

العدد ٦١ الصادر فى أول مارس ١٨٦٣ ص ٦٥—٦٧ مجموعة السنة الثامنة

العدد ٦٣ الصادر فى أول ابريل ١٨٦٣ ص ١١٠ مجموعة السنة الثامنة

العدد ١٨٥ الصادر فى ٤ مارس ١٨٦٤ ص ١٤٧ مجموعة السنة التاسعة

العدد ١٨٨ الصادر فى ١٥ ابريل ١٨٦٤ ص ٢٠٢ مجموعة السنة التاسعة

العدد ١٨٩ الصادر فى أول مايو ١٨٦٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ مجموعة السنة التاسعة

(2) Casimir, ouvr. cit., p. 122.

التمساح إلى السويس بعد أن نجحت فى حفرها فى نصفه الشمالى من بورسعيد إلى بحيرة التمساح . ولكنها رأت أن يكون حفر ترعة الماء العذب فى هذه المنطقة سابقا لحفر قناة السويس ذاتها حتى لاتتعثر عمليات الحفر ولكى تكفل للعمال موردا ثابتا يستقون منه (١) . وبذلك كانت سياستها فى الحفر فى النصف الجنوبى من البرزخ على نقيض سياستها التى سارت عليها فى الحفر فى نصفه الشمالى حين شرعت فى حفر القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد دون أن يسبق هذا العمل اجراء جدى لتوفير ماء الشرب للعمال فى ساحات الحفر .

وتمشيا مع هذه السياسة كرست الشركة معظم جهودها منذ ديسمبر ١٨٦٢ لحفر ترعة الماء العذب من نفيشه إلى السويس (٢) والفراغ منها فى أمد وجيز وخاصة بعد أن تطور الموقف إبان حفرها لغير مصلحة الشركة (٣) .

---

(١) خطاب دى لسيس الذى ألقاه فى الجمعية العمومية لمسهمى الشركة بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٦٣ « قد نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧٠ الصادر فى ١٩ يوليو ١٨٦٣ ص ص ٢٥٨ — ٢٩٣ مجموعة السنة الثامنة .
وأنظر أيضاً بخصوص هذه النقطة وأهداف الشركة من الأسراع فى حفرها

Ritt, ouvr. cit., pp. 274-275.
Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 243.

(٢) جريدة L'Isthme de Suez
العدد ١٥٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٦٢ مجموعة السنة السابعه .
العدد ١٥٦ الصادر فى ١٥ ديسمبر ١٨٦٢ ص ص ٣٧٧ — ٣٧٨ مجموعة السنة السابعة
وأنظر أيضا كلا من :

Lavalley, ouvr. cit., p. 7.
Guillemin, ouvr. cit., p. 251.

(٣) قام فى عامى ١٨٦٣ ، ١٨٦٤ النزاع بين الحكومة المصرية على عهد اسماعيل وبين الشركة حول إلغاء السخرة فى حفر القناة وبعض مسائل أخرى . وحرج مركز الشركة على أثر هجوم عنيف قامت به الحكومة المصرية تمثل فى حملات صحفية واستشارات قانونية نعت على الشركة اعتمادها على نظام قاس لفظته الدول المتمدينة . وقد اهتمت الشركة بالفراغ من حفر ترعه الماء العذب قبل أن يتقرر الغاء السخرة كما أن اتمام حفرها كان ما يدعم مركز الشركة فى تلك الأزمه الطاحنه التى كانت تجتازها وقتئذ

ولذلك كانت تحمل عمال السخرة على مواصلة العمل فى حفرها إلى ساعات متأخرة فى المساء أثناء الليالى القمرية (١) . وكلما فرغ العمال من حفر جزء من الترعة انسابت المياه فيه . وكانت الجمال تحمل ماء الشرب للعمال الذين يبتعدون فى قلب الصحراء عن جزء الترعة الذى يكون الماء منسابا فيه (٢) وكانت المسافة التى تقطعها الجمال إلى أولئك العمال قصيرة بطبيعة الحال .

وقد بلغت الترعة مدينة السويس فى النصف الثانى من ديسمبر ١٨٦٣ بعد أن استغرق حفرها أقل من عام (٣) واستطاعت الشركة أن تحقق هدفا رئيسيا من أهدافها بفصل عمال السخرة . وعلى الرغم من أن عددهم فى عام ١٨٦٣ كان أقل بكثير من الأعداد التى كانت تظفر بها الشركة فى عام ١٨٦٢ على عهد سعيد فقد بلغ مجموع عدد عمال السخرة الذين اشتغلوا فى حفر تلك الترعة من نفيشه إلى مدينة السويس مائة ألف عامل ، (٤) رفعوا فى حفرها أنقاضا بلغ مقدارها ٣,٣٤٧,٠٠٠ متر مكعب ، وبلغ طول الترعة ٨٩,٧٣٠ مترا واتساعها ١٥ كيلومترا وعمقها مترا ونصف متر(٥).

وقد أقامت الشركة حفلا كبيرا فى مدينة السويس بمناسبة إنجاز حفر الترعة الحلوة . ولم يحضر دىلسبس الحفل لأنه كان وقتئذ فى باريس يناضل فى سبيل احتفاظ الشركة بامتيازاتها التى أراد اسماعيل انتزاعها منها . وقد

---

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 277.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 300.

(٣) أوقف العمل فى حفرها إبان التحاريق فى مستهل صيف ١٨٦٣ إذ صعب تموين العمال بماء الشرب بسبب انخفاض منسوب الماء فى ترعة الوادى واضطرت الشركة إلى سحب أولئك العمال لحفر قناة السويس المصغرة عند طوسن جنوبى بحيرة التمساح حيث كان يسهل تموينهم بماء الشرب . وكان ذلك إجراء مؤقتا ، فلما حل موسم الفيضان استؤنف العمل فى حفرها فى سبتمبر ١٨٦٣ انظر

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 301-302.

(4) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 303.

(٥) أنظر الخطاب الذى ألقاه دىلسبس فى اجتماع الجمعية العمومية للمسهمين بتاريخ أول مارس ١٨٦٤ وقد نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨٥ الصادر فى ٤ مارس ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة .

رأس ذلك الحفل رويسنرس Ruyssenaers نائب رئيس الشركة — وكان قد رقى إلى هذا المنصب — وشهده جيراردا Gérardin الوكيل الأعلى للشركة فى مصر والمفتش العام بها وكبير أطبائها ومن إليهم من كبار مستخدمى الشركة وقناصل الدول . وأقامت الشركة سدا على مقربة من مصب الترعة الحلوة فى البحر الأحمر وحجزت خلفه ماء النيل وأقامت منصة عالية على مقربة منه للمدعوين ثم قطع السد وانسابت المياه فى البحر الأحمر . وألقى رويسنرس Ruyssenaers خطابا جامعا استهله بابداء أسفه على تغيب دى لسبس عن حضور الحفل ثم عرج على تاريخ الطريق بين الشرق والغرب وجهود الضابط الإنجليزى واجورن Waghorn فى سبيل تنظيمه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ثم عدد المزايا التى تعود على مصر والعالم من حفر تلك الترعة وأبدى شكره العميق للرجال الذين أسهموا فى إنجاز هذا العمل الكبير (١) . ثم أبرق إلى مقر الشركة فى باريس ينبئها بإتمام حفر الترعة (٢).

أما دى لسبس فلم يفته وهو فى باريس أن يستغل إتمام حفر الترعة الحلوة استغلالا واسع النطاق فأقام فى ١١ فبراير ١٨٦٤ مأدبة شهدها ألف وستمائة مدعو ورأسها الأمير جيروم نابليون الذى ألقى خطابا ضافيا دار حول

---

(١) أنظر وصف الحفل والخطاب الذى ألقى فيه منشورين فى العدد ١٨٢ من جريدة L'Isthme de Suez الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٤ ص ص ٣٤ – ٣٦ مجموعة السنة التاسعة .

(٢) هذا هو نص البرقية كما نشرته جريدة الشركة :

Suez, 20 décembre 1863.

Le canal d'eau douce vient d'être inauguré. Le Nil coule dans la mer Rouge. Au banquet, un toast a été porté au Vice-Roi actuel S. A. Ismaïl et à feu Mohamed-Saïd, auteur de la concession. La population de Suez est dans l'enthousiasme.

Signé

Ruyssenaers

أنظر جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨١ الصادر فى أول يناير ١٨٦٤ ـ مجموعة السنة التاسعة .

تمجيد عمل الشركة والطعن فى الشرقيين عامة من حيث عقليتهم وأسلوبهم فى التفكير ونقضهم للعهود (١)

وعلقت جريدة L'Isthme de Suez على ايصال ترعة الماء العذب إلى السويس بقولها « إنه فى الوقت الذى ينكر بعض الصحفيين وجود الشركة من الناحية القانونية إذا بالشركة العالمية تثبت وجودها بتنفيذ أحد الأحداث الكبرى فى العصور الحديثة (٢) » .

ولا شك أن وصول ماء الشرب فى ترعة جارية إلى مدينة السويس كان له أثر بعيد فى تطور الحياة الإقتصادية والإجتماعية فيها ، إذ كانت السويس حتى ذلك الوقت لا تعدو أن تكون قرية كبيرة (٣) فكان عدد سكانها

(١) نشرت الشركة هذا الخطاب والخطابين الآخرين اللذين ألقاهما دىلسبس والنائب العام Dupin فى كتاب باسم:

Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez: Banquet du Canal de Suez — 11 février 1864 — Discours de S.A. le Prince Napoléon, de M. Dupin et M. de Lesseps. Paris 1864.

(٢) العدد ١٨٠ الصادر فى ١٥ — ١٧ ديسمبر ١٨٦٣ ص ٥٢١ مجموعة السنة الثامنة .

(٣) انكمشت مدينة السويس بعد أن تحول عنها طريق التجارة العالمى على أثر استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وظلت على تلك الحال حتى نظمت الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الطريق البرى The Overland Route فانتعشت قليلا . ثم كان انشاء الخط الحديدى عبر الصحراء بين القاهرة والسويس وإستخدامه فى ١٨٥٨ فأسهم فى نمو المدينة . ومع ذلك يقول أحد الذين زاروها فى أغسطس ١٨٦٢ وهو Stoecklin إن معظم مبانيها عبارة عن مجموعة أكواخ خشبية مقامة عند رأس الخليج ولا توجد بها صناعات قائمة وليس بها سوى مستخدمى شركة P. & O. وجماعة من بحارة السفن والحمالين العرب. ويقول سائح فرنسى زارها فى نفس ذلك العام (١٨٦٢) إن أفخم مبانى السويس هو الفندق الهندى The Indian Hotel

أنظر

Stoecklin A.: Notice sur la construction du bassin de Radoub de Suez. Bordeaux 1867, pp. 5-6.

Berchère, ouvr. cit., p. 266.

وأنظر فى هذا الكتاب وصفا للمدينة ص ص ٢٦٧ — ٢٦٨

يتراوح بين ثلاثة الآف وأربعة الآف نسمة عام ١٨٦٤ (١) وكانت تجلب لها بعض الحركة بواخر شركة .P. & O الإنجليزية وغيرها من شركات الملاحة البحرية (٢) .

وكان فى مقدمة الأسباب التى أعاقت نمو السويس عدم توفر ماء الشرب بها ، إذ كان الماء ينقل إليها على ظهور الجمال من عيون موسى (٣) ، وهى آبار ارتوازية ذات تركيب عجيب وتقع على مسافة ١٦ كيلومترا من الجنوب الشرقى للسويس (٤) . وكانت مكاتب شركات الملاحة البحرية فى السويس والفنادق الأجنبية تعتمد فى خدمة مستخدميها ونزلائها على المكثفات لتحويل ماء البحر إلى ماء سائغ شرابه (٥) . ولما أنشىء الخط الحديدى الصحراوى

ووصفا لها إبان موسم الحج ص‌ص ٢٧٨ — ٢٨٢

ووصفا لها فى ليالى شهر رمضان ص‌ص ٢٧٠ — ٢٧١

وأنظر أيضا وصفا لمدينة السويس قبل مشروع القناة وبعد تنفيذ المشروع فى

Edwin de Léon, ouvr. cit., pp. 42-43.

(1) Morellet, Breton et Cattin : La verité actuelle sur le Canal de Suez. Excursion dans l'Isthme .L'état des travaux. Leur achèvement. Paris 1868, p. 14. Voir aussi.

Borde Paul : L'Isthme de Suez. Paris 1870, p. 43.

(2) Ritt, ouvr. cit., p. 193.

(3) Bourdon, ouvr. cit., p. 331. Voir aussi :

Bernard H. et Tissot E. : Itinéraire pour l'Isthme de Suez. Paris 1869, pp. 99-101.

Mazuel Jean : L'oeuvre géographique de Linant de Bellefonds. Le Caire 1937, p. 289.

Danglar, ouvr. cit., p. 257.

(4) Linant de Bellefonds, ouvr. cit., p. 153.

(٥) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٦٥٤ ص ٧ رقم ٣ فى غاية صفر ١٢٧٧ هـ (١٦ سبتمبر ١٨٦١ م) وص ٨ رقم ٢ نفس التاريخ وص ٩٩ رقم ٩ وأنظر أيضاً : دفتر رقم ١٦٥٥ ص ٥٩ رقم ٢٤٠ ورقم ٢٤١ وص ٩٠ رقم ٢٨١ وفيها يقول « وكيل القومبانية الشرقية بالسويس استحضر من انجلترا آلة لتقطير ماء البحر المالح لزوم اللوكاندة ومقتضى تركيبها بين البحر وبين اللوكاندة » .

بين القاهرة والسويس وبدأ العمل عليه فى ١٨٥٨ تولت الحكومة المصرية نقل الماء إليها من القاهرة فى صهاريج (١) . وكانت الحكومة تبيع الماء للأهلين فى السويس بسعر ٢,٥ من القروش للقربة التى تسع ٤٥ لترا(٢) . وكان هذا الثمن لا يغطى تكاليف نقل الماء فى الطريق الحديدى . وقد بلغت قيمة ما كانت تتحملة الحكومة فى السنة فى سبيل نقل الماء من القاهرة إلى السويس مائة ألف فرنك أى ما يقرب من أربعة آلاف جنيه (٣) . وكان يشتد الطلب على الماء اشتدادا عظيما فى موسم الحج حين تزدحم المدينة بالحجيج وهم فى طريقهم إلى مكة ، وكان يرتفع سعر القربة إلى ستة عشر قرشا وأحيانا يقفز إلى عشرين قرشا (٤). وكانت تقع مصادمات بين الحجاج بسبب قلة ماء الشرب (٥) . ولذلك كانت الحكومة لا تسمح للحجاج بالسفر إلى السويس وهم فى طريقهم إلى الحجاز إلا إذا كان موعد وصول الفوج إلى تلك المدينة يقارب موعد قدوم سفينة تقلهم إلى الحجاز حتى لاتطول إقامة الفوج فى السويس ويصعب تزويد أفراده بماء الشرب . وقد رفعت الحكومة هذا الحظر بعد إتمام حفر الترعة الحلوة (٦) .

---

(1) David C. E.: Souvenirs d'un voyage dans l'Isthme de Süez et au Caire. Paris 1865, p. 17.

Voir aussi :

Fontane, ouvr. cit., 2ème partie, p. 138.

Fol, ouvr. cit., p. 15.

Lavalley, ouvr. cit., p. 6.

Hawkshaw, ouvr. cit., p. 21.

Fitzgerald, ouvr. cit., t. I, p. 182.

(2) Bernard H. et Tissot E., ouvr. cit., pp. 99-101.

(٣) أنظر مقالا لجريدة Moniteur Universel أعادت جريدة L'Isthme de Suez نشره فى عددها رقم ١٦٣ الصادر فى أول ابريل ١٨٦٣ ص ص ١٠٩ — ١١١ مجموعة السنة الثامنة .

(4) Stoecklin, ouvr. cit., p. 14.

(5) Guillemin, ouvr. cit., p. 261.

(٦) تقرير كبير أطباء شركة القناة بتاريخ أول يوليو ١٨٦٤ نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٩٥ الصادر فى ٣ أغسطس ١٨٦٤ ص ص ٣٢٨ —

وكان من أبرز نتائج إيصال ترعة الماء العذب إلى السويس أن زاد عدد سكانها زيادة كبيرة وسريعة . فبعد أن كان عددهم فى عام ١٨٦٤ يتراوح بين ثلاثة الآف وأربعة الآف نسمة كما مر بنا ، إذ به يقفز إلى أكثر من عشرين ألفا فى سنة ١٨٦٨ (١) ويصل فى العام التالى ١٨٦٩ إلى خمسة وعشرين ألفا (٢) .

— ٣٣٧ مجموعة السنة التاسعة .

وأنظر أيضاً .

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 316.

(1) Morellet, Breton et Cattin, ouvr. cit., p. 14.

(2) Hoskins, ouvr. cit., pp. 367-368.

الفصل الثانى عشر

تفشى الأوبئة والأمراض بين العمال فى ساحات الحفر

الشركة تنشىء إدارة صحية ـ أعباؤها ـ فشل خطتها ـ انتشـار الأمراض ـ فتكها بعمال النوبة ـ وبالعمال فى الشلوفة ـ تفشى الأوبئة ـ التيفود ومسئولية الشركة ـ تكتم أنبـاء الوباء ـ مغالطـات الشركة ـ وباء التيفوس ـ كيف وفد إلى ساحات الحفر ـ وباء الجدرى ـ وباء الكوليرا ـ مزاعم الأوربيين عن الحجاج المسلمين ـ انتشار الكوليرا المروع فى مصر وانتقال الوباء إلى ساحات الحفر ـ تدابير الشركة ـ تفاقم الموقف ـ انتشار الذعر ـ اخلاء ساحات الحفر ـ الشركة تفقد سيطرتها على الموقف ـ الشركة لا تجد رجالا لنقل الموتى ـ انتشار الدوسنتاريا ـ الحكومـة تشترى الإدارة الصحيـة من الشركـة .

التزمت الشركة فى لائحة العمال بإنشاء مستشفى ومراكز إسعاف كما تعهدت بتوفير العلاج الطبى المجانى للعمال المرضى . ويقتضينا واجب الإنصاف أن نذكر أن الشركة اهتمت منذالسنة الأولى بالتنفيذ الجزئى الشكلى لهذا الإلتزام . فأنشأت فى ١٠ يناير ١٨٦٠ إدارة صحية وعينت أوبير روش Aubert Roche على رأس تلك الإدارة (١) . وكان هذا الطبيب قـد شهد الحفل الذى أقامته الشركة فى بورسعيد فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ إيذانا بالبدء فى تنفيذ المشروع وعهدت إليه وقتئذ بدراسة تنظيم إدارة صحية . وقد ظل هذا الطبيب شاغلا لمنصب كبير أطباء الشركة طوال سنى حفر القناة .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 157.

وكانت المهمة التى واجهتها الإدارة الصحية شاقة وخطيرة ، إذ لم يكن من الأمر الهين المحافظة على الصحة العامة بين جموع العمال المحتشدة فى الصحراء . وزادت أعباء الإدارة الصحية كلما تقدم العمل فى حفر القناة وأنشئت ساحات حفر جديدة وزيد عدد العمال . ومما زاد فى خطورة أعباء تلك الإدارة أن البرزخ كان فى منطقة صحراوية خالية من الماء العذب إلا من بعض آبار قليلة ، فلم يكن فى الإستطاعة إقامة الحمامات العامة أو المغاسل وغير ذلك من وسائل المحافظة على الصحة العامة .

ولا يغيب عن البال أن تنفيذ معظم المشروعات الكبرى فى مصر فى ذلك العصر قد اقترن بوقوع كوارث بين العمال المصريين . فعلى عهد محمد على حفرت ترعة المحمودية ومات أثناء حفرها اثنا عشر ألف مصرى من عمال السخرة (١) نتيجة الجوع والعطش والإرهاق فى العمل إذ كان موظفو الحكومة وجنودها يحملونهم على العمل المتصل من الفجر حتى مغيب الشمس ويضربونهم حالما يبدر منهم أدنى تقصير فى الحفر . ويقول الجبرتى فى حوادث شهر شوال ١٢٣٤ (أغسطس ١٨١٩) « سافر الباشا (محمد على) إلى جهة الاسكندرية بسبب ترعة الأشرفية (المحمودية) وأمر حكام الجهات بالأرياف بجمع الفلاحين للعمل فأخذوا فى جمعهم فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال .... ومات الكثير منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ولو فيه الروح (٢) » . وفى سنة ١٨٣٥

(1) Mengin Félix: Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohamed Aly ou Récit des Evénements Politiques et Militaires qui ont eu lieu depuis le départ des Français jusqu'en 1823. 2 vols. Paris 1823, t. II, p. 334.

وأنظر أيضا كلا من

Merruau Paul; ouvr. cit., p.

Bréhier Louis: L'Egypte de 1798 à 1900. Paris 1900.

والدكتور كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ترجمة محمد مسعود بك الجزء الثانى ص ص ٧٠٢ - ٧٠٣ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . الجزء الرابع ص ٣٠٤ حوادث ٢٤ شوال ١٢٣٤ (٦ أغسطس ١٨١٩)

انتشر الطاعون فى مصر وفتك بجموع العمال الذين كانوا يعملون فى بناء القناطر الخيرية وتعرضت أعمالها للتعطيل التام إذ هرب العمال إلى قراهم . وفر لينان بك إلى الأقصر حيث كان قد هرب إليها محمد على وأفراد بطانته (١) .

وكانت الإدارة الصحية تنشىء تباعا مراكز إسعاف فى الجهات التى يمتد إليها نشاط الشركة وكانت بورسعيد أولاها (٢) . ولما انتقلت عمليات الحفر جنوبا فى اتجاه السويس تابعت الإدارة الصحية إنشاء مراكز الإسعاف وبمضى الأيام غدا لها مراكز إسعاف فى بورسعيد والقنطرة وعتبة الجسر والإسماعيلية وطوسن وجنيفة والشلوفه والسويس . وبذلك أصبح نشاط الإدارة الصحية ممتدا فى جهات متباعدة على طول خط القناة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر (٣) . وكان إذا قل نشاط الشركة فى إحدى الجهات لم تجد الإدارة الصحية حرجا فى إلغاء مركز الإسعاف أو نقله إلى جهة أخرى .

وكانت أهمية مركز الإسعاف تتوقف على عدد العمال الذين يعملون فى دائرته (٤) أو على جنسية المقيمين هناك . وعلى ضوء تلك الأهمية كان يتحدد عدد الأطباء والصيادلة والسرر . ومن المؤسف أن عناية الشركة بصحة مستخدميها وعمالها الأجانب كانت تفوق كثيرا عنايتها بصحة العمال المصريين.

---

(1) Mazuel Jean, ouvr. cit., pp. 8 et 172.

(٢) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ٢٥ يونيو ١٨٦٠ نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٩ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦٠ ص ص ٢٤٤ - ٢٥٠ مجموعة السنة الخامسة .

(٣) L'Isthme de Suez العدد ١٦٦ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٣ ص ١٧٢ مجموعة السنة الثامنة . وأنظر أيضا

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 281.

(٤) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ١٥ أبريل ١٨٦٣ نشر الجزء الأول منه فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٦٦ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٣ ص ص ١٦٨ - ١٧٤ ونشر الجزء الثانى من التقرير فى العدد ١٦٨ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٣ ص ص ٢٣٦ - ٢٣٩ مجموعة السنة الثامنة .

وليس أدل على ذلك من أن فرقة فنية كانت فى مستهل عمليات الحفر تقوم بأبحاث ودراسات فى منطقة طوسن جنوبى بحيرة التمساح . وكانت تلك الفرقة تتكون من عشرين أجنبيا ما بين مستخدم وعامل . فأنشأت الشركة لهم خصيصا مركزا طبيا فى طوسن أشرف عليه طبيب وصيدلى . وأقيم المركز فى كشك خشبى أستوردته الشركة من فرنسا ثم نقل على ظهور الجمال من بورسعيد إلى طوسن ، وقد نصبت فيه سبعة أسرة (١) .

وقد رسمت الإدارة الصحية لنفسها سياسة فشلت فيها فشلا ذريعا هى العمل على منع وقوع الأمراض واتخاذ الحيطة لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى منطقة القناة (٢) ولكن انتشرت الأمراض بين العمال وتفشت فيهم الأوبئة ، ومن ثم سارت على سياسة الطب العلاجى .

وتمشيا مع السياسة العليا للشركة ، استوردت الإدارة الصحية من فرنسا كل الأدوية والأدوات الطبية (٣) ، وسارت على خطة المستشفيات العسكرية من حيث استيراد الأدوية التى يسهل المحافظة عليها مدة طويلة دون أن تتعرض للفساد أو يصيب تركيبها انحلال (٤) . وكانت الإدارة الصحية تؤدى خدمتها الإنسانية للأفراد المقيمين فى منطقة القناة ، ولكن أصدرت إليها إدارة الشركة أمرا فى أواخر عام ١٨٦٦ بأن تقصر نشاطها على مستخدمى الشركة وعمالها . وقد أرسل محافظ القناة إلى اسماعيل يخطره بمضمون هذا الأمر (٥)

---

(١) أنظر محضر جلسة ١٢ يوليو ١٨٥٩ التى عقدتها اللجنة المنتدبة من قبل مجلس إدارة الشركة ، فى

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 80, 134 et 178.

(٢) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ١٨ ابريل ١٨٦١ . وقد نشر فى جريدة الشركة العدد ١١٧ الصادر فى أول مايو ١٨٦١ ص‌ص ١٣٣ — ١٣٧ مجموعة السنة السادسة .

(3) Ritt, ouvr. cit., p. 257.

(٤) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ١٨ ابريل ١٨٦١ سالف الذكر .

(٥) محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٤٠ معية . وثيقة رقم ٧٢ بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٨٣ (٢ ديسمبر ١٨٦٦) من اسماعيل حمدى بك محافظ القناه إلى حضرة صاحب السعادة مهردار الجناب العالى .

وكانت أكثر الأمراض انتشارا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر هى النزلات الشعبية والأمراض الصدرية والرمدية وحالات الإسهال الشديد والدوسنتاريا وأمراض الكبد (١) .

وقد قرر بوجوا Bougouin الطبيب بالشركة أن انتشار الرمد ، وهو التهاب يصيب العينين ، كان يرجع إلى عدة أسباب منها : البرودة الشديدة ليلا عقب الحرارة العنيفة نهارا ، وكذلك شدة أشعة الشمس المحرقة وتأثيرها على شبكة العين ، كما كان من أسباب انتشار الرمد طبيعة عمليات الحفر إذ أن نقل الأنقاض يملأ الجو بذرات الأتربة التى كان ينقلها الهواء إلى العين (٢).

وكانت الشـــركة تطلق لفظ الســـود و البرابرة Nègres et Barbarins على العمال الذين يفدون من بلاد النوبة . وكانوا فى الواقع أسوا العمال حظا إذ كانت الأمراض تجد فى أجسامهم مرتعا سهلا وذلك لضعف بنيتهم من ناحية ، وللعناء الشديد الذى كانوا يلاقونه فى سفرهم الطويل من بلادهم البعيدة من ناحية ثانية . وكان أطباء الشركة ورجالها يجدون غالبية أولئك العمال جثثا هامدة إذ كان الموت يطويهم بعد مرضهم بثمان وأربعين ساعة (٣) .

---

(١) ذكر هذه الأمراض كبير أطباء الشركة فى تقاريره السنوية التى كان يرفعها إلى إدارة الشركة . وتوجد مجموعة من هذه التقارير التى صدرت من ٢٥ يونيو ١٨٦٠ إلى ١٨٦٥ فى مجلد محفوظ فى مكتبة بلدية اسكندرية تحت اسم

Dr. Aubert Roche: Rapports sur l'état sanitaire et médical des travailleurs et des établissements du canal maritime de l'isthme de Suez. Imprimerie Centrale de Napoléon. Paris 1865.

كما أن جريدة الشركة كانت تحرص على نشر تلك التقارير فى حينها .

(٢) أنظر تقريرا ضافيا وضعه الدكتور Bougouin الذى أشرف على الحالة الصحية بين عمال السخرة الذين حفروا ترعة الماء العذب من قرية القصاصين إلى نفيشه . ويقع ذلك التقرير ، وتاريخه ١٥ مارس ١٨٦٢ ، فى أربعة فصول طويلة ونشرته جريدة L'Isthme de Suez فى العدد ١٤٠ الصادر فى ١٥ ابريل ١٨٦٢ ص ص ١٢٣ — ١٢٨ مجموعة السنة السابعة .

(٣) أنظر بخصوص هذا الموضوع كلا من
ا تقرير أطباء الشركة بتاريخ ١٥ ابريل ١٨٦٣ . نشرته جريدة الشركة

وقد مرت بمصر موجة برد شديدة قارسة فى شتاء ١٨٦٣ — ١٨٦٤ واشتدت وطأة البرد فى ساحات الحفر اشتدادا مروعا وتجمد الماء فى الشلوفة وهبطت درجة الحرارة عند جبل مريم فبلغت ثلاثة تحت الصفر ، وأمطرت السماء قطعا من الثلج فى القنطرة ، وقد انفردت ساحات الحفر فى منطقة الشلوفة بأشد برد وأعنفه . وكان يشتغل فيها خلال خمسة آشهر ٤٧,٧٨٠ عاملا مصريا بينما لم يزد عدد الأجانب فيها عن ٩٤ ما بين مستخدم وعامل . وكانت الوسيلة الأولى لحماية أولئك المصريين هى مبيتهم فى داخل منشآت تقيهم قسوة البرد . ولكن الشركة بررت مبيتهم فى العراء تبريرا غريبا فقالت « إنه من الصعب ايواء وتدفئة جموع من العمال يتراوح عددهم كل شهر بين عشرة الآف وأحد عشر ألفا » . وكان الإجراء الذى اتخذته الشركة — على قولها — لحماية العمال من موجة البرد العاتية أنها وزعت عليهم كميات من الخشب يوقدونها ليلا للتدفئة . وتمن الشركة على المصريين فتزعم أن تقديم الخشب إلى العمال قد كبدها أربعين ألف فرنك (ما يقرب من ألف ومائتى جنيه) هى مجموع ثمن الخشب ومصاريف نقله بالطريق الحديدى من القاهرة إلى السويس ثم على ظهور الجمال مسافة ١٢ كيلومترا شمالى السويس إلى الشلوفة . وقد أصيب العمال المصريون هناك بالدوسنتاريا والأمراض الصدرية ، وارتفعت نسبة الوفيات بينهم وكان من بين الضحايا طبيب مصرى مستخدم فى الشركة ، كان يشرف على الحالة الصحية بين

على دفعتين العدد ١٦٦ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٣ ص‌ص ١٦٨ — ١٧٤ والعدد ١٦٨ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٣ ص‌ص ٢٣٦ — ٢٣٩ . مجموعة السنة الثامنة . وعاد كبير أطباء الشركة إلى بحث هذا الموضوع فى تقرير وضعه بتاريخ ٢٠ يونيو ١٨٦٥ .

ب تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ أول يوليو ١٨٦٧ نشر على دفعتين فى جريدة الشركة : العدد ٢٦٤ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٧ ص‌ص ٢٢٢ — ٢٣٢ والعدد ٢٧٣ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٧ ص‌ص ٤١١ — ٤١٥ مجموعة السنة الثانية عشرة .

جريدة الشركة العدد ٢٠٢ الصادر فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٤ ص ٤٥٠ مجموعة السنة التاسعة .

ء فوازان بك الجزء السادس ص ٢٨١ .

العمال فى منطقة الشلوفة (١). وقد نشر كبير أطباء الشركة الإحصائية التالية عن عدد العمال المصريين ، وإصاباتهم ووفياتهم وذلك فى تقريره بتاريخ أول يوليو ١٨٦٤ :

الشهر	عدد العمال	عدد المرضى	عدد الوفيات
يناير ١٨٦٤	١٠,٩٠٧	٤٠٧	٢٤
فبراير	١١,٤٢٠	٢٣٧	٤٥
مارس	١٠,٥٦٣	٣١٥	٤١
ابريل	٦,٠٢١	٣٢١	٣٨
مايو	٨,٨٦٨	٢٠٠	٢٦
المجموع	٤٧,٧٨٠	١,٤٨٠	١٧٤

× × ×

انتشار الأوبئة بين العمال فى ساحات الحفر

تجمعت على العمال المصريين الكوارث من كل نوع وصوب . فإلى جانب أهوال أزمة ماء الشرب ومجانية العمل والإرهاق فيه والضرب بالكرباج والزج بهم فى السجن جاءت الأوبئة فعصفت بالعمال فى غير هوادة أو شفقة . وكان من بين هذه الأوبئة حسب ترتيب ظهورها : التيفود والتيفوس والجدرى والكوليرا والحمى الراجعة . وكانت بعض الأوبئة تختفى لتعود مرة أخرى بعد سنة أو سنتين أكثر عنفا وأشد فتكا من المرة السابقة .

---

(١) أنظر بخصوص موجة البرد فى ساحات الحفر كلا من :

ا تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ أول يوليو ١٨٦٤ نشرته جريدة الشركة فى العدد ١٩٥ الصادر فى ٣ أغسطس ١٨٦٤ ص ص ٣٢٨ — ٣٣٧ مجموعة السنة التاسعة .

» ب جريدة الشركة العدد ١٧٩ الصادر فى ٣ ديسمبر ١٨٦٣ ص ٤٧٤ مجموعة السنة الثامنة .

جـ Guillemin, ouvr. cit., p. 262.

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 303 et 317.

ظهر التيفود فى أبريل ١٨٦٢ فى ساحة الحفر رقم ٦ بمنطقة عتبة الجسر واتخذ مظهر الوباء بين العمال . وقد اختلفت الآراء فى أسباب ظهوره فى ساحات الحفر وفى تحديد مسئولية الشركة فى تفشى ذلك الوباء وقد ذكر كبير أطباء الشركة فى تقريره الذى وضعه عن ذلك الوباء أن فوجا من العمال بلغ عدد أفراده ١٨٢٥ عاملا جاء من بعض قرى مديرية قنا وكانوا يحملون ذلك المرض . واستند إلى دليلين أولهما أن عدداً من أفراد ذلك الفوج قد أصيب بالتيفود ، وأن عددا آخر قد قضى نحبه ، والفوج لا يزال فى طريقه من الصعيد لم يكن قد بلغ بعد منطقة القناة . وثانيهما أن التيفود كان قد ظهر فى العام السابق أى فى ١٨٦١ — فى سبع قرى من نفس مديرية قنا . وكانت هى نفس القرى التى وفد منها عام ١٨٦٢ ذلك الفوج من العمال . وهذا الدليل الثانى الذى يذكره كبير أطباء الشركة دليل عليه يدينه بالإهمال والتقصير لأنه كان يجدر به ، وقد علم أن التيفود انتشر فى العـــام السابق ، أن يتخذ التدابير الوقائية لمنع تسرب المرض إلى ساحات الحفر .

ويذكر البعض (٢) أن الشركة كانت سببا غير مباشر فى انتشار الوباء

---

(١) تخبطت الشركة فى تحديد ذلك الوباء فقد ذكر مدير جريدة الشركة أنه التيفوس (العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص ١٩١ مجموعة السنة السابعة) كما قرر ذلك كبير أطباء الشركة فى تقريره الأول الذى وضعه عن ظهور الوباء والذى نشر فى نفس العدد . ولكن عاد كبير الأطباء فذكر فى تقرير آخر وضعه فى ١٥ ابريل ١٨٦٣ أنه التيفود إذ يقول فيه « وقد أسفر الفحص الدقيق فى الحال عن تعرف الأطباء على أعراض التيفود .

Bientôt un examen attentif fait reconnaître aux médécins des symptômes typhoiques".

وقد نشر الجزء الأول من هذا التقرير فى العدد ١٦٦ الصادر فى ١٥ مايو ١٨٦٣ صص ١٦٨ — ١٧٤ والجزء الثانى فى العدد ١٦٨ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٣ صص ٢٣١ — ٢٣٩ مجموعة السنة الثامنة . وأنظر أيضا

Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 280.

(2) Sammarco: Précis etc. ouvr. cit., t. IV, pp. 148-149..

Sammarco: Histoire de etc. ouvr. cit., t. III, p. 55.

نقلا عن المحفوظات النمساوية فى فينا .

إذ أنَّ العمال المصريين لم يألفوا جو البرزخ ، وأن الأحوال المعيشية فى البرزخ كانت تختلف فى ذلك الوقت اختلافا بينا عما ألفوه فى بلادهم فأصيبوا بالتيفود وهم فى ساحات الحفر ، ثم حملوا ميكروب المرض معهم إلى قراهم وهناك أخذ صورة الوباء وفتك بالأهلين .

ومن الصعب ترجيح أحد الرأيين ترجيحا قاطعا ، ومن المحتمل أن يكون الرأى الثانى هو الأرجح لأن وسائل النظافة العامة والشخصية فى ساحات الحفر القائمة فى الصحراء كانت معدومة حتى بعد حفر ترعة الماء العذب من القصاصين إلى نفيشه إذ كان الماء لا يزال يحمل على ظهور الجمال إلى ساحات الحفر ولم يكد يفى بحاجات العمال الضرورية ، والعامل يعتبر نفسه سعيدا إذا ظفر بانتظام على ما يقيم أوده من ماء الشرب ، فلم تكن ساحات الحفر حمامات عامة أو مغاسل أو غيرها .

وقد كافحت الشركة الوباء فى صمت وتكتم شديدين ، فلم يذكر احد من رجال الشركة على الإطلاق اسم ذلك المرض حتى لا تكون معرفة الناس بانتشاره مدعاة لانتشار الرعب والإضطراب فى ساحات الحفر . وبلغ من تكتم الشركة أن المرضى أنفسهم كانوا يجهلون أنهم مصابون به (١) . وقد حاصر الأطباء الوباء بين أفراد الفوج الذى ظهر فيهم ، وعزلوا المرضى فى خيام وأكشاك خشبية ، كما خصصت لسائر أفراد ذلك الفوج جهة نائية فسيحة يقيمون فيها ، وأهتمت بوسائل التهوية والنظافة بينهم ، وضاعفت عدد الأطباء فى ساحات عتبة الجسر ، وأنشأت فى كل ساحة من الساحات الست مركز إسعاف عينت فيه أطباء مصريين (٢) .

ويذكر كبير الأطباء أن القسم الطبي استطاع أن يتغلب على الوباء فى خلال شهر واحد ، وأن عدد الإصابات بلغ ٥١٢ عاملا والوفيات ٢١ فقط.

---

(١) التقرير الأول الذى وضعه كبير أطباء الشركة عن ظهور ذلك الوباء ونشر فى جريدة الشركة العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ ص ص ١٩١ — ١٩٢ مجموعة السنة السابعة .

(٢) المصدر السابق

ولكن الثابت أن هذه الأرقام كانت دون الحقيقة بكثير ، لعدة أسباب ، منها أن أحد الفرنسيين كتب عن ذلك الوباء فى ٢ يونيو ١٨٦٢ من الساحة رقم ٦ فى عتبة الجسر ، وهى الساحة التى انتشر فيها الوباء ، وتعرض فيما كتبه لعدد الإصابات فقال « أما عدد الضحايا فقد أذيع رسميا أنه عشرين . ولكنى أعتقد — وأقول هذا فى الخفاء — أن العدد أكثر من ذلك بكثير » . (١) كما ذكر أن عمليات الحفر تعرضت للتعطيل بسبب الوباء (٢) . والعبارة الأخيرة قرينة على جسامة عدد الضحايا لأنه لا يعقل أن ٥٣٣ عاملا ، هم مجموع عدد المرضى والوفيات ، ينشأ عن غيابهم تعطيل عمليات الحفر لأن هذا العدد ضئيل بالنسبة لمجموع عدد العمال وكان لا يقل عن عشرين ألفا . كما أن فرنسيا معاصرا آخر هو فوازان مدير عام الأشغال فى الشركة وكان يشرف وقتئذ على عمليات الحفر فى تلك المنطقة ، وصف ذلك الوباء بأنه « حادث خطير (٣) » ويذكر روش أن « عددا كبيرا جدا من أفراد ذلك الفوج قد أصيب به بسرعة وفجأة (٤) » . كما أصيب عدد من أطباء الشركة المصريين والأجانب بذلك الوباء ولقى بعضهم حتفه وهم يكافحون الوباء (٥).

وقد وجد معارضو المشروع فى ظهور التيفوس بعد أن أعلنته جريدة الشركة على صفحاتها فرصة سانحة لمهاجمة المشروع فأذاع بعضهم أن المنطقة التى تجتازها القناة اقليم موبوء غير صحى ، واعتبر البعض الآخر انتشار الوباء دليلا على سوء الإدارة وفوضى العمل فى الشركة (٦) .

+ + +

وفى العام التالى ، أى فى سنة ١٨٦٣ ، حل وباء التيفود والتيفوس معا

---

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 245.

(2) ibid.

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 280.

(٤) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ١٠ ابريل ١٨٦٣ وقد سبقت الأشارة إليه

(٥) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٤ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٢ صص ١٩١ — ١٩٢ مجموعة السنة السابعة

(6) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 280.

فى مســاحات الحفـــر . وكانت مصـــر قد ابتليت بهذين الوباءين قبل أن ينتقلا إلى منطقة البرزخ ، وكان من المتعذر أن تظل تلك المنطقة بمنجاة منهما .

انتشر فى مصر لمدة عامين الطاعون البقرى بين الماشية ، ونفق ما يقرب من ستمائة ألف رأس . ولم تجد تفعا التدابير التى اتخذتها الحكومة لمكافحة الوباء . فقد استوردت عددا كبيرا من الماشية من بلدان حوض البحر المتوسط على بواخر الشركة العزيزية المصرية (١) وأعفيت تلك الواردات من الرسوم الجمركية ووزعتها على الفلاحين على أن يسددوا ثمنها على آجال طويلة ، (٢) ولكن مالبثت أن أصيبت الحيوانات المستوردة بالطاعون ونفقت(٣). وكان لذلك الوباء الحيوانى نتائج بعيدة على الصحة العامة فى مصر. كان الفلاحون يلقون بحيواناتهم النافقة فى الترع والنيل بدلا من مواراتها فى حفر فى الأرض . وسرعان ما كانت تطفو وتتعفن ويدفعها التيار أمامه، وكان بعضها يحجز عند الكبارى والبعض الآخر يصطدم عند المنحنيات فيقف عن السير مع التيار . ومن المعروف أن الترع كانت هى المورد الذى يستقى منه الفلاحون . وكانت المياه متلوثة وهكذا كانت تلك الجثث مبعث أمراض خطيرة فانتشر التيفوس والتيفود .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تضافرت عدة عوامل زادت من شدة وطأة الوباء ، كان من بينها سوء التغذية بسبب ارتفاع أسعاراللحوم ارتفاعا فاحشا (٤) وزيادة أثمان المحاصيل الزراعية فقلت التغذية وضعفت القدرة على مقاومة الأمراض . يضاف إلى ذلك نقص المساحات المزروعة

---

(1) Sabri M.: L'Empire etc., ouvr. cit., p. 116. Voir aussi: Dervieu, ouvr. cit., p. 15.

(2) Sammarco: Histoire etc. ouvr. cit., t. III, p. 104.

(٣) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩٢ فى ٢٤ شعبان ١٢٠٢ .

(4) Douin: Histoire du Règne etc. ouvr. cit., t. I, pp. 234-235.

قمحا وذرة (١) بسبب التوسع فى زراعة القطن نتيجة الإقبال على شرائه بسبب قيام الحرب الأهلية الأمريكية . ثم جاء فيضان ١٨٦٣ وكان خطيرا عاتيا (٢) أغرق حقول الذرة ونقص المحصول نقصانا كبيرا وأرتفعت أسعاره إلى الضعف وقامت شبه مجاعة فى البلاد تداركتها الحكومة باستيراد مقادير كبيرة من القمح من الخارج . وكانت نتيجة تلك العوامل مجتمعة اشتداد وطأة التيفود والتيفوس فى مصر .

وقد وفد الوباءان إلى منطقة البرزخ بثلاث طرق :

أولا : كان النيل يقذف فى البحر المتوسط الآفا من جثث الحيوانات . وكان التيار الساحلى يدفعها غربا فى اتجاه بورسعيد . فكان يصل كل يوم تجاه المدينة عدد من جثث الحيوانات المتآكلة المتعفنة . وكانت الأمواج تلقيها على الشاطىء ، وبذلك تهيأت الفرصة أمام ميكروب المرض لكى يتسرب إلى المدينة بطريقة أو أخرى .

ثانيا : كانت جثث الحيوانات النافقة تلقى فى الترع الموجودة فى شرق فرع دمياط والتى تتصل بترعة الماء العذب التى حفرتها الشركة من القصاصين إلى نفيشة ، وبذلك كانت تصل مياه الشرب وهى ملوثة إلى منطقة البرزخ من ناحية الغرب . وقد اهتم رجال الشركة فى تفتيش الوادى — وكان من ممتلكات الشركة وقتئذ — بتلك المسألة وحاولوا معالجتها علاجا جزئيا ، فكانوا ينتشلون من ترعة الوادى مئات من جثث الحيوانات النافقة ويعملون على دفنها فى أمكنة أعدوها لذلك الغرض (٣) .

---

(١) أنظر تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ ٢٠ يونيو ١٨٦٥ وقد نشرته جريدة الشركة فى العدد ٢١٨ الصادر فى ١٨ يوليو ١٨٦٥ ص ص ٢٠٥ — ٢٢١ مجموعة السنة العاشرة .

(٢) بلغ من خطورة الفيضان أنه أحدث فى ليلة ٢٥ سبتمبر ١٨٦٣ قطعا فى جسر فرع رشيد بلغ طوله ستة اميال شمالى كفر الزيات وبلغت المياه طنطا وانقطعت الموصلات بين القاهـرة والإسكندرية ولم تستأنف إلا فى ٩ نوفمبر . وحدث قطع آخر كبير فى جسر فرع دمياط عند طلخا وانتقل الوالى إلى هناك للإشراف على أعمال الأنقاذ .

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 317.

ثالثا : جاء الوباء مع أفواج العمال المصريين الذين كانوا يفدون من مناطق موبوءة فى الأصل . وقد وجد الوباء مرعى خصيبا وسط الجموع المحتشدة من العمال وكان سوء التغذية بينهم عاملا قويا ساعد على اتساع مداه ، فقد كان الحصول على الأطعمة فى منطقة البرزخ صعبا للغاية (١) على الرغم من أن الشركة قد عملت ، بعد انفراج أزمة ماء الشرب ، على ترغيب التجار والباعة فى النزوح إلى مناطق الحفر يقيمون المتاجر . وقد ارتفعت أثمان الحاجيات فى منطقة القناة ارتفاعا فاحشا ، وكثيرا ما انعدم وجود الأغذية فى الأسواق .

وكانت منطقة الشلوفة أكثر المناطق تعرضا للإصابة بالتيفوس ، (٢) وبلغ عدد الإصابات – كما جاء فى بيانات الشركة – ٢٢٥ والوفيات ٤٧ ، وهذه الأرقام دون الحقيقة بكثير .

+ + +

وتسرب وباء الجدرى إلى ساحات الحفر فى عام ١٨٦٤ فى أعقاب التيفوس والتيفود . وكما وفدت الأوبئة السابقة أو غالبيتها من خارج منطقة القناة فقد حل الجدرى كذلك بساحات الحفر غريبا عليها . وهذا يؤكد تقصير القسم الطبى بالشركة فى اتخاذ التدابير الوقائية لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى منطقة القناة .

وصل إلى السويس من جده فى أوائل ١٨٦٤ أفواج من العبيد السود قدم بهم تجار الرقيق . وكان عدد كبير منهم مصابا بالجدرى (٣) . وسيق أولئك الرقيق سرا إلى القاهرة فحملوا إليها ميكروب المرض وهناك

(1) ibid.

(٢) يقول كبير أطباء الشركة فى تقريره بتاريخ أول يوليو ١٨٦٤ « إن التيفوس أصاب عددا كبيرا من عمالنا ..... » نشرت جريدة الشركة هذا التقرير فى العدد ١٩٥ الصادر فى ٣ أغسطس ١٨٦٤ صص ٣٢٨ – ٣٣٧ مجموعة السنة التاسعة .

(3) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 318.

انتشر بين الأهلين ، وانتقل من القاهرة إلى جهات مختلفة فى مصر . وكانت القاهرة والسويس أكثر المناطق إصابة بالجدرى . وانتقل الوباء إلى ساحات الحفر حيث وقع كثير من الضحايا بين العمال المصريين واليونانيين .

وظهر الجدرى مرة أخرى فى منطقة البرزخ فى أواخر عام ١٨٦٦ إذ كانت تجارة الرقيق لا تزال تجد بعض الرواج فى مصر على الرغم من جهود الحكومة المصرية فى الضرب على أيدى المتجرين به . وكان فريق من تجاره يرسلون شحنات آدمية تبحر من سواحل افريقيا ومن جده إلى السويس وكانت تلك السفن لا تخضع للرقابة الصحية التى تفرض على السفن الأخرى . وكانت البلاد التى وفد منها الرقيق تعتبر موطن الجدرى . وبذلك تسرب إلى السويس ومنها إلى سائر الأقاليم فى مصر . ولم يلبث أن انتقل الوباء إلى منطقة القناة حيث كان انتشاره عنيفا فى سرابيوم والإسماعيلية (١) .

وكان وباء الكوليرا الذى اجتاح ساحات الحفر فى مستهل صيف عام ١٨٦٥ أخطر وأشد وباء شهدته منطقة القناة . وتقع الشركة وجريدتها وبعض المصادر فى خطأ إذ قررت أن ذلك الوباء قد بدأ فى الأراضى الحجازية بين الحجاج المسلمين الذين أدوا فريضة الحج فى ابريل — مايو ١٨٦٥ (ذى الحجة ١٢٨١) فنقله الحجاج المصريون معهم إلى مصر (٢) حيث انتشر فى

---

(١) تقرير كبير أطباء الشركة بتاريخ أول يوليو ١٨٦٧ ونشر فى جريدة الشركة على دفعتين : العدد ٢٦٤ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٧ ص‌ص ٢٢٢ — ٢٣٢ والعدد ٢٧٣ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٧ ص‌ص ٤١١ — ٤١٥ مجموعة السنة الثانية عشرة .

(٢) L'Isthme de Suez العدد ٢٢٠ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦٥ ص ٢٧١ مجموعة السنة العاشرة . وقد بلغ من قوة هذا الرأى الخاطىء الذى ساد أوربا وقتئذ أن وزيرى الخارجية والتجارة فى فرنسا قدما إلى الأمبراطور نابليون الثالث تقريرا عن وباء الكوليرا ووسائل مكافحته . وقد اقترحا عقد مؤتمر دولى يضم الدول الأوربية لاتخاذ تدابير فعالة بالاتفاق مع الحكومة التركية لحماية أوربا من الكوليرا التى تبدأ سيرها — فى زعمهم — من مكة المكرمة . أنظر نص التقرير فى جريدة الشركة العدد ٢٢٤ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٥ ص‌ص ٣٤٦ — ٣٤٨ مجموعة السنة العاشرة

ربوع البلاد وفتك بساكنيها فتكا عنيفا . ولكن الواقع أن ذلك الوباء ويطلق عليـــه فى التاريخ الطبي Quatrième Pandemie (١٨٦٣-١٨٧٦) (١) ظهر أولا عام ١٨٦٣ فى البنغال بالهند بين الحجاج الهندوس الذين نقلوه إلى الله آباد ثم آجرا ، وهما من المدن المقدسة عند الهندوس ، ثم بلغ الوباء بمباى . وفى سنة ١٨٦٥ انتشر على ساحل ملبار إلى كرتشى وبلوخستان . فلما حل موسم الحج الإسلامى فى بداية صيف ذلك العام ورحل الحجاج الهنود المسلمون إلى الحجاز حمل بعض منهم ميكروب المرض إلى مكة (٢) حيث وجد مرتعا خصبا وسط الحشود الهائلة من الحجيج . وبلغ تعدادهم فى ذلك العام مائة وخمسين ألفا (٣) توفى منهم بالكوليرا تسعة الآف . فلما عاد حجاج مصر وشمال افريقيا إلى السويس وفد الوباء معهم إلى ذلك الثغر ، ومن ثم انتشر فى مصر انتشارا مزعجا . وانتقل الوباء إلى أوربا فأمريكا الشمالية ولم يعرف الوباء فى شدته وهجومه واتساع مداه حدودا أو فواصل ، وظل أربعة أعوام ينتقل من قارة إلى أخرى يجتاز البحار ويعبر المحيطات .

وصلت الباخرة الإنجليزية سدنى Sidney ميناء السويس فى ١٩ مايو ١٨٦٥ تقل الفوج الأول من الحجاج . وكان بعض ركابها مصابا بالكوليرا ومات عدد منهم والسفينة تمخر عباب البحر الأحمر إلى السويس (٤) فألقت بجثث موتاها فى قاع البحر (٥) . وعلى الرغم من ذلك فقد أعطى ربانها إلى السلطات المصرية فى الميناء بيانات مزورة عن خلو السفينة من

---

(1) Nouveau Traité de Médicine. Publié sous la direction de MM. les Professeurs: Roger — Widal — Teissier. Paris 1927, t. III, Maladies Infectieuses, p. 356.

(٢) المصدر السابق

(٣) أنظر تقرير كبير أطباء الشركة بعنوان « سير الكوليرا »
Marche du Choléra

(4) Dr. Herman Legrand: Contribution à l'étude du problème de la défense de l'Egypte contre le Choléra. Alexandrie 1903, p. 6.

(5) Guillemin, ouvr. cit., p. 328.

الأمراض المعدية أو الوبائية . فأذنت تلك السلطات للحجاج فى النزول إلى البر . ولم يمر يومان حتى ظهرت الكوليرا فى السويس ، وكان من بين ضحاياها ربان تلك السفينة الإنجليزية وسرعان مالقى حتفه هو وزوجته (١) .

وعن طريق هذا الفوج تعددت الإصابات بالكوليرا وانتشرت فى الوجه البحرى والصعيد انتشارا رهيبا . وترك اسماعيل مصر إلى القسطنطينية ليكون بمنجاة من الوباء (٢) وكان عدد الوفيات فى القاهرة وحدها يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ شخص فى اليوم (٣) . أما عدد موتى ذلك الوباء فى مصر كلها فقد ارتفع خلال ثلاثة شهور إلى أكثر من واحد وستين ألف مصرى وكان عدد سكان مصر وقتئذ ٤,٨٤١,٦٧٧ (٤) .

ولم يكن ظهور الكوليرا فى ساحات الحفر مباغتا للشركة ، إذ كانت الأنباء قد بلغت مصر بانتشار الكوليرا بين الحجاج . وأبان كبير أطباء الشركة لدى لسبس قبل سفر الأخير إلى فرنسا فى ٢٩ مايو ١٨٦٥ أن منطقة القناة مهددة بالوباء . واتخذ القسم الطبى التدابير الممكنة فجهزت مراكز الأسعاف بالأدوية والأدوات الطبية ، وزيد عدد الأسرة (٥) ، وخفضت ساعات العمل (٦) ، وفرضت رقابة على الأغذية ، وازداد الإهتمام بالنظافة

(1) Dr. Herman Legrand, ouvr. cit., p. 7.

(2) Khedives and Pashas. Sketches of Contemporary Egyptian Rulers and Statesmen. By one who knows them well. London 1884, p. 3.
ويقول المؤلف فى هذا الصدد :

Although Ismail had not distinguished himself during the cholera of 1865, when he placed himself in safety by a precipitate flight, yet he was generally regarded as man in advance of his age.

(3) Sammarco : Histoire de l'Egypte etc., ouvr. cit., t. III, p. 104.

(4) Douin, Histoire du Règne etc., ouvr. cit., t. I, p. 239.

(٥) تقرير كبير أطباء الشركة بعنوان Le Cholèra dans l'Isthme de Suez « الكوليرا فى برزخ السويس » . نشر فى العدد ٢٢١ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٥ ص ص ٢٨٤ — ٢٩١ مجموعة السنة العاشرة

(6) Ritt, ouvr. cit., p. 319.

العامة ، والعمل على إبادة القاذورات حتى « يقضى على كل وكر من أوكار العدوى » وأشار القسم الطبى بأن يتعاون كل طبيب مع كبير مهندسى القسم الذى يعمل فى دائرته لاتخاذ التدابير الوقائية ، على أن يكون تنفيذ تلك التدابير فى تكتم شديد دون أن يذكر اسم المرض منعا لإشاعة الهلع فى النفوس لأن « الذعر عامل كبير يساعد على انتشار الوباء » .

وأهتم الأطباء بالإصابات المعوية التى كانت تقع بكثرة فى فصل الصيف خشية أن تكون تلك الإصابات أعراضا للكوليرا .

وبينما كان الوباء على أشده فى الاسكندرية وغيرها ظلت ساحات الحفر قرابة خمسة عشر يوما بمنأى عن الكوليرا حتى إذا كان يوم ١٦ يونيو ١٨٦٥ ظهرت أعراض الكوليرا على عامل مصرى كان يشتغل عند الكيلو ٤٢ شمالى السويس (١) فكان ذلك بدء ظهوره فى ساحات الحفر . وكانت الوحدة الصحية القائمة فى طوسن هى أول وحدة بدأ منها الوباء زحفه نحو ساحات الحفر . وانتقل الوباء من طوسن إلى سرابيوم فى ١٨ يونيو ١٨٦٥ وكان يعمل هناك طبيبان أحدهما مصرى هو الدكتور الشباسى والآخر أوربى هو Zuridi ، وقد جابها الموقف بشجاعة ، إلا أن الطبيب الأوربى قد انتقلت إليه العدوى وتوفى (٢) ، وكانت وفاته سببا فى انتشار الذعر بين العمال وتركوا المنطقة وترتب على ذلك أن خلت تماما ساحات الحفر فى سرابيوم من العمال.

وفى نفس الأسبوع ظهر الوباء فى الإسماعيلية (٣) ، وقد وفد إليها من ناحيتين : الجنوب حيث كان قد ظهر فى طوسن وسرابيوم ، والغرب إذ كان الوباء قد استفحل خطره فى تلك الآونة فى الزقازيق (٤) وفرت جموع

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 380.

(2) Guillemin, ouvr. cit., p. 327.

(٣) محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩٢ بتاريخ ٢٤ شعبان ١٢٨٢ . ويلاحظ أن الكوليرا ظهرت فى الأسماعيلية فى ٢٤ يونيو ١٨٦٥

(٤) محفوظات قصر عابدين : محفظة رقم ٣٣ معية تركى وثيقة رقم ١٧٥ بتاريخ ٩ صفر ١٢٨٢ .

غفيرة من سكانها ، وعلى الأخص اليونانيين والإيطاليين ، إلى الإسماعيلية وغصت بهم الفنادق واكتظ بهم الحى اليونانى وحى التجار ، كما اجتاز الإسماعيلية فريق آخر منهم فى طريقه إلى بورسعيد حيث آثر مغادرة مصر . وكان فى مجئ هؤلاء وأولئك إلى الإسماعيلية سببا فى انتشار الذعر بين السكان (١) .

ولم تكد تظهر الكوليرا فى الإسماعيلية حتى انتشرت انتشارا مروعا لم تشهد مثله سائر جهات منطقة القناة فأصيب بها المرضى من نزلاء المستشفى وماتوا متأثرين بها ، وفتكت بسكان الحى العربى واجتاحت حى التجار والحى اليونانى وحى العمال ، ونجم عن ذلك أن سيطر الرعب على سكان المدينة (٢) وخرج الأجانب هائمين على وجوههم صوب بورسعيد يقطعون المسافة سيرا على الأقدام ويحملون معهم أثقالا من المتاع . . ولما زاد عدد الموتى زيادة مروعة اعتقد الجميع أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الوباء هى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن (٣) . ويقول ريت « لم تكن هناك قوة بشرية تستطيع أن تكبح جماح تلك الحركة » (٤) .

وبلغ الموقف غايته من الخطورة حين عجزت الإدارة الصحية عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الإسعاف أو يرفعون جثث الموتى (٥) . وأنقذ الموقف بعض الشىء مدير عام أشغال حفر القناة . إذ أعار القسم الطبى بعض المستخدمين من قسم الحسابات للمعاونة فى ذلك الوقت العصيب .

---

(1) Ritt, ouvr. cit., p. 320.

(2) Fontane Marius, ouvr. cit., p. 82.

(3) Chatrian Erckmann: Souvenirs d'un ancien chef de chantier à l'Isthme de Suez. 5ème édition. Paris, p. 59.

(4) Ritt, ouvr. cit., p. 320.

(٥) تقرير كبير أطباء الشركة منشور فى العدد ٢٢١ من L'Isthme de Suez الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٥ ص ص ٢٨٤ — ٢٩١ مجموعة السنة العاشرة

وعلى الرغم من أن الوحدة الصحية فى الإسماعيلية كانت تضم مستشفى للعمال المصريين وآخر للعمال الأجانب ومركز إسعاف فان تلك المنشآت لم تكن كافية لمواجهة الوباء . إذ كان عدد المصابين فى ازدياد مطرد ، فوضعت الشركة يدها على منزل كانت قد أعدته لنزول محافظ القناة فى زياراته للإسماعيلية ولم يكن قد شغله بعد ، وحولته إلى مستشفى يعزل فيه المصابون بالكوليرا والدوسنتاريا وحالات الإسهال الشديد ، إذ كان المصابون بالمرضين الأخيرين أكثر الناس تعرضا للإصابة بالكوليرا ، ولا ينقضى عليهم وقت طويل حتى يطويهم الموت . وقد وضع فى ذلك المنزل ستون سريرا شغلت فى الحال (١) .

وشعر رئيس الوحدة الصحية فى الإسماعيلية أن زمام الموقف قد أفلت من يده أو كاد ، فأرسل فى ٢٨ يونيو ١٨٦٥ تقريرا رسميا إلى كبير أطباء الشركة أبدى فيه مخاوفه من تفاقم الموقف إذا استمر الوباء بمثل ذلك العنف ، وأعرب عن حيرته فى أمر توفير الأماكن للمصابين بالكوليرا (٢) . واستجابت الشركة فأرسلت أربعين سريرا وزعت مناصفة بين العمال المصريين والعمال الأجانب . فوضعت أسرة العمال الأجانب فى مستشفاهم ، أما سرر العمال المصريين فنصبت فى كشك خشبي مقام فى الفراغ الواقع بين مستشفى العمال المصريين ومستشفى العمال الأجانب .

ولم تكن تجدى الإسعافات السريعة ولا العناية الطبية فقد كان المريض فى معظم الحالات يطويه الموت بعد ساعات معدودة من إصابته بالوباء . كما لوحظ أن العدوى كانت تنتقل بسرعة إلى أصدقاء المتوفى إذا اشتركوا

---

(١) جريدة L'Isthme de Suez العدد ٢١٨ الصادر فى ١٨ يوليو ١٨٦٥ ص ص ١٩٤ — ١٩٥ مجموعة السنة العاشرة .

(2) Rapport sur le Cholèra à Ismaïlia par le docteur Louis Companyo Chef du service de santé de la circonscription.

وقد نشر هذا التقرير فى جريدة الشركة فى العدد ٢٢١ الصادر فى ١٥ سبتمبر ١٨٦٥ ص ص ٢٩١ — ٢٩٧ مجموعة السنة العاشرة .

فى تشييع جنازته . وكان الأطباء خلال فترة الوباء يعقدون الإجتماعات فى الإسماعيلية لبحث الموقف الذى كان يزداد تفاقما يوما بعد يوم وكان يشهد تلك الاجتماعات محافظا السويس والقناة ومدير عام الأشغال فى شركة القناة (١) .

ومن الإسماعيلية انتقل الوباء إلى غتبة الجسر وهى على مسافة ٦ كيلومترات شماليها ، وكانت زاخرة بالعمال ، وقد وقعت الإصابة الأولى فى ٢٦ يونيو ١٨٦٥ على أحد العمال المصريين ثم توالى وقوع الإصابات واتخذ المرض مظهر الوباء ابتداء من ٣ يوليو وكان عدد الضحايا المصريين يربو على عدد الضحايا الأجانب (٢) .

ولم ينتشر الوباء فى القنطرة على الرغم من أنه مرت بها جموع كثيرة من اللاجئين فى طريقهم إلى بورسعيد ولم يقل عددهم عن ألفين . وقد تركوا فى القنطرة اثنى عشر شخصا أصيبوا بالكوليرا ومات بعضهم . أما بورسعيد فكان الموقف فيها ينذر بحالة خطيرة للغاية ، فقد وفد إليها سيل جارف من الزقازيق والإسماعيلية وعتبة الجسر . وفى ٢٨ يونيو ١٨٦٥ قدم بورسعيد عامل يونانى من الإسماعيلية واصطحب معه الكوليرا ، وازدادت الوفيات منذ اليوم الثالث من شهر يوليو كلما ازداد عدد القادمين . ولم يحاول أحد من رجال الشركة وقف ذلك السيل من اللاجئين إلى المدينة خشية وقوع تصادم . ولكن على الرغم من كثرة الوفيات بالكوليرا فى بورسعيد فان الوباء لم يكن بمثل العنف الذى عرف به فى الإسماعيلية .

وتقرر الشركة أن الشلوفة والسويس ظلتا بمفازة من الوباء (٣) ، ولكن

---

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٢ للبرقيات الصادرة من عابدين . برقية رقم ٣٩٤ فى غرة ذى القعدة ١٢٨٢ من رياض باشا إلى محافظ السويس وإلى محافظ القناة . وبرقية رقم ٤٠١ فى ٣ ذى القعدة ١٢٨٢ إلى كلوجى بك رئيس مجلس الصحة بالأسكندرية .

(٢) تقرير كبير أطباء الشركة الذى سبقت الأشارة إليه بعنوان « سير الكوليرا » Marche du Choléra

(٣) أنظر تقريرين وضعها كبير أطباء الشركة الأول بعنوان سير الكوليرا

البرقيات التى تلقاها وقتئذ قصر عابدين فى القاهرة تثبت بجلاء أنهما تعرضتا للوباء وكان له ضحايا فيهما (١) ، بل إن عنف الوباء فى الشلوفة حمل مجلس الصحة فى الإسكندرية على اصدار قرار بضرورة وقف العمليات الجارية فى الشلوفة . وأرسلت نظارة الخارجية المصرية صورة من ذلك القرار إلى محافظ القناة وإدارة شركة القناة لتنفيذه بكل دقة (٢) .

وقد استمر الوباء فى منطقة القناة من ١٦ يونيو ١٨٦٥ إلى ٣١ يوليو ١٨٦٥ وبلغ منتهى شدته فى الفترة الواقعة بين أول يوليو و٨ يوليو . وقد منحت الحكومة الفرنسية وســـــام الشرف من طبقة فارس للدكتور أوبير روش كبير أطباء الشركة تقديرا منها للجهود التى بذلها فى مكافحة الوباء فى ساحات الحفر (٣) . وصدر الأمر الإمبراطورى بهذا الانعام فى ١٩ يناير ١٨٦٧ .

ومن بواعث الأسف أن يظل عدد الإصابات بالكوليرا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر أمرا غامضا لم تشر إليه تقارير الإدارة الصحية

= Marche du Choléra وقد سبقت الإشارة إليه . والثانى بعنوان نهاية وباء الكوليرا فى البرزخ

Fin de l'épidémie du Cholèra dans l'Isthme.

وقد نشرته جريدة الشركة التقرير الثانى فى العدد ٢٢٠ الصادر فى ١٨ أغسطس ١٨٦٥ ص ٢٤٧ مجموعة السنة العاشرة .

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١ للبرقيات الواردة إلى قصر عابدين برقية رقم ٧٤٦ بتاريخ ٢٠ جماد الآخر ١٢٨٢ . ودفتر رقم ١ للبرقيات الصادرة من قصر عابدين برقية رقم ٥٢٣ بتاريخ ٢١ جماد آخر ١٢٨٢ الساعة ٢,٢٠ صباحا وبرقية رقم ٥٢٤ بتاريخ ٢١ جماد آخر ١٢٨٢ الساعة ٢,٤٠ صباحا .

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٢ للبرقيات الصادرة من عابدين برقية رقم ٥٨٥ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة ١٢٨٢ من رياض باشا إلى اسماعيل بك محافظ القناة أنظر كذلك برقية أخرى رقم ٥٨٦ فى نفس الدفتر بتاريخ ٢٥ ذى القعدة ١٢٨٢ من رياض باشا إلى مدير الشرقية .

(٣) جريدة L'Isthme de Suez العدد ٢٥٤ الصادر فى أول فــبراير ١٨٦٧ ص ٣٤ مجموعة السنة الثانية عشرة

فى شركة القناة إلا لماما ، وقصرت الشركة إحصائياتها على العمال الأجانب . وقد ذكر كبير أطباء الشركة فى تقريره عن « سير الكوليرا » وكذلك مدير عام الأشغال وبعض الفرنسيين (١) أنه كان من الصعب للغاية الوقوف على عدد الوفيات والإصابات بين العمال المصريين . ولا يمكن أن يعتبر هذا تبريرا لإغفال ذكر الإحصائيات الخاصة بهم . لقد عمدت الشركة فى جميع مراحل حفر القناة إلى ذكر الحالة الصحية بين جموع العمال — مصريين وأجانب — ونشرت عديد الإحصائيات عن الأمراض والوفيات بين الفريقين ، ولكنها خرجت على هذا التقليد فى تلك المرة التى كان ذكر الإحصائيات الخاصة بالعمال المصريين أهم وأوجب . فهذا الإغفال يعتبر أمرا مقصودا أريد به التستر على حالة غير مرضية — إن لم تكن مزعجة — سادت بين العمال المصريين أثناء فترة الوباء ، كما أريد به إخفاء نسبه وفيات عالية بينهم لا يجدى فيها تزوير الأرقام .

وفى شتاء ١٨٦٨ — ١٨٦٩ انتشر بين العمال المصريين فى منطقة الشلوفة مرض الدوسنتاريا وأتخذ مظهر الوباء بينهم . ويختلف هذا الوباء عن سائر الأوبئة التى اجتاحت البرزخ من قبل بأنه نشأ فى ساحات الحفر فلم يحمله إليها أحد من خارج البرزخ ، وعلى ذلك يمكن اعتباره وباء محليا ، كما اقتصر انتشاره على العمال المصريين دون العمال الأجانب . ويمكن رد هاتين الظاهرتين إلى عدة اعتبارات : أولها شتاء قارس البرد تعرضت له بوجه خاص هضبة الشلوفة فى ذلك العام وكان العمال المصريون يبيتون فى العراء .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI. p. 482.

(2) Guillemin, ouvr. cit., p. 329.

وبخصوص وباء الكوليرا فى البرزخ وتدابير الشركة لمقاومتة فى ساحات الحفر وغير ذلك أنظر خطابا أرسله دىلسبس من بورسعيد بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٥ إلى الدوق البوفرا فى باريس فى :

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc, ouvr.cit., t. V, pp. 166-169.

وأنظر أيضاً

Ritt, ouvr cit., pp. 319-327.

وكان سوء التغذيةعاملا هاما ساعد على انتشار المرض بين العمال المصريين ، كما أن ملابسهم لم تحمهم من قسوة البرد . أما العمال الأجانب الذين اشتغلوا وقتئذ فى تلك المنطقة جنبا إلى جنب مع العمال المصريين فكانوا ينفقون بسخاء على مأكلهم وملبسهم ، وكانوا يبيتون فى أكشاك خشبية ولذلك ظلوا بمنجاة من الدوسنتاريا . والجدول الآتى(١)يبين نسبة الوفيات بين الفريقين فى منطقة الشلوفة خلال الشهور الثلاثة التى انتشرت فيها الدوسنتاريا فى شتاء ١٨٦٨ — ١٨٦٩ :

جنسية العمال	عدد العمال	عدد الوفيات	نسبة الوفيات
المصريون	٦,٥٩٦	٤٤٩	٦,٨٠٪
الأجانب	٦,١٢٨	٤٤	٧١و٪

على أن هناك عاملا له أهميته فى ذلك الموضوع وهـو القدرة الطبيعية التى يتمتع بها العمال الأجانب على تحمل البرد الشديد بعكس العمال المصريين الذين لا يحظون بمثل تلك المناعة ضد أمراض الشتاء ، ومن ثم كان بروز تلك الظاهرة الواضحة فى ساحات الحفر وهى أن العمال المصريين كانت تسوء صحتهم إبان فصل الشتاء وخاصة إذا كان قارس البرد فتقع بينهم إصابات بالدوسنتاريا والإسهال الشديد والنزلات الشعبية التى كانت تنقلب فى معظم الحالات إلى التهاب رئوى حاد يودى بحياتهم . أما العمال الأجانب فكان شتاء البرزخ يعد عندهم بمثابة الربيع (٢) . وفى الصيف تنقلب الأوضاع إذ تنتشر الأمراض بكثرة بين العمال الأجانب الذين لا يتحملون حرارة الصيف اللافحة فى الوقت الذى تكون فيه الحالة الصحية بين العمال المصريين مرضية نسبيا .

× × ×

وقد ظلت الإدارة الصحية فى الشركة تؤدى رسالتها فى نطاق محدود

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 432-433.
(2) ibid.

حتى مستهل عام ١٨٦٩ . فلما قاربت عمليات الحفر الإنتهاء اتفقت الشركة مع الحكومة المصرية على ضم الإدارة الصحية بمنشآتها ومستخدميها إلى الحكومة على أن تدفع إلى الشركة تكاليف إقامة المنشآت الطبية وأثمان ما تضمه تلك المنشآت من أجهزة وأدوات وأدوية وغيرها . وسجل ذلك فى الإتفاق الأول الذى أبرم فى ٢٣ ابريل ١٨٦٩ بين الحكومة المصرية والشركة (١) .

والسبب الذى حمل الشركة على هذا الإجراء هو أنها كانت وقتئذ فى حاجة ملحة إلى المال « لتحسين وتدعيم مركزها المالى (٢) » إذ زادت نفقات تنفيذ المشروع إلى أكثر من ضعف المبلغ الذى قدرته اللجنة العلمية الدولية ، فارتفعت التكاليف من مائتى مليون فرنك إلى ٤٣٢,٨٠٧,٨٨٢ فرنكا (٣) . وقد بلغت ميزانية الإدارة الصحية فى ذلك العام (١٨٦٨ — ١٨٦٩) نصف مليون فرنك (٤) وكانت الشركة قد اتجهت إلى بيع كثير من أملاكها والتنازل عن امتيازاتها تباعا إلى الحكومة المصرية لقاء تعويضات ضخمة كلما أحست بوطأة الضائقة المالية.فباعت للحكومة فى فبراير ١٨٦٦ تفتيش الوادى ، والمعدات التى انشأتها فى محاجر المكس (٥) ، وكذلك المبانى

---

(١) أنظر المادة السابعة من الإتفاق وهو منشور فى
Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : Recueil chronologique etc., ouvr. cit., pp. 46-50.

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. I, p. 274.
وقد كتب قنصل فرنسا فى مصر بتاريخ ٧ فبراير ١٨٦٩ إلى حكومته يقول إن الرأى السائد هو أن الشركة فى حاجة شديدة إلى المال . وقد أسر له بهذا القول كذلك أشخاص يشغلون مناصب عالية جدا فى إدارة الشركة وعلى علم تام بحقيقة الموقف . أنظر
Sammarco : Histoire de etc., ouvr. cit., t. III, p. 86.

(3) Hallberg, ouvr. cit., p. 137.

(٤) خطاب دىلسبس الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة والذى عقد فى ٢ أغسطس ١٨٦٩ .

(٥) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٤٥ معية تركى وثيقة رقم ١٠٥ ووثيقة رقم ١٠٩ ، ٣٦ بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٢٨٦ برقية واردة من شريف باشا .
« وأنظر أيضا دفتر رقم ٧٥ ص ١٥٥ وثيقة رقم ٦٨ .

التى كانت قد اشترتها فى دمياط (١) وبولاق بالقاهرة (٢) ، وتنازلت عن حق الإعفاء الجمركى الذى خوله إياها عقد الامتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير ١٨٥٦ (٣) . وكان تنازلها عن الإدارة الصحية إحدى حلقات هذه السياسة التى سارت عليها فى السنوات الأخيرة لحفر القناة .

وكان اسماعيل قد أبدى تقديره لرجال الإدارة الصحية فمنح روش Roche كبير الأطباء النيشان المجيدى من الرتبة الثالثة (٤) . ووافق على نقله مع سائر أطباء الإدارة الصحية إلى خدمة الحكومة المصرية (٥) .

---

(١) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٤٥ معية تركى وثيقة رقم ٣٠٦ من شريف باشا إلى الجناب العالى .

(٢) محفوظات قصر عابدين : محفظة ٤٥ معية تركى نفس الوثيقة السابقة . وكذلك دفتر رقم ١٩٣٠ ص ٦٨ وثيقة رقم ٨٧ .

(٣) المادة الأولى من الإتفاق الأول الذى أبرم بين الحكومة المصرية وشركة القناة بتاريخ ٢٣ ابريل ١٨٦٩ والذى سبقت الإشارة إليه .

(٤) محفوظات قصر عابدين : « أمر كريم » إلى نظارة الخارجية بتاريخ ٢٦ صفر ١٢٨٦ وثيقة رقم ١٠ دفتر ٥٧٣ ص ٢٢٨

وأنظر أيضا الوقائع الرسمية عدد ٢٨٢ الصادر فى ١٦ ذى الحجة ١٢٨٥ (٢٩ مارس ١٨٦٩) نقلا عن تقويم النيل لأمين سامى باشا المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٨٠٥

(5) Fontane Marius, ouvr. cit., p. 91.

الفصل الثالث عشر

أجور عمال السخرة

مزاعم دى‌لسبس حول أجور عمال السخرة — اخلال الشركة بالتزاماتها — تحديد الأجور على أساس الإنتاج — تفسير هذه الخدعة — الشركة تتجاهل لائحة العمال — وتحدد من تلقاء نفسها أجورا تافهة — العمال يسهمون فى نفقات طعام الحراس ودوابهم — مدير عام أشغال الحفر يعترف بضآلة الأجور — تفاهة الأجور من أسباب هروب العمال — مظالم الشركة فى توزيع عمليات الحفر على العمال — الشركة لا تدفع الأجور للعمال مباشرة — مساوىء هذه الطريقة — صور مشينة لتلاعب الشركة بأجور العمال — الشركة تعطى العمال صكوكا تصرف من نظارة المالية — الشركة تصدر عملة خاصة بها للتداول فى منطقة القناة — الشركة تتوقف عن دفع الأجور — ٥ر٤ مليون فرنك الأجور المتأخرة فى تقدير لجنة التحكيم — الشركة تتهرب — خصم الأجور المتأخرة من تعويض إلغاء السخرة فى حفر القناة .

× × ×

تضاربت الآراء حول أجور عمال السخرة فى حفر القناة وانقسم حيالها المؤرخون والكتاب ومن إليهم فريقين : فريق أنكر انكارا باتا أن الشركة كانت تدفع أجورا لعمال السخرة (١) ، وفريق قرر العكس وعلى رأسه دى‌لسبس وغيره من رجال الشركة وأنصارها ورتبوا على ما ذهبوا إليه

---

(1) Percy Badger, ouvr. cit., p. 68.
Edward Dicey ouvr. cit., p. 36.
André Kostolany, ouvr. cit., pp. 114-115.
ويقرر الأخير أن آلاف الفلاحين البدائيين قد كونوا جيشا مجانيا من العمال.

نتائج تثير السخرية ، فزعم دى‌لسبس فى خطابه الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العامة لمسهمى الشركة فى ١٥ مايو ١٨٦١ أنه « لا يوجد الآن عمل فى مصر يظفر بمحبة بين الجماهير أكثر من هذا العمل الذى ينفذ فى برزخ السويس (١) » . كما زعم فى اجتماع مسهمى الشركة بتاريخ أول مارس ١٨٦٤ أن « العامل يعود إلى قريته حاملا معه مبلغا من المال وهذا أمر لم تشهده القرية المصرية من قبل (٢) » وذكرت جريدة الشركة فى مناسبات سابقة أن رجوع الفلاحين إلى قراهم يحملون أجورهم أمر جديد لم يألفه أهل البلاد (٣) .

ويعتمد هذا الفريق فى تأكيد دعـــواه على أن لائحة استخدام العمال المصريين فى حفر القناة لم تنص على ضرورة دفع الأجور للعمال فحسب بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فحددت فئات الأجور حتى لا يكون هناك مجال للظلم ، فجعلتها للعامل بحيث تتراوح بين قرشين ونصف قرش وبين ثلاثة قروش فى اليوم ، عدا الخبز المقدد (الجراية) وقدر ثمنها بقرش . أما الأطفال الذين تستخدمهم الشركة وتقل أعمارهم عن اثنتى عشرة سنة فحددت أجورهم بقرش واحد فضلا عن الجراية التى تصرف لهم كاملة على الرغم من حداثة سنهم .

وتحديد الأجور فى اللائحة أمر صحيح لا سبيل إلى التشكك فيه ، ولكن وضع اللوائح شىء ، وتنفيذها شىء آخر . وليس من العسير أن نقيم الأدلة المادية التى تقطع بأن الشركة أخلت بالتزاماتها التى نصت عليها اللائحة فيما يختص بأجور العمال . وقد اتخذ هذا الإخلال مظهرين .

---

(١) نشر خطابه فى جريدة L'Isthme de Suez العـــدد ١١٨ الصادر فى ١٨ مايو ١٨٦١ مجموعة السنة السادسة .

(٢) نشر ذلك الخطاب فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨٥ الصادر فى ٤ مارس ١٨٦٤ مجموعة السنة التاسعة .

(٣) L'Isthme de Suez العـــدد ١٠٠ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص‌ص ٣٦٨ — ٣٧١ مجموعة السنة السابعة . والعدد ١٦٨ الصادر فى ١٥ يونيو ١٨٦٣ ص ٢٢٥ مجموعة السنة الثانية .

أولا : ألغت الشركة لمصلحتها المادية نظام دفع الأجور على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى الحفر والذى نصت عليه اللائحة واستبدلت به نظاما جائرا آخر .

ثانيا : لم تدفع الشركة بانتظام الأجور لعمال السخرة وتأخر عليها نتيجة لذلك مبالغ طائلة قدرتها لجنة التحكيم الفرنسية بأربعة ملايين ونصف مليون فرنك أى ما يوازى ١٧٣ ٢٥٠ جنيها وهو مبلغ كبير للغاية بالنسبة لتفاهة الأجور المقررة للعمال من ناحية وبالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت من ناحية ثانية .

أما فيما يختص بالمظهر الأول من مظاهر إخلال الشركة بالتزاماتها فإنها وضعت نظاما يقوم على تحديد أجر العامل على أساس إنتاجه فى العمل وهو النظـام المعـروف باسم « المقطوعيـة » Le travail à La Tache ويقضى بإعطاء العـامل أجـزاء من الأرض التى ستحفر فيها القنـاة يطلق على كل جزء منها « نمرة » تعلق عليها لوحة تكتب عليها باللغة العربية مقدار الأنقاض التى يتعين استخراجها منها وكذا الأجر الذى يدفع عن حفرها . وكانت تلك « النمر » تخطط على شكل مستطيل ويبين حد كل قطعة بحفر حفرة صغيرة عند نهايتها ، فيقوم العامل بحفر تلك الأجزاء تباعا ، وكان حفر القطعة الواحدة يستغرق عادة خمسة أيام ، وكلما فرغ من حفر قطعة أعطى قطعة أخرى وهكذا حتى ينقضى الشهر المقرر لإقامته فى ساحات الحفر .

ويبدو من أول وهلة أن هذا نظام اقتصادى سليم عادل فلا يتساوى فى الأجر العامل المجد مع العامل غير المجد ، ولكن هذه الحالة لم يكن لها وجود بالنسبة لعمال السخرة فى حفر القناة ، لأن الرقابة الشديدة الصارمة التى فرضها اسماعيل حمدى بك عليهم لم تسمح لعامل بالتهاون فى العمل أو التراخى فيه . وكانت الشركة من ناحية أخرى ، وكما مر بنا ، لا تقبل عند فرز عمال السخرة فى مدينة الزقازيق سوى الشبان الأشداء الذين يقوون على عمليات الحفر المضنية وتستبعد العمال هزيلى الأجسام ضعاف البنية .

وأهم من ذلك ، حددت الشركة من تلقاء نفسها ودون الرجوع إلى

السلطات المصرية أجورا منخفضة جدا وجعلتها على فئات تختلف باختلاف نوع الترعة التى تحفر فيها القناة البحرية أو ترعة الماء العذب على النحو الآتى(١)

أولا : أرض ترعة الماء العذب وكان يسهل حفرها .

الأجر عن المتر المكعب من الأنقاض التى تتخلف عن عملية الحفر		الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى باعتبار الشهر ٣٠ يوما
بالسنتيم	بالمليم		
٣٠	١١,٥٤	٥٠ مترا	٥٧٧ مليما

ثانيا : أرض قناة السويس وجعلتها الشركة على ست فئات :

(١) أرض يسهل حفرها وترفع منها الأنقاض إلى جسور عالية

الأجر عن المتر المكعب من الأنقاض		الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
بالسنتيم	بالمليم		
٣٥	١٣,٥٤	٤٥ مترا	٦٠٩ مليمات

(٢) أرض تبدى تربتها بعض الصعوبة فى حفرها

الأجر عن المتر المكعب		الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
بالسنتيم	بالمليم		
٤٠	١٥,٤٠	٤٠ مترا	٦١٦ مليما

(٣) أرض تبدى تربتها صعوبة أكبر من سابقتها فى حفرها

الأجر عن المتر المكعب		الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
بالسنتيم	بالمليم		
٤٥	١٧,٣١	٣٥ مترا	٦٠٦ مليمات

(٤) أرض تتكون تربتها من رمال متحجرة

الأجر عن المتر المكعب		الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
بالسنتيم	بالمليم		
٤٥	١٧,٣١	٢٥ مترا	٤٣٢ مليما

(1) Ismail Hamdy Bey : Note explicative etc., op. cit.

وقد اعتمدنا ، فى تحويل العملة الفرنسية إلى عملة مصرية ، على ما قرره فوازان بك من أن القرش المصرى كان يساوى وقت حفر القناة ٢٦ سنتيما . وأن الفرنك كان يساوى ٣,٨٥ قرشا .

(٥) أرض تربتها حجرية ويصعب حفرها وترفع أنقاضها إلى جسور عالية .

الأجر عن المتر المكعب	الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
من ٥٠ سنتيما إلى ٥٥ سنتيما أو من ١٩,٢٣ مليم إلى ٢١,١٥ مليما	٢٥ مترا	من ٤٨١ مليما إلى ٥٢٩ مليما

(٦) أرض تربتها صخرية يصعب حفرها وترفع أنقاضها إلى جسور عالية

الأجر عن المتر المكعب	الإنتاج الشهرى	الأجر الشهرى
من ٦٠ سنتيما إلى ٦٥ سنتيما أى من ٢٣,٠٨ مليما إلى ٢٥ مليما	٢٥ مترا	من ٥٧٧ مليما إلى ٦٢٥ مليما

وعلى أساس تلك الفئات كان متوسط الأجر الذى يتناوله الفلاح عن عمله سبعة وخمسين قرشا ونصف قرش إذا اشتغل شهرا كاملا فى حفر ترعة الماء العذب ، أما إذا عمل فى حفر القناة البحرية طوال شهر كامل فان أجره يصل فى المتوسط إلى خمسين قرشا . بينما حددت لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ الأجر اليومى للعامل بأربعة قروش بما فيها ثمن الجراية . ويزيد فى فداحة الظلم أنه لم يكن على العامل أن يدبر من ذلك الأجر طعامه فقط بل يدفع أيضا نصيبه فى نفقات طعام مندوبى الحكومة المصرية والحراس وغيرهم وكذلك أكل دوابهم (١) . وإذا علمنا أن عودة العمال من ساحات الحفر إلى قراهم كانت على نفقتهم — فيما عدا استعمال السكك الحديدية وكانت شبكتها متواضعة جدا فى ذلك الوقت — وكان عليهم أن يدبروا أمر طعامهم اثناء سفرهم الطويل فى أوبتهم إلى ذويهم ، لم يكن يتبق فى أيديهم شىء من كسبهم وكانوا يصرفون أجورهم التافهة قبل أن تطأ أقدامهم أرض بيوتهم . وهكذا تتهاوى مزاعم دى‌لسبس التى أشرنا إلى طرف منها فى مستهل هذا الفصل وتصير إلى هباء .

---

(1) Avec ce salaire, l'ouvrier égyptien doit pourvoir à sa nourriture, qui est évaluée de 40 à 50 centimes par jour, et de plus supporter sa quote part des frais de nourriture des agents du gouvernement, gardiens et autres préposés, ainsi que leurs montures.

من مذكرة اسماعيل حمدى بك .

وقد اعترف فوازان بك مدير عام أشغال حفر القناة بضآلة أجور عمال السخرة وأنها لم تف بنفقات طعامهم ، كما قرر أن ضآلة تلك الأجور كانت السبب الرئيسى الذى حمل الفلاحين على الهرب من ساحات الحفر (١) . ولكنه يبرر مركز الشركة فيقول إنه كان فى مقدور الفلاح لو كانت لديه الخبرة والمران الكافيان أن يزيد إنتاجه فيحفر فى اليوم أجزاء من الأرض أكبر من الأجزاء التى كان يحفرها الأمر الذى يؤدى إلى زيادة أجره .

وهذا القول دفاع هزيل عن الشركة من جانب مدير عام الأشغال فيها . فالفلاح المصرى كان يبذل جهـدا لايستطيع أن يبزه فيه غيره من العمال الأجانب وكان إنتاجه فى العمل يفوق إنتاج أى فرد آخر . وقد أجمع كل من شاهد المصريين وهم يحفرون القناة على نشاطهم وحميتهم وصبرهم على تحمل المتاعب (٢) . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يعملون فى جو قارى عنيف (٣) وقد قرر أحد الزوار الفرنسيين عقب عودته من ساحات الحفر أن المصريين كانوا « يحفرون القناة من شروق الشمس إلى غروبها وكثيرا ما كانوا يواصلون العمل إلى وقت متأخر من الليل فى الليالى القمرية (٤) » . فلا يمكن مطالبة الفلاحين بأن يعملوا فوق الطاقة البشرية وقد تجاوزوها فعلا وسقط كثير منهم صرعى من الإعياء .

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 232.

(٢) أنظر على سبيل المثال

Ritt Olivirer, ouvr. cit., pp. 228 et 255.
Fontane. Marius, ouvr. cit., pp. 51, 59 et 62.
Paul Borde : L'Isthme de Suez. Paris 1870, p. 99.

وكذلك L'Isthme de Suez العدد ٩٧ الصادر فى أول يوليو ١٨٦٠ ص ٢١٠ مجموعة السنة الخامسة والعدد ١١٢ الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٦١ ص‌ص ٥١—٥٢ مجموعة السنة السادسة .

(٣) أنظر ملاحق الحالة الجوية المرفقة بتقارير الدكتور اوبير روش Aubert Roche كبير أطباء شركة القناة وهى تقارير سنوية كان يضعها عن الحالة الصحية . ومحفوظة بمكتبة بلدية اسكندرية .

(٤) مشاهدات سائح فرنسى منشورة فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٠٥ الصادر فى أول ديسمبر ١٨٦٢ ص ٣٧١ مجموعة السنة السابعة .

وقد أظهر المصريون منذ أقدم الأزمنة براعة كبيرة فى القيام بالمشروعات العامة دون الإستعانة بالوسائل الآلية وبرزت تلك البراعة بوجه خاص فى حفر الترع وشق القنوات (١) . وفى التاريخ المصرى فى عصوره المتعاقبة شواهد كثيرة على ذلك . وقد ذكر مدير تحرير جريدة الشركة عن العمال المصريين فى حفر القناة فى ذلك الوقت بالذات أنه « ليس هناك شىء يدعو إلى الإعجاب أكثر من الأعمال التى قام بها العمال المصريون خلال عام ١٨٦٢ (٢) » .

وعلى ذلك فلم تكن قلة الأجور ناتجة عن كسل أو تهاون فى العمل ، وإنما نتجت عن فساد الأسس التى قام عليها نظام العمل ولانعدام رغبة الشركة فى دفع أجور تتناسب مع المجهود المضنى فى حفر القناة ومع الأخطار التى كانت تحيط بالعمال بسبب نقص ماء الشرب ومع متاعب سفر طويل شاق وبعد عن عائلاتهم . ويقول فارمان قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر إنه كان من الجائز أن تكون تلك الأجور مناسبة لو كان حفر القناة قد تم فى أرض زراعية وعلى مقربة من قرى الفلاحين . ولكن فى مثل الأحوال التى كانت سائدة كانت الأجور طفيفة للغاية (٣) .

ولم تكن الشركة تحرص على توزيع العمل توزيعا يكفل أسباب المساواة والعدالة بين العمال فبينما كان يظفر عامل بأرض صلبة إذ تقع من نصيب عامل آخر أرض رخوة . وكانت هذه التفرقة مثارا للتذمر بين العمال . وقد عدلت الشركة أخيرا عن ذلك النظام ورأت توزيع الأجزاء التى يطلب من كل فلاح حفرها فكان يعطى العامل أجزاء من الأرض الصلبة وأجزاء من الأرض الرخوة بحيث تكون الأجور التى يتقاضاها فى النهاية بعد حفر جميع

---

(1) Siegfried, : Suez and Panama. Oxford. 1940. p. 38.

وأنظر أيضا.

De Lesseps F. : Percement de L'Isthme de Suez. Exposé.

(٢) L'Isthme de Suez العدد ١٣٥ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٢٩ — ٣٣٠ مجموعة السنة السابعة .

(3) Farman, ovur. cit. p. 202.

الأجزاء متساوية قدر الإمكان مع أجور زملائه ، وبذلك اختفت الشكوى التى كانت تنبعث بسبب تلك التفرقة فى الأجور (١) .

وقد اعترض اسماعيل حمدى بك — وهو المعروف بصرامته مع العمال المصريين المسخرين فى حفر القناة — على ضآلة أجورهم ، وقدم إلى الشركة مطلبين هما رفع فئات الأجور واحتساب الأجور على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى الحفر بدلا من نظام المقطوعية (٢) . ولكن الشركة رفضت المطلبين وافترى فوازان بك على العمال المصريين كذبا حين قرر أن الشركة استجابت للمطلب الأول فرفعت أجور عمال السخرة الذين وفدوا فى شهر أكتوبر والنصف الأول من نوفمبر١٨٦٢ إلى ٥٦و٠ من الفرنك أى قرابة قرشين عن كل متر مكعب من الأنقاض . كما جانب ذلك الفرنسى الحقيقة حين زعم أن ذلك الأجر المرتفع « قد عوض الآم الفلاحين وجعلهم يعودون إلى ذويهم قانعين راضين (٣) » . لأن تلك الزيادة لم تكن نتيجة رفع أجور العمال ولكن الشركة هى التى حملتهم حملا على أن يمضوا فى عمليات الحفر إلى ساعات متأخرة من الليل على ضوء المشاعل فى تلك الفترة حتى تستطيع الشركة الإحتفال بوصول مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فى الموعد الذى حددته لذلك الحفل ، ومن ثم زاد الوقت الذى أكرهوا فيه على الحفر وازداد إنتاجهم وأدى ذلك إلى زيادة الأجر الذى استحق لهم .

وقد دار نقاش حول طريقة دفع الأجور . فقد ذكرت الحكومة الإنجليزية فى مذكرة رسمية قدمتها للحكومة الفرنسية أن شركة القناة قد كفت منذ شهر يوليو ١٨٦١ عن نظام الدفع المباشر للعمال وأنها أخذت بنظام جائر مؤداه أن تدفع الشركة الأجور التى يستحقها عمال الفرقة جملة واحدة إلى رئيسها « الشيخ » الذى يقوم بدوره بتوزيعها على أفراد الفرقة ولكنه يستأثر

---

(1) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, pp. 232-233.

(٢) الجزء السادس من المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق .

بنصيب الأسد من تلك الأجور (١) وقد نفت الشركة هذا الإتهام فى مذكرة بتاريخ ٨ مايو ١٨٦٢ رفعتها إلى وزارة الخارجية الفرنسية (٢) ، فأثار وكيل وزارة الخارجية البريطانية هذا الموضوع فى مجلس العموم بجلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ وأعلن أن العمال لا يتقاضون أجورا وأن المشـايخ - أى الرؤساء - يتناولون جزءا من أجور العمال (٣) . فعاد دى‌لسبس - فى خطاب ضاف مفتوح وجهه إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية - يؤكد أن العـمال يتناولون أجورهم يدا بيد وأن المشايخ لايصحبونهم إلا للمحافظة على النظام وأن أولئك المشايخ يتناولون أجورهم كذلك حسب أهمية الفرقة التى يشرفون عليها وعدد أفرادها (٤) .

إلا أن هذا التكذيب العلنى الذى أذاعة دى‌لسبس لم يكن إلا افتراء على الحق وانكارا لحالة تحدث فعلا . فقد ظلت الشركة تدفع الأجور إلى العمال بطريق غير مباشر وعلى نحومن الأنحاء . ويستدل على ذلك من وصف كتبه من عتبة الجسر ريت Ritt أحد المعاصرين للحفر والمناصرين لشركة القنـاة . وكان ذلك فى ٢٠ يونيو ١٨٦٢ فى الوقت الذى بلغ فيه النشاط فى الحفـر ذروته .

---

(١) بخصوص هذا الموضوع أنظر مذكرة بتاريخ ٨ مايو ١٨٦٢ عنوانها

Memorandum sur le mode d'enrôlement et de payement des ouvriers égyptiens employés au creusement du Canal Maritime de Suez.

فى

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit,. t. IV, pp. 215-222.

وقد نشرت هذه المذكرة للجمهور بعد ذلك التاريخ باكثر من سنتين فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ٩٧ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦٤ ص ص ٣٨٠ - ٣٨٣ مجموعة السنة التاسعة .

(٢) المصدر السابق

(3) Hansard's Parliamentary Debates. vol. 166, pp. 1827-1828.

(٤) L'Isthme de Suez العدد ١٤٣ الصادر فى أول يونيو ١٨٦٢ ص ص ١٧٥ - ١٧٩ مجموعة السنة السابعة

الجسر فى ٢٠ يونيو ١٨٦٢

يجلس العمال القرفصاء على الأرض ، كل عشرة منهم سويا ، ثم يمر بهم أحد التراجمة ويطلب منهم أن يختاروا واحدا منهم يتسلم أجور العمال . ولا يلبث أن يحضر الصراف ومعه اثنان من مستخدمى الشركة بصفة ملاحظين أو شهود ومعه أيضا رجل يحمل كيس النقود واثنان من القواصة (رجال البوليس) وأحد التراجمة . فيتسلم مندوب العمال المختار أجره وأجر زملائه ... .» (١) وقد أيد تلك الواقعة معاصران آخران لعمليات حفر القناة (٢) ولا ريب أن الأخذ بذلك النظام فى صرف الأجور كان يتيح لكثير من رؤساء العمال ألوانا من الفرص يقتطعون فيها جزءا من أجور العمال سواء رضى الأخيرون أو لم يرضوا إذ كان لأولئك المشايخ سلطة واسعة على العمال فى ساحات الحفر وفى قراهم بعد عودتهم إليها (٣) .

× × ×

وفى صور شتى ، بعضها مشين ، تلاعبت الشركة بأجور العمال . كانت تقدم فى بعض الأوقات الأجور للعمال فى صورة صكوك قابلة للدفع وقت الطلب فى خزانة نظارة المالية فى القاهرة . وكان الفلاحون يضطرون إلى السفر إلى القاهرة لمحاولة صرفها فلا يستطيعون إلا من كانت له صلة بشخص ذى نفوذ ، أما غالبية العمال فكانت تصرف لهم صكوك أخرى لتجديدها لمدة ثلاثة شهور ، وفى تلك الحال لا يجدون وسيلة للتخلص من تلك الوريقات سوى بيعها للمرابين من اليهود ومن إليهم مقابل مبالغ زهيدة تقل عن قيمتها الإسمية.وقد كشف عن هذه الوسيلة فى دفع الأجور سكوتScott أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى وقد زار مصر سنة ١٨٦٢ ثم أثار هذه

(1) Ritt Olivirer, ouvr. cit., pp. 246-247.
(2) Fol M., ouvr. cit., p. 8.
Marius, ouvr. cit., p.
(٣) أنظر بعض حوادث من هذا القبيل يسردها
Percy Badger, ouvr. cit.,

المسألة فى مجلس العموم بجلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ (١) . وكان هدف الشركة من اتباع هذا الأسلوب الملتوى فى دفع الأجور هو أن الحكومة المصرية كانت مدينة لشركة القناة بمبالغ ضخمة هى ثمن ١٧٧٦٤٢ سهما التى أغرى دىلسبس سعيدا على قبولها فى صيف ١٨٦٠ بفضل الحساب المفتوح من ناحية ولإنقاذ الشركة من انهيار محقق من ناحية ثانية . وقد رأى دىلسبس أن يستغل الموقف لصالح الشركة بتحويل أجور عمال السخرة على خزانة نظارة المالية تدفعها عن الشركة خصما من الرصيد الدائن للشركة .

واتخذت الشركة من الأجور وسيلة لإكراه الفلاحين على البقاء فى ساحات الحفر المدة المقررة أو المدة التى ترومها ، فامتنعت كلية عن دفع أى مبلغ من الأجر الذى يستحقه العامل إلا بعد أن يفرغ كلية من حفر الأجزاء التى تخصص له . فاذا هرب العامل أوترك عمله قبل إنجازه فانه يحرم من جميع الأجور التى يستحقها مهما بلغ مقدار تلك الأجور (٢) . وكان هذا الإجراء التعسفى يخالف لائحة استخدام العمال المصريين .

وقد ابتدعت الشركة عملة خاصة بها أصدرتها من ورق الكرتون بألوان تختلف باختلاف قيمتها . وكان بعض هذه الأوراق من فئة عشرين بارة والبعض الآخر من فئة عشر بارات(٣) . وكانت تلك العملة تسرى فى منطقة القناة : فى مكاتب الشركة القائمة فى ساحات الحفر وفى محلات البيع وفى مخازن المقاول العام . وبرر أنصار الشركة تصرفها بحجة واهية هى

---

(١) أنظر الفصل العاشر

(2) Voisin Bey, ouvr. cit., t. VI, p. 233.

وأنظر ما كتبه دىلسبس بخصوص هرب عمال السخرة من ساحات الحفر والإجراءات المالية الإدارية التى كانت تتبعها الشركة حيالهم :

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, p. 220.

(٣) كان القرش يساوى فى ذلك الوقت أربعين بارة

أنه كان يصعب عليها توفير كميات كبيرة من النقود المصرية ذات الفئات الصغيرة تكفى لدفع أجور عشرين ألف عامل كل على حدة (١). وهذا عذر واه لأن الشركة لم تكن تدفع أجر كل عامل على حدة وإنما كانت تدفع لهم — حين تدفع — جماعات. والواقع كان تصرف الشركة بإصدار عملة خاصة بها كي تتداول فى منطقة مصرية يعد افتئاتا منها على حقوق مصر لأن اصدار العملة هو عمل من أعمال السيادة تنفرد به الحكومة ولا تزاوله أية شركة مهما كانت المبررات أو الملابسات

وفى أحيان كثيرة كانت الشركة تمتنع تماما عن دفع أجور نقدية للعمال وتكتفى بتقديم الخبز المقدد (الجراية) وتوزيع ماء الشرب عليهم (٢).
نخرج مما سبق بحقيقة لامراء فيها وهى أن الشركة لم تكن تدفع دائما الأجور للعمال المصريين . وسواء كان هذا التوقف عن الدفع ناجما عن امتناع صريح منها أو ناتجا عن تحايل منها بطريقة أو أخرى فقد تراكمت عليها ديون كبيرة لهم بلغت أربعة ملايين وخمسمائة ألف فرنك أى ما يوازى مائة وثلاثة وسبعين ألف ومائتين وخمسين جنيها مصريا (٣) ، وقد حاولت الشركة التهرب من دفع هذا المبلغ ولم تسدده إلا بحكم ملزم لها لم يكن قابلا للإستئناف. وكان تسديدها للمبلغ بطريق غير مباشر وهو الخصم من قيمة التعويض الذى فرضه الإمبراطور نابليون الثالث على مصر فى مقابل إلغاء السخرة فى حفر القناة .

---

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع مقالا لجريدة Spectateur Egyptien عدد ١٨ يونيو ١٨٦٢ . وقد أعيد نشره فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٤٧ الصادر فى أول أغسطس ١٨٦٢ ص ص ٢٤٣ — ٢٤٥ مجموعة السنة السابعة .
وأنظر أيضا

Ritt ouvr . cit., p. 247.

(2) Kostolany, ouvr. cit., pp. 114-115.

(٣) بتحويل الفرنكات إلى جنيهات مصرية احتسبنا سعر الفرنك بمبلغ ٣,٨٥ من القروش كما قرره فوازان بك عند كلامه على لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ . وكان فوازان بك معاصرا لتلك الأحداث . أنظر ملحوظة رقم ٢ ص ١٠٠ فى الجزء الأول من مؤلفه .

ولتفصيل ذلك نقول إنه لما قام النزاع فى سنة ١٨٦٣ بين الحكومة المصرية وبين شركة القناة حول إلغاء السخرة فى حفر القناة واسترداد الأراضى الممنوحة للشركة تطور النزاع تطورا أدى إلى تدخل الإمبراطور نابليون الثالث فأصدر فى ٣ مارس ١٨٦٤ قرارا بتشكيل لجنة لدراسة المسائل المعلقة بين الحكومة المصرية وشركة القناة وتقديم تقرير بما تراه يعرض على الإمبراطور فيصدر حكمه فى تلك المسائل على ضوء ما يكشف عنه تقرير اللجنة . وضمت اللجنة خمسة أعضاء يمثلون العناصر السياسية والقانونية والهندسية والمالية ولكنها كانت فرنسية لحما ودما وجعلت رآستها لعضو بمجلس الشيوخ هو توفنيل Thouvenel كان قبـــل أن يظفر بعضوية المجلس سفيرا لفرنسا فى القسطنطينية وبذل مع دىلسبس جهودا جبارة لاستصدار موافقة السلطان على عقد الإمتياز .

عقدت اللجنة عدة جلسات استمعت فيها لطرفى الخصومة ، وحضر عن الحكومة المصرية نوبار باشا ولينان دى بلفون بك واستعان نوبار بثلاثة من أقطاب القانون فى فرنسا ، كما حضر عن الشركة دىلسبس وفوازان . وقد دفع نوبار أمام اللجنة دفعا فرعيا قال فيه إنه بدلا من أن تطالب شركة القناة بتعويض من الحكومة المصرية فى مقابل إلغاء السخرة فى حفر القناة فإن الحكومة المصرية تطالب الشركة بدفع أجور عمال السخرة الذين سيقوا إلى ساحات الحفر وكدوا وعادوا أدراجهم صفر الأيدى لم يتناولوا كثيرا ولا قليلا . وأوضح فى مرافعته أن العمال لم يتسلموا دائما الأجر الذى نصت عليه لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ .

وقد دفعت الشركة بعدم اختصاص اللجنة بالنظر فى هذا الدفع الفرعى كما أن هذه المسألة ليست واردة فى جدول أعمال اللجنة . وليس لوالى مصر صفة تخوله المطالبة بدفع تلك الأجور ، لأنها ليست مستحقة له ولكنها مستحقة للعمال ، وإذا كان لدى العمال أية مطالب فى هذا الصدد فعليهم وحدهم أن يطالبوا الشركة بها . فرد نوبار على هذا الدفاع بقوله إن والى مصر يعتبر الوكيل عن رعاياه الذين يوجد من بينهم أولئك العمال، فهم لم

يذهبوا إلى ساحات الحفر فى صحراء البرزخ إلا تنفيذا لأوامر الوالى ، ولم تكن لهم حرية فى رفض العمل فى حفر القناة ، فله الحق فى أن يطالب نيابة عنهم بالأجر الذى يستحقونه نظير قيامهم بعمل أجبرهم هو عليه .

وقد أخذت اللجنة بوجهة نظر نوبار باشا وقالت فى تقريرها إنه لا يسعها أن ترفض النظر فى هذا الدفع . وبعد أن بحثت وقائعه وأرقامه رات انه بتطبيق الأجر المحدد فى لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ تكون أجور العمال المستحقة على الشركة هى ٤,٥٠٠,٠٠٠ فرنك قررت أن تخصمها من مبلغ ٤٢,٥٠٠,٠٠٠ فرنك وهو قيمة التعويض الذى اقترحت فرضه على الحكومة المصرية لشركة القناة مقابل إلغاء السخرة فى حفر قناة السويس (١) .

وقد وافق الإمبراطور على ما ارتأته اللجنة وأصدر حكمه فى ٦ يوليو ١٨٦٤على ضوء ماجاء فى تقريرها .

ونحن لا نذهب كما ذهب المؤرخون والكتاب وغيرهم الذين قرروا أن الامبراطور نابليون الثالث قد قرر ٣٨ مليون فرنك تعويضا للشركة فى مقابل إلغاء السخرة فى حفر القناة . ووجه الخطأ واضح لأن التعويض الذى قرره الإمبراطور للشركة فى مقابل ذلك الإلغاء كان ٤٢,٥٠٠,٠٠٠ فرنك وخصم منه مبلغ ٤,٥٠٠,٠٠٠ فرنك قيمة الأجور المتأخرة على الشركة فأصبح المبلغ المتعين دفعه هو ٣٨ مليون فرنك . وقد استخدم رجال القانون الفرنسيون البراعة فى صياغة الحكم لإخفاء حقيقة المبلغ الذى تقرر تعويضا عن إلغاء السخرة ، فهو يبدو للقارىء العادى أو الباحث المتعجل أنه ٣٨ مليون فرنك .

وقد حالف التوفيق نوبار باشا فى هذا الموقف لأنه استطاع أن ينتزع

---

(١) أنظر تفاصيل هذا الدفع الفرعى فى تقرير اللجنة فى
Douin : Histoire du Régne.... etc, ouvr. cit., t. I, pp. 102-123.

هذه الحقيقة – وهى عدم قيام الشركة دائما بدفع أجور للعمال المصريين – من لجنة فرنسية لحما ودما لا يمكن أن تتهم بأنها حابت مصر على حساب شركة القناة ، فإن مبالغ التعويضات التى اقترحتها اللجنة وأخذ بها الإمبراطور وقد بلغت ٨٤ مليون فرنك (٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه) (١) قد أحدثت استياء عميقا فى الأوساط المصرية الرسمية والشعبية امتد إلى الجاليات الأوربية .

ومجمل القول إن الشركة حين كانت تدفع أجورا للعمال المصريين كانت تعطيهم أجورا ضئيلة للغاية لاتتكافأ مع المجهود الشاق الذى بذله الفلاحون فى الحفر ولا مع متاعب السفر إلى ساحات الحفر فى صحراء البرزخ ولا مع الأخطار التى كانت تحدق بهم بسبب ندرة ماء الشرب وتأخر وصوله إليهم ولا مع تعرضهم للأوبئة التى فتكت بهم . وكان دفع تلك الأجور يتم بطريقة غير سليمة تنطوى على مساوىء . كما أنها أمتنعت ردحا من الزمن عن دفع الأجور للعمال . ولما أكرهت على سداد الأجور المتأخرة لم تذهب تلك الأجور إلى جيوب الفلاحين ولا إلى خزانة الحكومة المصرية وإنما كان السداد عن طريق الخصم من مبلغ تعويض ظفرت به الشركة نتيجة حكم إمبراطورى جائر هو مثل سىء للعدالة الفرنسية .

---

(١) نشر النص الأصلى للحكم الامبراطورى فى عدة مراجع نكتفى منها الآن بالكتاب الأزرق .

Blue Book, Egypt 1876. No. 6.

الفصل الرابع عشر

جناية سعيد وشركة القناة على الإقتصاد المصرى

شركة القناة تسجل أن حشد المصريين لحفر القناة يصيب مصر بأضرار جسيمة — وتعد باستخدام الآت — إخلالها بوعدها — فداحة الأعباء على الفلاحين على عهد سعيد — أسبابها — سعيد يقسو على الفلاحين ويعطف على طوائف أخرى — سعيد يفرض السخرة لخدمة شركة فرنسية أخرى—نقص العمال الزراعيين فى مصر — التفكير فى استقدام صينيين وهنود وايطاليين لاستغلال أراضى مصر— سعيد يعترف بقلة العمال الزراعيين — انجلترا توفد بعثة إقتصادية إلى مصر لإغراء سعيد على التوسع فى زراعة القطن — وتعرض عروضا خلابة — سعيد يعرض عنها ويضع حفر القناة فوق أى اعتبار آخر — إزدهار المجتمع المصرى بعد وفاة سعيد وإنقاص عدد عمال السخرة ثم إلغاء ذلك النظام الوبيل .

× × ×

سجلت شركة القناة على نفسها فى وثيقة رسمية رفعتها بتاريخ ١٤ يوليو ١٨٥٩ إلى وزير الخارجية الفرنسية وإلى السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ، أنه تقديرا منها لأحوال مصر الزراعية قد قررت حفر القناة بالوسائل الميكانيكية ، ولذلك فهى فى صدد استخدام الآت حفر قوية تغنيها إلى حد كبير عن استخدام العمال المصريين فى عمليات حفر القناة . وقد جاء فى هذه المذكرة « وأخيرا كان من بين الإعتراضات الأخرى التى قدمت ضد المشروع إعتراض ظهر أنه جدير بالإهتمام ذلك هو الإعتراض الخاص بحشد الفلاحين الذين تتطلبهم أعمال حفر القناة ، والذين ستعوزهم نتيجة لذلك شئون الزراعة الأمر الذى يصيب البلاد بخسارة جسيمة .

« والشركة وهى تقدر وجاهة هذا الإعتراض قد قررت تنفيذ أعمال الحفر بوسائل ميكانيكية ، وأمرت بعمل تجارب لآلات تستخدم فى حفر

الأرض ورفع الأتربة ونقلها .... » (١) .

كما أعلنت أن حاجتها إلى العمال المصريين ، بفضل تلك الوسائل الميكانيكية الضخمة ، وفى أكثر أوقات العمل نشاطا ، لن تتجاوز أربعة الآف أو خمسة الآف عامل على الأكثر (٢) . وأكدت هذا الوعد جريدة الشركة إذ قالت « ونحن نصرح لجريدة مورننج بوست Morning Post أن حفر البرزخ لن يتطلب سوى عدد قليل من العمال لا يؤثر على انتظام الأعمال الزراعية . وسيتم هذا العمل (حفر القناة) بوسائل ميكانيكية دون الإعتماد على الأيدى العاملة . وقد أجريت تجارب على الآت قوية ستحل فى معظم الأوقات محل العمال ، وإن مهندسى الشركة لعلى ثقة من أن أعمال القناة لا تتطلب مطلقا سوى إسهام عدد من العمال يتراوح بين أربعة الآف وخمسة الآف عامل (٣) » .

وقد اتضح أن ذلك الوعد لم يكن إلا ذراً للرماد فى الأعين ، وأن نيتها كانت مبيتة من أول الأمر على تسخير الشعب المصرى فى حفر قناة السويس . وكل ما حدث هو أنها أكرهت على إرجاء مطالبة الحكومة المصرية بحشد العمال لها طبقا للائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ حتى يتدعم مركز الشركة بعد الأزمات السياسية التى أثارتها انجلترا حين دخل المشروع فى مرحلة التنفيذ فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ .

كان استخدام الكراكات وما إليها من الآت الحفر يكبد الشركة نفقات باهظة . ففضلا عن ثمنها الأساسى ، كانت هناك مصاريف لايستهان بها تنفق فى شحنها إلى بورسعيد ثم فى نقلها إلى ساحات الحفر فى صحراء البرزخ وإعادة تركيب أجزائها ونفقات تشغيلها وصيانتها وما إلى ذلك . وواضح أن اعتماد الشركة على نظام السخرة فى حفر القناة كان يغنيها عن تلك النفقات .

(1 **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc. ovur. cit., .t III' pp.. 185-188.

(2 **Sammarco** : Histoire de l'Egypte etc., ovur. cit., t. III, p. 53.

(٣) L'Isthme de Suez ، العدد ٨٧ الصادر فى أول فبراير ١٨٦٠ =

يضاف إلى ذلك أنه لم يكن من المتوقع أن تكون لدى الشركة وثيقة هامة استصدرتها من سعيد وهى لائحة العمال ثم تركها حبرا على ورق . كان هذان السببان فى مقدمة البواعث التى جعلت الشركة تنصرف عن استخدام الوسائل الآلية فى حفر القناة . والدليل على ذلك أنها لم تبد أى اهتمام جدى لاستخدام الآت حفر على الجاف إلا فى مستهل عام ١٨٦٤ حين أيقنت أنه لامناص من إلغاء السخرة فى حفر القناة نتيجة لقيام النزاع السافر العنيف بين الحكومة المصريةوبينها حول مشكلتى السخرة واسترداد الأراضى الممنوحة لها . فعقدت فى ٢٦ مارس ١٨٦٤ اتفاقا مع شركة بوريل ولافاللى Borel, lavalley لحفر قناة السويس فى النصف الجنوبى من البرزخ ابتداء من الحافة الجنوبية لمرتفعات عتبة الجسر إلى البحر الأحمر (١) . واستخدمت تلك الشركة الآت ضخمة كانت تسمى الواحدة منها «الحفار على الجاف excavateur à sec» (٢)

فاستخدام السخرة فى حفر القناة عاد على الشركة بأجل الفوائد المادية ولكنه من ناحية أخرى أصاب الإقتصاد القومى بأضرار بالغة. فإن حشد عشرين ألف عامل كل شهر طوال السنة ، بدون أدنى مراعاة للمواسم الزراعية ، كان يتطلب غياب ستين ألف فلاح فى وقت واحد عن أعمالهم الزراعية أى بمعدل ٧٢٠ ألف رجل فى السنة . وتبدو فداحة العبء الذى وقع على الحياة الإقتصادية والإجتماعية بسبب ذلك النظام الجائر إذا وضعنا أمام أعيننا الحقائق الآتية :

=ص ص ٤٦ — ٤٨ مجموعة السنة الخامسة تجد مقالاً ضافيا بعنوان مزاعم جريدة المورننج بوست Les variantes du Morning Post .

(١) كانت الشركة قد عقدت فى اكتوبر ١٨٦٣ عدة اتفاقات مع بعض لشركات والمقاولين لإنشاء حاجزى امواج فى بورسعيد وتعميق وتوسيع القناة البحرية الصغيرة التى حفرها عمال السخرة من بورسعيد إلى بحيرة التمساح . وهذه الأعمال تختلف عن عمليات الحفر على الجاف وكان لابد من استخدام الآلات فى إنجازها

2) **Lavalley lA. : Extrait d compte rendu des travaux de la société des ngénieurs civils. Travaux d'exécution du canal maritime de l'Isthme de iuez. Imprimerie Bourdier. Paris. 1866. pp. 11-26 et 27-48.**

أولا : إن عدد سكان مصر فى سنة١٨٦٢ بلغ ٤,٨٣٣,٠٠٠ (١) .

ثانيا : إن عمال السخرة كانوا يؤخذون من المزارعين وهم عصب الحياة الإقتصادية التى كانت تتمثل فى ذلك الوقت فى الزراعة .

ثالثا : إن عدة طوائف من السكان كانت تتمتع بالإعفاء من السخرة مثل الشيوخ والنساء والأطفال وسكان المدن وأصحاب الحرف والتجار وقبائل البدو ورجال الدين . وقد أمر سعيد أن يمتد الإعفاء إلى « الأشخاص المنقطعين لخدمة المساجد والزوايا والأضرحة والمقامات والتكايا ونحو ذلك من الأماكن المحترمة رحمة من لدنا واحتراما للشعائر الإسلامية (٢) » . كما رأى أن يشمل الإعفاء أهالى بلاد الأرز — أى التى تزرع أرزا — » نظراً لإنشغالهم الكلى فى خدمة زراعة الأرز (٣) » .

فاذا قدرنا أن تعداد هذه الطوائف يبلغ ثلاثة أخماس عدد السكان — وهو تقدير معتدل لأن النساء وحدهن يؤلفن نصف الأمة على الأقل — كان معنى ذلك أن تلك الجيوش الجرارة من الفلاحين المسخرين فى حفر القناة كانت تؤخذ من الخمسين الباقيين أى من ١,٩٣٣,٢٠٠ وهذه نسبة عالية رهيبة .

ويصور جانبا من هذه الحقيقة ريت Ritt أحد مستخدمى شركة القناة فيقول « نحن نعترف أن الزراعة قد تعرضت لضرر بليغ من استمرار حاجة الشركة إلى العمال . حقيقة إنه كانت تحشد غالبا فى مصر أفواج من العمال يفوق عددها ما تأخذه الشركة . وكانت تحشد فى بعض الأماكن جموع يصل عددها إلى مائة ألف رجل . إلا أن هذا الحشد كان يتم لفترة قصيرة نسبيا وفى مواسم خاصة فى السنة لا تكون الحاجة فيها ماسة إلى سواعد الفلاحين .

---

(1) **De Malortie**, our. cit., p. 144.

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر مجموع نظام زراعة . أمر رقم ٣٠ صادر إلى مدير الشرقية فى ٢٣ ربيع الأول ١٢٧٣ (٣ ديسمبر ١٨٥٥) مقيده بوجه ١٠٠ ص ٢٠٢ .

(٣) محفوظات قصر عابدين : دفتر مجموع نظام زراعة . أمر رقم ١٢ ص ٣٢ صادر إلى مدير الدقهلية فى ٢٣ جمادى الأولى ١٢٧١ (١١ فبراير ١٨٥٥) .

بينما — منذ سنتين خلتا ولفترة أخرى فى المستقبل — تحتاج الشركة إلى خمسة وعشرين ألف عامل . فهذا موقف شاذ غير عادى » . (١)

وقد ضرب هذا المؤلف مثلا رائعا ليبرز أهمية المساعدة التى تقدمها الحكومة المصرية إلى شركة القناة . فقال إن عدد سكان مصر يبلغ خمسة ملايين نسمة تقريبا أى ثمن $\frac{1}{8}$ عدد سكان فرنسا فالخمسة وعشرون ألف فلاح الذين يعملون فى حفر القناة يقابلون ٢٠٠ ألف عامل فى فرنسا وقال إن تغيير هذا العدد الهائل من العمال كل شهر لهو عبء آخر يزيد من أعباء حكومة مصر (٢) .

رابعا : لم يكن الفلاحون مطالبين بأن يقضى كل منهم شهرا أو أكثر فى خدمة شركة القناة فحسب ، بل كانت عليهم أعباء نحو الحكومة أدوها وفق نظام السخرة ، وهى ما نسميها الضرائب التى تؤدى عملا ، وتمثلت تلك الأعمال فى تقوية جسور النيل وتطهير الترع مثل ترعة المحمودية ، وقد سخر سعيد فى تطهيرها ١١٥ ألف رجل لمدة شهر (٣) وكان تطهيرها بمثابة إعادة حفرها من جديد ، وترعة الخطاطبة وقد أعيد تطهيرها عدة مرات على عهد سعيد (٤) . تضاف إلى ذلك كله المشروعات العامة والأعمال الخاصة التى نفذها سعيد مستعينا بنظام السخرة. وكان فى مقدمة هذه وتلك استكمال الخط الحديدى الذى يربط العاصمتين فاستكمله من كفر الزيات إلى القاهره ، ومده عبر الصحراء إلى السويس وذلك عدا الخطوط الفرعية . كما استخدم سعيد السخرة فى إنشاء القلعة السعيدية بالقناطر

(1) **Ritt**, our. cit., pp. 286-287.

(2) ibid.

(3) **Merruau**; L'Egypte contemporaine etc, ouvr cit. pp. 121-122.

(٤) محفوظات قصر عابدين : دفتر ٤٩٣ وثيقة رقم ٧٦٧ ودفتر ٥٠١ وثيقة رقم ١٧٤ ودفتر ٥١٤ وثائق رقم ٢٥٢ ، ٦٧٦ ، ٧٥٤ ودفتر ٥١٩ وثائق رقم ٢٦ ، ١٠٧ ، ٢٨٩ .

الخيرية (١) وفى بناء قصره فى مريوط (٢).

ولم يقف الأمر بسعيد باشا عند هذا الحد، وهو الذى نعت البعض حكمه خطأ أو بهتانا بأنه العصر الذهبى للفلاح، فقد سخر الفلاحين فى خدمة شركة فرنسية أخرى هى إخوان ديسو Dussaud فأبرم معها اتفاقا فى ١١ ابريل ١٨٦٢ لإنشاء حوض لإصلاح السفن فى ميناء السويس. ونصت المادة ١٨ من ذلك الإتفاق على أن يقدم سعيد «عددا كافيا من عمال السخرة (٣)».

خامسا : كانت مصر تعانى نقصا فى الأيدى العاملة الزراعية على الرغم من الزيادة التى طرأت على عدد السكان فيها منذ أوائل القرن التاسع عشر(٤). وكان هذا النقص يعوق التقدم المنشود فىحياة البلاد الإقتصادية. وكانت قلة الأيدى العاملة الزراعية ترجع إلى عدة أسباب منها: الزراعات الصيفيةواتساع مساحتها نتيجة لإدخال نظام الرى الدائم فى الوجه البحرى. كما أن عملياتتطهيرالترع كانت تتطلب بدورها استخدام أعداد هائلة من الفلاحين قدرهم سعيد باشا بثلاثمائة ألف فلاح كل سنة (٥) ثم الأوبئة التى اجتاحت مصر وكان أهمها الطاعون فى سنوات ١٨١٣، ١٨١٩، ١٨٣٥ والكوليرا فى سنوات ١٨٣١، ١٨٤٨، ١٨٥٠، ١٨٥٥ تضاف إلى ذلك

---

(١) محفوظات قصرعابدين : دفتر رقم ٤٩٣ معية سنية تركى صادر. وثيقتان رقم ٥١٧، ٧٥٨.

(٢) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٤٩٨ معية سنية تركى صادر. وثيقة رقم ١٥٩٩.

(3) **Stoeckhlin A.**: Notice sur la construction du bassin de Radoub de Suez. Bordeaux. 1867. pp. 12-13.

(4) **Crouchley A. E.** : The Economic Development of Modern Egypt. London.1938. p. 125. Voir aussi: **Edmond Aboud**:Le Fellah. Souvenirs d'Egypte. Paris 1869. pp. 208-209.

(٥) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٩ صادر عابدين وثيقة رقم ٢١٢ خطاب من الجناب العالى إلى الباب العالى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة ١٢٧٧ (٢ يناير ١٨٦١)

الحروب التى خاضتها أو اشتركت فيها القوات المسلحة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى آسيا وأوربا وإفريقيا . وجاء تسخير الفلاحين فى حفر قناة السويس على نطاق واسع منذ منتصف عام ١٨٦١ وموت الكثيرين منهم فى ساحات الحفر فزاد الموقف تفاقما . ويؤكد ديسى أنه لو استمر نظام السخرة فى حفر القناة قائما على الأسلوب الذى سار عليه سعيد باشا لنقص عدد السكان فى مصر نقصانا خطيرا (١) .

وقد ظلت مشكلة نقص الأيدى العاملة الزراعية قائمة متفاقمة طوال حكم سعيد وفى أوائل حكم اسماعيل . وقد بلغ من حدة تلك الأزمة أن اتجهت النية إلى استقدام عمال أجانب من الصينيين والهنود والإيطاليين والألمان يقيمون فى الأراضى القابلة للزراعة ويتولون استغلالها . (٢) . ولكن رفض اسماعيل الأخذ بهذه الفكرة ورأى أنه يمكن الإكتفاء بالأيدى العاملة المصرية إذا أحسن استغلالها . فعالج المشكلة بوسيلتين هما إلغاء السخرة فى حفر القناة واستيراد الآت رافعة وغيرها من الآلات الزراعية (٣) .

---

(1) **Dicey**, ovur. cit. p. 36.

(2) **crouchley A. E.** : ovur. cit., pp. 125-126.

وكذلك

Mc Coan : Egypt as it is. London 1877. pp. 182-183.

وفى التقرير الذى رفعه كيف Stephen Cave فى مارس ١٨٧٦ إلى الحكومة الإنجليزية عن الحالة فى مصر تعرض لذكر المشروعات التى كانت قد عرضت على اسماعيل لإيفاد مندوبين عنه إلى الصين يتولون تنظيم هجرة أفواج من العمال الصينيين إلى مصر لأستخدامهم فى الأغراض الزراعية -

Parliamentary Papers. Egypt (1876) No.7. Report by Mr. Cave on the Financial Condition of Egypt. pp. 1-18.

(٣) تدفقت على مصر خلال العامين الأولين من حكم اسماعيل الآت زراعية من كل نوع وخاصة المضخات البخاريه . ولم يسبق أن شاهدت مصر مثل هذه الكميات من الآلات . وقد استوردتها شركات اخوان سكاكينى ، وابنهايم Oppenheim neveu et Cie. ودرفيو Dervieu et Cie, وغيرها . وكانت الحكومة تبيع الآلات الزراعية للفلاحين فى كل مكان وأخذ مديرو المديريات يدعون إلى عقد اجتماعات يحضرها مشايخ القرى والفلاحون لمشاهدة الآلات الزراعية وطريقة استخدامها . أنظر

سادسا : وقد ترتبت على الحقيقة السابقة — وهى قلة عدد العمال الزراعيين فى مصر — حقيقة أخرى هى وجود مساحات واسعة من الأراضى الزراعية بدون استغلال . ونستقى هذه الحقيقة من مصدرين أولهما سعيد باشا نفسه فقد أرسل مذكرة رسمية إلى الباب العالى بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٢٧٨ (٢٦ أكتوبر ١٨٦١) وصف فيها الداء والتمس الدواء . وقد جاء فيها « فى أكثر جهات الأقاليم القبلية والبحرية يوجد بجوار الأراضى المزروعة كثير من الأراضى التى تصلح للزراعة ولكنها بقيت غير ذى زرع بسبب قلة عدد الأهالى ويرغب بعض الأوربيين من رعايا دول أجنبية أخرى خارجة عن شركة قناة السويس فى شراء تلك الأراضى بالمال على وجه التمليك . ولذلك بادرت إلى تقديم هذه العريضة إلى سامى مقامكم الأصفى الأفخمى ملتمسا التفضل ببحث هذا الموضوع .... (١) » .

ولو كان سعيد باشا على حظ موفور من الذكاء والعلم وسعة الأفق العقلى كما يصوره المؤرخون الفرنسيون لما سطر هذه المذكرة التى تكشف عقليته على حقيقتها . لقد كان مدركا تمام الإدراك حاجة البلاد الملحة إلى إستبقاء عمالها الزراعيين فى استغلال تلك الأراضى وزراعتها قطنا بعد أن ارتفعت أسعاره واشتد الإقبال عليه بسبب المجاعة القطنية التى اجتاحت انجلترا وفرنسا وغيرهما ، وقد قدرت مساحة هذه الأرض الطيبة التى لاتزرع بسبب قله عدد العمال الزراعيين بمليونى فدان (٢) ، ويزيد فى مسئوليته أنه أرسل هذه المذكرة بعد أن أوفدت إليه الحكومة الإنجليزية فى يوليو ١٨٦١ بعثة إقتصادية تقدم له عروضا مغرية ليتوسع فى زراعة القطن وتبدى إستعدادها لشراء جميع الأقطان التى تزرعها مصر بأسعار مجزية للغاية .

Lucovich Antoine : La Société Agricole et Industrielle. Paris. 1865 pp. 31-32.

(١) محفوظات قصر عابدين : سجل رقم ٩ ، صادر عابدين كتاب رقم ٢٤١

(2) Note consultative pour S.A. Ismail Pacha, Vice-Roi d'Egypte élibérée par Mtres. Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre en date du 30 novembre 1863.

كانت جمعية استيراد القطن فى مانشستر Manchester Cotton Supply Association قد قررت فى عام ١٨٦١ – إزاء النقص المطرد فى كميات القطن الوارد إلى انجلترا – ايفاد G. R. Haywood سكرتير الجمعية إلى الهند لدراسة وسائل الإكثار من زراعة القطن فى تلك البلاد . ورأت الحكومة الإنجليزية الإشتراك فى هذه البعثة فأوفدت مندوبا من قبلها هو Dr. Forbes إنضم إلى مندوب جمعية مانشستر .

وقد عهدت الحكومة الإنجليزية إلى عضوى البعثة بمفاوضة سعيد باشا أثناء مرورهما بمصر وهما فى طريقهما إلى الهند فى شأن زيادة المساحات التى تزرع قطنا فى مصر . ومن أجل ذلك زود اللورد John Russel وزير خارجية بريطانيا عضوى البعثة بخطاب توصيه إلى Colquhoum قنصل انجلترا العام فى مصر ، أبان فيه الغرض من زيارة البعثة لمصر والأهمية التى تعلقها الحكومة الإنجليزية على نجاح مهمتها (١) .

وقد وصل عضوا البعثة إلى الإسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٨٦١ وقابلا سعيدا فى قصره بمريوط وشهد المقابلة قنصل انجلترا العام الذى تولى تقديمها إلى الوالى . وقدم سكرتير جمعية مانشستر التماسا إلى « حضرة صاحب السمو محمد سعيد باشا والى مصر وملحقاتها » جاء فيه أن مقدمى هذا الالتماس من كبار غزالى القطن فى بريطانيا العظمى وايرلندا، واعترف الإلتماس بأن صناعة القطن فى بريطانيا وتجارة البلاد على وشك التعرض لخسائر جسيمة بسبب نقص إنتاج القطن كنتيجة للحرب الأهلية الأمريكية . ثم انتقل الإلتماس إلى الجهود التى بذلتها مصر الحديثة لتشجيع إنتاج القطن فيها وما كان لتلك الجهود من نتائج باهرة . وأبان الإلتماس أن الفرصة أصبحت مواتية لمصر لتتوسع فى زراعته .

---

(١) أنظر مقالا لجريدة المانشستر جارديان Manchester Guardian أعادت نشره مترجما للغة الفرنسية جريدة الشركة فى العدد ١٢٤ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦١ ص ص ٢٦٤ — ٢٦٥ . وأنظر أيضا العدد ١٢٥ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦١ ص ص ٢٧٩ — ٢٨٠ مجموعة السنة السادسة .

وأهم ما انطوى عليه هذا الإلتماس مسألتان هما : عرض مغر لشراء القطن المصرى ، وبذل معونة فنية للإكثار من زراعته . أما المسألة الأولى فقد أوضح الإلتماس أنه فى الإستطاعة أن تجود زراعة القطن فى الدلتا فى مساحة لا تقل عن ثلاثة مليون فدان إذا كفل لها رى منتظم وطرق استغلال حديثة ، وفى تلك الحالة يكون إنتاج الفدان أربعة قناطير تشتريها انجلترا بسعر يتراوح بين ثلاثين جنيها وخمسة وثلاثين جنيها استرلينيا على أقل تقدير . وأكد الإلتماس أن انجلترا مستعدة لأن تشترى بأسعار مجزية للغاية جميع كميات القطن التى تزرعها مصر وهو أمر يؤدى إلى نشر الرخاء بين المصريين .

أما المسألة الثانية فقد أبدت جمعية مانشستر استعدادها التام لبذل كل معاونة فنية تحقق الغاية المرتجاة ، فهى تقدم إلى الوالى أو إلى أية هيئة منظمة فى مصر مكونة من تجار أو زراع كافة المعلومات الخاصة بطرق زراعة القطن ووسائل الإكثار منه والحصول على أحسن الآلات الزراعية . وعرضت الجمعية أن تقدم بدون مقابل بعضا من تلك الآلات المصنوعة فى انجلترا باعتبار أنها نماذج ، وأن تقوم فيما بعد بإرسال مقادير كبيرة من تلك الآلات بالسعر الجارى (١) .

هذا هو موجز الإلتماس ، وقد يعتقد البعض أن الغرض الخفى منه كان إغراء الوالى على الإحتفاظ بالفلاحين فى الحقول بدلا من إرسالهم إلى ساحات حفر القناة . ولكن الأزمة القطنية فى انجلترا كانت حقيقة ماثلة لا سبيل إلى تجاهلها . وكان هذا العرض يتمشى مع مصلحة مصر الإقتصادية .

وفى الحديث الذى دار بين الوالى وعضوى البعثة لاحظ سكرتير جمعية مانشستر أن سعيد باشا تجنب أن يتعرض لمشكلة العمال فى زراعة

---

(١) نشرت الترجمة الفرنسية لهذا الإلتماس فى جريدة L'sthme de suez العدد ١٢٤ الصادر فى ١٥ أغسطس ١٨٦١ ص ص ٢٦٤ — ٢٦٥ مجموعة السنة السادسة .

القطن . (١)

وقد أذن سعيد باشا لعضوى البعثة فى الطواف ببعض المناطق الزراعية فى الوجه البحرى . ورفع سكرتير الجمعية فى ٩ أغسطس ١٨٦١ تقريرا ضافيا إلى الوالى ضمنه ملاحظاته ومشاهداته أثناء رحلته ، وقد جاء فيه أنه لاحظ فى كل جهة من الجهات التى زارها وجود مساحات كبيرة من الأراضى دون أى استغلال (٢) . وقد أبدى سكرتير الجمعية تخوفه من أن عمليات الحفر فى قناة السويس قد استنفدت نشاط الفلاحين . وذكر أنه طبقا للمعلومات التى استقاها من مصادر موثوق بها كان يوجد فى ذلك الوقت عدد يتراوح بين خمسة الآف وستة الآف فلاح يشتغلون فى عمليات حفر قناة السويس ، وهى أعمال وصفها بأنها لا تزال فى مراحلها الأولى (٣). كما ذكر أن الوالى قد سرح عددا كبيرا من جنود الجيش المصرى من أجل السخرة فى حفر القناة .

ولم يستجب سعيد باشا لعرض الحكومة الإنجليزية ، ولم يستغل الفرصة الذهبية التى أتيحت للإقتصاد المصرى كما ينبغى ، بل عالج الموقف على وجه معكوس . فكان المفروض أن يمسك يده ، ولو قليلا ، عن الشركة ويستبقى جانبا من عمال السخرة فى الحقول ، ولكن التدفق الآدمى على ساحات الحفر بدأ بعد وصول البعثة البريطانية فى يوليو ١٨٦١ ثم استمر هذا التدفق

---

(١) وصف سكرتير جمعية مانشستر الحديث الذى دار مع الوالى فى خطاب نشرته جريدة التايمز Times وأعادت نشره مترجما إلى اللغة الفرنسية جريدة L'sathne de 1uez العدد ١٢٨ الصادر فى ١٥ اكتوبر ١٨٦١ ص ٣٢٨ مجموعة السنة السادسة . أنظر أيضا العدد ١٢٥ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦١ ص ٢٨٠ .

(2) Ila été parfaitement évident pour moi que dans chacun de ces dis-ricts, d'immenses étendues de terrain restent entièrement improductifs. أنظر الترجمة الفرنسية للتقرير منشورة فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٢٨ الصادر فى ١٥ اكتوبر ١٧٦١ ص ص ٣٢٨ — ٣٢٩ مجموعة السنة السادسة .

(٣) L'Isthme de Suez العدد ١٢٥ الصادر فى أول سبتمبر ١٨٦١ ص ٢٨٠ والعدد ١٢٨ الصادر فى ١٥ اكتوبر ١٨٦١ ص ٣٢٨ مجموعة السنة السادسة .

يشتد فى الشهور الأخيرة من عام ١٨٦١ حتى بلغ الذروة فى ديسمبر . أما فى العام التالى — ١٨٦٢ — فيكفى أن نذكر أنه شاهد أكبر حشد آدمى فى تاريخ الشركة على الإطلاق إذ كان عدد عمال السخرة يتراوح كل شهر بين ٢٠ الفا و ٢٢ ألفا .

وقد يعترض البعض بأن سعيدا استجاب لعرض الحكومة الإنجليزية لأن إنتاج القطن قد زاد فى عام ١٨٦٢ عن العام السابق . ولكن تلك الزيادة كانت طفيفة جدا بالنسبة للقفزات العالية التى وثبتها زراعة القطن فى مصر فى سنوات ١٨٦٣ ، ١٨٦٤ ، ١٨٦٥ منذ أن توارت شخصية محمد سعيد عن حكم مصر . وتتضح تلك الزيادات من الجدول الآتى :

السنة	كميات القطن التى أصدرتها مصر إلى الخارج مقدرة بالقناطير	
١٨٦١	٥٩٦,٢٠٠	حكم سعيد
١٨٦٢	٨٢٠,٠٠٠	
١٨٦٣	١,٢٨٧,٠٠٠	حكم اسماعيل
١٨٦٤	١,٧٤٠,٠٠٠	
١٨٦٥	٢,٥٠٧,٠٠٠	

كما أن الزيادة التى حدثت عام ١٨٦٢ لم تكن نتيجة تدخل أو توجيه حكومى كما حدث فى حكم اسماعيل ، بل كانت الزيادة طبيعية وتلقائية من ناحية المزارعين الذين لمسوا إرتفاع أسعاره والإقبال الشديد على شرائه ، فاستبدلوا زراعة القطن بزراعة القمح والذرة وغيرها من الحاصلات الزراعية وتنافسوا فى إنتاجه حتى طغت زراعته على سائر المزروعات الأخرى فى مصر وأصبحت كميات القمح التى تنتجها البلاد لا تفى بحاجات سكانها ، واضطرت حكومة سعيد خلال بضعة شهور أن تعمل على استيراد القمح من إيطاليا وأدسا فى روسيا لسد حاجات التموين ، وأصدر سعيد فى أواخر حكمه أمرا يلزم المزارعين بزراعة القمح وسائر الحبوب فى أراضيهم بنسبة

(1) **Charles Roux F.** : Le coton en Egypte. 1908. p. 82.

معينة (١) . ومن المؤكد أنه كان فى استطاعة محمد سعيد أن يزيد من إنتاج القطن أضعافا مضاعفة وأن ينشر الرخاء فى مصر لو وجه جيوش العمال الذين سخرهم فى حفر القناة إلى استغلال الأراضى القابلة للزراعة . وقد مر بنا أن عدد عمال السخرة الذين حفروا القناة البحرية الصغيرة فى منطقة واحدة هى عتبة الجسر قد بلغ ١٧٦٧٨٠ عاملا فى غضون تسعة أشهر ونصف شهر (فبراير — منتصف نوفبر ١٨٦٢) .

ونعتقد أن التبعة لا تقع على شركة القناة بقدر ما تقع على سعيد باشا لأنها شركة تنشد الربح وتلتمس تخفيض نفقات الإنشاء قدر المستطاع سواء تم ذلك التخفيض بطرق مشروعة أو غير مشروعة، ونظام السخرة يكفل لها تحقيق الغرض الأخير . ولذلك لم يكن عجبا أن تتعلق الشركة بهذا النظام الذى يتيح لها الحصول على الآف العمال بناء على أمر بسيط يبعثه المقاول العام للشركة أو مدير عام أشغال الحفر بها إلى مديرى المديريات . وكان فى مقدور سعيد أن يتمسك بما نصت عليه لائحه العمال من وجوب رعاية مصالح المزارعين والملاك من ناحية وضرورة مراعاة المواسم الزراعية من ناحية ثانية . ولكن سعيدا لم يتناس هذين النصين فحسب بل فرض نظاما تعسفيا باغيا لمصلحة الشركة يقضى بتغيير ٢٠ ألف عامل أو أكثر كل شهر .

وقد كتب بادجر السائح الإنجليزى الذى زار ساحات الحفر فى ديسمبر ١٨٦١ يقول « وإنه لمن داعى الألم الممض أن يسمح للسخرة التى تنطوى على العمل بالإكراه أن تسود هذه الولاية (مصر) ، وهو أمر يصيب رخاء البلاد وسكانها قليلى العدد بأكبر الأضرار . إن هذا الأسلوب يمكن أن يطلق عليه بحق أنه صورة أخرى من رق الأرض (٢) » . فأعباء السخرة فى حفر القناة

---

(1) **Sacré Amédée et Louis Outrebon** ; L'Egypte et Ismail Pacha. Paris. 1865, pp. 146-147,

(2) **Percy Badger** : ouvr. cit. p. 68.

This much is certain that the fellahs now being despatched in large number to the works are placed under the control of

قد أعاقت إلى حد كبير إنتاج القطن أثناء حكم سعيد ، كما أنها حجبت وقتئذ عن البلاد نعمة إرتفاع أسعار القطن . وقد قدر نوبار ما خسرته مصر سنويا بسبب عدم التوسع فى زراعة القطن نتيجة الإفتقار إلى الأيدى العاملة التى تذهب إلى حفر القناة بأربعين مليون فرنك (١) أى ما يقرب من مليون وخمسائة وخمسين ألف جنيه . وقالت جريدة التايمز Times فى هذا الصدد إن رخاء مصر قد أفسده نزع الفلاحين قهرا من حقولهم ونقلهم إلى البرزخ بطريقة ظالمة غير قانونية (٢) .

• • •

تبرز هذه الصورة القاتمة على حقيقتها وتبين إذا قورنت بالصورة الوضيئة التى صار إليها المجتمع المصرى والإقتصاد المصرى فى سنة ١٨٦٣ وما تلاها حتى انتهت الحرب الأهلية الأمريكية فى ابريل ١٨٦٥ . ولى اسماعيل حكم مصر كما ذكرنا فى ١٨ يناير ١٨٦٣ وأبدى اهتماما عميقا بالتوسع فى زراعة القطن (٣) ، ومن ثم أنقص تباعا طوال عام ١٨٦٣ عدد عمال

---

government agents; and that the scheme is assuming more and more the character of a public measure sanctioned by the Vice - Roy and promoted by his direct influence and authority.

It is deeply to be regretted that this system of forced labour so pernicious to the general welfare of the country and its scanty population; a system wich may fairly be styled " a modification of agrarian slavery " should be allowed to prevail, under any circumstances, in this Vice Royalty.

وقد كتب هذا الانجليزى كتابه فى فندق شبرد بالقاهرة فى يناير ١٨٦٢ عقب عودته من ساحات الحفر بمنطقة القناة .

(١) مذكرة قدمها نوبار فى نوفمبر ١٨٦٣ إلى دريون دى لويس وزير خارجية فرنسا . أنظر

Douin : Histoire du Règne etc. ouvr. cit., t. I, pp. 74-75

(٢) نشرت L'Isthme de Suez مقالا لجريدة التميس ثم تولت الرد عليه . أنظر العدد ١٢١ الصادر فى أول يوليو ١٨٦١ ص ٢٢٢ مجموعة السنة السادسة .

(٣) أصدر اسماعيل أوامر بمنح مفتشى الزراعة ونظارها فى تفاتيش المعية

السخرة الذين يرسلون لحفر القناة وجأرت الشركة بالشكوى ولكنه لم يلق بالا ، وأسفر النزاع عن إيقاف إرسال عمال السخرة إلى ساحات حفر القناة اعتباراً من أول يونيو ١٨٦٤ (١). فأتيحت الفرصة لاستبقاء الفلاحين فى الحقول يعملون فى زراعة القطن من ناحية ، ولتوجيه بعضهم إلى الأراضى القابلة للزراعة والتى ظلت إلى ذلك الوقت دون استغلال بسبب نقص الأيدى العاملة الزراعية من ناحية أخرى . وانصرف هؤلاء وأولئك بحماس ونشاط إلى زراعة القطن ، وشجعهم على ذلك إرتفاع أسعار القطن إرتفاعا جنونيا جعل كل مالك أرض فى مصر تزرع قطنا يصيب كسبا لم يحلم به من قبل فبعد أن كان سعر القنطار فى سنة ١٨٦٢ قد بلغ ١٣ ريالا إذا به يرتفع إلى ٢٣ ريالا فى سنة ١٨٦٣ ثم يقفز إلى ¼ ٣٦ فى السنة التالية ثم إلى ٤٥ ريالا فى سنة ١٨٦٥ (٢) وانهالت الطلبات على مصر من الخارج لشراء القطن وكانت المصلحة العامة تقضى بتلبية معظم هذه الطلبات إن لم يكن جميعها . وساد الإعتقاد فى ذلك الوقت أن الحرب الأهلية فى أمريكا سيطول أمدها إلى فترة غير محدودة(٣) وأنها ستنتهى بالقضاء على زراعة القطن فى أمريكا(٤) وأخذت الدوائر الإقتصادية تردد أن وادى النيل هو الذى كتب له أن يزود مغازل لانكشير فى انجلترا بالمادة الأولية لصناعتها (٥) .

والجفالك وغيرها مكافآت مالية سخية « إذا خدموا زراعة القطن وكان المحصول جيدا إن شاء الله » وكانت المكافأة مائة جنيه لناظر الزراعة و ٣٠٠ جنيه لمأمور الزراعة وألف جنيه لمفتش الزراعة . أنظر محفوظات قصر عابدين دفتر ٥٣٧ معية سنية أوامر تركية صص ٥٦ — ٥٧ تسعة أوامر صادرة إلى تفاتيش الزراعة فى الوجه البحرى وفى الفيوم وبنى مزار وملوى بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٨١ (١٤ أغسطس ١٨٦٤) .

(١) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٢١ صادر عابدين وثيقة رقم ٤٧٣ برقية من اسماعيل إلى نظارة الخارجية التركية فى ٣ محرم ١٢٨١ (٨ يونيو ١٨٦٤)

(2) **Crouchley** : ouvr. cit., p. 135.

(3) **Farman** : ouvr. cit.' p. 286.

(4) **Dicey** : ouvr. cit., pp. 53-54.

(5) ibid.

لقد أصبحت زراعة القطن فى مصر فى ذلك الوقت أشبه شيء « بالمودة » الشائعة . وأصيب المجتمع المصرى بما يمكن أن يسمى حمى قطنية (١) ، فنى كل مكان لا يرى غير القطن ، ولا يتكلم أحد عن شيء سوى القطن (٢) . ونجمت عن التوسع العظيم فى زراعته ظاهرة كانت تسترعى إنتباه المسافرين وهى وجود كميات هائلة من القطن تزدحم بها محطات السكك الحديدية فى طنطا وبنها والزقازيق وغيرها ، وكانت فى انتظار شحنها إلى الإسكندرية لتصديرها إلى الخـارج . وقدشبه أحد الأجانب بالات القطن وهى مكدسة متراصة فى محطات السكك الحديدية بالأهرامات (٣) .

وكان من نتائج إيقاف إرسال عمال السخرة لحفر القناة والتوسع الكبير فى زراعة القطن والإرتفاع الهائل فى أسعاره أن زادت الثروة فى مصر (٤) وبلغ المصريون خلال تلك السنوات (١٨٦٣ — ١٨٦٥) حالة مدهشة من الرخاء (٥) ، إذ أخذ الذهب يتدفق على البلاد من لانكشير وأوربا الصناعية (٦) ، وجرى الرزق غزيرا وفيرا فى أيدى الفلاحين ، وغدوا ينفقون الأموال بدون اكتراث ، وكثر ترددهم على الأسواق واندفعوا يبتاعون الجوارى والفضيات والمجوهرات والأثاث الحديث (٧) . وأخذ المصريون عامة بمظاهر الحضارة الأوربية إلى حد بعيد ، وطرأت تغييرات على المجتمع المصرى وصلت إلى أعماق الريف فى ذلك الوقت (٨) .

---

(1) **Casimir le conte** : ouvr. cit., p. 32.

(2) **Guillemin** : ouvr. cit., p. 113.

(3) **Casimir de conte** : ouvr. cit., p. 32.

(4) **Sabry M.** : La Genèse de l'Esprit National Egyptien. 1863-1882. 1924. p. 104.

(5) **Van Bem Vulen** : L'Egypte et l'Europe par un ancien juge ixte. t. I., p. 99.

(6) **Rifaat M.** : The Awakening of Modern Egypt. First edition. Bristol. 1947. pp 100 102.

(7) **Charles Roux F.** : Le coton en Egypte. 1908. p. 89.

(٨) وصف الأستاذ محمد رفعت تلك التغييرات وصفا شائقا طريفا فى كتابه السابق الإشارة إليه . ص ص ١٠٠ — ١٠٢

ولا يخفى أنه كان لتلك الوثبة التى قفزها المجتمع فى مصر جانبها السيء فلما أفاء الله الرزق على المصريين رغدا إزداد إقبال الكثيرين منهم على تعدد الزوجات وزاد الطين بله أن معظمهم كانوا يفضلون التركيات على أترابهن المصريات .

ويقول أحد المؤرخين إنه سرعان ما ظهرت نتائج إلغاء السخرة فى حفر القناة . فقد اتسع نطاق الزراعة فى جميع المناطق التى كانت تخرج منها جيوش عمال السخرة ، ودر هذا الإتساع فى الزراعة أرباحا وفيرة (١) . وهناك أجنبي عاصر تلك الفترة وقال فى إحدى رسائله عن مصر « لقد تجاوزت حالة الرخاء فى مصر كل حد » (٢).

تلك هى الصورة الوضيئة بعد أن انجابت عن الشعب المصرى تلك الغمة ونعنى بها مشكلة السخرة فى حفر القناة .

إلى هنا تقرير

---

(1) **Mc Coan** : ouvr. cit., pp. 89-90.

(2) **Danghar Eugène** : Lettres sur l'Egypte Contemporaine Paris. 1876. p. 215.

الفصل الخامس عشر

الشركة مدينة بحفر القناة لنظام السخرة

دى لسبس يطالب بأربعين ألف عامل — تصريح سعيد للخبير الإنجليزى هوكشو — زيارة السفير البريطانى فى القسطنطينية لساحات الحفر — رأيه فى السخرة فى حفر القناة — أحاديثه مع سعيد — سعيد يعده بالكف عن إرسال العمال — وفاة سعيد كارثة على الشركة — أفضال مصر على الشركة فى عهد سعيد — الشركة تناضل للإبقاء على السخرة — إعترافها بأهمية السخرة فى تنفيذ المشروع — تمسكها بحجج واهية — أسانيد مصر لإلغاء السخرة فى حفر القناة — الحكومة المصرية تنقص عدد العمال تباعا وتنظم حملة صحفية ضد السخرة — بعض المسهمين يرفعون قضايا على الشركة — الشركة تقبل إلغاء السخرة وتطالب بتعويض جسيم — الأمير نابليون يتوعد — ويقحم مسائل دينية فى السخرة — لجنة التحكيم تأخذ بدفاع الشركة — وتقدر ٤٢,٥ مليون فرنك تعويضا عن إلغاء السخرة — اللجنة تبرر ضخامة التعويضات تبريرا غريبا — وقع الحكم — أفضال السخرة على الشركة — الشركة تطالب بالعودة إلى السخرة بعد إلغائها وتحرض الحكومة المصرية على تضليل الرأى العام . — تأميم شركة القناة تعويض جزئى عن تضحيات الشعب المصرى فى حفر القناة

× × ×

لم تكد تفرغ الشركة من حفل ١٨ نوفبر ١٨٦٢ ، التى أقامته ابتهاجا بإنجاز حفر القناة البحرية الصغيرة من البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح ، حتى وجهت عمال السخرة لمد ترعة الماء العذب من نفيشة إلى السويس . وكان دى لسبس شديد الرغبة فى أن تظفر ساحات الحفر بزيارة سعيد لها مرة أخرى حتى يكون من نتائج هذه الزيارة زيادة جديدة فى عدد العمال على

غرار ما حدث فى أعقاب زيارته لساحات عتبة الجسر فى ديسمبر ١٨٦١ . فكتب دى‌لسبس فى ٥ ديسمبر ١٨٦٢ إلى الدوق البوفرا فى باريس خطابا جاء فيه « إنى أنتظر حضـــور الوالى إلى البرزخ للإتفاق معه على زيادة عدد العمال ، وهو موضوع لم يغب عن ذهنى لحظة واحدة . وهذه الزيارة المرتقبة إلى التمساح — والتى سبقها إرسال الوالى لأثاث فاخر من قصره ليوضع فى « استراحته » (١) — أخرها بعض الوقت إجراء جراحة له ، وقد نجحت تلك الجراحة وهو فى طريقه إلى الشفاء . وقد أخبرنى أنه سيحضر إلى التمساح فى خلال الإثنى عشر يوما القادمة بعد الإحتفال بعيد ميلاده فى ١٦ ديسمبر والذى سيقام فى القناطر . وهو إحتفال يجب على أن أشهده (٢) » .

غير أن المرض كانت قد اشتدت وطأته على سعيد فقعد به عن تلك الزيارة المرتقبة ، ولم يكف دى‌لسبس عن مطالبة الوالى وهو يصارع الموت بزيادة عدد عمال السخرة ، فكان آخر خطاب يرسله إلى صديقه سعيد باشا قبل وفاته بيوم واحد خاصا بتلك المشكلة ، وقد أدركته الوفاة قبل أن يدركه الخطاب .

طلب دى‌لسبس فى هذا الخطاب أن يرسل إليه الوالى أربعين ألف عامل كل شهر . واستند فى طلبه إلى النشاط الذى لا تفتأ الشركة تبذله لتنفيذ المشروع وإلى النتائج الإقتصادية البعيدة الأثر التى تترتب على إنجاز المشروع ، كما عاود استخدام أسلوبه الأول فصور لسعيد تلك الفكرة البراقة بأن

(١) كانت الشركة — تنفيذا لرغبة سعيد أثناء زيارته لساحات الحفر فى ديسمبر ١٨٦١ — قد شيدت له إستراحة فاخرة عبارة عن كشك خشبى (شاليه chalet) على ربوة عالية تشرف على بحيرة التمساح . وقامت بتجهيز الإستراحة بجهاز تلغراف حتى يستطيع الوالى تصريف شئون ولايته أثناء إقامته فى البرزخ وكانت الشركة قد أنشأت خطا تلغرافيا بين التمساح والزقازيق على طول امتداد ترعة الماء العذب . ومن الزقازيق كان الخط يتصل بالشبكة التلغرافية . أنظر جريدة الشركة العدد ١٥٤ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٦٢ ص ٣٤٨ مجموعة السنة السابعة .

(2) **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 248-253.

عظمته واسمه مرتبطان بإنجاز المشروع ، وقال « إن الماء العذب ينتظره الناس فى السويس بفارغ الصبر ، وهم يتهافتون على ماء الشرب الذى يجلب إلى المدينة فى عربات السكك الحديدية ، ولكن بمقادير غير كافية . ويصادف ربابنة السفن الإنجليزية والفرنسية كثيرا من العناء فى تزويد سفنهم بما تحتاج إليه من الماء العذب . ولا يكف السكان الذين يتزايد عددهم عن الشكوى من إرتفاع ثمن الماء ومن الصعاب التى يلاقونها فى سبيل حصولهم على حاجتهم منه . وباستخدام عشرين ألف رجل فى حفر ترعة الماء العذب أستطيع — وقد استشرت الفنيين — أن أصل بهذه الترعة إلى السويس فى أواخر ابريل ١٨٦٣ . وإذا استمر العشرون ألف رجل الذين يرسلون إلينا يقومون فى نفس الوقت بحفر القناة البحرية الصغيرة فإن نصر سموكم سيكون قريبا وكاملا . وأية عظمة أسمى وأجل من هذه (١) » .

ولكن الموت كان قد طواه فى ١٨ يناير ١٨٦٣ وأراحه من الضغط المتصل الذى تعرض له سنوات طوالا من انجلترا وتركيا وفرنسا بسبب مشروع القناة حتى أرهق صحته وأسرع به إلى القبر . والأرجح أن طلب دى‌لسبس كان سيلقى نفس المصير الذى لقيته طلباته السابقة برفع عدد العمال إلى أربعين ألفا . ونستند فى هذا الترجيح إلى حادث وقع قبيل وفاة سعيد بأيام قلائل ، إذ صرح فوازان مدير عـــام الأشغال فى الشـركة للخبير الإنجليزى هوكشو Hawkshaw (٢) بأن فى استطاعة الشركة أن تفـرغ

---

(١) المصدر السابق . الجزء الرابع ص‌ص ٢٧٤ — ٢٧٥ . خطاب دى‌لسبس من عتبة الجسر بتاريخ ١٧ يناير ١٨٦٣ .

(٢) انتهز سعيد فرصة زيارته لانجلترا فى يوليو ١٨٦٢ فدعا هوكشو رئيس جمعية المهندسين المدنيين فى انجلترا للحضور إلى مصر ودراسة مشروع القناة على الطبيعة ثم ابداء رأيه فى تقرير مسبب عن إمكان حفر القناة أو استحالة شقها. ووعده سعيد بأن يزوده بكافة المعلومات التى يرى الوقوف عليها . وكان سعيد يدين بالرأى الأول ، ولكنه أراد تبديد الشكوك التى كانت تساور بعض الهيئات فى انجلترا اعتقادا منها أن المشروع يصعب تنفيذه نظرا لصعاب طبيعية وفنية لا يمكن التغلب عليها .وقدم هذا الخبير إلى مصر فى نوفمبر ١٨٦٢ وأمر سعيد بأن يصحبه فى جولته

من حفر قناة السويس فى غضون ثلاث سنوات باستخدام ثلاثين ألف عامل .

فى منطقة القناة أربعة من المهندسين المصريين من موظفى الحكومة وهم مظهر بك وسلامه افندى واسماعيل افندى وأبو المجد افندى . و كان كونيج بك سكرتير الوالى قد أخطر دىلسبس بقدوم الخبير وطلب إليه تسهيل مهمته . وقد سافر الخبير ورفاقه من القاهرة إلى السويس حيث بدأوا طوافهم متجهين شمالا على طول الخط المقترح للقناة حتى بورسعيد . وزار الخبير ساحات الحفر واطلع على الوثائق التى طلبها من مستخدمى الشركة كما استفسر من دىلسبس وغيره عن بعض الملاحظات التى كانت تعن له اثناء طوافه . وقد استغرقت رحلته فى منطقة القناة شهرى نوفمبر وديسمبر ١٨٦٢ ثم عاد إلى انجلترا حيث عكف على وضع تقرير ضاف ولم يفرغ منه إلا فى ٣ فبراير ١٨٦٣ بعد وفاة سعيد بحوالى أسبوعين . وفى هذا التقرير أبدى هوكشو اعتقاده فى نجاح المشروع . ولم تكد تطلع الشركة عليه حتى سارعت إلى ترجمته إلى اللغة الفرنسية وطبعه فى كتاب على نفقتها باسم

Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez: Rapport de M. John Hawkshaw, Président de la Société des Ingénieurs Civils de Londres, adressé au Gouvernement Egyptien sur les Travaux du Canal de Suez. Paris. 1863.

وأرفقت الشركة بتقرير الخبير الانجليزى رداً لفوازان Voisin على بعض النقط التى وردت فى تقرير هوكشو واختلف معه بشأنها . ويوجد هذا التقرير أيضا فى أول مجلد السنة الثامنة من جريدة L'Isthme de Suez من المجلدات المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم Tr. Puble. 225 والتقرير ورد فوازان عليـــــه يقعان فى احدى وعشرين صفحة من حجم ورق الجريدة .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الحكومة المصرية هى التى دفعت أتعاب الخبير وتكفلت بجميع نفقاته .

وقد وقع فى خطأ ولسن Wilson حين تعرض لهذا الموضوع فى كتابه (ص٣٣) إذ قال «إنه بينما كان اسماعيل باشا (ويذكر مجمل تاريخ حياته) يزور انجلترا فى يوليو ١٨٦٢ دعا هوكشو لزيارة مصر لدراسة مشروع القناة وابداء رأيه فيه »

وظاهر من هذه العبارة الخطأ الذى وقع فيه . فاسماعيل لم يتول الحكم الا فى ١٨ يناير ١٨٦٣ . وكان فى الفترة من ابريل ١٨٦٢ إلى اكتوبر ١٨٦٢ نائبا عن عمه سعيد باشا فى حكم مصر إذ كان سعيد غائبا عن مصر فى رحلته التى قام بها لأوربا .

وبخصوص استقدام هذا الخبير والمهمة التى نيطت به انظر كلا من : محفوظات

فلما نقل هوكشو هذا الرأى إلى سعيد باشا ذكر الأخير أنه لايستطيع أن يمد الشركة بأكثر من عشرين ألف عامل سواء أكانوا من الفلاحين أم من سواهم (١) . ولهذه الإجابة دلالتها وهى أن سعيداً كان يرى الوقوف عند الرقم الذى وعد به من قبل وهو عشرون ألفا . وكانت هذه سياسته التى لم يحد عنها طوال سنة ١٨٦٢ حتى نهاية حكمه .

× × ×

ويجدر بنا أن نشير إلى حادث آخر يتصل بموضوع السخرة فى حفر القناة ، وقد وقع قبيل وفاة سعيد باشا . ففى شهر نوفمبر ١٨٦٢ زار مصر السير هنرى بلور Sir Hénry Bulwer سفير انجلترا فى القسطنطينية (٢) وزعم أنه قدم إليها تبديلا للهواء وانتجاعا للصحة (٣) . ولكنه جاء بإيعاز من وزارة الخارجية البريطانية ليقف السفير بنفسه على سير الأعمال فى حفر القناة وليتحقق من الشائعات التى كانت تلوكها الألسنة وقتئذ من أن تحصينات

قصر عابدين : دفتر رقم ٥٣٠ معية تركى . وثيقة رقم ٢ ص ٣٥ وهى إفادة إلى عمر افندى محافظ السويس بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٧٩ (١٤ نوفمبر ١٨٦٢) تقول « إنه لمناسبة أن جناب الموسيو هوكشو الذى صار جلبه من انجلتره لأجل إجرى بعض استكشافات بخصوص أشغال قنال السويس سيحضر للسويس للتوجه إلى بركة التمساح بأنه يقتضى المبادرة بتدارك الجمال التى تلزم لنقل أمتعتهم مع الخيام التى سترد من ديوان الجهادية بعنوانهم ، وأيضا تدارك المأكولات والأدوات وخلافه التى تلزمهم حسب تعريف مظهر بك وتسوية أثمانها وخصمها على جانب الميرى » .

وأنظر أيضا خطاب دىلسبس فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة الذى عقدفى ١٠ يوليو ١٨٦٣ ونشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧٠ الصادر فى ١٩ يوليو ١٨٦٣ ص ٢٧٥ مجموعة السنة الثامنة . وأنظر أيضا : أعداد تلك الجريدة رقم ١٦٣ ص ٩٩ والعدد ١٦٩ صص ٢٤٧ - ٢٥١ والعدد ١٧٠ والعدد ١٧٢ ص ٣٤٤ .

(1) Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : Rapport de M. John Hawkshaw sur les Travaux du Canal de Suez. Paris 1863. p. 36.

(2) **Charles Roux J.**, ouvr. cit., t. I. p. 332.

(3) **Lesseps, F.(de).** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV. p. 257.

عسكرية تشيد فى منطقة القناة ، كما جاء السفير ليتصل بالوالى شخصيا ويستشف ميوله نحو الإستقلال بولايته (١) .

وعلى الرغم من أن بلور قدم مصر فى ٥ نوفمبر ١٨٦٢ وكان فى مقدوره أن يحضر حفل ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ الذى أقيم بمناسبة إيصال مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فقد تفادى السفير حضوره ، وقام برحلة فى ذلك الوقت إلى الوجه القبلى . فلما عاد إلى القاهرة أبدى رغبته فى زيارة ساحات الحفر (٢) وأعد سعيد باشا قطارا خاصا له (٣) أقله فى ١٧ ديسمبر ١٨٦٢ من القاهرة إلى الزقازيق (٤) ومنها تابع سفره إلى بحيرة التمساح على طول ترعة الماء العذب ثم من التمساح إلى بورسعيد على طول القناة البحرية الصغيرة ، وأخيرا اتجه إلى دمياط فالإسكندرية ، واستغرقت تلك الرحلة خمسة أيام (٥) .

وقد أرسل السفير تقريرا من الإسكندرية إلى اللورد جون رسل John Russel وزير الخارجية البريطانية، عقب عودته من البرزخ أبدى فيه رأيه

---

(1) **Hallberg,** : ouvr. cit., p. 189.
Hussein Husni : ouvr. cit., p. 299.

(2) **Lesseps, F. (de)** : Lettres, Journal et Documents. ouvr. cit., t IV. pp. 257-258.

(٣) كان موعد تحرك القطار الخاص من محطة القاهرة الساعة الثامنة صباحا وتتهكم جريدة الشركة فتقول إن المحافظة على المواعيد من آداب الملوك . ولكن السير هنرى بلور لم يتأخر كثيرا فقام القطار فى الساعة التاسعة صباحا . أنظر العدد ١٥٨ الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٣ ص ٢٠ مجموعة السنة الثامنة .

(٤) سافر مع السفير البريطانى كل من دى لسبس وميرو Merruau السكرتير العام لشركة القناة ولانج Lange مندوبها فى انجلترا وبعض اعضاء مجلس إدارة الشركة وكذلك Saunders القائم بأعمال القنصلية البريطانية فى مصر و West قنصل انجلترا فى السويس Schriener قنصل النمسا العام وعميد أعضاء السلك القنصلى فى مصر وقائد السفينة الحربية البريطانية Trident التى أقلت السفير إلى مصر ، كما رافقه سكرتيران خاصان له .

(٥) أنظر تفصيلات الرحلة فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٥٨ الصادر فى ١٥ يناير ١٨٦٣ ص ص ١٨ - ٢٠ مجموعة السنة الثامنة .

فى المشروع من الناحيتين السياسية والتجــارية وموقف الشركة المالى ، كما ضمّنه كثيرا من الملاحظات التى عنت له أثناء زيارته ساحات الحفر بخصوص تسخير المصريين فى حفر القناة . ورأى أن الكتّاب الذين تناولوا موضوع القناة من وجهة النظر الإنجليزية « قد قللوا من شأن الأعمال التى تمت وغالوا فى الصعاب التى لا تزال أمام الشركة (١) » . كما ذكر أن بورسعيد والتمساح والسويس ستغدو سريعا مدنا فرنسية ، وأن العـــمال المصريين سيصبحون تحت السيطرة الفرنسية ، وأن الأراضى الممنوحة للشركة ستصبح أرضا فرنسية ، ومن ثم يسيطر النفوذ الفرنسى على مصر بأسرها ، وتكون الحكومتان التركية والمصرية سرابا . ثم انتقل السفير إلى موضوع السخرة فى حفر القناة فقال « إن الخطة التى تنطوى على انتزاع عشرين ألف رجل كل شهر من السكان المصريين لن يكون من نتائجها بسط النفوذ الفرنسى واسم فرنسا فى الجهات الواقعة على ضفاف قناة السويس وترع الماء العذب فحسب ، بل سيعتاد المصريون على بكرة أبيهم العمل تدريجيا تحت إدارة الفرنسيين ، وستؤدى هذه الحال إلى موقف خطير كل الخطورة ، وخاصة إذا أدخلنا فى حسابنا القوة البحرية التى تنظمها فرنسا فى الآونة الحاضرة فى البحر الأحمر » . ثم عرج على عدد العمال الذين يسخرون فى حفر القناة فقال إن عدد الفلاحين الذين يتغيبون عن حقولهم فى وقت واحد لايقف عند عشرين ألف عامل بل يصل إلى ستين ألفا (٢) . وأشار إلى ضآلة الأجور التى تدفعها الشركة إلى العمال وأوضح أنها تقل عن الأجور التى يتقاضاها العمال المصريون فى مناطق أخرى ، وخاصة أن عمال الشركة يعودون إلى قراهم على نفقتهم الخاصة ، فضــلا عن الأضرار التى تحيق بهم بسبب تركهم لأعمالهم (٣) .

1) **Hallberg**, ouvr. cit., p. 190.

(٢) بينما يكون عشرون ألفا قائمين بالعمل فى ساحات الحفر يكون مثل هذا العدد من العمال فى طريقهم من بلادهم إلى أراضى البرزخ وعشرون ألفا آخرون فى طريق عودتهم إلى قراهم من ساحات حفر القناة .

(3) **Douin** : ouvr. cit., t. I. pp. 28-30.

وفى أثناء إقامته فى مصر اتصل السفير البريطانى بسعيد باشا الوالى كما اتصل باسماعيل باشا ولى العهد . وفى حديثه مع الأول نجد أن سعيدا ينقلب على الفرنسيين والسياسة الفرنسية رأسا على عقب . وكان تردده وعدم ثباته على رأى مدة طويلة من إحدى سمات ذلك الوالى . فذكر سعيد أن الفرنسيين لم يعملوا له شيئا ، وأنه قد أخطأ فى تعضيد مشروع القناة ، وأنه يسره جدا أن يتخلص من ذلك المشروع ولكنه لا يعرف مخرجا . فأشار عليه السفير البريطانى بأن يترك له الموضوع يتولاه بنفسه على شرط ألا يقدم سعيد عمالا إلى الشركة وألا يرتبط معها بإتفاقات مالية أخرى بخصوص الأسهم التى ابتاعها . فاذا وافق الوالى على العمل بهذين الشرطين فالسفير يخرجه من تلك الإرتباكات دون أية مسئولية أو مساس بالشرف . وقد أعطى سعيد الوعد بشقيه : الكف عن تقديم عمال للشركة وعدم عقد إتفاقات مالية معها (١) .

وقد مات سعيد بعد تلك المحادثات بأسبوعين فلم يعش لنرى هل كان إخلاصه لمشروع القناة ولصديقه دىلسبس سيدفعه إلى نقض الوعد الذى قطعه للسفير البريطانى أو أنه كان سيبر بوعده فيعمل على تعطيل لائحة العمال وإراحة الشعب المصرى من هذه الجزية التى فرضها عليه ونعنى بها السخرة فى حفر القناة ؟ الثابت أن السيل المتدفق من عمال السخرة لم ينقطع عن ساحات الحفر طوال الأسبوعين اللذين عاشهما بعد الموعدة التى وعدها إياه .

ولا شك أن موت سعيد كان كارثة كبرى حلت بشركة القناة ، إذ فقدت فيه نصيرا مخلصا بذل لها ألوانا شتى من المساعدات : فى تمويل

---

(1) **Hallberg**, ouvr. cit., pp. 192-193.

نقلا عن وزارة الخارجية البريطانية

F.O. 78/1795 No. 3 Bulwer to Russel. Alex. Jan. 4, 1863 confidential.

ولما اتصل السفير البريطانى باسماعيل ولى العهد دارت بينهما أحاديث طويلة تطرق اثناءها السفير إلى تبيان الأضرار التى تلحق بالزراعة المصرية بسبب تسخير المصريين فى حفر القناة . وقد وجد السفير فى اسماعيل أذنا صاغية لمعظم وجهات نظر المعارضة الإنجليزية لنظام السخرة فى حفر القناة حتى اغتبط السفير وأدرك أنه نجح فى ضم ولى العهد إلى جانبه .

الدراسات الخاصة بتنفيذ المشروع ، ووضع ترسانات الحكومة فى القاهرة والإسكندرية تحت تصرف الشركة وشراء الأدوات والمهات لها (١) ، والإنفاق على الدعاية للمشروع فى أوربا ، والإكتتاب الضخم فى أسهم الشركة ، وتقديم العدد الهائل من الجمال لنقل ماء الشرب إلى ساحات الحفر (٢) ، وتنفيذ مشروع ترعة الماء العذب إلى نفيشة ، وإعارة بعض موظفى الحكومة الفنيين للشركة (٣) إلى غير ذلك ، ولكن لم تكن هناك وقتئذ مساعدة أعظم وأجل من تلك المساعدة الآدمية التى قدمها سعيد للشركة ونعنى بها السخرة . فقد كانت بحق تجنيدا إجباريا يتم فى جميع فصول السنة واستغلالا للشعب المصرى من أجل شركة القناة . ولم تكن السخرة نظاما طارئا على المجتمع المصرى فى عهد الوالى سعيد ، فهى نظام قديم يرجع إلى عهود سحيقة فى التاريخ ، وكانت الحكومات تعتمد عليه فى تنفيذ المشروعات العامة بل والخاصة فى بعض الأحيان . ولكن لم يحدث أن توسعت الحكومة فى فرض السخرة على الشعب بمثل هذا الشمول والعنف والقسوة وعدم الإكتراث بمصالح البلاد الإقتصادية والإجتماعية كما حدث بالنسبة لشركة القناة . وقد ربط سعيد موضوع عظمته الشخصية وتخليد ذكراه فى التاريخ بإنجاز المشروع .

---

(1) **Voisin Bey** : ouvr., cit., t. VII, p. 162.

أنظر أيضا

محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٩٠١ وثيقة رقم ١٣ ص ٤٩ ودفتر رقم ١٩٠٤ وثيقة رقم ٣ ص ١٣ ودفتر ١٨٩٩ وثيقة رقم ١٧٨ ص ٨٠ ودفتر رقم ١٦٤٧ وثيقة رقم ٤٧ ص ٨٩ ووثيقة رقم ٢٦ ص ٥٠ فى نفس الدفتر . ودفتر رقم ١٨٩٨ وثيقة رقم ٨ ص ٣٥ ووثيقة رقم ٢٤ ص ١٧٨ ودفتر رقم ١٨٩٣ وثيقة رقم ٢٩ ص ١١٧ . وهذه الوثائق على سبيل المثال لا الحصر .

(٣) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٨٩٩ وثيقة رقم ٣٢ ص ١٥ ووثيقة رقم ٥٨ ص ٢٩ وأنظر أيضا

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit. t. IV. pp. 169-171.

وهو بخصوص تقديم ٨٠٠ جمل من مديريتى الدقهلية والقليوبية بأمر سعيد باشا

(٣) محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ١٨٩٤ ص ١٩٠ ودفتر رقم ١٩٠١ وثيقة رقم ١٠ ص ٢٢ ووثيقة رقم ١٣ ص ٢٥ ووثيقة رقم ٥٤ .

فكان اندفاعه فى خطته التعسفية انسياقا لهذه الرغبة الدفينة فى نفسه . وحقّ لدىلسبس أن يقول وهو يؤبن سعيد باشا فى إجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة فى ١٥ يوليو ١٨٦٣ « إذا لم يخرج محمد سعيد إلى الحياة ؛ وإذا لم يقدّر له حكم مصر ، لما نفذ مشروع قناة السويس على الإطلاق (١) »

ولكن كان هذا الإسراف فى تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة مثار تذمر عميق من طبقات المجتمع المصرى . ولما توفى سعيد كان السخط فى أكبر صوره قد امتد فى طول البلاد وعرضها (٢) وسرعان ما واجه خلفه اسماعيل هذا التذمر فى مستهل حكمه . وكان سعيد قد أرسل قبل وفاته بأيام قلائل فرقة من القوات المسلحة المصرية للإشتراك مع الجيش الفرنسى فى حرب المكسيك بأمريكا . وكان إرسال هذه الفرقة إلى بلاد نائية واشتراكها فى حرب ليست لمصر مصلحة فيها دليلا على تغلغل النفوذ الفرنسى فى مصر فى عهد سعيد ، واعتقد المصريون وقتئذ أن إرسال تلك الحملة كان نتيجة لتدخل دىلسبس . ولذلك كان المصريون يشعرون بكراهية لفرنسا ولشركة القناة ، واعتقدوا أن وفاة سعيد باشا ستضع حدا للإمتيازات التى كان ذلك الوالى يغدقها على الأجانب عامة والفرنسيين خاصة . ومن ثم ظهر فى الأيام الأولى من حكم اسماعيل عداء سافر من الجماهير للأجانب ووقعت حوادث إعتداء من الأهلين عليهم (٣) . وقد صرح اسماعيل بخطورة الموقف لكرستيان شفير Christian Scheffer السكرتير الشرقى للإمبراطور نابليون الثالث وكان قد قدم مصر فى مايو ١٨٦٣ — بعد أن ولى اسماعيل حكم مصر

---

(١) جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧٠ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦٣ ص ٢٧٤ مجموعة السنة الثامنة .

2) **De Malortie** : ouvr. cit., p. 71.

(٣) استعرضنا طرفا من هذه الحوادث كما شرحنا كيف استغلها قنصل فرنسا للضغط على اسماعيل كى يواصل سياسة عمه فى ارسال عمال السخرة لحفر القناة . وقد أسعن القنصل فى سياسة الضغط على اسماعيل إلى حد إذلاله . أنظر: دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس — عصر اسماعيل . ص ص ٩٤ — ٩٩ .

بأربعة أشهر تقريبا — فى حاشية الأمير جـــيروم نابليون Jérôme Napoléon ابن عم امبراطور فرنسا ، وكان مما قاله اسماعيل « إن أعمال القناة وحدها تقتضى تجريد ٦٠,٠٠٠ رجل شهريا . والإستياء اليوم جدى وقد يثير القلق غدا . فإن جميع الأسلحة التى كانت مودعة فى ترسانات الحكومة ومخازنها وباعها سعيد باشاقد ظلت فى البلاد . وإنى أعلم أن عددا كبيرا من الفلاحين قد شروا بثمن بخس عددا يصل إلى ثلاث بندقيات لكل فرد كى يستطيع أن يحتفظ بواحدة منها يوم يجرد من السلاح (١) » .

× × ×

ولذلك لم يكن أمرا عجابا أن ناضلت الشركة نضالا عنيفا فى سبيل الإبقاء على نظام السخرة فى حفر القناة ، وذلك عندما احتدم النزاع بينها وبين الحكومة المصرية على عهد اسماعيل الذى طلب أول الأمر فى ١٨ أغسطس ١٨٦٣ (٢) ، ١٢ اكتوبر ١٨٦٣ (٣) تخفيض عدد العمال إلى ستة الآف . وكانت الحكومة التركية قد أرسلت إليه مذكرة بتاريخ ١٣ شوال ١٢٧٩ (٣ أبريل ١٨٦٣) طلبت فيها إلغاء نظام السخرة كلية فى حفر القناة وقالت فى مذكرتها « لا يستطيع الباب العالى ولا الدول التى تهتم اهتماما جديا

---

(1) **Douin** : Histoire du... etc., ouvr. cit., t. I. p. 58.

(2) **De Testa** : ouvr. cit., t. II, p. 109. No. XXVI : Lettre du Pacha d'Egypte (Ismail) à M. de Lesseps, en date du Caire, le 18 août 1863. (3 rabi-el-awal 1280.).

كما نشر هذا الخطاب فى المذكرة الإستشارية التى قدمت لإسماعيل بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٨٦٣ .

Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre : Note Consultative etc., op. cit.

(3) **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit. t. IV, pp. 350-351.

وأنظر أيضا

جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧٧ الصادر فى أول نوفمبر ١٨٦٣ ص ٤٢٦ مجموعة السنة الثامنة .

بتقدم الحضارة فى الشرق أن تسمح بأن ينفذ هذا المشروع الكبير بالأسلوب القاسى الذى لفظته كافة الدول المتحضرة ، وهو أسلوب من إحدى نتائجه الجلبة للكوارث انتزاع ستين ألف فلاح من الزراعة والصناعة والتجارة (١)»

وقد وصف دىلسبس مطالبة الحكومة التركية بإلغاء السخرة فى حفر القناة بأنها إجراء يؤدى إلى انتزاع الوسيلة الرئيسية فى تنفيذ المشروع من يد الشركة (٢) . وذهب إلى أن إلغـــاء السخرة هو سلب لحقوق اكتسبتها الشركة « وهى حقوق تدافع عنها علنا حكومات قوية (٣) » .

واستندت الشركة فى تمسكها بنظام السخرة إلى حجج واهية فقالت إنها بنت تقديراتها لنفقات حفر القناة على أساس ما جاء فى لائحة استخدام العمال المصريين فى حفر القناة والتى صدرت فى ٢٠ من يوليو ١٨٥٦ ، وإنه طبقا لتلك التقديرات تكونت الشركة برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك ، وإن إلغاء اللائحة يرفع من نفقات تنفيذ المشروع وهو أمر يصيب الشركة بأضرار بليغة (٤) . كما قررت أن اللائحة كانت أحد المستندات التى دعيت

---

(١) محفوظات قصر عابدين : القسم الفرنسى : صور الوثائق الفرنسية

Aff. Etr. Corr. Polit. Turquie 358f. 68-70. Lettre vizirielle adressée à Son Altesse Ismail Pacha en date du 13 chawal 1279.

وقد أرسل عالى باشا وزير خارجية تركيا مذكرة بتاريخ ٦ أبريل ١٨٦٣ إلى كل من انجلترا وفرنسا على غرار مذكرة ٣ ابريل ١٨٦٣ . أنظر:

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس — عصر اسماعيل ص ص ١٣١ — ١٥٥ .

(٢) انظر الخطاب الذى ألقاه دىلسبس فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٦٣ .وقد نشر فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٧ . الصادر فى ١٩ يوليو ١٨٦٣ ص ص ٢٥٨ — ٢٩٣ مجموعة السنة الثامنة .

(٣) انظر مذكرة وضعها دىلسبس بتاريخ أول سبتمبر ١٨٦٣ وقدمها إلى اسماعيل :

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t.IV, pp. 319-336.

(٤) أنظر مذكرة وضعها مجلس إدارة الشركة بتاريخ ١٠ مارس ١٨٦٤

Note à consulter, délibérée et votée par le Conseil d'Administration de lat

على أساسها الجماهير إلى الإكتتاب فى أسهم الشركة . وأدعت أن لائحة العمال ليست لائحة وإنما هى عقد يحوى التزامات متبادلة بين الحكومة المصرية والشركة . وكان لاتجاه الشركة فى إضفاء صفة العقد على اللائحة أهمية بالغة وأثار جدلا قانونيا عنيفا خاضت فيه الحكومة المصرية والشركة، لأن إلغاء اللائحة لا يترتب عليه دفع تعويض للشركة بعكس العقد فإن فسخه يوجب دفع تعويض لها . ولهذا أصرت الشركة على أن تصف اللائحة بأنها عقد واجب التنفيذ un contrat exécutoire وأنها عقد منفذ un contrat exécuté (١) ، بينما رأت الحكومة المصرية ، ومن ورائها ثلاثة من أشهر مشرعى فرنسا فى ذلك الوقت (٢) ، أنها لائحة حكومية réglement gouvernemental مستندة فى ذلك إلى أن لفظ اللائحة تستمده من العنوان الذي اتخذ لها والذى سطر فى أعلاها . وأن الوالى الذى أصدرها كان يستطيع أن يلغيها وفق رغبته ، وأن خلفه - اسماعيل - يستطيع ولسبب أقوى تعديلها وفق ما يتمشى مع حسن سير العمل فى الدوائر الحكومية . كما أكدت الحكومة أنها لا تجد فى تلك اللائحة الخصائص التى يتميز بها العقد . وفى مقدمة هذه الخصائص تبادل الإلتزامات بين طرفين متعاقدين ، فإذا

Compagnie Universelle du Canal de Suez dans sa séance du 15mars 1864, pour Messieurs les Membres de la Commission nommée par l'Empereur, à l'effet de donner un avis àSaMajeté sur les questions pendantes entre le Gouvernement Egyptien et la Compagnie du Canal de Suez. Voir **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 447 - 471 .

(١) مذكرة دىلسبس إلى اسماعيل بتاريخ أول سبتمبر ١٨٦٣ سالفة الذكر

(٢) هم Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre

وقد وصفهم ألورى ، وهو من أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس ، بأنهم أعلام القانون فى فرنسا ومن أشهر مشرعيها . أما المستشار كرابيتس فيقول عنهم إنه لم يكن فى فرنسا فى ذلك الوقت أحد يدانى أولئك المشرعين علوا فى كفايتهم . أنظر

Alloury : ouvr. cit., p. 71.

Crabites : Spoliation etc., ouvr. cit., p. 76.

كانت الشركة قد ارتبطت ببعض الإلتزامات كدفع الأجور أو التغذية أو النقل أو العناية الطبية ، فإن هذه الإلتزامات هى نتيجة وليست سببا للقرار الذى اتخذه الوالى بتقديم عمال للشركة .

وقد ضغطت الحكومة المصرية على الشركة بإنقاص عدد عمال السخرة الذين كانت ترسلهم إلى ساحات الحفر منذ النصف الثانى من عام ١٨٦٣ وجأرت الشركة بالشكوى من هذا الإنقاص المطرد . وأرسل دى‌لسبس إلى اسماعيل بتاريخ أول سبتمبر ١٨٦٣ صورة من تقرير تلقاه من فوازان مدير عام الأشغال فى الشركة يشكو فيه من نقص عدد العمال . وقدّر هذا النقص بثلاثة الآف عامل كل شهر (١) . وطلب دى‌لسبس إلى اسماعيل تدارك

---

(١) كان مما جاء فى تقرير مدير عام أشغال الحفر ما يلى:

Depuis l'avènement de S.A. Le Prince Ismail, les moudirs ont successivement diminué les chiffres de leurs envois. On peut évaluer cette diminution à 3000 hommes par mois au moins. Les deux derniers mois, les contingents ont à peine atteint le chiffre de 15.000 hommes. Il est vrai que des causes particulières ont fait suspendre l'envoi des contingents de la province de Keneh Esneh, mais ce contingent n'était que de 1.500 hommes.

Pour réparer les mécomptes que nous a occasionnés cette réduction, tout à fait inattendue, dans le nombre de nos ouvriers indigènes, **nombre qui ne peut descendre au dessous de 20.000 hommes sans causer le plus grand préjudice à la bonne marche de travaux et aux plus sérieux intérêts de la Compagnie**, il serait vivement à désirer que M. le Président pût obtenir qu'on restituât, pendant les trois mois qui vont suivre, les manquants des derniers mois, autrement notre campagne serait loin d'être aussi fructueuse que nous avions été en droit de l'annoncer, comptant sur la promesse formelle de la permanence du contingent mensuel de 20.000 hommes.

والإشارة التى وردت فى التقرير خاصة بنقص عدد عمال قنا واسنا مردها إلى انتشار التيفوس وتفشيه فى هاتين الجهتين . ويلاحظ أن التقرير بدون تاريخ ولكن أرفقه دى‌لسبس بخطاب تاريخه أول سبتمبر ١٨٦٣ إلى اسماعيل أنظر

De Lesseps F. : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit. t IV, p. 344.

هذا النقص فى عدد العمال. ولكن الحكومة لم تلق بالا وواصلت سياسة الضغط حتى هبط عددهم فى ديسمبر ١٨٦٣ إلى ١٣,٠٠٠ رجل (١) .

وقد نظمت الحكومة المصرية حملة صحفية واسعة عنيفة على الشركة فى صحافة باريس نعت عليها التجاءها إلى نظام السخرة ووصفته بأنه وسيلة متبربرة ، وقالت إن شركة تزعم أنها تحمل الحضارة الفرنسية إلى ربوع الشرق يجب عليها أن تتخلى سريعا عن إجراء مترع بالرذائل . وقررت تلك الحملة الصحفية أن شركة القناة قد أصبحت موضع فزع المصريين وكراهيتهم ، وإذا كانت الشركة تلتمس رعاية الحكومة الفرنسية أفلا يجدر بها أن تفكر قليلا فى ألا تخاطر بتعريض سمعة تلك الحكومة للخطر إذا قاسمتها هذه المسئولية ؟ (٢) .

واستمرت الحملة الصحفية حقبة طويلة أوقعت الإرتباك فى دوائر الشركة ، وانخفضت أثمان الأسهم فى بورصة باريس ، ونشرت الإضطراب بين المسهمين . وكان من مظاهر الإضطراب قضيتان أقامهما فريق من المسهمين على دى‌لسبس . وقد طلبوا فى القضية الأولى الحكم عليه بإلزامه بدعوة الجمعية العمومية لمسهمى الشركة بصفة مستعجلة لاجتماع غير عادى لبحث الموقف الناشىء عن حالة النزاع بين الحكومة المصرية والشركة (٣)

---

(1) **Douin** : Histoire du... etc., ouvr. cit., t. I p. 128.

(٢) استعرضنا مقالات الصحف الفرنسيه التى اتفقت معها الحكومه المصريه للقيام بحملة على نظام السخرة فى حفر القناة كما استعرضنا أقوال الصحف الموالية للشركة . أنظر الفصل الثامن بعنوان : حملة نوبار الصحفية. دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس – عصر اسماعيل ص‌ص ٢٣٣ – ٢٦٦ .

(٣) رفعت هذه الدعوى أمام محكمة السين التجارية Tribunal de Commerce de la Seine ضد دى‌لسبس بصفته رئيسا لمجلس إدارة الشركة. وقد قالت جريدة L'Isthme de Suez (العدد ١٨١ الصادر فى أول ينـــاير ١٨٦٤ ص ٩ مجموعة السنة التاسعة) إن مجلس إدارة الشركة قد قرر من تلقاء نفسه وقبل أن يعلن دى‌لسبس بعريضة الدعوى عقد الجمعية العمومية للمسهمين فى اجتماع غير عادى فى أول مارس ١٨٦٤ . ولكن هذا الدفاع الذى تبرعت به الجريدة من تلقاء نفسها والقضية لاتزال تتداول فى جلساتها أمام القضاء دفاع سقيم ينهار

أماالقضية الثانية فكانت لعزل أعضاء مجلس إدارة الشركة وتعيين غيرهم، لأنه تربطهم بالرئيس دى‌لسبس صلة صداقة وثيقة وهم بحكم هذه الصداقة لا يعارضون دى‌لسبس وهو أمر شاذ ينطوى على أخطار جسيمة تحيق بمصالح المسهمين (١)

وكانت تلك الحملة الصحفية شديدة الوطأة على الشركة حتى أن دى‌لسبس وصفها بأنها حرب صليبية باسم الإنسانية (٢) ورأت الشركة أنه لا مناص

أمام الأرقام التى تكشف عن حقائق ثابتة . فقد قدمت القضية إلى المحكمة التجارية فى ٢٣ ديسمبر ١٨٦٣ ثم أجلت إلى ٢٨ ديسمبر ثم أجلت مرة أخرى لجلسة ١٣ يناير ١٨٦٤ . فإذا رجعنا إلى الإعلان الذى أذاعته الشركة عن عقد الجمعية العامة للمسهمين نجد أنه قد صدر موقعـــــا عليه من بول مورو Paul Merruau سكرتير عام الشركة وقتئذ ويحمل تاريخ ٢٤ ديسمبر ١٨٦٣ أى بعد أن اتخذت القضية طريقها إلى المحكمة . وفى هذا الإعلان يقول السكرتير العام إن مجلس إدارة الشركة قد اتخذ هذا القرار فى ٢٢ ديسمبر ١٨٦٣ .

وقد أثار محامى الشركة أمام المحكمة دفعا بعدم جواز نظر الدعوى استنادا إلى المادة ٧٥ من قانون الشركة الأساسى والتى تمنع مسهمى الشركة من مقاضاتها قبل أن يعرضوا أولا وقبل الإلتجاء إلى القضاء — موضوع الخلاف على مجلس إدارة الشركة وهذا ما لم يقم به الخصوم . ولكن المحكمة برآسة دينير Denière رفضت هذا الدفع وقد قضت — بموافقة طرفى الخصومة — بشطب الدعوى .

أنظر جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨٢ الصادر فى ١٥ يناير سنة ١٨٦٤ ص ٤٠ مجموعة السنة التاسعة .

(١) نظرت هذه القضية أمام محكمة السين التجارية وبعد سماع مرافعة طرفى الخصومة قضت بجلسة ١٠ فبراير ١٨٦٤ برفض الدعوى والزام رافعيها بالمصاريف . أنظر الملحق الذى ظهر فى ٢٦ فبراير ١٨٦٤ للعدد ١٨٤ الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٦٤ من جريدة L'Isthme de Suez ص‌ص ١٢٣ — ١٢٤ مجموعة السنة التاسعة .

(٢) محاضرة عامة ألقاها دى‌لسبس فى ٢١ مارس ١٨٦٤ ونشرت فى جريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨٧ الصادر فى أول ابريل ١٨٦٤ ص‌ص ١٩١—١٩٨ مجموعة السنة التاسعة . ومما هو جدير بالذكر أن اسم الحرب الصليبية أطلقته قبل دى‌لسبس جريدة فرنسية هى Mémorial de la Loire فى مقال ظهر فى عددها الصادر فى ٨ ديسمبر ١٨٦٣ جاء فيه « تقوم الآن حرب صليبية منظمة ضد مشروع قناة السويس » . وقد اعادت جريدة L'Isthme de Suez نشر هذا المقال فى العدد ١٨٠ الصادر فى ١٥ — ١٧ ديسمبر ١٨٦٣ مجموعة السنة الثامنة .

من التخلى عن السخرة ، فقبلت مبـــــدأ الإلغاء ولكنها طالبت بتعويض جسيم للغاية بلغ ٥٧ مليون فرنك أى أكثر من ربع رأس مال الشركة . ووضعت مذكرة ضافية حاولت أن تثبت فيها عدالة مطلبها واعتدالها فى تقدير التعويض وأبرزت الخسائر الفادحة التى تنزل بها نتيجة لإلغاء السخرة فى حفر القناة (١) .

وقد لقيت الشركة فى موقفها تأييدا علنيا سافرا من بعض الشخصيات فى فرنسا ، وكان من بينها الأمير الخليع جيروم نابليون Jérôme Napoléon راعى المشروع وابن عم الإمبراطور نابليون الثالث . وقد ألقى خطابا حماسيا ضافيا فى مأدبة أقامتها الشركة فى ١١ فبراير ١٨٦٤ وحضرها قرابة ١٦٠٠ مدعو بمناسبة فراغ الشركة من إيصال ترعة الماء العذب إلى السويس . وكانت تلك المادبة أشبه بمظاهرة سياسية . وقد حرض الأمير جيروم نابليون الشركة على التمسك برأيها القائل بضرورة تعويضها عن إلغاء السخرة فى حفر القناة فقال إذا قبل أعضاء مجلس إدارة الشركة إلغاء السخرة بدون تعويض مالى تدفعه الحكومة المصرية لاستحقوا أن يرسلوا إلى مستشفى الأمراض العقلية أو يحاكموا جنائيا . ثم اشتط فى تعزيز موقف الشركة إلى حد أنه قال « إذا كانت مصر تنشد تخفيف ويلات الإنسانية عن شعبها فيجب عليها ألا تضع عبء هذا العمل على عاتق الشركة . فنحن المواطنون الفرنسيون ندفع ثمن عظمتنا ، ولكن إذا دفعنا نحن ثمن عظمة المسلمين والتخفيف عنهم وتقديم الخير لهم فلن يكون ذلك الا حماقة وجنونا (٢) » .

---

(1) **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 447-471.

(٢) طبعت شركة القناة هذه الخطبة فى كتاب باسم :

Compagnie Universlle du Canal Maritime de Suez : Banquet du Canal de Suez — 11 février 1864. Discours de S.A. Le Prince Napoléon, de M. Dupin et M. de Lesseps. Paris. 1864.

وأنظر أيضاً كلا من :

وكان المفروض أن تلغى الحكومة المصرية السخرة فى حفر القناة اعتبارا من أول فبراير ١٨٦٤ ، وهو نهاية مهلة الستة أشهر التى حددها الباب العالى فى مذكرته لإسماعيل بتاريخ أول أغسطس ١٨٦٣ لتسوية النزاع بين مصر والشركة ، وقرر فيها أنه إذا انتهت تلك المهلة دون الوصول إلى تسوية الخلاف فإن اسماعيل يوقف إرسال عمال السخرة (١) . ولكن حدث أن أبرق دريون دى لويس Drouyn de Lhuys وزير خارجيـــــــة فرنسا فى ١٦ ينـــاير ١٨٦٤ ، بناء على أمر الإمبراطور ، إلى تاستى Tastu قنصل فرنســا فى مصر كى يطلب إلى اسماعيل مد المهلة شهرين ينتهيان فى ٣١ مارس ١٨٦٤(٢) فوافق اسماعيل (٣) . ثم حدث أن إتصلت وزارة الخارجية الفرنسية ، بناء على التماس شركة القناة (٤) ، بالحكومة التركية واسماعيل لإطالة المهلة شهرين آخرين ينتهيان فى ٣١ مايو ١٨٦٤ فوافقت الحكومة التركية أولا ثم تبعتها الحكومة المصرية (٥) .

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV, pp. 387-411.

وجريدة L'Isthme de Suez العدد ١٨٤ الصادر فى ١٥ فبراير ١٨٦٤ ص ص ١٠٠ — ١٠٨ مجموعة السنة التاسعة .

(1) Copie d'une lettre vizirielle, communiquée à l'Ambassade de France à Constantinople, et qui devait être envoyée au Vice-Roi d'Egypte par Fouad Pacha, à la date du 1er août 1863. dans :

De Lesseps F. : Lettres, Journal t Documents etc., ouvr. cit., t. IV. pp. 316-318.

(2) **Douin** : Histoire du... etc., ouvr., t. I p. 68.

(3) **ibid.**

(٤) أنظر خطابا أرسله دى لسبس بتاريخ ١٦ مارس ١٨٦٤ إلى وزير خارجية فرنسا فى

De Lesseps F.: Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV. pp. 445-446.

(٥) محفوظات قصر عابدين : دفتر ٢١ صادر عابدين ص ١١٠ فى ١٤ شوال ١٢٨٠ (٢٣ مارس ١٨٦٤) ووثيقة رقم ٣٦١ فى نفس التاريخ . وأنظر أيضا وثيقة رقم ٣٦٠ فى نفس الدفتر وهى أمر سرى صدر من الجناب العالى إلى

ولكن الحكومة المصرية هبطت بعدد عمال السخرة هبوطا ملموسا فى خلال تلك المدة . فبعد أن كان عددهم فى شهر ديسمبر ١٨٦٣ قد وصل إلى ١٣,٠٠٠ نجد أنه انخفض فى مارس ١٨٦٤ إلى عشرة الآف وفى أبريل إلى ثمانية الآف وفى مايو إلى ستة الآف (١) .

وكانت الحوادث قد تطورت تطورا أدى إلى أن طلب اسماعيل ، بكل سذاجة (٢) ، تحكيم الإمبراطور نابليون الثالث فى النزاع القائم بين مصر وشركة القناة . وتكونت لجنة تحكيم كى تدرس المسائل المتنازع عليها ثم تقدم بعد ذلك تقريرا إلى الإمبراطور مشفوعا برأيها . وكانت هذه اللجنة فرنسية لحما ودما (٣) . وقد أخذت بنظرية الشركة بأن لائحة العمال هى عقد ، وأن فسخه وفق رغبة الحكومة المصرية ، وهى أحد الطرفين المتعـــاقدين ، يستوجب دفع تعويض للطرف الآخر وهو شركة القناة . وقدرت هذا التعويض بمبلغ ٤٢,٥ مليون فرنك . وخصصت من هذا التعويض مبلغ ٤,٥ مليون فرنك قيمة أجور متأخرة على الشركة للعمال (٤) .

ولم تستطع اللجنة فى تقريرها تجاهل مساوىء نظام السخرة فى حفر القناة ، ولكنها ألقت التبعة على سعيد باشا ، وهو الوالى التعس الذى ألقى

القبوكتخدا فى نفس التاريخ ووثيقة رقم ٣٦٢ وهى أمر سرى صدر من الجناب العالى إلى نوبار باشا فى باريس فى ١٤ شوال ١٢٨٠ ووثيقة رقم ٣٦٤ وهى أمر سرى صدر من الجناب العالى إلى نوبار باشا فى باريس فى ١٨ شوال ١٢٨٠ .

وأنظر أيضا الملحقين رقم ٤ ورقم ٥

(1) Douin : Histoire du... etc., ouvr. cit., t. I., p. 129.

(٢) شرحنا كيف أن اسماعيل قد جانبه التوفيق باتخاذ الامبراطور حكما . أنظر : دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس — عصر اسماعيل ص ص ٢٧٠ — ٢٧٧ .

(٣) أوضحنا الشبهات التى أحاطت بتكوين اللجنة والمآخذ على أعضائها وسجلنا تصرفات لرئيسها كانت تدمغه بعدم الصلاحية . أنظر المصدر السابق ص ص ٣١٨ — ٣٢٠ .

(٤) سبق أن تعرضنا لهذه المسألة فى الفصل الثالث عشر .

بنفسه فى أحضان الفرنسيين ليكتسب عظمة خيالية فدمغوه — بعد وفاته — بقسوته على الشعب المصرى . فقالت اللجنة إنه إذا كان هناك لوم يوجه إلى نظام السخرة فإن ذلك اللوم ينصب على الأسلوب الذى يتبع فى جمع العمال ، وهو الأسلوب الذى سار عليه محمد سعيد إزاء الشركة فى تنفيذ لائحة ٢٠ يوليو ١٨٥٦ فهذا « عمل يتنافى مع طبائعنا ويثير استياء الرأى العام فى الشعوب المتحضرة » وقالت اللجنة إن للباب العالى الحق ، بل إن هذا واجبه ، فى أن يضع حدا لهذا النظام .

وقد بلغ مجموع مبالغ التعويضات التى اقترحت اللجنة فرضها على مصر فى مقابل إلغاء السخرة فى حفر القناة واسترداد جزء من الأراضى الممنوحة للشركة وإلغاء بعض امتيازاتها أربعة وثمانين مليون فرنك أى ما يوازى ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنيه (١) .

وأرفق رئيس لجنة التحكيم بتقريره مذكرة صغيرة طواها على تعليقات شخصية له تبريرا لضخامة التعويضات التى اقترحتها اللجنة ، وطلب إلى وزير خارجية فرنسا أن يرفعها إلى الإمبراطور . وكان مما جاء فى هذه المذكرة « إن المعلومات التى أتاحتها لى إقامة خمس سنوات فى القسطنطينية تسمح لى بأن أظن أنه مادامت المسائل التى تخص الباب العالى شخصيا قد أبعدت عن نطاق المناقشة فإنه لن يعترض اعتراضا قويا على التعويضات التى لا يلتزم بدفعها . وإنى أميل إلى الإعتقاد بأن الباب العالى وهو يتظاهر بأن يرى الأعباء الملقاة على عاتق والى مصر باهظة جدا فإنه لن يكون فى قرارة نفسه متأسفا حين يرى تابعه (اسماعيل) يعاقب بطريقة ما على الثقة التى وضعها الوالى فى شركة أجنبية على الرغم من الأوامر التى كان الباب العالى يصدرها تباعا . وإنى أضيف إلى ذلك أن باشوات مصر ينفقون فى كل عام على مسراتهم وعلى أمور غير مجدية أموالا أكثر من المبالغ التى يتعين

---

(١) النص الكامل لتقرير لجنة التحكيم فى

Douin : Histoire du Regne etc., ouvr. cit., t. I., pp. 102-123.

على اسماعيل دفعها فى خزانة شركة يمتلك ١٧٧٦٤٢ سهما من أسهمها البالغ عددها أربعمائة ألف (١) » .

وقد أخذ الإمبراطور بتقرير اللجنة جملة وتفصيلا وعهد إلى رئيسها بوضع صيغة الحكم ، ووقعه الإمبراطور فى ٦ يوليو ١٨٦٤ . وقد بنى الحكم على أساس ما جاء فى تقرير اللجنة فهما لا يختلفان إلا فى الناحية الشكلية ، فالحكم يغلب عليه الإيجاز بالنسبة لتقرير اللجنة من ناحية والطابع القانونى من ناحية أخرى (٢) .

وكان لهذا الحكم وقع سىء للغاية فى الشعب المصرى والأوساط المصرية الرسمية ، ورأت الجماهير أنه إضرار بمصر من أجل رعاية المصالح الفرنسية فى الشرق (٣) . وذكر Rothstein أن هذا الحكم لم يكن غير سرقة من سرقات عدة أذعنت فيها مصر لأوربا المستنيرة الفاضلة (٤) . وقرر لينان بك أن دوائر باريس كانت تعتقد فى ذلك الوقت أنه فى الإستطاعة تسوية كافة المشكلات بين مصر وشركة القناة لقاء ثلاثين مليون فرنك وتكون الشركة فى تلك الحال سعيدة جدا بحصولها على هذا المبلغ . ولكن الحكم حابى قدر الإمكان شركة القناة على حساب الحكومة المصرية التى اعتبرها منجما لا ينضب معينه (٥) . ولا ريب أن لجنة التحكيم قد وضعت

---

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس — عصر اسماعيل . ص ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٢) النص الرسمى للحكم الإمبراطورى محفوظ فى قصر عابدين : محفظة رقم ٣٢ معية تركى وثيقة رقم ٩ بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ — غرة صفر ١٢٨١ هـ . وهذه الوثيقة باللغة الفرنسية ومطبوعة فى باريس .

(3) **Sammarco** : Histoire etc., ouvr. cit., t. III. p. 78.

نقلا عن المحفوظات النمساوية فى فينا : خطاب مرسل من الإسكندرية بتاريخ أول أغسطس ١٨٦٤ إلى وزارة الخارجية النمساوية

(4) **Rothstein** : Egypt's Ruin.

وترجمة الأستاذين عبد الحميد العبادى ومحمد بدران . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٣٦ . ص ٤٤ .

(5) **Linant de Bellefonds** : ouvr. cit., pp. 275-276.

نصب عينها الثروة الغزيرة التى كانت تتدفق على مصر فى تلك الآونة بسبب المجاعة القطنية فاشتطت اللجنة فى تقديراتها وسايرها الإمبراطور فى هذا الإتجاه . وقد صرح نوبار لممثل النمسا السياسى فى القسطنطينية أنه من بين الأربعة والثمانين مليون فرنك التى حكم بها الإمبراطور يوجد ستون مليون فرنك على الأقل تقبل المراجعة والمناقشة فيها (١) . أما فارمان قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر على عهد اسماعيل والذى عين قاضيا فى المحاكم المختلطة فى مصر بعد ذلك، فيقول إن هذا الحكم قد أدهش جميع رجال القانون فى اوربا ولولا سمة الجد التى اتسم بها لعده الناس تحفة من تحف القضاء (٢) .

بيد أن الحكم قد سجل على الشركة أنها كانت أول الطرفين المتعاقدين إخلالا بالتزاماتها ، فأثبت أن الشركة لم تكن تدفع لفريق كبير من العمال اجورهم المحددة فى لائحة العمال . ومن المتناقضات فى موقف الشركة أنها تطالب بتعويض فى مقابل إلغاء اللائحة ، أى فى مقابل تحلل الحكومة المصرية من الإلتزامات التى فرضتها عليها اللائحة ، فهى تطالب بتعويض عن إخلال من جانب الحكومة المصرية فى تنفيذ اللائحة يحدث بعد وقوع إخلال من جانب الشركة بزمن طويل . ومن أولى المبادىء المقررة فى القانون أنه فى حالة قيام التزامات متبادلة بين طرفين متعاقدين يلتزم كل طرف بالتزاماته فإذا اخل احد الطرفين بالإلتزامات المفروضة عليه كان للطرف الآخر أن يتحلل كذلك من التزاماته .

ومما يذكر أن الحكومة المصرية لم تنتظر صدور حكم الإمبراطور بإلغاء السخرة فى حفر القناة ، فأوقفت إرسال عمال السخرة إلى ساحات الحفر اعتبارا من أول يونيو ١٨٦٤ (٣) . وكانت الشركة قد أخطرت وزير خارجية فرنسا فى ١٦ مارس ١٨٦٤ بموافقتها على مبدأ الإلغاء فى مقابل

---

(1) **Sammarco** : Précis etc., ouvr. cit., t. IV. p. 167.
نقلا عن الوثائق النمساوية فى فينا

(2) **Farman** : ouvr. cit., pp. 205-206.

(٣) أنظر الملحق رقم ٥

تعويض قدرته بمبلغ ٥٧ مليون فرنك . وطلبت إلى وزير الخارجية اخطار لجنة التحكيم بذلك التحول فى موقفها (١) .

× × ×

نستخلص من الفصول التى مرت بنا فى هذا البحث حقيقة لامراء فيها، هى أن الشركة مدينة بحفر القناة لنظام السخرة . فقد تعرضت عمليات الحفر أول الأمر للتعطيل طوال المدة التى أوقف فيها سعيد باشا تنفيذ لائحة العمال نتيجة المعارضة الإنجليزية . وطالت تلك الفترة إلى سنتين (من ٢٥ ابريل ١٨٥٩ إلى ١٨ ابريل ١٨٦١) ، وغدا مركز الشركة خلالها حرجا ودقيقا للغاية وتعرضت لنقد شديد من أنصارها وتجريح عنيف من خصومها .

فلما شرع سعيد فى تنفيذ لائحة العمال فى ١٩ ابريل ١٨٦١ فى نطاق ضيق أول الأمر ، وسيق عمال السخرة إلى ساحات الحفر زمرا بدأت الحياة تدب فى أوصال منطقة القناة ، إذ استطاعت الشركة بفضلهم أن تحفر ترعة الماء العذب من قرية القصاصين فى مديرية الشرقية إلى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح . وفرغت من حفرها فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ . وجلبت تلك الترعة الحياة والحركة إلى منطقة صحراوية جرداء ، وانفرجت إلى حد ما مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر ، كما اختفت رويدا رويدا المشكلات المستعصية الأخرى كالنقل والتموين . وقد بلغ عدد العمال الذين سخروا فى حفر تلك الترعة ٥٥٨٩٣ رجلا .

ولما توسع سعيد فى تنفيذ لائحة العمال وطبق نظام السخرة تطبيقا صارما عنيفا وشملت عمليات جمع العمال لحفر القناة مديريات مصر بأسرها حتى امتدت إلى الشلال الأول استطاعت الشركة بفضل عمال السخرة أن تحفر القناة البحرية من بورسعيد إلى بحيرة التمساح .

واستغلت الشركة عمال السخرة استغلالا شائنا بعيدا عن الرحمة والشفقة فى مرتفعات عتبة الجسر ففرضت عليهم أقسى عبء يمكن أن يفكر فيه

---

(1) **De Lesseps F.** : Lettres, Journal et Documents etc., ouvr. cit., t. IV. pp. 445-446 et 447-471.

إنسان متحضر هو نقل جبل يرتفع ١٩ مترًا عن سطح البحر ويمتد مسافة ١٤ كيلومترا ثم شق مجرى للقناة البحرية مكانه !! ولم تفكر الشركة فى استخدام الآت ميكانيكية تكون عونا لأولئك العمال التاعسين ، ولكنها اعتمدت على كثرتهم العددية الهائلة ، والفؤوس وهى وسيلة بدائية هزيلة ، ثم القفف يضعون فيها الأنقاض ، ثم السياط تهوى على ظهورهم وإلقائهم فى سجن عتبة الجسر إلى غير ذلك من ضروب العسف والجور . وقد استغرق العمل فى مرتفعات عتبة الجسر وحدها قرابة عشرة أشهر سخر فيه ١٧٦٧٨٠ عاملا . هذا عدا الآف العمال الذين سخروا فى شقها من بورسعيد إلى فردان حيث تبدأ مرتفعات عتبة الجسر من ناحية الشمال .

ولما بلغت الشركة هذا الحد فى حفر القناة البحرية بإيصالها إلى بحيرة التمساح وجهت عمال السخرة لحفر ترعة الماء العذب من نفيشة إلى السويس فشقوها فى أقل من عام وفرغوا منها فى النصف الثانى من ديسمبر ١٨٦٣ وبلغ عدد العمال الذين سخروا فى حفرها مائة ألف عامل . ثم شرعوا يشقون مجرى للقناة البحرية فى النصف الجنوبى من البرزخ من بحيرة التمساح إلى السويس وكان ذلك خلال الشهور الخمسة الأولى من عام ١٨٦٤ حتى ٣١ مايو ١٨٦٤ حين أوقفت الحكومة إرسال عمال السخرة إلى ساحات الحفر وقد بلغ عددهم خلال تلك المدة خمسين ألفا وبذلوا جهودا مضنية فى مرتفعات سرابيوم .

تضاف إلى تلك العمليات المتعددة أعمال أخرى لها أهميتها القصوى فقد وجهت الشركة الآفا أخرى من عمال السخرة لتعمير منطقة القناة من بناء المدن الجديدة وتوسيع رقعتها كبورسعيد والتمساح (الإسماعيلية فيما بعد) ، ومن إنشاء مراكز هامة للعمل تدار منها عمليات الحفر مثل الفردان والجسر وطوسن وسرابيوم وغيرها ، ومن إقامة المنشآت والمبانى المختلفة لأجهزة الشركة الإدارية والهندسية والصحية وغيرها . ويعطى الجدول الآتى فكرة عن تقدم حركة التعمير التى كانت قد شملت جهات منطقة القناة فى نهاية

عام ١٨٦٣ وقبل إلغاء السخرة فى حفر القناة (١) .

اسم الجهة	منازل للسكنى بالمتر المربع	أكواخ وعنابر للعمال	ورش ومستودعات	مجموع المساحة	الحى العربى
بورسعيد	١٥٩٦٢	٧٣٢٦	١٣٢٣٨	٣٦٥٢٦	٤٧١٥
رأس العش	١٤١٩	٩٦٠	٤٨٠	٢٨٥٩	—
القنطرة	١٤٦٩	٧١٤١	٧٧٣	٩٣٨٣	٣٨٠٠
الفردان	٥٧٢	٩١	—	٦٦٣	—
الجسر	٧٩٦٧	٧٠٣	٢٨١٥	١١٤٨٥	٥٣٧
الإسماعيلية	١٩٧١٢	٦٧٧٢	٢٧١٣	٢٩١٩٧	—
طوسن	٢٥٩٦	١٢١	١٤٠	٢٨٥٧	—
جنيفه	٦٩٠	—	—	٦٩٠	—
شلوف الطرابة	١١٦٩	—	٧٤٤	١٩١٣	—
السويس	١٣٧	٣٦	—	١٧٣	—
المحسمة	٦٥٤	٧٢	—	٧٢٦	—
معسكرات إضافية	٦٧٨	٢٢٣	—	٩٠١	—
المجموع	٥٣٦٩٤م	٢٣٥٧٢م	٢١٢١٣م	٩٨٤٧٩م	٩٠٥٢م

فعمال السخرة كانوا هم الرواد الذين جعلوا من منطقة القناة الصحراوية جهات عامرة آمنة ظلها وارف تهوى إليها أفئدة الناس . وهكذا كان فضل عمال السخرة على الشركة عظيما .

واستمر هذا الفضل قائما حتى بعد إلغاء السخرة فى حفر القناة فى سنة ١٨٦٤ لأن الشركة وجهت وقتئذ نداء إلى كبار المقاولين وكبريات

---

(1) **Voisin Bey** : ouvr., cit., t. VI. p. 305.

وأنظر أيضا إحصائيتين أخريين عن حالة العمران فى مارس ١٨٦٢ وابريل ١٨٦٣ على نسق هذه الإحصائية . وقد وردتا فى تقرير دىلسبس الذى ألقاه فى اجتماع الجمعية العمومية لمسهمى الشركة بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٦٣ ونشرته جريدة L'Isthme de Suez فى العدد ١٧٠ الصادر فى ١٩ يوليو ١٨٦٣ ص‌ص ٢٥٨ — ٢٩٣ مجموعة السنة الثامنة .

الشركات الهندسية فى أوربا تطلب إليهم التقدم بعطاءاتهم لتعميق أو توسيع أو حفر الأجزاء المتبقية من القناة البحرية . وو ضعت كتايبا صغيرا تضمن الأعمال المطلوبة والشروط التى تراها وأودعت نسخا من هذا الكتاب مكاتب الشركة فى باريس وسائر المدن الأوربية ومصر (١) . واستجاب عدد من كبار المقاولين لنداء الشركة وحضروا إلى مصر لمعاينة منطقة القناة وتقدموا بعطاءاتهم إلى الشركة فقبلت ماراقها منها (٢) . وكان من حسن حظ الشركة أنها وفقت إلى عقد إتفاقات معهم فى ذلك الوقت ، وأن أولئك المقاولين استطاعوا إرسال الكراكات وغيرها من الآت الحفر الضخمة القوية إلى منطقة القناة فى فترة وجيزة . إذ كان لهذين العاملين مجتمعين أكبر الأثر فى التخفيف من الأثر السيء الذى ساد دوائر باريس عقب إلغاء السخرة فى حفر القناة (٣) .

وهنا يبرز فضل آخر لعمال السخرة على الشركة . فلولا العمل الجبار الذى سبق أن أكرهوا على القيام به لما وصلت الشركة إلى تلك النتيجة من قبول كبار المقاولين والشركات التعاقد معها لإنجاز الأجزاء الباقية من القناة بالأسعار التى حددت ، لأن المقاولين أدخلوا فى حسابهم التطور العمرانى الذى طرأ على منطقة القناة فى خلال السنوات الخمس منذ أن شرعت الشركة فى تنفيذ المشروع فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ ، فملابسات العمل فى منطقة القناة فى سنة ١٨٦٤ كانت تختلف اختلافا بينا عما كانت عليه فى سنة ١٨٥٩ حين كان البرزخ منطقة صحراوية خالية من مقومات الحياة ، ولم تكن الشركة قد أقامت بعد المساكن يأوى إليها العمال وغيرهم ، ولم تكن وسائل المواصلات بين البرزخ وبين الدلتا الغنية بخيراتها قد أنشئت ، ولم يكن فى البرزخ مورد مائى ثابت يطمئن إليه العمال والمهندسون ومن إليهم وهم فى

---

(١) جريدة الشركة العدد ١٧٨ الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٨٦٣ ص ص ٤٥٥ — ٤٥٦ مجموعة السنة الثامنة

(2) **Voisin Bey** : ouvr. cit., t. VII. pp. 58-60.

(3) **Ritt** : ouvr. cit., p. 292.

الصحراء يؤدون أعمالهم المضنية ، فكان شبح الموت عطشا ياوح لهم بين كل حين وآن . أما فى عام ١٨٦٤ فقد غدا البرزخ منطقة منظمة إلى حد بعيد امتدت إليه يد العمران . ولما غادر عمال السخرة ساحات الحفر فى ٣١ مايو ١٨٦٤ تركوا وراءهم شبكة مواصلات مائية على درجة كبيرة من الأهمية ، وبفضل هذه الشبكة المائية أصبح التموين المائى والغذائى والآلى هينا ميسورا . فلما قدم المقاولون ومديرو الشركات الهندسية الأوربية إلى منطقة القناة سنة ١٨٦٤ وجدوا المنشآت والمواصلات واطمأنوا إلى حياة مستقرة آمنة يحياها رجالهم الفنيون وعمالهم .

ومن أفضال نظام السخرة على الشركة أيضا أن إلغاءه اقترن بدفع تعويض مالى جسيم لها كفل لها موردا ماليا ضخما بالإضافة إلى مبالغ التعويضات الأخرى التى قررها لها نفس الحكم الإمبراطورى . وكانت هذه المبالغ مجتمعة تقرب من نصف رأس مال الشركة فاستطاعت أن تمضى قدما فى إكمال المشروع بالوسائل الميكانيكية .

× × ×

غير أن الشركة لم تقنع بالمزايا التى أتاحها لها نظام السخرة سواء وقت قيام هذا النظام أو عقب إلغائه ، فلم يمض عام ونصف عام على صدور حكم الإمبراطور بإلغاء السخرة حتى عاودها الطمع فى تسخير الشعب المصرى وتطلعت إلى هذا النظام الوبيل . وقد لمس نوبار باشا هذه الرغبة أثناء وجوده فى باريس فى يناير ١٨٦٦ وعلم أنه مما يقلق الشركة فى تلك الآونة هو صعوبة حفر القناة فى بعض الجهات الجنوبية من منطقة القناة ، وأن منشأ الصعوبة هو الحاجة الماسة إلى عمال حفر بكثرة عددية كبيرة . واعتقدت الشركة أن مصر ستعجز عن أن تدفع فى المواعيد المحددة أقساط التعويضات التى فرضها عليها الحكم الإمبراطورى ، فاقترحت أن تمدها مصر بعمال سخرة فى مقابل ٤٠٠ ألف فرنك تدفعها الشركة أو تخفيض الأقساط ومد آجالها بحيث تدفع التعويضات كاملة فى فترة أطول من الفترة المقررة

فى الحكم الإمبراطورى (١) .

وابتدعت صفاقة الشركة حيلة لتزين للحكومة المصرية تقديم عمال السخرة ، وهى حيلة تنطوى على خبث أصيل وعلى تحريض للحكومة على تضليل الرأى العام الأجنبى خاصة . كان هناك عشرون ألف عامل يعملون وقتئذ فى مد الخط الحديدى فى منطقة الإسماعيلية إلى السويس . وهذا الخط يسير موازيا للقناة البحرية وعلى مسافة قريبة منها . فعرضت الشركة على الحكومة أن تكتفى باستخدام عشرة الآف عامل فى مد الخط الحديدى وأن توجه العشرة الآف عامل الآخرين لحفر القناة البحرية . وقالت الشركة إنه لن ينتبه أحد إلى تسخير الفلاحين فى حفر قناة السويس لقرب المسافة بينها وبين الخط الحديدى . وقد رفضت مصر هذا الطلب على أساس أن السخرة قد تقرر إلغاؤها فى حفر القناة فى مقابل تعويض ضخم دفعت الحكومة الأقساط المستحقة منه (٢) . وهكذا كانت مطامع الشركة لاتقف عند حد : فهى تقبل إلغاء السخرة ويتقرر لها تعويض بلغ ٤٢,٥ مليون فرنك ثم تحاول أن تعيد نظام السخرة تدريجيا لقاء ٤٠٠ ألف فرنك ثم تعتبر ذلك سابقة تنشىء عليها حقوقا جديدة لنفسها .

فلما رفضت الحكومة هذا الطلب طالبتها الشركة بتطهير ترعة الماء العذب من الإسماعيلية إلى مدينة السويس وعلقت أهمية كبيرة على هذا العمل لأنها رغبت فى استخدامها طريقا مائيا للمواصلات تنقل فيه الكراكات وسائر أدوات الحفر الضخمة اللازمة لانشاء القناة البحرية فى الجزء الجنوبى من

---

(١) محفوظات قصر عابدين : الوثائق الفرنسية علبة رقم ١٩ (٢ . خطاب أرسله نوبار من باريس فى ١٠ يونيو ١٨٦٦ إلى أرام بك لرفعه إلى اسماعيل .

(٢) محفوظات قصر عابدين : الوثائق الفرنسية . علبة رقم ١٩ (٢ خطاب أرسله نوبار من باريس فى ٨ يونيو ١٨٦٦ إلى أرام بك لرفعه إلى اسماعيل . انظر الملحق رقم ٧

(٣) أنظر بخصوص موضوع ترعة الماء العذب من الأسماعيلية إلى السويس
Ritt : ouvr. cit., pp. 368-371.

البرزخ . وقد وافقت الحكومة على هذا الطلب وعهدت إلى على مبارك (بك) بالإشراف على هذه العملية وكان يطلب مزيدا من العمال لإنجاز تطهيرها(١). وأسدت الحكومة بذلك خدمة جليلة للشركة إذ استطاعت أن تركز جهودها فى حفر قناة السويس .

× × ×

إن السخرة فى حفر قناة السويس كانت تعبئة مدنية فرضت على الشعب المصرى لخدمة الشركة . وسيظل الأسلوب الذى اتبع فى حفر القناة وصمة فى تاريخ الشركة ، ومثلا صارخا لظلم حكام مصر من أسرة محمد على ، ورمزا يشير إلى استغلال أوربا المشين للشعوب الشرقية . وإن القانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ الذى أصدره الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم شركة القناة لهو تعويض جزئى عن العرق والدموع والدماء التى بذلها الشعب المصرى فى حفر القناة .

---

(١) أنظر بخصوص تطهير ترعة الماء العذب من الإسماعيلية إلى السويس محفوظات قصر عابدين : دفتر رقم ٤ للبرقيات الواردة إلى القصر برقية رقم ٥٦ فى ٥ جمادى الأولى ١٢٨٣ (١٥ سبتمبر ١٨٦٦) من على مبارك بالسويس إلى رياض باشا .

وبرقية رقم ٦١ فى ٥ جمادى الأولى ١٢٨٣ (١٥ سبتمبر ١٨٦٦) من محافظ السويس إلى رياض باشا .

وبرقية رقم ١٨١ فى ١٤ جمادى الأولى ١٢٨٣ (٢٤ سبتمبر ١٨٦٦) من محافظ السويس إلى المعية السنية .

وبرقية رقم ٢٠٥ فى ١٦ جمادى الأولى ١٢٨٣ (٢٦ سبتمبر ١٨٦٦) من على مبارك إلى رياض باشا .

وبرقية رقم ٣١٠ فى ٢٣ جمادى الأولى ١٢٨٣ (٣ اكتوبر ١٨٦٦) من على مبارك إلى رياض باشا .

وبرقية رقم ٥٣٣ فى ١٦ جمادى الآخرة ١٢٨٣ (٢٦ اكتوبر ١٨٦٦) من محافظ السويس إلى رياض باشا .

ملاحق البحث

ملحق رقم ١

لائحـــة

استخدام العمال المصريين فى أشغال قناة السويس

نحن محمد سعيد باشا والى مصر .

رغبة منا فى ضمان تنفيذ الأعمال الخاصة بقناة السويس البحرية .

ولضمان حسن معاملة العمال المصريين الذين سيستخدمون هناك .

وفى نفس الوقت لمراعاة مصالح المزارعين والملاك والمقاولين الوطنيين .

نقرر ، بموافقة المسيو فرديناند دىلسبس بصفته رئيسا مؤسسا للشركة العالمية لتلك القناة ، ما يأتى :

المادة الأولى : تقدم الحكومة المصرية العمال الذين سيعملون فى أعمال الشركة تبعا لطلبات كبير مهندسى الشركة وطبقا لاحتياجات العمل .

المادة الثانية : تقرر أجور العمال بمثل متوسط الأجور التى تدفع فى أعمال الغير ، أى بمبلغ يتراوح بين قرشين ونصف قرش وبين ثلاثة قروش

---

(1) Actes Constitutifs de la Compagnie Universelle du Canal de Suez : Paris. Imprimrie de l'Empereur. 1866. pp. 59-62. Voir aussi :
Charles Roux J. : ouvr. cit., t. I p. 469 et suiv.
De Testa : ouvr. cit., t. II. p. 104 et suiv.
Philippe Gélat Bey : ouvr. cit., t. I. p. 459 et suiv.
Voisin Bey : ouvr. cit., t. I. p. 100 et suiv.
Parliamentary Papers. Egypt. No. 6 (1876). Concessions, Conventions, Statutes and Resolutions of the Suez Canal Company with the Sultan's Firman. Presented to both Houses of Parliament by Command of Her Majesty. London. 1876. No. 5. pp. 16-17.
والمصدر الأخير محفوظ فى مكتبة بلدية الأسكندرية فى القسم الأوربى تحت رقم 194 B.

فى اليوم ، بخلاف الجراية التى تصرف له من قبل الشركة ويقدر ثمنها بقرش صاغ واحد .

العمال الذين يقل عمر كل منهم عن إثنى عشر عاما تكون أجورهم قرشا صاغا واحدا للفرد ، ولكن تصرف لكل منهم جراية كاملة .

تصرف الجراية يوميا أو كل يومين أو ثلاثة آيام مقدما ، وإذا طلب عمال أن تصرف لهم قيمة الجراية نقدا فإن الشركة تدفع لهم قيمة الجراية إذا تأكدت أنه فى استطاعتهم تدبير غذائهم بأنفسهم .

تصرف أجور العمال نقدا فى نهاية كل أسبوع . ومع ذلك فالشركة لاتصرف خلال الشهر الأول إلا نصف الأجر حتى يتجمع لكل عامل مبلغ احتياطى قدره أجر خمسة عشر يوما .

ويبقى هذا الإحتياطى بخزانة الشركة كضمان لعدم ترك العمل . وبعد ذلك تصرف الأجور كاملة للعمال .

وعلى الشركة أن تقدم للعمال المياه الصالحة للشرب بكميات وافرة لكافة استعمالاتهم .

المادة الثالثة : لاتزيد المقطوعية المفروضة على العامل فى الحفر عن المقطوعية المحددة له بمصلحة الطرق والكبارى بمصر والتى سبق تطبيقها فى تنفيذ مشروعات الرى الكبرى فى السنوات الأخيرة .

المادة الرابعة : أعمال البوليس فى ساحات الحفر يقوم بها ضباط الحكومة ورجالها تحت أوامر وطبقا لتعليمات رؤساء المهندسين بالشركة وطبقا للائحة خاصة تعرض علينا لإعتمادها .

المادة الخامسة : كل عامل لا يقوم بإنجاز نصيبه يخصم جزء من أجره على ألا يتجاوز الخصم ثلث أجره اليومى . ويكون الخصم مناسبا للجزء الناقص من عمله .

كل عامل يهرب يفقد لهذا السبب وحده أجر الخمسة عشر يوما المحفوظ له لدى الشركة وتدفع المبالغ المتجمدة لدى الشركة بهذا السبب

لحساب المستشفى الذى سنتكلم عنه فى المادة التالية . كل عامل يخل بالنظام فى ساحة الحفر يخصم منه كذلك أجر الخمسة عشر يوما ، كما يجوز فضلا عن ذلك الحكم عليه بغرامة تضاف لحساب المستشفى أيضا .

المادة السادسة : تلتزم الشركة بإسكان العمال سواء تحت خيام أو فى عنابر أو فى بيوت ملائمة . ويجب عليها إنشاء مستشفى ومراكز إسعاف للعمال وتزود بالموظفين والأدوات اللازمة لعلاج المرضى على حساب الشركة .

المادة السابعة : مصاريف انتقال العمال وعائلاتهم من مكان سفرهم حتى وصولهم إلى ساحات العمل تكون على حساب الشركة .

ويدفع لكل عامل مريض سواء كان بالمستشفى أو فى مراكز الإسعاف أجر قدره قرش ونصف قرش طوال المدة التى يكون فيها غير قادر على العمل وذلك فضلا عن العناية الطبية التى تتطلبها حالته .

المادة الثامنة : الصناع الفنيون مثل البناءين والنجارين ونحاتى الأحجار والحدادين ومن إليهم تحدد أجورهم على أساس الأجر الذى تدفعه لهم الحكومة عادة عن مثل هذه الأعمال فى أشغالها وذلك خلاف الجراية أو ثمنها .

المادة التاسعة : إذا استخدم العسكريون الذين فى الخدمة فى تنفيذ الأعمال تدفع لهم الشركة مكافأة ممتازة : مرتبا عاديا مضافا إليه بدل إقامة مساو لأجر العمال المدنيين .

المادة العاشرة : على الحكومة أن تقدم للشركة بسعر التكلفة جميع المقاطف اللازمة لنقل الأتربة والأدوات ، وكذا البارود اللازم لعمل الألغام لاستغلال المحاجر . ويشترط أن يقدم الطلب قبل الموعد بثلاثة أشهر على الأقل .

المادة الحادية عشرة : يقوم مهندسانا لينان بك وموجل بك اللذان نضعهما تحت تصرف الشركة لإدارة وتنفيذ الأعمال بالمراقبة العليا على العمال ،

ويتفقان مع مدير الشركة المنتدب لتذليل الصعوبات التى قد تظهر أثناء تنفيذ ماجاء بهذا المرسوم .

حرر بالإسكندرية بتاريخ { ١٧ من ذى العقدة ١٢٧٢
٢٠ من يوليو ١٨٥٦ }

ختم الوالى

محمد سعيد

السكرتير المكلف بالمحافظة على الأوامر الصادرة من

سمو الوالى

إمضاء : كونيج

Koenig :

ملحق رقم ٢

اعلان وزعته الشركه على المصريين للعمل فى حفر القناة (١)

شركة قناة السويس

مقاولة الأشغال العامة

المادة الأولى : شيدت قرى خصيصا للمصريين على طول ساحات الحفر.

المادة الثانية : أعدت هذه القرى بحيث يستطيع العمال المصريون اصطحاب عائلاتهم معهم .

المادة الثالثة : شيد فى كل قرية مسجد

المادة الرابعة : حفرت قناة تجلب ماء النيل إلى جميع القرى طوال مدة الحفر .

المادة الخامسة : يشتغل العمال المصريون على أساس المقطوعية . وبهذه الطريقة يستطيع العامل العادى أن يكتسب فى اليوم الواحد أجرا يتراوح بين ستة قروش وثمانية قروش ويستطيع أن يكتسب أكثر من هذا إذا كان مجدا وذكيا .

المادة السادسة : تدفع الأجور نقدا طالما تنتهى المقطوعية وعندها تكون للعامل الحرية فى أن يترك العمل أو يأخذ مقطوعية أخرى جديدة .

المادة السابعة : تترك الحرية التامة للعمال المصريين فى شئون الطعام فيستطيعون دائما شراء المأكولات إما من محلات المقاول بالأثمان المقررة فى التسعيرة وإما من الباعة الذين يفدون إلى ساحات الحفر . وبالإختصار فأن لهم مطلق الحرية فى تدبير طعامهم بالطريقة التى تروقهم .

إن أقرب المدن إلى ساحات الحفر هى بلبيس والزقازيق والمنصورة ودمياط.

المادة الثامنة : ممنوع منعا باتا على أى أوربى أيا كان منصبه أو درجته أن يسىء معاملة العمال المصريين .

القاهرة فى فبراير ١٨٦١

---

(١) أنظر ص ص ٨٢ — ٨٣ .

ملحق رقم ٣

احدى عرائض عمال السخرة يثنون فيها على شركه القناة !!

نحن الموقعين على هذا أدناه أعيان ومشايخ العمال الذين يعملون فى الأشغال القائمة فى برزخ السويس نقر ونشهد على هذه العريضة التى ذيلناها بأختامنا أن :

أولا : نحن والعمال الذين تحت أوامرنا نعمل فى أماكن حفر قناة السويس برغبتنا التامة ولكى نكسب ما يقيم أودنا .

ثانيا : يجلب إلينا الماء بوفرة ويزيد على الحاجة

ثالثا : توزع الأغذية فى الحـــال على العمال كلما طلبوا ذلك ويخصم ثمن هذه المأكولات من قيمة الأجور التى سبق تحديدها فى الإتفاق

رابعا : يقوم العمل على أساس المقطوعية ووافق على ذلك العمال وتدفع إليهم الأجور بانتظام .

خامسا : يؤدى العمل بالإختيار ويوزع على العمال بحضورنا. ولم تثر مطلقا مناقشات ولم تحدث مشاكل من جانب موظفى الشركة أو من جانب العمال .

سادسا : لا يوجد إلى هذا اليوم أى عامل مريض ولم يتوفى أحد منهم ونحن والعمال الذين تحت إشرافنا نثنى على هذا المركز الذى وضعنا فيه .

ونحن لهذا قد ختمنا على هذه الشهادة

أول نوفبر ١٨٦١

يلى ذلك أسماء ٣٥ شيخا من رؤساء العمال من مديريات الدقهلية والقليوبية وروضة البحرين (الغربية والمنوفية وكفر الشيخ حاليا) .

ملحق رقم ٤

مد موعد إلغاء السخرة فى حفر القناة شهرين للمرة الثانية

أمر سرى من اسماعيل إلى القبوكتخدا (أرسل بطريق البرق) . (١)

جاءنى جناب قنصل فرنسا كما انبأت عطوفتكم برقيا وبالشفرة فأبلغنى أنه مأمور بأمر خاص صادر إليه من لدن حضرة الإمبراطور بأن يبلغنى رغبة جلالته فى مد أجل العمال العاملين فى القنال شهرين آخرين فقلت له إنى مضطر إلى رفع ذلك إلى الباب العالى فأنبأنى أن حضرة الإمبراطور المشار إليه قد أبلغ الآستانة هذا الشأن وأن تقديمهم بلاغا إلينا مباشرة إنما كان أدبا وظرفا فوعدته بالترخيص فى مد ميعاد العمال المطلوبة مدة شهرين آخرين إذا رأيت أن الامر الصادر بهذا المعنى كان أمر حضرة الإمبراطور نفسه وأنه تفضل بتحرير مثله إلى الباب العالى وقد سبق أن مدت المدة التى التمس مدها من الآستانة فلعل الباب العالى يوافق على طلبه هذا أيضا إلا أنه قد سبق ذلك أن مد أجل الأعمال شهرين ومد هذه المرة أيضا شهرين أى مد أربعة أشهر من حيث المجموع فقد كتبنا إلى نوبار باشا كتابا خاصا مؤكدا أن اعلم وفهم الجهة المختصة أنهم إذا التمسوا مد الأجل مرة أخرى بعد هذه المرة فلن يجد التماسهم موافقة من هنا بل أنه يسرح العمال عند انقضاء الميعاد الأخير ويعادون إلى بلادهم .

(١) محفوظات قصر عابدين — دفتر ٢ صادر عابدين ص ١١٠ امر كريم إلى القبوكتخدا (وكيل الوالى فى القسطنطينية) صدر فى ١٤ شوال ١٢٨٠ (٢٣ مارس ١٨٦٤) .

ملحق رقم ٥

الحكومة المصرية تكف عن تقديم عمال السخرة لحفر القناة (١)

من اسماعيل إلى نظارة الخارجية الجليلة بالقسطنطينية

سبق أن اخبرنا المسيو دىلسبس برقيا أن الشركة وافقت على عدم توزيع أعمال قناة السويس وعلى عدم تكليفها الناس بالعمل طبق قواعد السخرة كما أبلغناكم ذلك برقيا إجابة على برقية سعادتكم التى ذكرتم فيها أن مهلة الشهرين الأخيرة التى حددت من أجل قناة السويس ستنقضى فى أول شهر يونيو الأفرنجى وانكم مرتقبون رأى مخلصكم فى هذا الشأن . إلا أن هذه المسألة لما كانت مسألة عظيمة اكتسبت صبغة رسمية لدى الدولة لم نثق بمجرد بلاغ المشار إليه فأبرقنا إلى نوبار باشا نستوضحه حقيقة الأمر كما قامت مأمورية خارجية مصر بتحقيق وسمى لدى قنصل فرنسا العام فى مصر فتبين لنا من إفادة القنصل المومأ إليه وبلاغ الباشا أن لجنة التحكيم وافقت على إلغاء السخرة وأن حضرة امبراطور فرنسا يوافق على هذا الرأى فسرحنا العمال فى ذلك الحين وأعدناهم إلى بلادهم ولم نعد بعد ذلك نعطى الشركة عمالا .

(١) محفوظات قصر عابدين — دفتر ٢١ صادر عابدين — ص ١٤٥ مذكرة من الجناب العالى بتاريخ ٣ محرم ١٢٨١ (٨ يونيو ١٨٦٤).

ملحق رقم ٦

صورة من المحضر الرسمى لجلسة مجلس العموم البريطاني بتاريخ ١٦ مايو ١٨٦٢ (١)

بيان الوزارة الإنجليزية عن البؤس الذى فشا بين المصريين بسبب تسخيرهم فى حفر قناة السويس

Mr. Layard : With reference to the way in which the persons to whom the questions referred were employed, the matter stood thus : By the concession granted by theVice-Roy of Egypt, he spoke of the original agreement of January 1856, with the Company at the head of which was M. Lesseps— it was stipulated that, in order to prevent the great influx of foreigners into Egypt, the persons employed to labour on the canal should never consist of more than one fifth of Europeans, the other four fifths being natives. The Company considered that in consequence of this stipulation they had a right to call on the Vice-Roy to furnish them with labour, if they themselves were unable to procure it in Europe. Accordingly, in July, 1856, the Vice-Roy issued a decree by which he agreed to furnish labourers to the Company. In that decree it was stipulated- that the labourers so furnished should be duly cared for by those who employed them that they should be housed,provisioned,and their welfare properly attended to. For some time these labourers were regularly paid by the Company. It appeared, indeed, from what he bad heard. that the payments were even made in advance; still, those who were set to work worked very unwillingly and large numbers, having got their money, ran away. To avoid such a state of things, the Company came to a resolution not to pay the labourers in advance, but at the end of their labour. That went on for some time, when it was asserted that payment on the part of the contractors had ceased altogether. That he must say in justice to M. Lesseps, was deried by him; however, the Government had received reports that last year the contractors no longer paid the men themselves, that the payments which ought to have been made directly to them were partly made to the sheikhs of the villages, and that a large amount of that labour being furnished by the Vice-Roy himself, as stated by the noble Lord who had given them so much information in so modest a manner, it was passed to the account of the Pasha, who, as they knew, was very largely interested in the works as a shareholder. That statement was confidently

(1) **Hansard's Parliamentary Debates** : Third Series. Vol. CLXVI. Second volume of the Session. London. 1862. pp. 1827-1829.

made on the one hand, and as confidently denied on the other. But it was admitted, that the contractors had entered into agreements with Greek firms at Cairo and other places, who contracted to furnish labourers, receiving a certain allowance per head. **This was a matter of things which led to great misery. There was no doubt that the labourers worked against their will, that they were torn away from their villages and families, and underwent great hardships and suffering.**

The noble Lord had stated that many of those men had to walk 100 miles to receive their miserable pay. Now, when it was considered that they did not work more than a month of twenty eight days; that when discharged they received no more than 6 d. a day, if they were received that small sum, and that they had to walk100 miles to get 14 s. for their month's work, **it might easily be conceived that that state of things produced grdet misery and discontent.**

But he regretted to say that many of those men came from even a greater distance than 100 miles. So high up as the First Cataract they were found by Mr. Colquhoum in boat - loads on their passage down to the Suez Canal.

As those forced levies were made at all times of the year, in seed time and in the harvest time, great hardship and suffering were inflicted, not only on the men themselves, but on their wives and children.

It was stated by the noble Lord that the Company admitted they were employing 26.000 of those labourers; they denied they were employing 40.000 but, in fact, if they were employing 26.000, 52.000 peasants would be constantly abstracted from the population, because the men were replaced monthly, and time must be allouwed for the change of gangs. **All he could say was, that such a state of things must bring about very great suffering and misery in th ecountry.**

ملحق رقم ٧

الشركة تتطلع إلى نظام السخرة بعد إلغائه
وتحرض الحكومة المصرية على تضليل الرأى العام

Paris, le 8 *Juin* 1866.

Monsieur le Bey,

Je vous avait écrit par le dernier courrier au sujet de la Compagnie du Canal. Je vous avais expliqué leur plan. Maintenant j'ai appris que M. de Sala avait été envoyé à Constantinople par M. de Lesseps pour complimenter Son Altesse, mais le but vrai est d'obtenir de Son Altesse du recevoir le Canal d'eau douce tel qu'il est et de le faire nettoyer et mettre en état lui-même. Mettre en état le Canal d'eau douce est une question d'hommes plutôt que d'argent. Ils consentiraient à défalquer 400 à 500 mille francs pourvu que nous fassions ce travail. Cela aurait pour eux l'avantage d'avoir leurs communications bien ouvertes entre Port-Said et Suez, faire du Flan flan en Europe, et faire travailler tous les ouvriers dont ils peuvent disposer au Canal Maritime. "Ce n'est rien pour S.A. me disait un des Administrateurs, personne n'en saura rien; pendant que les fellahs font le chemin de fer et sous prétexte du chemin de fer, ils curent le canal, le mettent en état et puis qui jamais s'apercevra qu'ils travaillent au canal maritime, sous prétexte du chemin de fer, on rassemble 20 mille hommes, 10 mille font la chaussée, 10 mille creusent le canal maritime, c'est si près l'un de l'autre, que personne ne s'en appercevra. Pour moi je lui ai exprimé mon opinion, qu'après avoir racheté la corvée, nous ne pouvions pas la rétablir pour épargner 4ou5 millions de francs tout au plus, nous ne pouvions pas pour cette somme perdre tout notre prestige."

Maintenant que Son Altesse sache que tout leur plan tendra à avoir des hommes; Borel et Lavalley qui ont déjà fait une bonne fortune, car ils avaient 10% sur les prix du matériel, cherchent quelqu'un pour se décharger du poids de faire travailler les machines. C'est la personne même à laquelle ils ont fait des propositions qui me l'a dit.

Nubar.

---

(١) محفوظات قصر عابدين : الوثائق الفرنسية علبة رقم ٩١ ملف رقم ٤
خطاب بتاريخ ٨ يونيو ١٨٦٦ من نوبار باشا إلى ارام بك لرفعه إلى اسماعيل

ملحق رقم ٨

نفس موضوع الوثيقة السابقة

Paris le 10 *Juin* 1866

Monsieur le Bey,

Je vous avais écrit au sujet de la Compagnie de Suez. Je vous avais dit son plan, c'est des hommes dont elle a besoin et c'est des hommes qu'elle veut nous accrocher. Comme ils croient que nous ne serons pas en mesure de leur payer nos échéances, ils veulent non pas proposer directement; mais faire comme si la chose venait d'elle même et tout naturellement que nous soyions amener à leur offrir des ouvriers moyennant une réduction dans nos annuités. Ce qui les embrasse le plus, c'est une certaine partie entre Timsah et Suez, c'est 5 ou 6 millions de mètres cubes à enlever, personne n'en saura rien, me disait un des administrateurs vous aurez par exemple une vingtaine de mille hommes pour faire la digue du chemin de fer, cette digue est tout près du canal maritime, qui s'apercevra de quelque chose si la moitié travaillent au canal maritime. S'ils n'obtiennent pas cela, leur but actuel est le curage par nous, ainsi que la mise en bon état du canal d'eau douce.

Nubar.

---

(١) محفوظات قصر عابدين : الوثائق الفرنسية علبة رقم ١٩ ملف رقم ٤ . خطاب بتاريخ ١٠ يونيو ١٨٦٦ من نوبار باشا إلى ارام بك لرفعه إلى اسماعيل .

المصادر

أولا: وثائق قصر عابدين

١ ـ دفاتر صادر المعية

رقم الدفتر	التاريخ	
	مـن	إلى
٤٩٢	١٨ ذى الحجة سنة ١٢٧٠	٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٧١
٤٩٣	١٨ ذى الحجة سنة ١٢٧٠	٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧١
٤٩٤	١٨ ذى الحجة سنة ١٢٧٠	٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٧١
٤٩٨	٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٧١	٦ محرم سنة ١٢٧٣
٥٥٤	غرة محرم سنة ١٢٧٢	٢٠ محرم سنة ١٢٧٤
٥٠٥	غرة محرم سنة ١٢٧٢	١٧ محرم سنة ١٢٧٤
٥٠٨	١١ محرم سنة ١٢٧٣	٢٠ محرم سنة ١٢٧٤
٥٠٩	٢٢ محرم سنة ١٢٧٤	١١ صفر سنة ١٢٧٦
٥١٠	٢٢ محرم سنة ١٢٧٤	١١ صفر سنة ١٢٧٦
٥١٢	٢٢ محرم سنة ١٢٧٤	٧ صفر سنة ١٢٧٦
٥١٨	١٥ صفر سنة ١٢٧٦	١٣ صفر سنة ١٢٧٨
٥١٩	١٥ صفر سنة ١٢٧٦	١٣ صفر سنة ١٢٧٨
٥٢٠	١٣ صفر سنة ١٢٧٦	٢ ربيع الأول سنة ١٢٧٨
٥٢٢	٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٧	٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٨
٥٢٥	٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٨	٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠
٥٢٦	٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٨	٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٨٠
٥٢٩	٧ شعبان سنة ١٢٧٩	غرة صفر سنة ١٢٨٤
٥٣٠	١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٩	٣ ذى الحجة سنة ١٢٧٩
٥٣٦	٢١ محرم سنة ١٢٨٠	٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠
٥٣٧	٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٠	١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢
٥٣٨	١٧ صفر سنة ١٢٨٠	١٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠
٥٣٩	١٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٠	٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢
٥٤٠	٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٠	٦ ربيع الآخر سنة ١٢٨١
٥٥٧	١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢	١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٨٤
٥٥٨	٢٠ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢	١١ جمادى الأولى سنة ١٢٨٤
٥٧٣	١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٤	١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٦
٥٨٢	٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٨٦	٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٦
٥٨٣	٤ جمادى الآخرة سنه ١٢٨٦	٢١ جمادى الآخرة سنه ١٢٨٨

تابع ا : دفاتر صادر المعية

رقم الدفتر	التاريخ		ملاحظات
	من	إلى	
١٦٣٧	٢٩ جمادى الآخرة ١٢٧٤	١٦ شعبان ١٢٧٤	صادر دواوين واقاليم ومجالس
١٦٣٨	١٥ شعبان ١٢٧٤	٢٩ محرم ١٢٧٥	صادر دواوين واقاليم
١٦٣٩	١٢ ذى القعدة ١٢٧٤	غرة صفر ١٢٧٥	« « ومجالس ومديريات
١٦٤٣	١٢ صفر ١٢٧٥	١٢ صفر ١٢٧٦	صادر دواوين ومجالس محافظات
١٦٤٥	١٣ صفر ١٢٧٦	١٣ ذى القعدة ١٢٧٦	صادر دواوين وأقاليم
١٦٤٦	١٤ ذى القعدة ١٢٧٦	٢١ صفر ١٢٧٧	» » »
١٦٤٧	١٦ محرم ١٢٧٧	٢٣ صفر ١٢٧٧	» » »
١٦٥٢	١٣ محارم ١٢٧٧	١١ صفر ١٢٧٧	» » »
١٦٥٤	آخر صفر ١٢٧٧	١١ رجب ١٢٧٧	قلم عرضحالات صادر دواوين ومحافظات
١٦٥٥	١١ رجب ١٢٧٧	٢ محرم ١٢٧٨	صادر دواوين
١٦٥٦	٢٨ ذى الحجه ١٢٧٧	٤ ربيع الأول ١٢٧٨	» »
١٦٥٧ج	آخر صفر ١٢٧٧	غرة رجب ١٢٧٧	« اقاليم
١٦٥٨ج	غرة رجب ١٢٧٧	٤ ربيع الأول ١٢٧٨	» »
١٦٥٩ج	٢٥ صفر ١٢٧٨	٤ ربيع الأول ١٢٧٨	» »
١٦٦٦	٤ ربيع الأول ١٢٧٧	٢٢ ربيع الآخر ١٢٧٧	« « ودواوين
١٦٧٢	٥ ربيع الأول ١٢٧٨	١٧ شوال ١٢٧٨	صادر الدواوين
١٦٧٣	٢ شوال ١٢٧٨	٨ صفر ١٢٧٩	» »
١٦٧٤	١٥ محرم ١٢٧٩	١٦ صفر ١٢٧٩	والمجالس والمحافظات
١٦٧٥	٧ صفر ١٢٧٩	١٣ ربيع الأول ١٢٧٩	صادر الدواوين
١٦٧٦	٥ ربيع الأول ١٢٧٨	٢٦ ذى القعدة ١٢٧٨	« الأقاليم
١٦٧٧	١٤ ذى القعدة ١٢٧٨	١٢ ربيع الأول ١٢٧٩	» »

تابع ا : دفاتر صادر المعية

رقم الدفتر	التاريخ من	التاريخ إلى
١٨٨٢	١٣ رمضان سنه ١٢٧١	٢٦ ذى الحجه سنة ١٢٧١
١٨٨٣	٣ محرم سنة ١٢٧٢	١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢
١٨٨٤	١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢	١٨ ذى القعدة سنة ١٢٧٢
١٨٨٦	٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٣	١٦ محرم سنة ١٢٧٤
١٨٨٩	٢١ محرم سنة ١٢٧٤	٢٢ محرم سنة ١٢٧٥
١٨٩٠	٦ ذى القعدة سنة ١٢٧٤	١٤ محرم سنة ١٢٧٥
١٨٩١	٤ صفر سنة ١٢٧٥	٧ صفر سنة ١٢٧٦
١٨٩٣	١٣ صفر سنة ١٢٧٦	١٤ صفر سنة ١٢٧٦
١٨٩٤	٢٤ صفر سنة ١٢٧٧	٢٧ محرم سنة ١٢٧٨
١٨٩٥	١٣ محرم سنة ١٢٧٨	١٥ صفر سنة ١٢٧٨
١٨٩٨	١٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٨	٢ شعبان سنة ١٢٧٨
١٨٩٩	٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٨	٢٩ صفر سنة ١٢٧٩
١٩٠١	غاية ربيع الأول سنة ١٢٧٩	٦ رجب سنة ١٢٧٩
١٩٠٤	٢ شعبان سنة ١٢٧٩	٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٠
١٩١٥	١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢	٩ ذى القعدة سنة ١٢٨٢
١٩١٦	٩ ذى القعدة سنة ١٢٨٢	٢٧ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣
١٩١٧	٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢	٢٨ محرم سنة ١٢٨٣
١٩١٩	٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٣	٤ صفر سنة ١٢٨٤
١٩٢٠	٢ صفر سنة ١٢٨٤	١٦ صفر سنة ١٢٨٤
١٩٢١	١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٢	٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣
١٩٢٢	٩ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣	٢٧ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣
١٩٢٣	٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣	٢٦ صفر سنة ١٢٨٤
١٩٢٤	٢٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٤	٩ صفر ١٢٨٥
١٩٢٥	٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٤	٤ صفر سنة ١٢٨٥
١٩٣٠	١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦	١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٧

ب :ـ دفاتر وارد المعية

رقم الدفتر	التاريخ :	
	من	إلى
٥٠١	٥ شعبان سنة ١٢٧١	٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٧١
٥٠٢	٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٧١	١٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٣
٥٠٧	٢٣ رجب سنة ١٢٧٣	٧ محرم سنة ١٢٧٤
٥١٤	٢١ محرم سنة ١٢٧٤	٢٥ محرم سنة ١٢٧٥
٥١٦	٣ صفر سنة ١٢٧٥	٢٣ محرم سنة ١٢٧٧
٥٢٣	غاية صفر سنة ١٢٧٧	٨ صفر سنة ١٢٧٨
٥٣٤	١٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٩	٢٥ محرم سنة ١٢٨٠
٥٤٣	٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٠	٢١ صفر سنة ١٢٨١

ج ـ دفاتر صادر عابدين

رقم الدفتر	من	إلى
١٩	من محرم سنة ١٢٧٣	ذى الحجة سنة ١٢٧٩
٢٠		
٢١	من محرم سنة ١٢٨٠	ذى الحجة سنة ١٢٨١
٢٥	من محرم سنة ١٢٨٨	ذى الحجة سنة ١٢٩٣
٤١		

ء ـ دفتر وارد محافظة دمياط

رقم الدفتر	من	إلى
سنة ١٢٧٥ هـ (سنة ١٨٥٩ م)	٥ صفر سنة ١٢٧٥	٢٩ محرم سنة ١٢٧٦

هـ ـ دفتر صادر محافظة السويس

رقم الدفتر	من	إلى
سنة ١٢٧٥ هـ (سنة ١٨٥٩ م)	٨ محرم سنة ١٢٨٠	١٥ محرم سنة ١٢٨١

و ـ محافظ المعية

رقم المحفظة	التاريخ			
	من		إلى	
٥	غرة ربيع الأول	١٢٧١	١٦ ربيع الأول	١٢٧١
٨	غرة محرم	١٢٧٢	٤ صفر	١٢٧٢
١٣	٩ صفر	١٢٧١	٢١ آخر ذى القعدة	١٢٧٢
١٣	٢٥ محرم	١٢٧٣	٢١ رجب	١٢٧٢
٢٤	غرة محرم	١٢٧٦	٢٠ جمادى الأول	١٢٧٦
٢٦	٢ محرم	١٢٧٧	غاية رجب	١٢٧٧
٢٨	غرة محرم	١٢٧٨	٤ ذى الحجة	١٢٧٩
٣٢	٦ محرم	١٢٨١	٣ ذى الحجة	١٢٨١
٣٣	غرة محرم	١٢٨٢	٢٦ صفر	١٢٨٢
٣٤	غرة ربيع الأول	١٢٨٢	غرة جمادى الأولى	١٢٨٢
٣٥	غرة جمادى الأولى	١٢٨٢	١١ جمادى الآخرة	١٢٨٢
٣٦	غرة رجب	١٢٨٢	٢٠ رمضان	١٢٨٢
٣٩	غرة ربيع الآخر	١٢٨٣	٣ جمادى الآخرة	١٢٨٣
٤٠	غرة رجب	١٢٨٣	غاية ذى الحجة	١٢٨٣
٤٢	غرة جمادى الآخرة	١٢٨٤	٢٩ رمضان	١٢٨٤
٤٣	٢ شوال	١٢٨٤	غاية ربيع الآخر	١٢٨٥
٤٤	٥ جمادى الأولى	١٢٨٥	غاية ذى الحجة	١٢٨٥
٤٥	٣ محرم	١٢٨٦	غاية ربيع الآخر	١٢٨٦
٤٦	غرة جمادى الأولى	١٢٨٦	غاية ذى الحجة	١٢٨٦
٤٧	غرة محرم	١٢٨٧	غاية ذى الحجة	١٢٨٧
٤٩	غرة محرم	١٢٨٩	غاية ذى الحجة	١٢٨٩

ز - برقيات واردة لقصر عابدين

رقم الدفتر	مجموع برقياته	من	إلى
١	٢٦٣٥	١٩ ربيع آخر ١٢٨٢	١١ رمضان ١٢٨٢
٢	١٢٩٥	١١ رمضان ١٢٨٢	٩ ربيع آخر ١٢٨٣
٣	١٥٤	٩ ربيع آخر ١٢٨٣	٢٨ ربيع آخر ١٢٨٣
٤	١٣٩١	٢٩ ربيع آخر ١٢٨٣	١٥ شوال ١٢٨٣
٥	١٢٤٤	١٥ شوال ١٢٨٣	٢٩ ربيع آخر ١٢٨٤
٦	١٧١٦	١٦ جماد أول ١٢٨٤	غرة ذى الحجة ١٢٨٤
٧	٦٠٩	٢ ذى الحجة ١٢٨٤	٢٢ جماد أول ١٢٨٥
٨	١٥٤٢	٢٨ جماد أول ١٢٨٥	٢٠ ذى القعدة ١٢٨٥
٩	١٨١١	٢٠ ذى القعدة ١٢٨٥	٤ جماد آخر ١٢٨٦
١٠	١٨٠١	٤ جماد آخر ١٢٨٦	٢٨ شوال ١٢٨٦

ح - برقيات صادرة من قصر عابدين

رقم الدفتر	مجموع برقياته	من	إلى
١	٩١٩	١٩ ربيع آخر ١٢٨٢	٢٥ شعبان ١٢٨٢
٢	١٣٠١	٢٥ شعبان ١٢٨٢	٢٨ ربيع آخر ١٢٨٣
٣	١٤٤٤	غرة جماد أول ١٢٨٣	٨ ذى القعدة ١٢٨٣
٤	٥٠٥	٨ ذى القعدة ١٢٨٣	١١ جماد أول ١٢٨٤
٥	١٢٥٢	١٢ جماد أول ١٢٨٤	١٢ ربيع آخر ١٢٨٥
٦	٣٢	٢٩ جماد أول ١٢٨٥	١٥ محرم ١٢٨٦
٧	٣٦٤	١٥ محرم ١٢٨٦	٣ جماد آخر ١٢٨٦
٨	١٥٨٦	٤ جماد آخر ١٢٨٦	٢٧ محرم ١٢٨٧

ط

صور مكاتبات القنصلية العـــامة للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر إلى وزارة الخارجيـــة الأمريكية بواشنجتن باللغة الانجليزية من سنـــة ١٨٥٤ الى سنة ١٨٧٩ .

ى

صور مكاتبات القنصلية العامة لفرنسا فى مصر ومن السفير الفرنسى فى القسطنطينية الى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩

ك

تقارير فرنسية أرسلها نوبار باشا من باريس فى سنوات ١٨٦٣، ١٨٦٤، ١٨٦٦ الى أرام بك لرفعها الى اسماعيل .

ثانيا . كتب المراجع

1. — Bibliothèque Nationale du Caire. Catalogue de la Section Europeenne. L'Egypte Moderne.

2. — **Deny J.** : Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire 1930.

3. — **Maunier** : Bibliographie économique, juridique et sociale de l'Egypte moderne 1798 - 1916.

ثالثا : المراجع غير العربية مرتبة أبجديا

(1) **About Edmond** : Le Fellah. Souvenirs d'Egypte. Paris 1869.

(2) **Alloury L.** . Comment s'est fait le Canal de Suez. Pages d'histoire contemporaine receuillies sur les documents de M. de Lesseps. Paris 1882.

(3) **André Kostolany** : Suez. Le Roman d'une entreprise. Paris. 1939.

(4) **Berchére N.** : Le Désert de Suez. Cinq mois dans l'Isthme. Paris 1863.

(5) **Bernard H. et Tissot E.** : Itinéraire pour l'Isthme de Suez. Paris 1869.

(6) **Bertrand Alphonse et Ferrier Emile** : Ferdinand de Lesseps. Sa vie. Son oeuvre. Paris 1887.

(7) **Bertrand Emile** : Nubar Pacha. 1825-1899. Notes et Impressions. Nancy 1904.

(8) **Blanchard Jerrold** : Egypt under Ismail Pasha, being some chapters of contemporary History. London. 1879.

(9) **Bore de Paul** : L'Isthme de Suez. Paris. 1870.

(10) **Bourdou** : Le Miracle de l'eau. Histoire de l'eau douce dans l'Isthme Suez.

(11) **Bréhier Louis** : L'Egypte de 1798 à 1900. Paris. 1901.

(12) **Casimir Le Comte** : Promenade dans l'Isthme de Suez. Paris. 1864.

(13) **Charles Lamb Kenney** : The Gates of the East. Ten Chapters on the Isthmus of Suez Canal. London 1857.

(14) **Charles-Roux F.** : Le coton n Egypte. Le Caire. 1908.

(15) **Charles-Roux F.** : Hisoire de la Nation Egyptienne. 6 vols. Paris. 1936. publié par Hanotaux Gabriel. t. VI. L'Egypte de 1801 à 1882. Mohamed Aly et sa Dynastie jusqu'à l'occupation anglaise.

(16) **Charles-Roux J.** : L'Isthme et le Canal de Suez. Historique. Etat actuel 2 vols. Paris. 1901,

(17) **Colvin Auckland Sir** : The Making of Modern Egypt. London. 1906.

(18) **Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez** : Actes Constitutifs de la Compagnie Universelle du Canal de Suez. Paris. Imprimerie de l'Empereur 1866.

(19) ———————— : Banquet du Canal de Suez II février 1864. Discours de S.A. le Prince Napoléon, de M. Dupin et M. de Lesseps. Paris. 1864.

(20) ———————— : Notice et Renseignements Généraux. Paris. 1926.

(21) ———————— : Rapport de la Commission Scientifique Internationale. Paris. 1856.

(22) ——————: Recueil chronologique et annoté des Actes Constitutifs de la Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez et des conventions conclues avec le Gouvernement Egyptien. Le Caire. Imprimerie Nationale : 1930.

(23) **Courbon Alfred** : Observations Topographiques et Médicales recueillies dans un voyage à l'Isthme de Suez, sur le littoral de la Mer Rouge et en Abyssinie. Paris. 1861.

(24) **Crabites Pierre** : Ismail. The Maligned Khedive. London. 1933.

(25) ——————: The Spoliation of Suez. Plymouth. 1940.

(26) **Crouchley A.. E.** : The Economic Development of Modern Egypt. London. 1938.

(27) **David C. E.** : Souvenirs d'un voyage dans l'Isthme de Suez et au Caire. Paris. 1865.

(28) **De Lesseps F.** : Association Polytechnique. Séance du 1er juin 1862. Conférence sur les Travaux du Canal de Suez et le sort des ouvriers en Egypte. Paris. 1862.

(29) ——————: Conférence à Nantes sur le Canal Maritime de Suez. (Cercle des Beaux Arts, le 8 décembre 1866). Paris. 1867.

(30) ——————: Inquiry into the Opinions of the Commercial Classes of Great Britain on the Suez Canal ., 1857.

(31) ——————: Lettres, Journal et Documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez. 5 vols. Paris. (1875-1881).

t. I (1854-1855-1856). Paris. 1875.
t. II (1857-1858). Paris1875.
t. III (1859-1860). Paris 1877
t. IV (1861-1862-1863). Paris. 1879.
t. V (1864-1865-1866-1867-1868-1869). Paris. 1881.

(32) ——————: Origines du Canal de Suez Paris. 1890.

(33) ——————: Percement de l'Isthme de Suez. Exposé et Documents Officiels. Paris 1855.

(34) ——————: Question sur le Canal de Suez. Paris. 1860.

(35) ——————: Souvenirs de 40 ans dédiés à mes enfants. 2 vols. Paris. 1887.

(36) **De Malortie Baron** : Egypt, Native Rulers and Foreign Interference. 1882.

(37) **Dervieu Edouard** : Ce que coûte à l'Egypte le Canal de Suez. Alexandrie 1871.

(38) **Desplaces Ernest** : Le Canal de Suez. Episode de l'histoire du 19ème siècle. Deuxième édition. Paris. 1859.

(39) **De Testa** : Receuil des traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères. 10 vols. Paris. 1901.

(40) **Dicey Edward** : Th Story of the Khediviate. London. 1902.

(41) **Douin George** : Histoire du Règne du Khedive Ismail. 5 vols. t. I Les Premières Années du Règne. 1863-1867. Rome. 1933.

(42) **Edwin de Léon** : The Khedive's Egypt. London. 1877.

(43) **Elgood** : Egypt. London.

(44) **Erckmann Chatrian** : Souvenirs d'un ancien chef de chantier à l'Isthme de Suez. 5ème édition. Paris.

(45) **Eugene Gellion Danglar** : Lettres sur l'Egypte Contemporaine. Paris. 1876.

(46) **Farman E. Elbert** : Egypt and its Betrayal. An account of the country during the periods of Ismail and Tewfick Pashas and how England acquired a new empire. New York 1908.

(47) **Fitzgerald Percy** : The Great Canal at Suez. Its Political, Engineering and Financial History. 2 vols. London. 1876.

(48) **Flachat** : Société des Ingénieurs Civils. Procès-verbal de la séance du 7 octobre 1864. Présidence de M. Petiet. Communication faite par M. Flachat. Paris. 1864.

(49) **Fol M. W.** : Notice sur l'état actuel des travaux de l'Isthme de Suez, lue à la classe dans la séance du 1er deçembre 1862. Bulletin No. 79 de la classe d'industrie et de commerce de la Société des Arts de Genèves; avril 1863.

(50) **Fontane Marius** : Le Canal Maritime de Suez. Illustré. Paris. 1869.
Première Partie : Histoire du Canal et des Travaux.
Deuxième Partie. :Itinéraire Pittoresque. Texte et dessins par Riou.

(51) **Gélat Philippe Bey** : Répertoire Général de la Législation et de l'Administration Egyptiennes (1840-1910) Alexandrie 906-1911. 6 vols., avec une table alphabétique analytique.

(52) **Guillemin A.** : L'Egypte Actuelle. Son Agriculture et le percement de l'Isthme de Suez. Paris. 1867.

(53) **Hallberg Charles** : The Suez Canal. Its History and Diplomatic Importance. New-York 1931.

(54) **Hammerton Harmsworth** : Universal History of the World .10 vols. t. VII.

(55) **Hanotaux Gabriel** : Histoire de la Nation Française. t. VIII. Histoire militaire et navale 2ème volume. Du Directoire à la Guerre de 1914. par le Maréchal Franchet d'Esperey. Paris. 1937.

(56) **Herman Legrand Dr.** : Contribution à l'étude du problème de la défense de l'Egypte Contre le Choléra. Alexandrie. 1903.

(57) **Hoskins Halford Lancaster** : British Routes to India.New york.1928

(58) **Hussein Husni** :Le Canal de Suez et la Politique Egyptienne. Montepellier. 1923.

(59) **Ibrahim Nomeir Seif-ed-Dean**: England's Opposition to the Suez Canal Project. Liverpool. 1934.

(60) **Jean d'Elbée** : Un Conquistador de Génie. Ferdinand de Lesseps. Paris. 1938.

(61) **Lavalley Alexandre** : Extrait du compte rendu des Travaux de la Société des Ingénieurs Civils. Séances des 7 et 21 septembre 1866. Communication faite par M. Alexandre Lavalley (Entreprise Borel - Lavalley et Cie.) sur les travaux d'exécution du Canal Maritime de l'Isthme de Suez Paris. 1866.

(62) **Lebon Gustave** : La Civilisation des Arabes. Paris. 1882.

(63) **Linant de Bellefonds Bey** : Mémoires sur les principaux travaux d'utilité publique exécutés en Egypte depuis la plus haute antiquité jusqu'à nos jours. Paris. 1872-1873.

(64) **Lucovich Antoine** : La Société Agricole et Industrielle. P aris. 1865

(65) **Marteau Amedée** : Le Canal de Suez. Sa Construction. Son Exploitation. Paris. 1868.

(66) **Mazuel Jean** : L'oeuvre géographique de Linant de Bellefonds. Le Caire. 1937.

(67) **Mc Coan** : Egypt as it is. London 1877.

(68) **Mengin Felix** : Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohamed Aly ou Récit des Evènements Politiques et Militaires qui ont eu lieu depuis le départ des Français jusqu'en 1823. 2 vols. Paris. 1823.

(69) **Merruau Paul** : L'Egypte Contemporaine de Mehémet-Ali à Said Pacha. Nouvelle édition augmentée d'une étude sur l'Isthme de Suez par Ferdinand de Lesseps. Paris. Librairie Académique. 1864.

(70) **Micard Etienne** : Le Canal de Suez et le Génie Français. Paris. Editions Pierre Roger.

(71) **Miller Willam** : The Ottoman Empire and its Successors (1801-1827). Cambridge. 1927.

(72) **Morellet, Bretton et Cattin** : La vérité Actuelle sur le Canal de Suez Excursion dans l'Isthme. L'Etat des Travaux. Leur Achèvement. Paris. 1868.

(73) **Percy Badger** : A Visit to the Isthmus of Suez Canal Works. London 1862.

(74) **Poujoulat Baptistin** : La Verité sur la Syrie et l'Expédition Française. Paris. 1861.
(75) **Rassignal L. M.** : Le Canal e Suez. Etude Historique, Juridique et Politique. Paris. 1898.
(76) **Rifaat M.** : The Awakening of Modern Egypt. First Edition. Bristol. 1947.
(77) **Ritt Olivier** : Histoire de l'Isthme de Suez. Paris. 1869.
(78) **Roger - Widal - Teisseir Drs.** : Nouveau Traité de Médicine. Paris. 1927. t. III. Maladies Infectieuses.
(79) **Sabry M.** : La Genèse de l'Esprit National Egyptien. 1863-1882.
(80) ———— L'Empire Egyptien sous Ismail et L'Ingérence Anglo-Française. (1863-1879) Paris. 1933.
(81) **Sacré Amédée et Louis Outrebon** : L'Egypte et Ismail Pacha. Paris. 1865.
(82) **Sammarco Angelo** : Histoire de l'Egypte Moderne depuis Mohamed Ali jusqu'à l'Occupation Britannique (1801-1882). Le Caire 1937. t. III. Le Règne du Khédive Ismail de 1863 à 1875.
(83) ———— : La Verità sulla Questione del Canale di Suez. Roma. 1939.
(84) ———— : Précis de l'histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. t. IV Les Règnes dé Abbas, de Said et d'Ismail. (1848-1879) avec un aperçu de l'histoire du Canal de Suez. Rome. 1935.
(85) **Siegfried André** : Suez and Panama. Translated from the French by H. H. Hemming and Doris Hemming. Oxford. 1940.
(86) **Silvestre Henri** ; L'Isthme de Suez. (1854-1869) avec une carte et pièces justificatives. Paris. 1869.
(87) **Stoecklin A.** . Notice sur la construction du Bassin de Radoub de Suez. Bordeaux. 1867.
(88) **Van Bem Vulen** : L'Egypte et l'Europe par un ancien juge mixte. Juge Hollandais aux Tribunaux Mixtes de 1875-1880.2 vols Leiden.1884.
(89) **Voisin Bey** : Le Canal de Suez.
t. I Paris. 1902. Historique, Administratif et Actes Constitutifs de la Compagnie. —
Période des Etudes et de la Construction 1854-1869.
t. II Paris. 1902. Période de l'Exploitation de 1870 à 1882.
t. III Paris 1902· Période de l'Exploitation de 1883 à 1902.
t. IV. Paris. 1904. Projets, Dispositions adoptées en exécution.
t. V Paris. 1904. Exécution des Travaux.
t. VI. Paris. 1906. Description des Travaux de Premier Etablissement.
t. VII Paris. 1906 Exécution des Travaux.
(90) **Wiener L.** : L'Egypte et ses chemins de fer. Bruxelles. 1932.
(91) **Wilson Arnold** : The Suez Canal. Its Past, Present and Future. First Edition. London 1933.

رابعا : تقارير

(1) Rapports aux Assemblées Générales de la Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez

وهى التقارير التى ألقاها دى لسبس باسم مجلس إدارة شركة القناة فى اجتماعات الجمعية العمومية لحملة الأسهم بتاريخ ١٥ مايو ١٨٦٠ و ١٥ مايو ١٨٦١ وأول مايو ١٨٦٢ و ١٥ يوليو ١٨٦٣ وأول مارس ١٨٦٤ و ٦ أغسطس ١٨٦٤ و ١٥ أكتوبر ١٨٦٥ وأول أغسطس ١٨٦٦ .

(2) **Roche Aubert Dr.** : Rapports sur l'Etat Sanitaire et Médical des Travailleurs et des Etablissements du Canal Maritime de l'Isthme de Suez.

وهى التقارير التى كان يضعها روش كبير أطباء شركة القناة عن الحالة الصحية بين العمال فى ساحات الحفر طوال سنى شق قناة السويس . وأول تقرير وضعه كان بتاريخ ٢٥ يونيو ١٨٦٠ ثم وضع تقريرا ثانيا فى ١٠ نوفمبر ١٨٦٠ وتقريرا ثالثا فى ١٨ ابريل ١٨٦١ . ثم استنت الشركة تقليدا جديدا هو وضع تقرير سنوى واحد .

ولكن كبير أطباء الشركة كان يضع تقريرا خاصا أو تقريرين خاصين أو أكثر فى الحالات التى انتشرت فيها الأوبئة بين العمال فى ساحات الحفر ، وذلك بالإضافة إلى التقارير السنوية العادية . وقد صدرت تلك التقارير الخاصة فى حالات التيفود والتيفوس والكوليرا وغيرها

(٣) تقرير الطبيب بوجوا Bougouin بتاريخ ١٥ مارس ١٨٦٢ موجه إلى كبير أطباء شركة القناة . ويقع هذا التقرير فى أربعة فصول ضافية . وقد أشرف هذا الطبيب على الحالة الصحية بين ٥٥٫٠٤٣ رجلا من عمال السخرة حفروا ترعة الماء العذب من قرية القصاصين فى مديرية الشرقية إلى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح ، وذلك فى المدة من ١٩ أبريل ١٨٦١ إلى ٢٣ يناير ١٨٦٢

(4) Rapport adressé, le 3 février 1863, au Gouvernement Egyptien sur les Travaux du Canal de Suez par John Hawkshaw, Président de la Société des Ingénieurs Civils de Londres.

وقد تعرض واضع التقرير لحياة عمال السخرة فى ساحات الحفر والوسائل البدائية فى تزويدهم بماء الشرب إلى غير ذلك من المشكلات

(5) Report on the Financial Condition of Egypt. 23 March, 1876, by Cave.

وقد تناول هذا التقرير مشكلة نقص الأيدى العاملة الزراعية فى مصر فى مستهل حكم اسماعيل وكيف اتجهت النية وقتئذ إلى إيفاد مندوبين عن مصر إلى الصين يتولون تنظيم هجرة أفواج من العمال الصينيين الى مصر لاستخدامهم فى الأغراض الزراعية

خامسا : مذكرات

(1) Note Explicative sur le travail et le salaire des ouvriers égyptiens requis pour la Compagnie du Canal de Suez.

Renseignement transmis par Ismail Hamdi Bey, préposé par le Gouvernement Egyptien à la direction des ouvriers indigènes dans l'Isthme. Septembre 1863.

(2) Note Consultative pour Son Altesse Ismail Pacha Vice-Roi d'Egypte, délibérée par Mtres. Odilon Barrot, Dufaure et Jules Favre, en date du 30 novembre 1863.

(3) Note à consulter, délibérée et votée par le Conseil d'Administration de la Compagnie Universelle du'Canal de Suez, dans sa séance du14mars1864 pour Messieurs les Membres de la Commission nommée par. 'Empereur à l'effet de donner un avis à Sa Majesté sur les Questions Pendantes entre le Gouvernement Egyptien et la Compagnie du Cana de Suez.

(4) Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : Mémoire à consulter sur la Consultation de Mtres. Odilon Barrot. Dufaure et Jules Favre, en date du 30 novembre 1863.

سادسا : وثائق رسمية مطبوعة

1. Affaires Etrangères. Documents Diplomatiques. 1864. Imprimerie Nationale. Paris 1865.

وقد نشر فى هذا المجلد حكم الإمبراطور نابليون الثالث الصادر بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ بإلغاء السخرة فى حفر القناة . ص ص ١٢١ — ١٣٨

2. Affaires Etrangères. Documents Diplomatiques. 1867. Imprimerie Nationale. Paris. 1867.

وقد نشر فى هذا المجلد اتفاق ٢٢ فبراير ١٨٦٦ بين الحكومة المصرية وشركة القناة بشأن إلغاء السخرة فى حفر القناة ومسائل أخرى ص ص ٢٣٦ — ٢٤٥

3. Affaires Etrangères. Documents Diplomatiques. 1860. Imprimerie Nationale. Paris. 1861.

وقد نشرت فى هذا المجلد خطابات تبدأ بتاريخ ٥ يوليو ١٨٦٠ الى ١٨ يناير ١٨٦١ خاصة بالمذابح الدينية بين الدروز والموارنـة فى لبنان ص ص ١٩٣ — ٢١٩ (أنظر مقدمة الفصل الخامس فى هذا البحث)

والمراجع الثلاثة السابقة محفوظة فى مكتبة وزارة الخارجية المصرية بالقاهرة

4. Parliamentary Papers Presented to both Houses of Parliament by Command of Her Majesty. London 1876.
Egy0t. No. 6 (1876) pp. 1-47.

وفى هذا الجزء صورة رسمية لعقدى الإمتياز الأول والثانى وقانون الشركة الأساسى ولائحة العمال والإتفاق المالى الأول بتاريخ ٦ أغسطس ١٨٦٠ والإتفاقات المبرمة بين الحكومة المصرية وشركة القناة فى ١٨ و ٢٠ مارس ١٨٦٣ و ٣٠ يناير ١٨٦٦ و ٢٢ فبراير ١٨٦٦ واتفاق ٢٣ أبريل ١٨٦٩

وتوجد المجموعة الكاملة لهذه الأوراق الرسمية فى مكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم B. 194

5. State Papers. vol. 55. pp. 970-1004.
vol. 56. pp. 274-293.

وهى محفوظة فى القسم الأوربى بمكتبة بلدية الاسكندرية

سابعا : ملف عن قناة السويس

يوجد ملف خاص بقناة السويس ومحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٦٥٩ .Tr. Publ باسم

Dossier contenant une collection de brochures, d'articles, de revues et journaux sur l'Isthme et le Canal de Suez.

وهذا الملف يحوى الآتى :

(١) مقالين فى عددين من جريدة Le Siècle عن تاريخ القناة

(2) Histoire du Canal de Suez par Ferdinand de Lesseps.

(3) Extrait de l'Echo des lectures et conférences. Paris. 1870.

(4) Histoire de l'Isthme de Suez par Félix Deriége.

(5) Histoire de l'Isthme de Suez (*suite*) par Félix Derièçe.

(6) L'Isthme de Suez par Noirot.

(٧) كتالوج عن معروضات الشركة فى معرض باريس العالمى سنة ١٨٦٧

(8) Le Percement de l'Isthme de Suez. Enfantin. — M. de Lesseps. Résumé Historique. Paris. 1869.

(9) Lectures et Conférences de la Société des Gens de Lettres. (Séance du 10 avril 1870).

ثامنا : المحاضر الرسمية

لجلسات مجلس العموم البريطانى
والتى أثير فيها موضوع تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة

Hansard's Parliamentary Debates :

(١) جلسة ٢١ يونيو ١٨٦١ الجزء ١٦٣ ص ص ١٤٥٨ — ١٤٥٩

(٢) جلسة ٢٥ يونيو ١٨٦١ الجزء ١٦٣ ص ١٥٦٢

(٣) جلسة ٢٣ يوليو ١٨٦١ الجزء ١٦٤ ص ١٣٧٨

(٤) جلسة أول أغسطس ١٨٦١ الجزء ١٦٤ ص ص ١٨٢٢ — ١٨٢٣

(٥) جلسة ١٦ مايو ١٨٦٢ الجزء ١٦٦ ص ص ١٨٢١ — ١٨٢٥ ، ١٨٢٧ — ١٨٣٢

(٦) جلسة ٢٢ مايو ١٨٦٢ الجزء ١٦٦ ص ٢٠٢٢

(٧) جلسة أول أغسطس ١٨٦٢ الجزء ١٦٨ ص ص ١١٤٧ — ١١٤٩

(٨) جلسة ١٥ مايو ١٨٦٣ الجزء ١٧٠ ص ١٧٧٠

(٩) جلسة ١٢ يونيو ١٨٦٣ الجزء ١٧١ ص ٨٠٤
(١٠) جلسة ٢٨ يوليو ١٨٦٣ الجزء ١٧٢ ص ١٤٩٨
(١١) جلسة ١٨ مارس ١٨٦٤ الجزء ٢٧٤ ص ٣٠٢
(١٢) جلسة ١٢ أبريل ١٨٦٤ الجزء ١٧٤ ص ٨٧٠
(١٣) جلسة ٣ مارس ١٨٦٥ الجزء ١٧٧ ص ١٠٤٤
(١٤) جلسة ١٦ مارس ١٨٦٥ الجزء ١٧٧ ص ص ١٧٥٩ – ١٧٦٠
(١٥) جلسة ١٣ مارس ١٨٦٦ الجزء ١٨٢ ص ١٣٥

تاسعا : دوريات

أولا : جريدة شركة القناة

صدر العدد الأول منها في يوم الأربعاء ٢٥ يونيو ١٨٥٦ وكانت أول الأمر نصف شهرية ثم أصبحت تصدر ثلاث مرات في الشهر وقد ظهرت تحت أسماء مختلفة

(١) من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٦٩ كان اسمها .

L'Isthme de Suez. Journal de l'Union des Deux Mers.

(٢) من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧١ كان اسمها

Le Canal de Suez. Journal Maritime et Commercial.

(٣) من سنة ١٨٧٢ إلى سنة ١٨٩٣ كان اسمها

Le Canal de Suez. Bulletin de la Compagnie Universelle du Canal Martime de Suez.

ثانيا : La Revue des Deux Mondes.

Tome XVI. Paris. 1876.

ثالثا : مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية . (باللغة الفرنسية)

العدد رقم ٧ شهر فبراير ١٨٨٠
العدد رقم ٨ شهر مايو ١٨٨٠
العدد رقم ٩ شهر أغسطس ١٨٨٠
العدد رقم ١٠ شهر نوفمبر ١٨٨٠

رابعا : مجلة سكك حديد الحكومة المصرية (باللغة الإنجليزية)

Egyptian State Railways Magazine. November 1932.

عاشرا : المصادر العربية

١ المسألة المصرية : وضع هذا الكتاب باللغة الإنجليزية تيودور روتشين Rothstein تحت اسم Egypt's Ruin « خراب مصر » وترجمه الأستاذان عبدالحميد العبادى ومحمدبدران . وقد آثرا أن يستبدلا بهذا العنوان عنوانا آخر أخف على السمع وأقرب للمعنى فاختارا : المسألة المصرية .

الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٣٦

٢ اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار. جزءان. المطبعة الأميرية بالقاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٣١٤ هـ

٣ أمين سامى : تقويم النيل . الجزء الثالث . المجلد الأول

٤ دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس عصر اسماعيل . ١٩٥٢ .

٥ على مبارك : الخطط التوفيقية . الجزء الثامن عشر

٦ منسى القمص الشماس : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة . ١٩٢٣

حادى عشر : تقويم

لواء محمد مختار : التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية . المطبعة الأميرية . بالقاهرة ١٣١١ هـ .

لم يستهدف هذا الكتاب أغراضًا سياسية فلم تكن الفكرة التى أوحت باختيار موضوعه فى سنة ١٩٣٨ هى الرد على الدعاية الأجنبية المغرضة، ولكن كان الباعث على اختيار موضوعه هو نشر صفحة مطوية من تاريخ مصر الحديث. فالكتاب بحث علمى ينشد الحقيقة المجردة فلا يمكن أن يتهم بالتحامل على شركة القناة التى أممت ولا بالمحاباة للشعب المصرى، فالبحث يستقى مادته العلمية من مصدرين أساسيين هما: وثائق قصر عابدين، وهى وثائق لا يرقى إليها الشك فى قيمتها العلمية، ومراجع أجنبية، وهى - فى مجموعها - تستهدف دعم المصالح الأوروبية فى مصر أو ما يسمى بلغة المحاكم المختلطة البائدة نظرية الصالح المختلط.

الغلاف: صبرى عبد الواحد



الهيئة المصرية ...
٢٠...
ISBN# 9789774217294
6 221149 019683